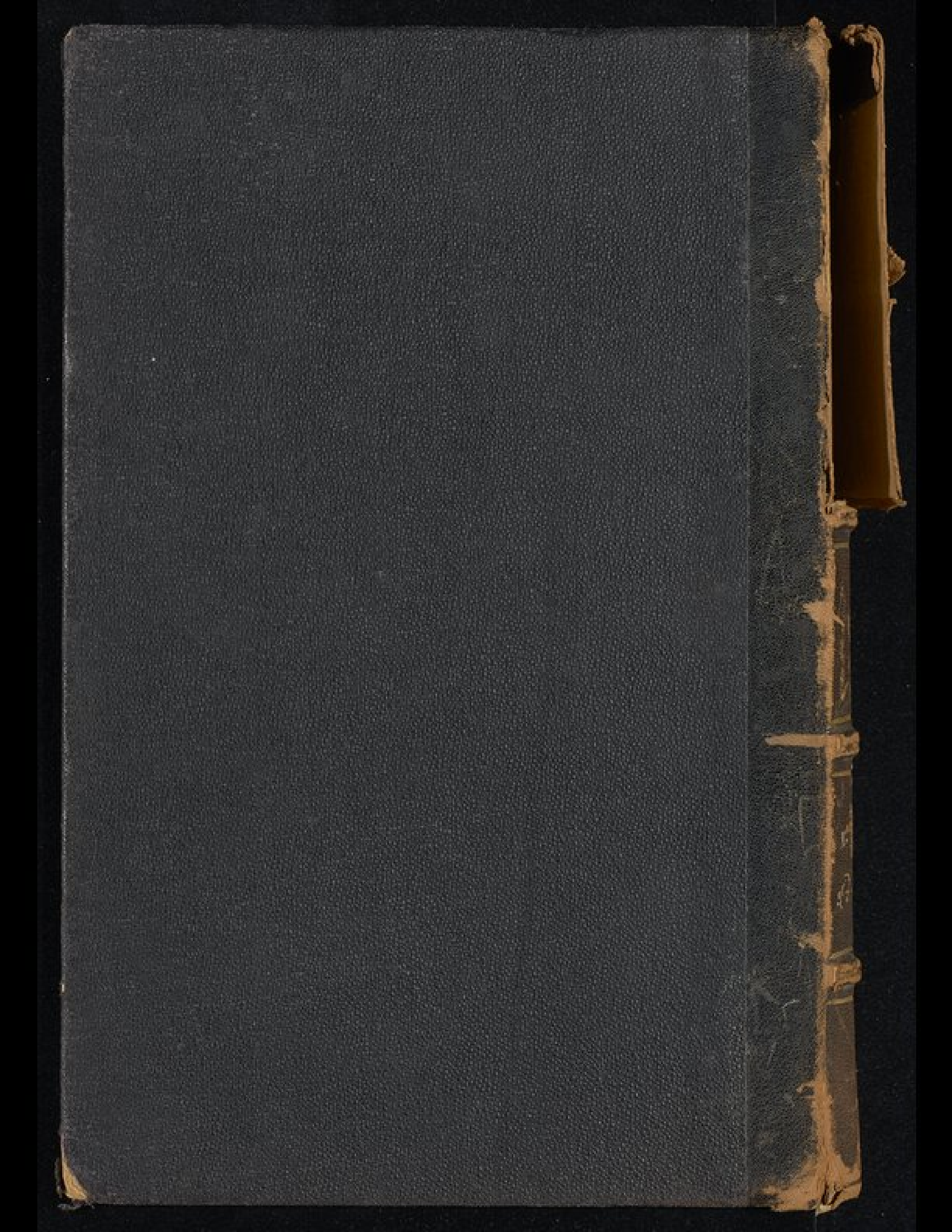


فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام



تاريخ

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

الجزء الثاني

في المنشآت

يحتوي على بعض رسائله ومقالاته التي نشرت في الجرائد ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم الديني ومدافعته عن الدين ورحلته الى صقلية وعلى كتبه ورسائله الى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنثورة

جامعه

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(بمصر)

الطبعة الأولى بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّا نحنُ نُحيي الموتى ونكتبُ ما قدّمُوا وآثارهمْ ، وكلُّ شيءٍ
أحصيناهُ في إمامٍ مُبينٍ ● (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حيٌّ
بآثاره ، التي هي مقبس أنواره ، مات الموتة الطبيعية، وحي الحياة العقلية
الروحية ، فهو لا يزال كما كان ، قبل ان يغيب عن العيان ، تنقل أقواله ،
وتذكر أعماله ، وتكتب معارفه ، وتشكر عوارفه ، ولا غرو فان للعلماء
والحكماء في هذه الدنيا حياتين — حياة جسدية محدودة تبتدىء بيوم
الولادة وتنتهي بيوم الوفاة ، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركهم فيها سائر
الناس بل سائر الحيوان — وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي تبتدىء
بظهور ثمرات عقولهم النافعة لامتهم أو لكل من يجنيها من الناس
وتدوم ما دام الزمان ، وبقي من المناظرين في آثارهم انسان ، وقد كان
الاستاذ الامام من خيرة هؤلاء العلماء ، وأفضل أصحاب هذه الحياة من
الحكماء ، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحائف ومآثره
المرسومة في ألواح القلوب ،

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن الرجل وهو نيادون
العاشرة منها (وفي نحو الرابعة والعشرين من حياته الطبيعية) تارة

يحرر الواردات الالهية في حقائق علم الكلام الاعلى ، ويسير في المزج بين عرفان الصوفية وبرهان الفلاسفة على الطريقة المثلى ، متمكناً من مقام التوحيد ، متنكباً عن مقعد التقليد ، على حين لا توحيد ولا كلام عند المشتغلين بالعلوم الدينية ، الاحكاية بعض ما قاله متأخرو الاشعرية ، وتارة يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين ، ويفيض منها على عقول المستعدين ، بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة يحبر الفصول الانشائية ، ويجلي المعاني العصرية ، في أثواب الاسجاع الحريرية ، ويزفها كالخرائد ، على منصات الجرائد ، داعياً الى استقلال الفكر ، وتناول علوم العصر ، حاثاً على ترقية الامة ، حاضاً على تجديد مجد الملة ، آمراً بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهياً عن التعصب الذميم بين المختلفين في الاديان ، فهذا مثال طور الطلب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يبتدىء في الكتاب برسالة الواردات وينتهي بالتحفة الادبية ،

ثم يتمثل لك فى طور آخر . وهو تارة بين أرباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعية وعمران البلاد ، وتارة يشرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بعقائل الفضائل وأحاسن الآداب ، بعد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليد والعادات ، يهبط على الفلاح في حرثه فيخاطبه بما يفهم ، ويعرج بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه ما لم يكن يعلم ، — وهذا هو المثال الاول لطور العمل ، من الحياة المعنوية للرجل ، يجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجل عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم يجليه لك مع أستاذه في الديار الأوربية ، متحدين على ارشاد جميع الشعوب الاسلامية ، السيد الحكيم يقترح ويدبر ، والاستاذ الامام يكتب ويحرر ، يدعوان الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ويجمعان القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها ، هنالك تجلى لك روح القرآن ، هابطة من سماء الحكمة والعرفان ، مؤيدة بالعزة والسلطان ، تطوف بتلك العروة البلاد ، وتصافح قلوب أهل الاستعداد ، فتحيها حياة جديدة ، وتجذبها الى عيشة سعيدة ، هنا لك ترى الالهام الالهي ، يمد بتأثيره العلم الكسبي ، فيصيبان مواقع الاقناع من العقل ، ويبلغان مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القارىء ما في العروة من بيان حال المسلمين ، وأسباب ما أصيبوا به من البلاء المبين ، وما تطب لدائهم ، وتصف من دوائهم ، الا وينثني أسير البرهان ، مملوك الوجدان بالاذعان ، مندفعاً الى العمل بذلك البيان ، بالجنان واللسان والأركان ، وذلك طور مستوى القوة ، وكمال الفتوة ، ومنتهى علو الهمة ، وبيع النفس والوقت للملة والامة ،

ثم يظهره لك رابضاً في الديار السورية ، يعمل لاصلاح الاسلام باصلاح الدولة العثمانية ، أو مقيما في الديار المصرية ، يبين لأولي الامر طريق الإصلاح بالتربية الدينية ، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ثاقب ، ويرمي عن فكر صائب ، يبين طبائع البلاد والساكنين ، ويجمع بين مصلحة الحاكمين والمحكومين ، ويهديهم الى الطريق القويم ، في نظام التربية والتعليم ، معرضاً باستعداده لتنفيذ العلم بالعمل ، مصرحاً بضمان تحقيق الامل ، وفي ذلك ما فيه من اعتماده على الله ، وثقته بالقوى والمواهب التي آتاه ، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح وما فيها من اشراع مناهج الفلاح

ثم يبرزه لك في طور المبارزين، للطاعنين على الدين المبين، فيتراءى لك أن قلمه أمضى من الحسام، وكَلِمهُ أنفذ من السهام، فهو بهما يكرّ ويصول، ويجندل من المجادلين الفحول، ولا ينثني الا والحق غالب على أمره، والباطل مغلوب يأرز الى جحره، وحسبك من ذلك ردّه على موسيو هانوتو في قوله في طبيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية، ثم رده عليه في مسألة الجامعة الاسلامية،

ثم يريكه يجوب الاقطار، ويقطع أجواز البحار، للنظر في آثار الاولين، واستخراج العبر منها للآخرين، فتراه في صقلية مرة يتصفح الصحف والاسفار، ويستنطق العاديات والآثار، ويقرأ ما نقش على الجدران بالعربية، لتحقيق المسائل التاريخية، ومرة يبحث عن الاخلاق والعادات، وينقب عن المنشآت والمستحدثات، يتردد بين الاديار والكنائس، والمقابر والمدارس، ثم يزف ما استفاد الى أمته، فيما كتب عن رحلته

ثم يكشف لك عنه الحجاب، وهو يراسل العلماء والكبراء والكتاب، فتارة يتلو عليك من كتبه الى حزب المصلحين، وأهل البصيرة من علماء المسلمين، ما تخشع له القلوب، وتحذر من وقعه الشؤون، فكأنك منه وقد عاد بك الاسلام، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت نفسك تتدفق غيرة على الدين، وتفيض حزناً على ماحل بالمؤمنين، فلم يبق لها هم الا ان تكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، أو كأنك معه فى عصر الراشدين، وكأنه معك أمير المؤمنين، يصول على الارواح بمواعظه الصادعة، ويختلب الالباب ببلاغته الرائعة،

ومرة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان، من رسائل الوداد الى الاصدقاء والخلان، فيمثل لك الادب الباهر، واللطف الساحر، ويصوّر

لك الوفاء في أجمل صوره ، والاخلاص في أجل مظاهره ، والصدق في الحب ، على البعد والقرب ، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته ، المستغرق في عمل الاصلاح لملته ، أديبا ظريفا ، ونديما لطيفا ، حسن الاماليح ، مليح الافاكيه ، حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

وآونة يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية ، أو المترجمين للكتب الاجنبية ، ما يرفع من أقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشحذ غرار همتك ، ويزجي ركاب عزيمتك ، الى أن تكون من زمرتهم ، وتساهمهم في مثل خدمتهم ،

وأحيانا يسمعك من تعازيه للمحزونين ، ومواعظه للمرزوئين بالاقربين ، ما يحلو به مر الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة والاجر ، ويترك القلوب مفثوءة الثائرة ، قد سكنت قدرها الفائرة ، وأنشأت تشيع الاحزان ، وتستقبل السلوان ،

ثم يختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والآثار العقلية ، بشذرات من الحكم المنثورة ، والآيات المأثورة ، فترى اجمالا ينبيء عن تفصيل ، وقليلا لا يقال له قليل ، كأنه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة ، أو عناوين لتلك الكتب المسطورة ، على أن الكتاب كله نتف من أقواله ، وأنموذج من أعماله ، وان آثاره في النفوس ، لاعظم من آثاره في الطروس ، فهو حي في الآخرة بما قدم من عمل ، حي في الدنيا بما ترك من أثر ، يمثل حياته هذا الكتاب الناطق ، وينشر خبرها الصحيح مريده الصادق ،

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

رسالة الواردات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب وجوده ، العامّ جوده ، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم ، ومن هو لأساطين الالهيين خاتم ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله ، الناشىء باقليم مصر بمحطة البحيرة بقرية تسمى محلة نصر خادم خدمة الحكمة ، المعرض عن نحو الكلام والكلمة ، المتخلي عن قيد لباس الطوائف ، الى فضاء اقتناص صيد المعارف ، اني كنت مشغلا بطلب العلوم ، فبينما انا حول الرياض أحوم ، اذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حبا ولكن لم أجد من هي له طوية ، فحرت في أمري وأخذت أجيل فكري ، وكلما سألت أجابوني بأن الاشتغال بها حرام ، أو قد نهى عنها علماء الكلام ، فتعجبت شدة العجب ، وغفلة الناقلين أعجب ، وتفكرت في سبب ذلك فرأيته ان من جهل شيئا عاداه ، ومن أخلد عن العلا يأباه ، فوجدتهم كمن علك بلسانه ورق العناب فلا يدري مرارة الحنظل ، ولا حلاوة العسل ، وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق ، فوضح لنا بها رقائق الدقائق ، بوفود حضرة الحكيم الكامل ، والحق القائم ، استاذنا السيد جمال الدين الافغاني ، لازال لثمار العلوم جاني ، فرجوناه في شيء من ذلك ، فأجاب والحمد لله على ذلك ، وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ فنلنا بذلك طرائف التحف فأومأ الينا بكليات هذه جزئياتها ، وآيات هذه بيناتها ، وذلك على فترة من الحكمة ، فكأنه غيث ارسل لاحياء تلك النعمة ، وسميتها الواردات ، في سرّ التجليات ، فأقول وبالله التوفيق

﴿واردة﴾

كثيرا ماقرع سمعك لفظ الممكن وكأنك مافهمت مدلوله أو شنفوا سمعك بان الممكن مايحتاج الى غيره في الوجود أوما لا يترجح وجوده على عدمه الا بمرجح

ونحو ذلك من الالفاظ المترادفة لكنك لاتدري خارج هذا المفهوم كسامع لفظ الماهية لا يدري على أي الافراد صدقت ، فسفينة فكره في بحر التعيين غرقت ، فاسمع قولا قليلا في ذلك لعلك تدري ان المقيد ذات مطلقة قد ضم الى تلك الذات قيد فالمقيد أمر مركب من قيد وذات مطلقة قيدت بذلك القيد، فللقيد مفهوم ، وللمقيد مفهوم، ولكل ماصدق، وللمجموع مفهوم وماصدق ، ولا يصح اتحاد شيء منها مع الآخر في المفهوم أو الماصدق، والالما صح التقييد اذ لسنا نعني بالقيد الصادق الوصف، كالناطق في الحيوان الناطق، بل نعني به مبدأ ذلك الوصف الذي يعبرون عنه تارة بمبدإ الاشتقاق وتارة بالوصف القائم فاذا نظرت الى نفس القيد ونفس الذات المطلقة وجدت كلا منهما مستقلا بالثبوت بالنسبة الى المجموع أي لو قطعت النظر عن تركبهما لوجدت لكل ثبوتاً في نفسه مفهوما وما صدقا واذا نظرت الى الكل المركب منهما وهو الذي تسميه بالمقيد نظراً ذاتيا مقطوعا فيه النظر عن شيء من الذات والقيد لم يكن له ثبوت في ذاته اذ متى قطع النظر عن شيء من الذات المطلقة وقيدها فقد انعدم المركب لانعدام الكل بانعدام شيء من أجزائه فاذاً المجموع محتاج في تحققه الى كل من المطلق والمقيد وانضمام كل منهما الى الآخر ليس المركب الا عبارة عن هذا فليس ثبوته الا ثبوت كل مع التركيب فليس للمقيد في ذاته استقلال بل هو في اعتباره مستند الى كل من الذات والقيد بل اعتباره عين اعتبارهما بخلاف كل منهما . ولنضرب لك الامثال، لكي لا يلبث(١) عليك المقال، فانظر فيما بين يديك من البيت المركب من الاضلاع الاربعة فان كل ضلع لو بني بدون انضمام بقية الاضلاع اليه لكان قائما بذاته موجودا وكذلك اجزاء الضلع المركب هو منها كالاحجار والجص مثلا فان كل واحد منها بدون ان يركب مع الآخر موجود في ذاته لا يحتاج الى تركبه مع الآخر وكذلك الجص والحجر بالنسبة الى اجزائه التي بها قوامه ولكن ليس للبيت وجود الا بالاضلاع الاربعة ولا الضلع الا بالحجر والجص مثلا ، ولا

(١) قوله يلبث لعل صوابه يلتبس

للجص بدون ما يقومه واذا وجد كل من الاجزاء منضما الى الآخر فهو المركب فليس المركب الا الاجزاء مع هيئة اعتبارية لتلك الاجزاء بل ليس المركب الا هذه الهيئة الاعتبارية أي فيكون اعتبارا من اعتبارات الاجزاء ووجودها هو وجوده لكن بقيد الانضمام على وجه خاص فافهم . ومثل هذا يقال في الامور المعقولة كالعقول والنفوس فانها ذوات منضمة الى مبدإ التمايز بينها و بين غيرها فأنت اذا نظرت الى مطلق الذات وجدت ثبوته في ذاته أي بقطع النظر عن كونه عقلا أو نفسا وكذا مبدأ التمايز لا يتوقف ثبوته في ذاته على كونه لعقل أو نفس أي يصح النظر اليه في ذاته بالنسبة الى العقل والنفس بخلاف العقل أو النفس فليس يصح اعتباره وجودا الا بوجود كل من الذات ومبدإ الامتياز وليس يصح لك ان تقول يجوز ان يكون مبدأ الامتياز هو الذات المطلقة فان هـذا ينافي التقييد بالقيد الخاص اذ المطلق لا يقتضي لذاته قيدا معينا لاستواء القيود بالنسبة اليه فلا بد من انضمام شيء اليه حتى يتميز بالمميز الخاص وذلك معلوم

فقـد علمت ان كل مقيد فهو محتاج الى المطلق والقيد فهو معدوم في ذاته فلا يترجح وجوده على عدمه الا بمرجح والمطلق الذي لا قيد فيه بوجه من الوجوه ليس بممكن اذ لا يفتقر الى موجد والا لكان قيدا له فكل مقيد ممكن وكل ممكن مقيد ولا شيء من المطلق الحقيقي بممكن فيا أيها المقيد بقيد التقليد اخلع نعليك انك بالوادي المقدس، واخرج عن غياهب ظلمات جهلك ففلق الصبح تنفس،

﴿ واردة ﴾

نسمعهم مرة: يقولون ثبوت الواجب بديهي لا يحتاج الى البرهان ثم يعارضون مع منكريه ، و يزعمون انهم ينبهون عليـه ، ومرة يقولون بأنه نظري يحتاج الى الدليل، و يستدلون عليه ببراهين مبنية على مقدمات مسلمة فيما بينهم يمجها الذوق السليم، و ينبو عنها الفكر المستقيم ، فاسمع ما ينفعك في ذلك:

من المعلوم ان الممكن يحتاج الى مرجح في الوجود لما انه ليس له من ذاته وجود كما سمعت في الفصل السابق ووجوب افتقاره الى الموجد مستلزم لاستحالة

وجوده من العدم الصرف (بيان الملازمة) ان صدور المعلول عن العلة يستدعي نسبة خاصة بين المعلول والعلة حتى يصح صدور المعلول عن العلة اذ لولم يكن بينهما تعلق وارتباط — وجميع الاشياء بالنسبة الى العلة على السواء — لكان صدور هذا المعلول دون بقية الاشياء عنها ترجحا بلا مرجح وهو محال . وأيضا لولم يكن بينهما نسبة لكانا متباينين تباينا تاما فلو وجد المعلول لوجد بدون ربط بينه و بين آخر فقد وجد بدون موجد: هذا خلف . فلا بد بين المعلول والعلة من النسبة والعلاقة الخاصة واذا قلنا بوجوب النسبة والتعلق فلأن التعلق والنسبة لا يتحقق الا بين طرفين لا بد من وجود الطرفين حتى يتحقق منشأ النسبة فلا بد من وجود المعلول مع العلة لتتحقق النسبة الموقوفة عليها العلية فقد وجد الممكن قبل تحقق العلية بالمرتبة فوجد قبل وجوده هذا خلف . و بالجملة فالبداهة قاضية بانه لا نسبة بين الوجود والعدم الصرف . وأيضا قولك بأن الشيء موجود من العدم اذا كان حقيقيا فلا بد ان يكون العدم أيناً له أومتى أوجوهراً موضوعا أومادة الى آخر الوجوديات الممكنة فيلزم وجود العدم والمعدوم هذا خلف .

فاذن حدوث شيء من العدم الصرف محال وهذا حكم بديهي قد نبهناك عليه فاذن جميع ماصدق عليه مفهوم الممكن محتاج الى علة ليست تلك العلة مباينة له بالمرة وتلك العلة تنتهي الى مرجح خارج عن ماهية الامكان وهو الواجب الحقيقي الذي هو وجوده لذاته وكل مقيد فهو محتاج اليه وهو منتهى التقييدات ومرجعها « اليه يرجع الامر كله » ومع كون المعلول ليس مباينا كذلك ليس عين العلة ولكن طور من أطوارها وشأن من شؤونها لا وجود له الا وجودها فتبين ان كل ممكن فهو اعتبار من اعتبارات علته ليس له وجود الا وجودها فاذن ليس في الوجود الحقيقي الذاتي الا ذات مطلقة واحدة لا تعدد فيها الا بتعدد اعتباراتها لا تقيد فيها بوجه من الوجوه وهو واجب الوجود فافهم . ليس في الامكان ، أوسع من هذا البيان ، وتوضيح الواضح مشكل فالحق بين يديك ظاهر فلا تشغل فكرك بإبطال التسلسل فهو محتاج الى أوهام ملء الاكوان

(تقريب) لا تستبعد أن المعلول شأن من شؤون علته فانك لست تغفل عن

كون البيت شأنا لاجزائه واعتبارا من اعتباراتها والشجرة طور الحبة وشأن من من شؤونها والامواج طور للبحر وشأن من شؤونه وهكذا جميع الامور والعجب للمتكلمين والحكماء المقلدين لما عجزوا عن الارتقاء الى درجة الكمال كيف اتخذوا الاعدام سلما لتطلع الحقيقة ويزعمون أن هذا تنزيه لحضرته ولكن نحن نقول ليس وجود الا وجوده ولا وصف الا وصفه فهو الموجود وغيره المعدوم قال الأمراء الأولون رضي الله عنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ما رأيت شيئا الا رأيت الله قبله أو بعده أو فيه أو معه كل واحد ينسب الى واحد منهم ولا يقعن في وهمك ان هذا قول بالحلول فان الحلول انما يكون بين وجودين أحدهما حال في الآخر ونحن نقول لا وجود الا وجوده

(تنبيه) أظنك في هذه الكلمات تحققت بأن هذا الواجب واحد اذ لو كان واجبان لكان كل منهما ممتازا عن الآخر والا كان عينه. وامتيازه انما يكون بقيد ليس في الآخر فيكون مقيدا فيكون ممكنا : هذا خلف. وقد يستدل على استحالة تعدد الوجود مطلقا وانه ليس الا وجود واحد بأنه لو كان هناك وجودان فإما لا امتياز بينهما فيلزم كون الاثنين واحدا: هذا خلف، وإما بينهما امتياز فاما بوجود مغاير لهما فننقل الكلام اليه ونطلب المميز عنهما وهكذا فيتسلسل وهو محال، وإما بعدم فيلزم امتياز الوجود بالعدم والعدم لا تميز له في ذاته حتى يميز غيره : هذا خلف ،ان تقل- كانك لم تعتبر التسلسل محالا كما يلوح من وجه قولك فأقول اني اعتبره في هذا المقام لا لاستحالته في ذاته ولكن لاستلزامه عدم الامتياز فانك لا تحصل ممتازا والا انتهت السلسلة فافهم - فاذن ليس هناك الا وجود واحد جزئي حقيقي لا قيد فيه بوجه من الوجوه والكل نِسَبُهُ وهذا معلوم مما سبق

(واردة)

كأنك تدرك ان الكمال هو الوجود وان النقص هو العدم فانك تعلم ان كل شيء لو بلغ غايته فيما يلزم لذاته في جميع أحواله من حيث ذاته فهو الكامل وكل مالم يكن كذلك فهو الناقص على قدر درجته من عدم بلوغ غايته فان ترتب على شيء نقص في آخر فالشيء كامل والآخر ناقص. وقيل للشيء ناقص لأنه ناقص

في ذاته ولكن من حيث لزم عليه ماهو نقص وهو العدم وذلك سهل عليك تحصيله فان أوردنا المثال بطول المقال والمقام ضيق

اذا تحصل عندك هذا فقد عرفت ان كمال الشيء بقدر ماله من جهات الوجود ونقصه بقدر ماله من جهات العدم فهلا تحققت من هذا ان ماهو وجود الكل الذي لا وجود الا وجوده وكل ماسواه عدم هو الكمال لذاته حيث لا عدم له في شيء من جهاته وان كل كمال فهو بروز كماله وكل نقص فهو عدم والعدم غيره فهو الكمال وغيره النقصان « تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام — سبحان ربك رب العزة عما يصفون »

ولعلك تميل الى التنزل عن هذا المقام فنقول وصف شيء بشيء يقتضي ان يكون ذلك الشيء منشأ لذلك الوصف أو في ذاته ماهو كذلك وذلك لان جميع الصفات بالنسبة الى جميع الذوات من حيث هي صفات وذوات مستوية فما لم يكن في ذات مقتضي صفة لا تتصف بتلك الصفة والالزم اتصافها بجميع الصفات والترجح بلا مرجح وصفات إما ذاته أو في ذاته والثاني باطل لعدم التركيب فيه فمنشؤها ذاته فهو كامل لذاته بل كمال لذاته وحديث الغير باطل لا يسمع اذ لا غير الا منه فكيف يرجع المعلول على علته بالعلية

(واردة واجب الوجود عالم)

لما أشرقت في قلبك أنوار وجوده وانه الحق وكل ماسواه محتاج اليه في الوجود وكلٌ من ظهور ذاته فيجب لك بذلك ادراك انه عالم وذلك لما تراه الإحكام والترتيب وملاحظة الدقائق ورعاية المصالح كما هو مشاهد في كليات العالم وكما تعلمه اذا اطلعت على علم تشريح الحيوان والنبات وطبقات الارض مما يطول شرحه وفي ترتيب المسببات على اسبابها ، فأعطى كل شيء حقه ، وأنزله منزلته ، اذا نقص السبب نقص المسبب واذا كمل كمل واذا زال زال فلا يليق بك مع شهود هذا الإحكام ان تنكر علمه (وأيضا) هلا تبين لك فيما سبق أن مظاهر الممكنات طلسم ذاته وصفاته الا وان العلوم من الممكنات الظاهرة فهي

طلسم لعلمه الحقيقي فعلمك طلسم وعلمه باطنه فهو العالم وعلمك على ذلك شهيد والعالم بغيره أولى ان يعلم ذاته (وأيضا) لما كان الحق هو الوجود من كل جهة والجهل عدم محض فيستحيل عليه الجهل ويجب له العلم فهو العالم بذاته لذاته وكل ما نشأ عن ذاته

(واردة)

قال مقلدو الحكماء واليه ذهب رئيسهم ان علم الباري تعالى بالكليات بارتسام الصور في ذاته فنقول ان قلتم بان العلم هو نفس تلك الصور (أولا) يلزم أن يكون علم الباري تعالى زائدا على ذاته وهو من كمالاته فيكون الباري كاملا بغير ذاته والكامل بغيره ناقص لذاته (وثانياً) لا يصح لعاقل فضلا عن حكيم ان يقول ان مجرد الصورة فى شيء علم ذلك الشيء بصاحب الصورة والا لكان الجدار عالما بالاسد المرسوم صورته عليه (وثالثا) هذه الصور أمر طارئ على الذات أي زائد عليه فاما قديمة بالذات وهو محال لاستحالة تعدد واجب الوجود واما حادثة عن الذات فيلزم ان لا يكون الذات عالما قبل تلك الصور بالمرتبة فقد كان الجهل جائزا عليه لذاته مستحيلا لغيره . وأيضا يلزم قيام حوادث لانهاية لها بذاته تعالى وأيضا هذه صور على أنحاء شتى بنظام وترتيب معتبر تستدعي علم صانعها فيلزم ان يكون عالما قبلها بها . هذا خلف . على انه لو كان عالما قبلها فاما بصور لتلك الصور وننقل الكلام وهكذا وهو ظاهر البطلان واما بعلمه بذاته الذي هو عين ذاته لاستدعاء العلم بالعلة العلم بالمعلول فليكن علمه بالكليات كذلك وان قلتم بان علمه شيء آخر غير تلك الصور فان كان غير ذاته نتكلم فيه مثل الاول وان كان علمه بذاته فلا معنى للقول بارتسام الصور في ذاته تقدس عن ذلك

واردة في علمه بالجزئيات

لما كان تحقيق الحق موقوفا على نفي ماعداه أردنا نقل ماوصل الينا من المذاهب في تلك المسألة فنقول كثر النقل عن الشيخ الاشعري رضي الله عنه في ذلك ومع ذلك ماتقرر (١) نقل الناقلين على شيء يعتمد عليه فى ذلك بل كلما نقلوا

(١) لعل الكلمة (استقر)

نقلا أكثروا فيه من القيل والقال واختلفوا في فهم معناه ونحن نأخذ بما اشتهر
من مذهبه وهو أنه يعلم الجزئيات فنقول ان أراد أنه يعلمها بوصف الجزئية فذلك
انما يكون بعد وجودها الخارجي اذ الشيء مالم يوجد في الخارج لم يتشخص
والصور العقلية وان قيدت بألف قيد لا تمنع الصدق على كثيرين فهي كلية فإن
كان علمه كذلك أزليا (أولا) لزم عليه ان تكون جميع الجزئيات الحادثة موجودة
في الازل وهو باطل (وثانيا) مجرد حضور الشيء عند الشيء لا يكفي في كونه عالما
فلا بد من طروء شيء من المعلوم على العالم حتى يدركه وذلك الطاريء هو الصورة
فتكون تلك الصورة مرتسمة في ذاته وهو مستلزم لكون ذاته ذا طول وعرض
حتى يكون محلا لصور الماديات التي هي كذلك وإن لم يكن علمه أزليا بل بعد
وجود الحادث (فأولا) يلزم جهله به قبل وجوده (وثانيا) يلزم عدم ارادته في خلقه
لعدم العلم اذ الارادة من توابع العلم مالم يكن لم تكن (وثالثا) ماتقدم من كون ذاته
ذا طول الخ وكل ذلك محال. وان أراد انه يعلمها لا على وصف الجزئية بل يعلم انه في زمن
كذا عند حادث كذا يوجد ذات كذا بصفة كذا فهذه التصورات انما تكون بارتسام
الصور في ذاته فان كانت حادثة بالحدوث الزماني فيلزم ان لا يكون عالما قبلها وطروء
الحادث على ذاته وهما محالان (وأيضا) هي مخلوقة له مسبوقة بعلم ويكون بصور أخرى
فننقل الكلام اليها فيتسلسل. وان (كانت) قديمة بالزمان فان كانت قديمة بالذات
أيضا لزم مالا يتناهى واجب الوجود وان كانت حادثة بالذات مستندة اليه في الوجود
فيلزم قدم حوادث غير متناهية غير الذات والصفة وهو خلاف مذهبه (وأيضا)
لا بد في خلقها من الارادة الموقوفة على العلم فيكون عالما بتلك الصور أيضا قبل
خلقها ويكون ذلك بصور أخرى وننقل الكلام اليها فيتسلسل فان تجاوز عن
هذا كله وقال ان علمه ليس بالارتسام فقد قال بعلم ذاتي هو عين ذاته وهو علمه
بذاته وقد برهن هو على بطلانه والله أعلم

وقال مقلدو الحكماء انه يعلم الجزئيات بوجه كلي أي بمثل ماتقدم في الترديد
الثاني من قول الاشعري ومثلوا له بعلم المنجم بأنه في سنة كذا في ساعة كذا في
درجة كذا يحصل كسوف وهو لا يقع الا جزئيا وان كان في تعقله كليا اذ الشيء

مالم يوجد في الخارج لايتشخص وان قيد بغير المتناهي من القيود و يلزم على هذا المذهب على الشق الثاني من ترديد قول الاشعري فانهم قائلون بأنه بارتسام الصور

وذهب الصوفية الى ان جميـع جزئيات الممكنات حاضرة لديه في الازل موجودة بوجودها الخارجي قائلين بأن الزمان شأن من شؤون الحق وجميع الكائنات الداخلة تحت حكم الزمان موجودة في ذلك الزمان بمنزلة النقاط المرسومة على الخط المستقيم ولما ظهر الحق بهذا الشأن الواحـد فقد ظهر بجميع مافيه فالكل موجود عنده حاضر لديه منكشف له واستشهدوا لذلك بانه كما أن نسبة جميع الامكنة اليه على السواء فكذا نسبة الازمنـة اليه على السواء ليس عنـده حال ولا ماض ولا استقبال وانما نحن لاندرك ما يأتي وما مضى ادراك الحال لقصور نظرنا كنملة تمشي على خيط ملون بألوان مختلفة فهي لاتدرك لونا حتى تتجاوز اللون الذي قبله لقصور حاستها عن الاطلاع على جميع الالوان دفعة وهي تظن بان هذا حادث وذاك انعدم مع انا نراه دفعة فكذا نحن . وهذا المذهب الذي حمل عليه صاحب المحاكات مذهب الحكماء في قولهم يعلمها على وجه كلي فقال أي لا يعلمها معدومة ثم موجودة بيضاء ثم سوداء وهكذا بتجدد في علمه بل يعلمها على تغيرها دفعة ومثل بهذا المثال واستشهد بهذا الاستشهاد وكأنه قول انما يحكم صريح العقل بخلافه اذ كل عاقل يحكم بأن اليوم المستقبل معدوم الآن موجود فيما بعـد بجميع ما يحدث فيه في طرفي الوجود والعدم وليس هذا بمنحط عن درجة السفسطة مع أنه لايسلم من القول بالارتسام والتمثيل والاستشهاد في بون بين المستشهد والممثل له ولنرجع لتحقيق الحق فنقول

أنت تعلم انه لما لم يكن وجود الا لذاته فحقيقته حقيقـة الحقائق وذاته ذات الذوات وجميع ماتتوهمه انما هو من الاعتبارات لتلك الذات فلا بد أن تقول ان علمه عين ذاته وهو عـين علمه بذاته وهو علم بجميع شؤونه وأطواره وان جميع ما تشرف بالبروز فانما هو تجلي مافي العلم ولكن لضيق ظرف الخارج عن ان يسع المراتب الغير المتناهية التي يقتضيها على حسب ما لكل شيء في ذاته حصل الترتيب في التجليات فكما أن ذاته واحدة بالذات، والكثرة انما وقعت في عالم التجليات،

فكذا علمه بالكل واحد بالذات، وكثرته في عالم التجليات، فما برز في الوجود الا ما كمن في العلم الذاتي ولا فصل الا ما أجمل فيه فهو العالم بكل شيء «لا يعزب عنه مثقال ذرة» فدقق النظر واياك ان تحجبك الكثرة عن ذات الوحدة فان البحر لو علم بذاته فليس يحتاج الى علم آخر يعلم به أمواجه وهذا قد يوافق من وجه قول من قال ان العلم قديم وتعلقه حادث ولكن قد ضل عن سواء السبيل، فوقع في تيه الاباطيل، وأيضاً يقرب مما يقال ان للاشياء وجودا علميا ووجودا شهوديا ومما يقال ان للشيء وجوداً بحسب ذاته ووجودا في ذات العلة فتفطن وطبق ان كنت من أهل النظر

﴿ واردة ﴾

كأني بك اذا التفت لنفسك وقد وجدت علمك بنفسك عين نفسك وهذا غير عسير ثم دققت علمت انك لا تدرك غير نفسك فان الادراك ان كان هو مجرد ارتسام الصور فقد تكرر غير مرة انه لا يصح موجبا للعلم وان كان الانفعال بتلك الصور فهو هو أو قريب منه وحكمه حكمه فليس الادراك الا تجلي نفسك بالصور على حسب الاستعداد فادراكك لنفسك في تلك الحالة ادراك لتلك الصور بعينه فادركت نفسك بنفسك وما أدركت خارجا عنك ولكن بالتجوز تقول أدركت زيدا الخارجي ولكنك ظهرت بمطابقه فقلت ظهرت به وهذا دقيق فافهم

﴿ واردة ﴾

كأنك فيما ألقي اليك أدركت ان الحق مريده في تشاء به (١) ولكن ليس يشتاق و يتفكر ثم يوجد على حسب ما يؤدي اليه فكره بل ارادته عين فعله أي لا يتخلل بين الارادة والفعل (١) «انما أمرنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون» «انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون» فانظر الى حصر الامور في الفعل في جواب الارادة أي ليس لنا شأن من الشؤون المتعلقة بذلك الشيء اذا أردناه الا قولنا

(١) كذا في الاصل ولعل في الكلام تحريفا وحذفا

له كن وذلك كما اذا تصورت زيدا الذي تعرفه من قبل فتصوره فعل من أفعالك ومرضي لك ومراد ولكن ماتعلقت ارادتك بتصوره ثم فعلت ذلك التصور بل ان فعلك ذلك تجلي ارادتك فمعنى كونه مريدا انه لاجابر له بل تجليه عن علمه مرضي لذاته لايقع في ملكه الا مايريد فتأمل فليس مايفهمونه فى الارادة ينبغي في حضرة الالوهية

﴿ واردة ﴾

الحق جواد أي يعطي كل شيء ماينبغي له من حيث انه ينبغي أي ينزل المراتب منازلها «أعطى كل شيء خلقه» فلا يفيض في مرتبة ماتستحق أخرى ولا يحجب عن مرتبة مالها في ذاتها وذلك على حسب ماتقتضيه مراتب التجلي في عالم التنزلات وهذا لايخفى عليك من المباحث السابقة والقوم قد وقع النزاع بينهم في أفعاله تعلل بالاغراض أم لا وكل من الطائفتين أيد مايدعيه ولكن الجمهور على انها لاتعلل والالزم ان يكون للباري غرض لايتم الا بغيره فيحتاج الى الغير في اتمام غرضه بل هو يفعل بدون غرض فلما أورد عليهم انه يلزم ان يكون عابثا أجابوا عن ذلك بأنه وان لم يلاحظ الغرض ولم يكن له باعث على الفعل لكن جميع أفعاله لاتخلو عن الحكم والمصالح .والعجب لهم كيف دفعوا العبث بهذا مع انا نعلم ان من لعب برجله بدون قصد شيء فترتب على ذلك موت ثعبان مثلا فهو عابث لايقال له أحسنت وفعلت صوابا . ومن غرائب الاتفاقات ماوقع في بعض البلدان الشمالية انه اجتمع خمسة سراق فى محل ليسرقوا منه فسمعوا صوت صبي داخل بيت في تلك الدار فأخرجوه خوفا من ان يوقظ أهله صياحه فوضعوه في صحن الدار فصاح فاستيقظت أمه وأيقظت أباه وخرجا لاجل الولد ثم دخل السراق البيت فأخرجوا المتاع الى الصحن أيضا ليأخذوه فلما دخلوا لاخذ مابقي من المتاع انهدم البيت عليهم فهلكوا جميعا ونجا أهل المنزل مع غالب أمتعتهم فهل يقال لهؤلاء السراق انهم حكماء محسنون وهذا الفعل من جميل أخلاقهم حيث أنجوا هؤلاء من هلاك الهدم وترتب على فعلهم هذه المصلحة الكبيرة؟ كلا بل لايقول به عاقل فليس الامر الا كما سمعت فوجود

ذاته عين الحكمة والغرض لذاته فلاتكن من الغافلين

﴿ واردة كيف بدأ الله الخلق ﴾

من القضايا الاولية ان الطفرة محال أي كونك في مكان لم تكن فيه لايمكن طفرة أي بدون قطع مسافة على أي وجه كان من المكان الذي كنت فيه الى مالم تكن فيه والالازم عدم المسافة و كونك فيه قبل كونك فيه . وهكذا في كل شيء له بداية ونهاية لايمكن الوصول الى الغاية الا بقطع المراتب المتوسطة ومنه اللطف والتكثف والقلة والكثرة والاطلاق والتقييد ونحو ذلك فان الكثرة لايمكن تحققها الا بتحقق آحادها ولايخفى عليك مثل هذا البديهي غاية الامر انه يتفاوت القطع بالسرعة والبطء ، فاذن الارتقاء من مرتبة الاطلاق الى أقصى مراتب التقييد لابد فيه من قطع مراتب التقييد الى أن يصل الى أقصاها والالازم عدم المراتب والفرض وجودها كما علمت من ثبوت المبدإ والمنتهى ، ولما تبين لك ان الاكوان شؤون الوجود ودرجات تنزله وأطواره فاعلم ان تنزله الى غاية التقييد من مرتبة غاية الاطلاق لابد فيه من قطع مراتب التقييدات التي بين المبدإ والمنتهى فقد وقع التجلي على مراتب التنزل الالطف فاللطيف وهكذا الى آخر مراتب التنزل وهو العالم الهيولاني الطبيعي فجميع المراتب التي قبل هذا العالم هي التي نسميها بالملائكة والسرادقات ونسمي البعض عقلا والبعض نفسا وهكذا فكل مرتبة طلسم للتي قبلها والتي قبلها حقيقتها و باطنها والقائم بها الى حقيقة الحقائق وأقربها الى الوجود هو المسمى بالعقل لما انه امام جميع التعينات وملتقى فيضها من المبدإ الاول وفي كلام الحكيم الالهي صلى الله عليه وسلم «أول ماخلق الله تعالى العقل» وباقي المراتب قبل الناسوت هي النفوس الكلية وأشعتها المنبثة عنها فى المراتب العرضية هي النفوس الجزئية وهذا هو المسمى بعالم المجردات .

ثم على حسب ماوصل اليه نظرنا وانتهى الينا من حضرة الحكيم الالهي ان النفوس الكلية المربية لعالم الناسوت الظاهرة فيه على ماتقتضيه مرتبته في التنزل أربع نفوس وهي الحاملة لعرش الرب الذي هو هذا العالم وهي (نفس ميكائيلية) وهي التي تركب كل ذرة من ذرات الوجود مع الاخرى لأمر يقتضيه وهذا هو

الرزق العام ومنه الجذبات العمومية الكائنة بين ذرات الوجود (ونفس اسرافيلية) وهي التي بها حصل الحياة فى كل ذرة من ذرات الوجود ومنها فيض الحياة العام (ونفس جبرائيلية) وهي المفيضة للادراك فى كل ذرة من ذرات الوجود (ونفس عزرائيلية) وهي القابضة روح الحياة عن بعض ذرات الوجود لامر يقتضيه المحللة لبعض الأجزاء عن بعض المحلية لبعض المراتب عما كان له كل ذلك في كل شيء بحسبه ثم إنه كما يحصل ذلك في الذرات الجزئية يحصل في المركبات ومن ذلك قبض حياة الحيوانات بالنفس العزرائيلية ورزقها بالميكائيلية وحياتها بالاسرافيلية وإدراكها بالجبرائيلية

والمرتبة الجبرائيلية كما حصل التعليم منها للكليات والجزئيات قد يحصل منها التعليم الظاهري كما حصل ذلك لبعض القديسين مثل الانبياء وهذه المرتبة كثيرا ما جاء ذكرها على الألسنة الإلهية خصوصا على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء انه رآه وقد سد الأفق وليس هذا الارمز لما قررناه ، واشارة لما أوضحناه ، ولا تستبعدن مثل هذه الافكار فانه قد تكلم قوم بالسيال الكهربائي في العالم وليس يظهر الا آثاره وهو كلام حقيقي مبرهن فقل أنت بالسيال الروحي فى العالم

وليست هذه المراتب متباينة متفارقة بل كل شيء في كل شيء ولفظة في ضيق عبارة ولنرجع الى اتمام مانحن بصدده فنقول

فلما انتهت مراتب التجلي الى عالم الناسوت وقد كنت تعلم ان التنزل ليس الاعبارة عن تنقل الوجود فى الاطوار ولست تدرك منه الا الحركة ولكن لست تعلم كيفيتها والباطن حقيقة الظاهر والظاهر تجليه فبرزت جميع المعنويات في الحسيات في هذا العالم الحسي على ما تقتضيه مراتب التجلي فكانت الحركة اللاكيفية حركة كيفية فبرز هذا العالم شيئا واحدا بسيطا ليس فيه تجزؤ ولا تركيب وهو الذي يسمونه بالهيولى ثم بواسطة هذه الحركة اللازمة بالترتيب حصل في ذلك البسيط جزر ومد وفتق بعد رتق فمنه اللطيف والكثيف والمتفاوت في المرتبتين ووقعت كل كرة حيث أدت بها الحركة كيف كانت ولم يزل هذا العالم متحركا بهذه الحركة لكنا لا ندرك الا حركة الجزئيات الحاضرة بين أيدينا لانا لسنا كل العالم حتى ندرك حركته الكلية فالحركة واحدة ونراها متكثرة بتكثر أجزاء

المتحرك ومن ثم لانجد إلا متحركا ولا حادثا الا عن حركة وذلك لعدم توقف الفيض في لحظة من اللحظات لعموم الجود وكان العالم في الترقي على حسب تقادمه في الوجود وهذا من مقتضيات الترتيب وقد علمت ما يحتاج اليه العالم في نظامه العام من النفوس الكلية أما النظام الخصوصي لكل ذرة أي المبدأ القريب لهذا انما هو بالنفوس الجزئية المنبعثة عن النفوس الكلية فلا تزال الكلية في تربية الكل والجزئية في ترتيب الجزء حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا

ولعلك على ما تحققت من لزوم الترتيب في عالم التركيب تقول ان أول ما ظهر في هذه الكرة النباتات على تفاوتها في الدرجات من متناقص الخلقة جدا ثم يتكامل شيئا فشيئا حتى انتهت الى غايتها ثم الحيوانات كذلك ثم نتيجة الكل وغاية منتهى السير هو الانسان ثم كذلك تتفاوت مراتبه في الوجود من غاية التوحش الى أدنى منها ثم وثم ولا يزال هكذا وقد نطق بهذا كتابنا وأشار اليه في قوله « والله أنبتكم من الارض نباتا » فهذا قليل تستغني به عن كثير واجمال يغنيك عن لبس التفاصيل

﴿ واردة ﴾

قد تبين ان الحق فياض مطلق ينزل كل شيء منزلته التي يجب ان يكون عليها في ذاته ولما أوجد هذا النوع الانساني جعل فيه ادراكات واخلاقا على حسب لوازم فيه وآلات تقتضي ذلك بحسب النوع . ثم ان الآلات الجزئية تقتضي الاختلاف في الاقتضاء على حسب اختلافها في الاشخاص بالعوارض الطارئة على الحقائق الناشئة عن الاسباب الجزئية في هذا العالم فكان اللازم على اختلاف الاخلاق وتباين الآراء على حسب ما تقتضيه تلك المراتب الشخصية أن يأخذ كل طرفا غير الذي يأخذه الآخر و« كل يعمل على شاكلته » ومن مقتضيات هذا التنافر أن يترتب عليه النزاع اذ ينازع البعض البعض الآخر في قصده، و يذوده عما هو بصدده، فيلزم يغلب البعض وقهره البعض الآخر وهو منشأ الفساد والفتن لوقوع العداوة بينهم بذلك فينشأ عنها المحاربات والمقاتلات الذي ينشأ عنها فساد هذا النوع . ثم لاستغراق في عالم الحس الذي هو مقتضى رتبة هذا العالم يستلزم الغفلة عما

يأول إليه أمره بعد مفارقة هذا العالم فيبوء بظلمة الجهل وضيق كدرة الاخلاق ورذائل الاعمال كل ذلك على حسب ما تقتضيه مراتب الوجود في هذا العالم الطبيعي

ولما أمدهم الحق بما فيه اصلاح أبدانهم من جميع لوازم تعيشاتهم وبما فيه بقاء هذا النوع من الاستيلاء ولزم ان يمدهم من جوده وفيضه بما يكون سبباً في تربية عقولهم وتزكية نفوسهم وطبيباً لبواطن أمراضهم بأن يبعث فيهم منهم ذا نفس قدسية مطهرة عن جميع شوائب الغفلة منكشفة لها الاسرار والحقائق على وفق الحكمة بأصل الفطرة لا يحتاج فيما يقصده الى الفكر والنظر، وحيه من نفسه زكي الاخلاق، رفيع الهمة، قد بث فيه شوق خلقي ونور جبلي الى تربية من أرسل اليهم، يفدي بروحه لذلك، ولا يبالي في هداية شخص باقتحام المهالك، قد جلس على منصة البلاغة، حتى يحكم بالبيان ابلاغه، فتكون اخلاقه ميزاناً لاخلاقهم، واعماله ميزاناً لاعمالهم، وذلك انما يكون على حسب احتياج النوع لذلك بقدر الاستعداد، واستحكام مواد الفساد، فهذا الشخص المتصف بهذه الصفات هو النبي.

ولما بلغ العالم الى درجة (١) في اكتساب المعلومات ووجوه المعارضات وجالوا في ترتيب الافكار، وكانوا في استعداد للتنبه والاستبصار، بعث فيهم نبياً كاملا عمومي الفكر صادق اللهجة في أعلى طبقات الكمال وختم به الأمر وتم لعدم احتياجهم الى غيره اذ كلما تقادمت الازمان قويت دواعي العرفان وقد تبين (٢) لهم اجمالا ينبئ عن تفاصيلهم قد أحاط بجميع مهماتهم على اختلاف أحوالهم في اعصارهم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه

ولا يخفى على العاقل ان مثل هذا الرجل الكامل لابد منه في عالم الوجود لهذه التربية على ماهو مقتضى العالم وترتيبه على الاسباب والمراتب ومن لطائف الوقائع ماوقع للفاضل الاستاذ (٣) في الاستانبول مع جماعة من الطبيعيين وقد كانوا يسخرون بالانبياء وذلك انه قال لهم يجب على من أنكر الألوهية فضلا عمن أثبتها الاعتقاد بالنبوة وذلك لأن الطبيعة قد اقتضت للشخص كبدا وقلبا وروحا لأجل بقاء وجوده واقتضت أمورا مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب لكماله

(١) لعل الاصل درجة عالية او درجة الكمال (٢) لعلها بين (٣) يعني السيد جمال الدين

في وجوده واقتضت للنوع آلة تكون سببا في بقائه والأسباب كثيرة فاذا لم يكن هذا الرجل الكامل لهذا العالم بمنزلة الروح للشخص فهلا كان مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب وهدب الاشفار ونحو ذلك فسكتوا وقبلوه

هذا لسان الحكيم في هذا الباب و بلسان آخر تقول لما حصل للوجود في مراتب تجلياته بعد عن نفسه في مراتب تجرده تجلى من نفسه لنفسه بتجلٍ يدعو نفسه لنفسه على ما يقتضيه التجلي وليس ببعيد بل كما يشاهد فينا من زجر انفسنا لانفسنا وحثها إياها وفيض هذا التجلي بالالتفات الى مبدئه الحقيقي فاذا استغرق في دعوة التجليات، حصل له الالتفات عن عالم المجردات ، فتفكر واستشار . ولما تنفس صبح الحقيقة والناسوتيون في سنة من جهالتهم بعث مناديا :هلموا الى النجاح، فقد طلع الصباح ،: فالناس في الاجابة على اختلاف درجاتهم في سنة الغفلة ، ومن استيقظ من غفلته، واستنار بشمس حقيقته، تاب عن الداعي في دعوته، لهذا تم العقد برسالته، وهو لسان التصوف

﴿ واردة ﴾

لعلك فيما سبق تنبهت الى أن المجرد ليس محتدا للتغيير والتبديل والكون والفساد لتنزهه عن الحركة الحسية المقتضية لذلك فالنفوس الناطقة الانسانية باقية ببقاء الوجود . ولما كان الوجود في جميع مراتبه فعالا فللنفس الناطقة من الافعال على حسب رتبتها وهو في بدنها ليس الا التدبير اما بعد مفارقتها البدن الانساني فافترقت الطوائف في حكمها (فمن قائل) بأن النفس ليس لها حالة الا وهي مدبرة للبدن الانساني فلا تتدنى عنه الى الحيوان والنبات ولا تفتر عن التدبير وكلما خلق ثوب لبست آخر من هذا النوع بعينه فهو مظهر خيرها وشرها وعذابها ونعيمها

ومن قائل بأنها اذا تعطل البدن ظهر لها ملكاتها وادرا كاتها فكان لها بذلك إما الحزن والاسف واما الفرح والابتهاج فلا تتعلق ببدن مادامت تلك الملكات فيها فاذا زالت تلك وصارت ساذجة تعود الى تدبير النبات وتترقى الى الانسانية وهكذا لشوقها لمرتبتها من التدبير لهذا العالم

ومن قائل وهم الحكماء ان النفس قد تفارق هذا البدن الى غير النهاية ولما كان الحق في جمع مراتبه فعالا كما سبق وكان للنفس بذلك رتبة الفعل

فتمام ظهورها يكون في عالم التعقل والتخلق كولد سلطان يشتاق الى مرتبة أبيه ولكن لقصوره ينزوي الى بعض الجهات ويظهر سلطنته فيها وبه يتسلى ويكون متلذذا مبتهجا يعزل ويولي ويعز ويذل فكذا النفس في عالم التعقل والتخلق فان أصلحته ورتبته على ماهو عليه كانت بعد فراق البدن وجودا في علاها متلذذة بمرتبتها مبتهجة بسلطنتها وعلى قدر النقص في ذلك يكون العذاب والألم

ومن قائل وهم الصوفيـة ان الحق لما نادى شؤونه على لسانه النبوي الى الدخول في حضرته أمرهم ان يتلبسوا عند ذلك بملابس تليق بتلك الحضرة وان يتخلوا عن غير ذلك فمن فهم الرمز وحل اللغز وفني بالفناء المطلق واتصل بحضرة الجود ، ولم ير الانفس الوجود فلذته نور الوجود ،وهو (ما) لاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب أحد . ومن نظر الى ظاهر الحال ، وعمل بما فهم من مدلول المقال ، غرست له في أرض نفسه أشجار النعيم ، فكل عمل عمله برز له عند خراب البدن لذائذ على حسب ما كان يعهد ويتلذذ وكان له من ذلك الحور والولدان ، والاساور والتيجان ، ومن توجـه نحو الطريق ، ولكن غفل عما يروم الفريق ، وتقاعد عن السير ، ولبس ملابس الضير ، ظهرت له تلك النقائص حيات وعقارب وسلاسل واغلالا ، ولا يزال كذلك حتى يتقدس فيكون أحد السابقين. ومن أعرض عن الطريق بالمرة ، وشغل بالاغيار عن تلك الكرة ، فهو لا يزال معذبا بظهوره ، متألما بفجوره ، فاذا هبت عليـه نسمة من نسمات الرحمة واللطف كان العذاب عذبا ، والرجيم ربا

﴿ خاتمـة ﴾ هلا تفطنت فيما أدرجت لك في هذه الاقوال الى انه وقع الصلح بين الطائفتين العظيمتين في ان الافعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبيد فانه لاتخالف بينهما في الحقيقة فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل والوجود في جميع مراتبه مختار والحمد لله رب العالمين وحده

قال مؤلفها تم تبيضها يوم الاربعاء سادس عشر شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الألف اه

المقالة الأولى ـ التربية

في ليلة الأحد الماضي انعقد درس الاستاذ جمال الدين الافغاني وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم وكثير من الافندية مستخدمي الدواوين بمحضر هؤلاء وأولئك شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة ومايلزم ان يسلك من سبلها ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية تعميما للفوائد وبيانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد قال مامعناه:

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم ان قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لايتميز أحد تلك العناصر بالغلبة علي باقيها غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي مايسمى بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة فإن غلب أحد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ماسواه منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي الى اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لتتم حكمة الله تعالى في بقاء الأنواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية فالنباتيون يعينون الأراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لابد منه في تربية النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وما ذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الأهوية ومنافعها ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية

النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طبيبا يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها، ويميز نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها ومايلائم كل واحد على حسبه وخبيرا بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتاريخهامن قدم وحدوث حتى يعالج كلاً بما يليق به فإن جهل من ذلك شيئا كان فقده خيرا من وجوده فإن الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجهله يستعمل من الأدوية ماعساه يهيج المرض ويمنع من الاغذية مايساعده على قسوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه. وكما يلزم للطبيب ان يكون عالما بجميع ما قدمنا يجب ان يكون شفيقا رحيما صادقا أمينا لايكون قصارى عمله مايناله من جُعل المعالجة فإنه ان كان قسياً عديم الرأفة أوكان خائنا فلربما صار آلة في أيدي اعداء المريض يستعملونه لهلاكه بإلقائه السم في الادوية مثلا أو اهماله في العلاج بمايقدمونه اليه من العرض الفاني وكذلك ان قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم فإنه ان كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفى أجر عمله فإن هلك فقد نال مايزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فعدمه أيضا خير من وجوده

وكما ان روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة فإن تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقيا سيء الحال وسقط في مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك. ألا ترى ان النفس الانسانية لابد لها من خلق الجرأة وخلق المخافة وهما متضادان ومن مقاومتهما على وجه

معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع تحقق الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعا وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته ولو ان الجرأة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهورا وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوي الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه. وكذلك لا بد من خلق الامساك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء وهي البذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا ولو ان الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لامسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلا فيضر ببدنه ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدى به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفاسد البخل التي لا تنحصر ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا لا يجد ما ينفقه في ألزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي واسطة لطرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك. وكما يقع الفساد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضا بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقلدها بعاداتهم أو باستماع إغواء ذوي الاهواء وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد

وبيان مفاسد الأخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال بمنزلة الاطباء وكما لزم للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والأرواح اذارقي منبر الارشاد ان يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بإرشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضا وأن يكون مطلعا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الازمن وان يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وانه حديث أوقديم قوي في النفوس أوضعيف وماهو العلاج اللائق بكل صنف. وكما انه يجب على الطبيب البدني ان يكون على علم تام بمنافع الأعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق مافي نفس الامر والواقع. وكما يلزم ان يكون الطبيب شفيقا رحيما صادقا أمينا لاينظر الى الدنايا ولاينحط الى المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين ان يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولي مقاصد عالية لايبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فأن رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزئت بطبيبن لاأطباء بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء والسفلة والادنياء فأنذرها بالعناء والشقاء فإن المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل ويغرس فيها جراثيم الشر باسم انها أصول الخير وربما كان مقصده حسنا ولايريد الاخيرا ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ويبعده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فإن ذا الثاني على باب الفضيلة لايلبث ان فتح له ان يلجه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستقر تحت نقع الرذيلة واعتقد ذلك ظلا ظليلا فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيرا من وجودهم وكذلك ان كان خائنا أودنيئا ينحط الى سفاسف الامور أوعدم الشفقة والانسانية فإنه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى اغراضه الفاسدة ومطالبه

الذاتية فلايبالي أوقع الافراد في خير أوشر،صفت النفوس أو تكدرت،ارتفعت الآداب أو انحطت،صحت الارواح أواعتلت ، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم

الا وان القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام، والتبجيل والاجلال،واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم وإلا استحقوا الرفض والطرد والابعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح ان يقذفوا بهم من البلاد كي لايفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لايقتصر ضرره على المبتلى به بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية — الصناعة

قد عاد حضرة الاستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة فابتدأ حفظه يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولا جليلة غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة الا انها نبتت فروعها في المغرب واجتنيت ثمارها لغير غارسيها ولم تزل في بلادنا على كليتها واجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة الى الفعل الا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع الى الاصول فروعها والى المقدمات نتائجها والى المجملات تفاصيلها بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القوية ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للعموم رأيت من الواجب قياما بالخدمة الانسانية ان أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها وانشر طيب وفدها في صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق

بيّن حفظه الله وأثبت ان الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية

(لا كما يزعمه أرباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم من أبناء السماء فليتذكر من له فطنة) وانه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ويسير في عيشه سيرتها يتفيأ ظلال الأشجار، ويسكن فى الجحرة والاوكار، ليس له شعار ولادثار، (ولكن خفيف أشعار) يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الالٓهية، على يد القوى الطبيعية، لا غرسها يد صناعية، ولا تربية أجنبية، ليس له من المكر والتحيل الا ما لا يداني فيه الثعلب، ولا من العلم والتدبير الا ما يبعثه على الغدوّ لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار والرواح للاستكنان في كنٍ يواريه عن أعين الحيوانات العادية، والفرار من المكاره الحسية، كما تفر الشاة من الذئب، والارنب من الثعلب، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود، ويقيمه متحكما في كل موجود، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سبر الحقائق وعماد عالم الكون وإن جميع البسائط والمركبات انما خلقت لاجله، والكواكب والسيارات انما تتحرك لخدمته، بل كان ضعيفا عاجزا جاهلا حافيا عاريا يزعجه كل حادث، وتستفزه كل نبأة، ويتهيب من كل شكل وهيئة، والشاهد على ذلك ما تحكيه لنا أحوال الامم التي كأنها قريبة عهد بالانسانية فى جنوب أفريقيا والقبائل المستمرة فى قمم الجبال والاجم والغابات البعيدة عن العمران البشري المعروف الذين لم تضطرهم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من مكان الى مكان فإنهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة لا يفهمون خطابا، ولا يحسنون جوابا، الا ما كان متعلقا بضرورة الحياة كجلب قوت بسيط ومدافعة عادٍ من الحيوانات وجميع ما يعده الانسان المتمدن كمالا وانسانية فهم بعيدون منه، عارون عنه، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الأنواع الحيوانية بخاصة العجز والفقر والحاجة حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه لا تحصل الا بالتحصيل وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء وهبه قوة عاقلة كلية التصرف، عامة القبول، ووكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود الكلي فكان لكل نبات وحيوان بل لكل موجود شهود حق الاستاذية وسابق الفضل

على نوع الانسان فاسترشد بأعمالها، واهتدى بآثارها والتقط درر الحكم من فعلها وانفعالها، وتدرج في ذلك شيئا فشيأ تارة يخطئ وتارة يصيب، وطورا يتجلي له الحق وآخر عنه يغيب، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن ادراك الحقائق والوصول اليها، وأخرى تجذبه الجواذب اضطرارا للوقوف عليها، حتى وصل الى ما تراه من أحواله الغريبة، وآثاره العجيبة،

ثم بين حفظه الله كيف كان يتاب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقادا في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر بأمره، ويتبع سيره، تارة يتدرج الى الكمال فيقعده مقعد رئاسة الكون، وسلطة الوجود، بما يرشده اليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام، ويقذف به في جب الخرافات، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة، ويغل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة، على ان جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة انما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على مايصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك مستشهدا في تبيانه بشواهد أحواله الآتية المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وانه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية، لتكون له عوضا عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية، التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة، وليس ذلك بخاف على ذي شعور فان صنعة الحياكة مثلا قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والاوبار الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره، وصناعة الحديد والاسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبراثن والانياب للسباع والضباع وعوادي الطيور وهكذا بقية الصنائع ومالم يقم منها مقام ضروري أوحاجي قام مقام كمالي على ما يتضح لك بعد

واذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب ان نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها لاولية على

ماقرره الحكماء الاقدمون، وأوضحه الفلاسفة الآخرون، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات فالقوة منشأ الاثر مطلقا فعلا كان أو انفعالا فالمعلم مثلا ذو قوة الفعل والمتعلم ذو قوة الانفعال الا ان قوة التأثر والقبول لاتعد صناعة ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة وليست قوة فاعلة صناعية مالم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم فالقوة الحالية التي تعرض آنا وآنات ثم تزول ليست منها في شيء وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلاتدخل في مفهوم الصناعة كالافعال الطبيعية من احراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك فان لم يكن الفكر صحيحا كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم أوكان نحو غرض غير محدود الذات كأعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه ان لايقر قولا لقائل ايا كان حقا أو باطلا فليس له حد يقف عنده بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله فان كان نافيا كان هو مثبتا وان كان مثبتا كان هو سالبا فليس بصناعة

ثم ان نظر في عالم الوجود الكلي علم علم اليقين انه وان وقع كثير من صوره وكمالاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع أوقوى احساسية كقوى طلب الغذاء مثلا في الحيوانات أو الهرب مما يؤلم الجثمان الا ان عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم ونعني بالترتيب العقلي مايكون مبنيا على مراعات الغايات والحكم وفوائد الكمال التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس انما ينظر الكلي الباقي أولا ثم يتدرج منه الى الجزئي لاالعكس

وان واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره وجعلها محور صلاحه وفلاحه ان وجهها صوب وجهتها الحقيقية فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لاتفيد سواه كأن يطلب بها تنمية بدنه أوجلب مايلائم ذائقته أو نهامته وما يشبه ذلك فقد أضاع تلك القوة

العالية الشريفة وسلخ عنها ثمرتها وانحط الى درجات الحيوانات بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة واما من حفظ نفسه من السقوط وامسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل فهو الذي ينظر إلى كلية العالم الكبير فيعلم ان نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو متماته فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال ويوقن ان نوع الأنسان لايحفظ بقاؤه فى عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التعاقب كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ويتحقق ان حفظ أشخاصه وافراده انما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن ان يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد كما تراه فى موادّ الأغذية التي لاتحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرّاً وجميعها أيضا يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ولوازم ونحوهما الا كتساء من العرى وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات كل ذلك لايكون الا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلاً عن تحصيل غايته منها فكيف به ان يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوما بيوم بل ساعة بساعة فلابد من التعاون في الاعمال فيعتاض كل عن ثمن عمله بثمرة عمل الآخر فيكون المجموع الإنساني كبدن ذي أعضاء ويعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه اذ لو طلب الاختصاص —مع أنه لا بقاء له الا في ضمن المجموع— فقد طلب فقد نفسه من حيث لايشعر فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضوا حقيقيا وركنا ثابتا يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولا من طريق كليتهم و يعود الى شخصيته ثانيا ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الأنساني ويعين على انتظام الهيئة الكلية فهو كالعضو الأشل لافائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من ازالته فالاولى ابانته وقطعه بل ان كان لايعمل و يسعى الى بقية الافراد في عدم العمل كالاباحية الذين يعتقدون أنه لاملكية لأحد في مال ولا عرض حيثما جاعوا أكلوا أو شبقوا واقعوا و يبثون أفكارهم بين افراد النوع فيقتدوا بأعمالهم و يسيروا بمثل سيرهم فيترّكون الأعمال اتكالا على ما بيد الغير

حيث انه مباح لهم فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب ما بيد الغير وما بأيديهم فيحتاجون الى الضروري من الاقوات وغيرها ولا يجدون فيهلكون

فأولئك كالأمراض السارية مثل الجذام والزهري لابد من قطع العضو المؤف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا إباحيين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك فينبغي ان يعاقبوا و يؤدبوا ويحال بينهم و بين أعمالهم هذه بكل ما يمكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أولا يقيموا

ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلابد ان يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفاؤهم فراراً من ألم القلب عند اختزالهم واقتطاعهم لما لهم من العذر القائم اذ حيث ان مدبر الكون قد حرمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه الا ان الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الكلية من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الإنسانية فهم مبغوضون في النفوس مطرودون من زوايا القلوب ساقطون عن نظر الاعتبار بل هم ملعونون من أنفسهم أيضا اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند ما يخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة رديء العاقبة وان كان شقاوه يغلب عليه فيما بعد فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل وتؤيد العاقل ولكن أكثرهم لا يعقلون

واما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكلوا أنفسهم الى التوكل الكاذب اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا انه عبارة عن معارضة سنة الله التي قد خلت في عباده ودعوا ذلك تبتلا وانقطاعا عن عالم الظاهر مع أخذهم لكشكول التكفف وخلعهم لجلباب التعفف فهم بمنزلة شعر الإبط لا ينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير و يستحب ازالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم فإن بلغ من أمرهم ان يتخذوا ذلك أمرا يدعى اليه

وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الاعمال ويقلدون أعناقهم سبح المكر والحيلة ويسربلونهم بسرابيل التمويه والتزوير ويغرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع يودعون نفوسهم اخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وطلب الدني من الدنيا من كل وجه والحقد والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التلبيس (الغير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الاستار طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بثمرات اكتسابهم باسم انهم وانهم وانهم (كما ترى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع ان يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معا . وبالجملة حيث تبين ان لا قوام للانسان الا بالصنعة فمن أخل بوظائفها أورامها بالنقد فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية فعليها ان تطرده من أبوابها وتمحو اسمه من كتابها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى اقسام اما نافعة ضرورية أو غير ضرورية وإما أن تكون كثيرة النفع أو قليلته أو متممة لفعل الطبيعة أو مزينة له فالقسم الاول كالحدادة لأنها ما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية والثاني كقصر الثياب مثلا والثالث هو ما يكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل وواضعة جميع النظامات ومعينة جميع الحدود وشارحة حدود الفضائل والرذائل وبالجملة فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية ومن هذا القسم الحكومة العادلة والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة فإن لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليه والخامس (وهو الكثير النفع) كالنجارة والتجارة مثلا والسادس كصناعة الصيد وما شاكلها والسابع كعلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على اتمام وظائفها والثامن كالصباغة والنقش والتلوين وغير ذلك

ثم ان شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته وان أعم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من انها الباحثة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وافكاره واخلاقه فهي أشرف الصناعات والحدادة وان كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الآمر اه

٢

ما كتبه في جريدة الاهرام أيام كان مجاورا في الازهر وهو أول كتابته الانشائية في الجرائد

تقريظ الاهرام

جاء في العدد الخامس للسنة الأولى من جريدة الاهرام الاسبوعية الصادر في ٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٦ الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ ما يأتي :

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر فأدرجناها بحروفها

الى حضرة الهمام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الاهرام

انه لما ظهر لدى كل قاص ودان، واشتهر بين بني نوع الانسان، ان مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك، اذ كانت قد اختصت بتربية العلوم، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم، وانفردت بالبراعة في الصنائع، والابتكار في أنواع البدائع، فكان أبناء العالم اذ ذاك ينتدون نداها، ويستجدون جداها، يستمطرون من الغيث قطراً، ويستمدون من المحيط نهرا، فكان التمدن فيها كهلا، حين كان عند غيرها طفلا، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب، اذ رأى الطالبين تنسل اليه من كل حدب، وان ملوك الارض خدام عتبته، وتيجان الكيانين تحت قبضته، فاستكبر واعتلا، ولكؤوس الراحة اجتلا، فاقصته الى ممالك الغرب، ليذوق مرارة الشغب واللغب، ويتربى بذلك ويتأدب، فبدا بتلك الممالك غريبا، ونادى معلما وجد مجيبا، وتناوشته أيدي الجاحدين، ولفحته أقوال المنكرين، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب، ويقاسي مستعصيات المصاعب، الى أن بلغ بها أشده، وملك رشده، وسار فيها شرقا وغربا، وخامر ألباب القوم حبا، فعم انتشاره، وبدت آثاره، وتلألأت أنواره، واذ تحلى بحلل الجمال، وتتوج بتاج الكمال، وقضى مدة السياحة، وباء بغاية الراحة، استدار

الزمان كهيئته، ورجع الامر الى بدايته، وقفل التمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته، فورد ديار مصر ورود الاهلي، وتمكن بها تمكن الاصلي، فاستقبلته الديار بغاية المسرة، وأكرمت مثواه وأعظمت أمره، واستردت ما كانت فقدت، وأدنت ما كانت انأت، وأحلته محل القرب، وأنزلته سوداء اللب، فقام يؤدي حق خدمتها، ويوفي شكر كرامتها، فنظر الى ما كان أبداه في تلك الازمان، من شواهق البنيان، التي كم بلغت الاسباب، وحيرت الالباب، وانبأت بما فيها عن براعة بانيها، ونطقت بفيها، أن آيات الكمال فيها، فلما أعجب بالمثال، حداه حادي الكمال، لأن ينسج على هذا المنوال، فانشأ لنا جريدة الاهرام، المؤسسة على أحكم قواعد الاحكام، الكافلة بارشاد المسترشدين، وتنبيه الغافلين، بما فيها من المباني الرقيقة، والمعاني الدقيقة، والافكار العاليه، المؤيدة بالبراهين الشافية، القائمة بنشر العلوم، بين العموم، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب، تنادي بمقالها وحالها حي على الفلاح، وهلموا الى موارد النجاح، لا تقفوا عند صورة المبنى، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى، تلك اهرام أشباح، وهذه غذاء أرواح، تلك ظواهر صور، وهذه دقائق عبر، تلك مساكن أموات، وهذه لسان سر السماوات، نعم أين ذلك الزمان، من هذا الآن، الذي قد سطعت فيه شموس العرفان، ونشأ فيه بنو الانسان نشأة أخرى، يتقلب في فنون الحقائق بطنا وظهرا، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم، واهرامنا غير اهرامهم، وأين الذي تفنيه الرياح والامطار، من الذي لا توهنه توالي المدد والاعصار، فان مقره العقول العاليات، والنفوس الزكيات، التي لا يتناولها الفنا، ولا يتدلها العنا، فبخ بخ بمنشيها، وطوبى لقاريها، فمن الواجب على ذوي الالباب أن يجتنوا اجناها، وان يستطلعوا اسر معناها. فيبوءوا بأنوار الحكمة، وينقلبوا بفضل من الله ونعمة، فإن ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها، ولا ألذ من حكمة يصادفها، هذا المجاز في مزاياها، بسم الله مرساها ومجراها، اه

(يقول جامع الكتاب) هذه بداية، تشير الى ما عرفنا من الغاية، فالتصور يدل على استعداد الخيال، والكلام يعرف بأزهري للعلوم العصرية ميال، ولا ينكر منه المنتهي الآن، الا تحري السجع الذي كان منتهى البراعة في ذلك الزمان،

﴿ الكتابة والقلم ﴾

وجاء في أهرام السنة الأولى أيضاً مانصه وقد نشر في عدة أعداد أولها الثامن

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الاديب الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر وموضوعها

في أن فن القلم والكتابة من اللوازم الضرورية ليس للعالم عنها مندوحة في تعيشهم الحقيقي

ان مما انبسطت به أيدي الضرورات وأنتجته مقدمات الحاجات انشاء لسان القلم نائباً عن المتكلم فيما يتكلم وذلك أنه لما اقتضى النظام الآلهي أن يخلق الانسان محتاجاً في أن يقوّم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة الى أن يتخذ ما خلق الله في الارض مالم يكن حاصلا وان يكون منه مالم يكن كائنا بحسب الخلقة الاصلية ركب فيهم القوة النطقية واللطيفة الفكرية التي بها يكون ترتيب مايحتاجون الى اتخاذه من المطعم والمشرب والملبس والمسكن فقادتهم الفكرة الى اتخاذ الصنائع وآلاتها على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها واضطرهم ذلك الى الاجتماع بتفصيل لسنا الآن بصدده وانه وان صح أن يقوم كل شخص بعمل من الاعمال والبراعة فيه بالآلات البدنية فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعا مبتكرا لما يحتاج اليه أرباب الاعمال في أعمالهم من اللوازم الضرورية أو الادوات التسهيلية أولما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات وفصل الامر بينهم عند الخصومات على مايقتضيه انتظامه الاجتماعي الانساني بتفصيل لسنا الآن بصدده أيضا بل ذلك انما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة والفطنة النقادة

ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لايكفي في ترتب الأثر عليه بل لابد في ذلك من أعماله وتربيته وأعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الاشغال سواه فان القوة الواحدة لاتكفي على البراعة لأمور متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ أرباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ويقوم أرباب الاعمال باخراج ذلك من

القوة الى الفعل فقام كلٌّ بواجبه واعتاض كل من صاحبه وكان نسبة أرباب التعاليم الى أولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق والاخ الرفيق ليس لهم فكر الا في رقيهم ولا نظر الا فيما يكون سببا لاسعادهم وأساسا لراحتهم واذ رأوا ذلك منهم محققوا مالهم من الفضيلة وانتصلوا للقيام بشكرهم بكل حيلة فاشتعلت اذ ذاك أفكارهم وارتفعت أنظارهم واتسعت دائرة المعرفة وغدت آيات الحقائق منكشفة فعسر عليهم حفظ ما أسسوه وعظم عليهم ان يؤدوه كما أبدوه لكثرة المقدمات وتشتت الجزئيات وصعوبة ما تحتاج اليه القواعد مما لا يقوم بحفظ الكثير فضلا عن الواحد فاحتاجوا أيضا الى اتخاذ ما به تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون اليه عند النسيان ويذكرهم لدى البيان فطفقوا يتخذون صورا من الاحجار وأخشاب الاشجار تحكي بالمناسبة عما يريدون وتنطبق على ما يقولون لتكون اشارة للعارفين وحجابا على أعين الجاهلين وكان ذلك كافيا لنقطة من الزمان

ثم لما شيدت مباني العرفان وانتشرت المعارف بين بني الانسان وغصت الارض بالعلوم وسيرت فيها سير النجوم صعب عليهم الحفظ بالتصوير والتبس الامر على السميع البصير فألجئوا بالاضطرار الى حفظ ذلك بالارقام العلمية الحاكية عن الحروف اللفظية القابلة في الرسم للتأليفات الغير المتناهية بدون أدنى التباس بين أشكالها كما لا يحصل الا التباس بين الالفاظ عند تأديتها فكان القلم لسانا آخر للمتكلم الا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال وما نطق به القلم جوهر لا يزال فلصاحبه عند الذهول أن يرجع اليه ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم وفرغوا من شغل عظيم ووضع عنهم وزر جسيم كان يعوقهم عن كثير من التعاليم وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل الى جيل على نحو ما قال من اجمال وتفصيل فكان بذلك أفكار الازمنة المتتالية مجتمعة في نقطة واحدة وكذلك أفكار أهل زمان واحد على ما فيها من الشوارد بدون اشتباه في ذلك فحصل لذلك التعاون في الافكار واتقاد سرج الاستبصار فان أفكارا كثيرة تقدمت أو تأخرت بمنزلة لجنة قد انعقدت للارتئاء في حقيقة أمر خفيت والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجح بين الاقوال

ويري بنور بصيرته مااليه أمر كل آل

فكم من وهم فاسد عنه اندفع وكم من محال جاز وجائز امتنع وكم من نور له بين تلك الآراء لمع فكان له مكنة أن يمشي في ضوء مصباحه وأن يضرب بسلاحه لطلاب صلاحه فوضع القواعد وأقام الشواهد ورمى بالقذى في عين الجاحد فارتقت العلوم الى ذراها وارتبط أولاها بأخراها ورقص العالم في ضوءها واستوا من هاطل نوءها وعاد مثل الاول والآخر في هذا العمل الفاخر مثل جماعة تألبوا على اقامة بيت بالاشتراك وكلفوا كلا على حسب ماله من المكنة والادراك أن يأتي عاله بال في اقامته أو دخل في استدامته أو ما يكون موجبا لحسن الترتيب أو اتقان التركيب فمنهم من ميز زواياه ومنهم من فصل جواهره عن خباياه ومنهم من أسس قواعده ومنهم من أقام شواهده وهكذا كل يسعى لتشييده واقامة حدوده واحكام قوائمه واظهار علائمه الى أن يتم بيت المعارف الذي هو أمان لكل خائف وهو حرم الله الذي من دخله كان آمنا وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قمنا وكل ذلك بسر سير القلم الذي به علم الانسان مالم يعلم وجمع الكل في صعيد واحد ونادى فلباه كل قاصد فهذا ايجاز في شانه ويسير من بيانه في تسيير العلوم وارتقائها وتسهيل اقتباسها وابدائها

ثم لما عظم أمر المعاملات التجأوا الى التعامل بالنسيئة واحتاجوا الى حفظ وجه التعامل خوفا من النفوس الجريئة وكثرت وجوه الاعتداء من الاحزاب والشعوب والتجأوا الى الاصلاح كيلا تبيدهم الغوب وكان ذلك لا يستقيم الا بحفظ معاهدات تنعقد بينهم لمنع الاقتراحات ولا يتم ذلك الا بأن يحفظ ماوقع اتفاق عليه على الوجه المرضي بينهم ليمكن الرجوع عند الاحتياج اليه فلم يوجد لذلك مستودع أبين ولاحصن مكين لايداع هذه المعاني الاما يشيده القلم من المباني فكان القلم هو الشاهد العدل والحكم الذي عليه المعول ولولاه لم يحفظ حدود ولم يوثق بعهود ولم ينل الحق حقه بل يتسع المجال للمبطل وتبعد الشقة

ولما انتشر نوع الانسان في أقطار الارض وبعد ما بينهم في الطول والعرض مع ما بينهم من المعاملات ومواثيق المعاقدات احتاجوا الى التخاطب في شؤونهم مع تنائي أمكنتهم وتباعد أوطانهم فكان لسان المرسل اذ ذاك لسان البريد وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد وان حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد أو يبعد القريب أو يقرب البعيد فكم من رسول أعقبه سيف مسلول أو عنق مغلول أو حرب تخمد الانفاس وتعمر الارماس ومع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام ولم يكن في كلام المرسل ما يثقله بهذه الاوزار ولا من نفسه ما يشعل شرر هذه النار فوقعت الندامة وضرب الويل خيامه فالتجأوا الى استعمال رقم القلم ووكلوا الامر اليه فبما به يتكلم فكان مبلغا أوعى من سامع وهاجعا أسرى من لامع وقنوعا أغلب من طامع وصامتا أنطق من مانع فأدى القول كما سمع وحكى الصنيع كما صنع وأتى على المراد من فاسد أو سداد بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل وأحفظ للأمانة من المالك الحامل فهو حينئذ حقيقة اللسان وغيره مجاز عنه في البيان فكم من معاتب تنفر النفوس من عتابه ان هو اعتب في خطابه ولكن ان رقم أتى بالرقيق ونادى نداء الشفيق فاستبدل الشقيق بالمشاق ورفع العنا ووضع الوفاق فهو ان تكلم كلم وان رقم شفى الالم وكم من مؤدب فهيه لا يستطيع تحريك فيه بما يخفيه لا يفيد المستفيد ولا يوفي مرام المستعيد ولكنه ان أجرى القلم نطق بالحكم وحج وأفحم وحل وأبرم وأسس وأحكم فهو وان لم ينطق بلسانه قد نطق بيراعه و بنانه فلم تعده فضيلة البيان وان عضلته عصبة اللسان وكم من خطيب نجيب ورقيب حسيب ان تكلم اقلق وأطبق وأغلق وان كتب أعجب ورغب وأرهب وقرب وأبعد وجمع وافرد وأوقد نيران الانفه وعقد روابط الالفه وأتى برقيق التشبيه ودقيق التنبيه

ومن أجل آثار القلم اذ يعد من أعظم النعم ومن اللوازم ألزم الجرائد والجرنالات التي هي أمل عظيم لترقي الملل وانتظام أمور الدول اما الاول فلأنها توقف الملل على خصائصها الموجبة لنقائصها وتوضح لهم أسباب الترقي وما به

يكون التوقي وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى وأي الامور لهم بالتمسك أحرى وتشوه لهم وجه القبيح ان ارتكبوه وتعظم لهم أمر الجميل ان تركوه فتشرح مفاسد العادات التي هم عليها كالجهالة والتكاسل عن الصناعة والرضا بالفقر مع التردي برداء الكبر والتمسك بالخرافات وفاسد الاعتقادات وجمع كلمة النفاق وشق عصى الوفاق وغير ذلك من قبائح الافعال ورذائل الاخلاق وتقدم لديهم مصالح الفضائل كاتساع دائرة الافكار والتنقير على مافي العالم من دقائق الاسرار والحث على الاشتغال بالصنائع والاهتمام في ترقي البدائع وطلب العيشة الراضية مع اليد العليا والهمة العالية والنظر في آراء الاوائل نظر الناقد والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد كيلا يفوت كثير من الكمالات ويفقد عظيم من اللذات وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير البصيرة وتطهير السريرة وتحرك فيهم حمية الغيرة فينتبهون بذلك من غفلاتهم ويستيقظون من سناتهم ويلتفتون الى مصالحهم ويقلعون عن قبائحهم فيطلبون الخير ويجتنبون الضير ويرتفع من بينهم الجور ويوضع العدل وتطلع فيهم شمس المعارف وينسلخ عنهم ليل الجهل وينالون من الراحة والرفاهية مالا يحصر ويستولون من عظائم الأمور على مالا يصح ان يذكر وان أدركه أرباب النظر

وأما الثاني فلأنها لسان سر السياسة فتنبيء عن نتائجها في الآن بل في الآت وتوازن بين الدول وقواها وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها وتبين مافي نظامهم من الاختلاف ومافى أفعالهم من الاعتلال ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح ومواد الاصلاح وحفظ الارواح وارتياح الأشباح وما اثنت عليه صدور السلاطين من عدل يزين وظلم يشين وترشدهم الى ما يجب أن يسلك فيما استولوا عليه ومايؤول أمرهم ان سلكوا غيره اليه وتغري وتحذر وتبشر وتنذر فاذ ذاك ينتبه الغافلون ويحترس المستيقظون ويقوم الضعف المتلافي ويطلبون اللحاق بالملاصق والتجافي ويهرع المختلون لسد خللهم وأبراء عللهم وتخفيف أثقالهم ويرتدع الظالمون ويغتبط المقسطون وذلك كله مع تنائي الاقطار وتباعد

الاسفار فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان وكأنما القائل والسامع في مكان فيعتضد البعض بالبعض فى الخروج من الذلة وشماء الغلة وانما مثل صاحب الجرنال مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ونادى بالحقير والجليل فنفخة تحيي ونفخه تميت وعظة تصيب وأخرى تفيت فمن الواجب على كل ذي دراية ان يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ليكون على بصيرة فى أمره ومصيباً فى سيره نائلا الخيره حذرا من شره متحركا نحو المعالي طالبا ما تهتز اليه العوالي ويقف على خفيات الحقائق ورقائق الدقائق ويخرج الى فضاء المعرفة ويطلق من غل الجهالة والسفه ان هذا الا بامداد مداد القلم وجريانه في ميدان تربية الامم والا فابن الفيافات من بلاد تبت وأين فارس من بلاد هند وفارس اذ يقوم عليهم رقيباً وفيهم خطيبا يعظهم بالموعظة الحسنة ويحذرهم غرة السنة ولقد ينبئنا ما انجر اليه علم أمر العالم في سيره وليس له مكنة ان يعدل عنه الى غيره بان صار القلم محتاجا اليه في ادنى المهمات وأهون الملمات وخديما فى جميع المنازعات وحكما لدى المحاكمات حتى لم يبق للسان الا محاورات قليلة وموارد أخطارها غير جليلة فاقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم

المدبر الانساني والمدبر العقلي الروحاني

وجاء في العدد ١١ منها الصادر في ٣٠ دسمبر سنة ١٨٧٦ — ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ ما يأتي وتتمته في ع ٢٣

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العالم العلامة ﴾

﴿ الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

ان النظر فى الآثار الانسانية على اختلافها بحسب الخصائص الشخصية وائتلافها في الغايات النوعية ينبئنا بان الحقيقة الانسانية تشتمل على مدبرين عظيمين أحدهما المدبر الحيواني مع ما يستتبعه من جميع الاحساسات الظاهرة

والباطنة والآخر هو المدبر العقلي الروحاني الكلي ولكل واحد منهما اذا لوحظ وحده بقطع النظر عن صاحبه غاية يطلبها وحدود في سيره لا يجاوزها فالمدبر الحيواني ليس له من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم والى زمن مخصوص فهو منوط باللوازم الكافلة لهذا الغرض من جلب ماتقوم به البنية ودفع مافيه مضرة أولها ءه غنية على قدر الامكان حتى يتقوم هذا المزاج سالما مدة مامن الزمان وذلك أيضاً هو حال سائر الحيوانات العجم يرشدك الى ذلك التأمل في آلاتها البدنية وآثارها الحياتية فان حيوانا من الحيوانات لم يكن لتتوجه ارادته الى سوى مايقوّم بدنه أو دفع مايعتري عليه مما يوهنه فان رجليه لم تكن تسعى الا لطلب المرعى أو للهرب من قاصد ايلام، أو للاستقاء من حر أوام أو ليوقع سفادا ليتخذ له من نوعه أولادا بل لا شعور له بهذا الاخير وانما هو ليدفع عن بدنه ما كان يناله بالتأخير ولا سكنت الا للاستراحة من تعب أو ليأوي حيث أعياه الطلب ولا تحرك منه خيال لغير ما ذكرنا على أي حال فهذا مطمح نظره وقصارى أمره في سيره وليس له في هذا السير سوى خدمة الطبيعة ومساعدتها باتمام تركيب العالم العنصري واستبقاء أنواعه واستكمال آثاره البسيطة فقد علمت ان الانسان في هذا مشارك لغيره من الحيوانات وليس يمتاز فيه عنها بشيء من جهة من الجهات

واما المدبر العقلي فهو من حيث هو ليس له من غاية سوى كشف المعمى، وان بعد المرمى على وجه لا يلحقه فيه الريب ولا يتطرق اليه أدنى عيب والتحلي بالملكات الفاضلة والتنزه عن الصفات الغير الكاملة وذلك بان يأخذ بالقسط ويقف على الحد الاوسط فيما يجب ان يقع من تصرفاته مع اغياره أوفي حد ذاته وأن يفيض على الغير مما استفاد أوأن يضع النجاح ويرفع الفساد ويقرر قواعد الوفاق ويقلع أساس التفرق والشقاق، وكل ذلك على مقدار قوته وما يملكه من مكنته فهو السابح في بيداء الوجود ليميز الواقع من المفقود ويقف على أصول الكون وما نشأ عنها لونا بعد لون ويكشف عن وجوه الاسرار براقع الآثار فلا يدع مدينة الا قرع بابها وطعم طعمها واستقى شرابها ولا حسناء الا كشف نقابها

ورشف رضابها ولا عميقا لا وقف على قراره ولا مرتفعاً الا أتى عليه بعياره وعلى
هذا المنوال حتى يصبح وقد استغنى عن العالم بصدره واكتفى عن مخبر به بمخبره
وأضحى خلقا جديدا وعلى كل شيء بذاته شهيدا وانطوت في وحدته الكائنات
واتحدت في ذاته المختلفات

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد

فحينئذ يضع موازينه ليحكم قوانينه فقد عرف النافق من الكاسد، وميز
الصحيح من الفاسد فيأخذ ما استطاب ويدع ما منه استراب فلا يدع شاردة
من الفضائل الا اقتنصها ولا ناشزا من المكارم الا قص قصصها ولا دفينا من
المحاسن الا أبرزه ولا خليط الا أماط عنه مايشوبه وافرزه ولا نقيصة الا أولاها النفار
وولاها الادبار فلا يدنيه ميله من السفاسف ولا يقصيه عزمه عن المعالي وان
دونها القواصف فلا يخف ثقل العار ولا يستنكف الأخذ بالثار وإذا دعت اليه
داعية الحق وان جل الخطب واتسع الخرق وحينئذ يستميح مسامع امثاله ليمدهم
من نواله ويغرس فيهم أشجار النجاح ليجتنوا منها ثمار الفلاح ويجنبهم ريبة
الاختلال، ويضع لهم مايعبرون عليه فى لجج الاشكال وهذه هي الآثار التى
قد امتاز بها الانسان عن سائر الحيوانات فلا ريب كان المدبر العقلي هو
الانسان بالحقيقة

هذا ما لكل من المدبرين على حدته الا ان سير الوجود قد اقتضى ان يكون
مجموعهما طبيعة واحدة وهي الحقيقة الانسانية وان يقع الوسط بينهما على وجه محكم،
حتى ان الاتحاد بينهما ربما يتوهم وان يكون كل منهما محتاجا الى الآخر فى ابداء
عمله، وبلوغ كماله وهاك الشاهد فانا قد بينا ان المقصد الاعلى للعقل انما هو
استكشاف اسرار الوجود وابراز ما استتر في عالم الشهود وذلك مقام لا يعلوه كعبه،
ولا يأتي عليه عناؤه وتعبه عند استبداده بذاته وصرف الوجه عن آلاته بل الطريقة
المثلى فى ذلك والمسلك الوحيد من بين المسالك هو استعمال هذه الآلات الجسدانية،
ليتوصل منها الى ما يتطلبه من الدقائق الخفية فانها تقدم اليه من صور الكائنات مالم
يكن بحضره ولم يكن يبلغه خبره فانا لو فرضنا ان العقل قد فطر على أحسن الفطر

ونشأ على غاية من صفاء الجوهر ولكنه لم يستعمل حس البصر فهل كان يتمكن من استقبال وفد الضياء أو استطلاع سكان الفضاء حتى يحدد دائرة أورانوس ويهاجم العقرب بالقوس ويجمع بين الاسد والثور على الجوار بلا تعد ولا جور ويعين ما للدرنا من المنازل وأين حوت ليالي وصله وهجره نازل ويعين سير الكاتب ويستكشف ما نال المشتري من العجائب، وينبي عن ذي الحلقتين ويحقق ما بين السماكين، ويقف على ما للشمس من التدبير في هذا العالم الكبير وكيف ان كل هذه العوالم اليها فقير ومن مركزها الحقيقي يستمد التيسير في المسير ويقدر ما بينها من الابعاد وما يشتمله كل كوكب من الامتداد ومن أين كانت تأتيه هذه الصور، حتى تحدثه بما لديها من العبر وهل كان يقف على حقيقة الألوان وما للضياء من الاختراق والسريان وكيفية وصوله من النيرات الى الارض وانتشاره في الطول والعرض وهل كان يدرك سير الانواء وحوادث الهواء من برق يخطف الابصار ومدارات البان على بنات القفار حتى يقف بذلك على اسرار كبيرة، ويقتني فوائد غزيرة وهل كان يحضره تراكيب الحيوانات على اختلافها وتناسب اعضائها وائتلافها وارتباط الاعصاب والعضلات وجذب طلمبات الشرايين مادة الغذاء الى جميع الجهات وغير ذلك مما تحار فيه الافكار وتعشى فيه الابصار حتى يقف على شيء من سر الخلقة وينال من الواقع حقه وهل كان يستطيع إحكام آلات التحليل حتى يستيقن الاصيل في عالم التركيب من الزبيل ألا ان فضائل البصر لدى العقل لا تنكر وفوائده المجلوبة منه اليه لا تحصر،

ولو انه لم يصرف وجهة لالتفات الى ما يأتي بالسمع من الاصوات لكان أول ما يفقده من الفضائل الفضيلة التي ليس لها من معادل وهي تقطيع الصوت بالحروف على وجه معروف لتكون علائم حاكية عما تكنه الصدور وما هو وراء حجب الظواهر مستور فيقف كل من بني النوع على أفكار الآخر التي قد كابد عليها وثابر فتكون ميدانا تجول فيه فكرته ومحجة تمتطيها حجته، فتكثر بذلك العلوم ويتسع مجال الفهوم فان الامر على ما بيناه في مقالة قلمية ابديناها سابقا وهو ان مثل أفكار كثيرة تقدمت أو تأخرت مثل لجنة قد انعقدت للارتقاء في حقيقة

أمر خفيت والمستبصر الناقد كرئيس لتلك الجمعية يرجح بين الاقوال ويحقق بعين بصيرته ماإليه أمر كل آل فتدفع عنه وساوسه وتنجلي اليه عرائسه ويشرق له في نفسه شمس من البرهان ويأخذ بالالباب من آياته سحر من البيان فكان له مكنة ان يسير في ضوء مصباحه وان يضرب بسلاحه لطالب صلاحه فوضع الشواهد واقام القواعد ورمى بالقذى من عين الجاحد وفوائد السمع سوى هذه كثيرة

وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه أنواع المشمومات وحاسة الذوق أنواع المطعومات وحاسة اللمس أرشدته الى مبدأ الصلابة واللين فأرشده كل ذلك للبحث في اسرار هذه الاختلافات وأسبابها وعللها الفعالة وعلاقة نهاياتها وذلك باب من العلم عظيم وخطبه جسيم ولو ان المدرك العقلي فينا وقف على نقطة واحدة واتخذله متبوءا على حدة هلا كان يفوته كثير من المعلومات ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات بلى فلا بد من الانتقال من أين الى أين والانفصال في البون والبين والاستبصار فيما يراه كيلا يعود بخفي حنين فتحتم عليه لنيل كمال الارب، تحريك كثير من الآلات البدنية نحو الطلب، والا فليس يدرك الاوزار ولا يحمل إلا الاوزار شعر

ان العلى حدثتني وهي صادقة فيما تحدث ان العز في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

فقد تنورت من هذا ان ليس للعقل عن شيء من هذه الآلات غنى، ولا لاشجاره دون سقيها جنى .

هذا هو الاضطرار العقلي الى الحيوان في كمالاته الادراكية وجدير بان يكون كذلك في كمالاته العملية كالاقدام والاحجام لربط وثام أو تقرير نظام، أو دفع عار أو تأنيس نفار أو وضع عدالة أو انقاذ من وبل جهالة أو إغاثة ملهوف أو مواصلة مشغوف وغير ذلك مما يجب ان يكون العالم عليه ولا راحة للكون الا بأن يصار اليه وكذلك الحيواني في الانسان مضطر الى العقلي في بقائه مدة ما من الزمان فان الانسان لما شغفته عرائس الاكوان حبا ودعته لوصلها لم قربا تنكب عن مقامه وأسرع في إقدامه فبرز اليها قبل ان تنسج له أيدي القدر لباسا يقيه،

أو تصنع له نعلا يحتذيه بها ترفده من حدة الناب وقوة المخلاب ما به يتخلص من مهاجه وينتصف من مقاسمه ولم تهبه من القوة الطبيعية ما يتعيش معه بعطاق النباتية فكان بادي البشرة حافي القدم مجردا عن آلات الذب والدفاع معرضا لصنع البلايا وهدفا لسهام المنايا يوهنه الحر ويودي به القر ويلجئه الاضطرار لتناول ثمار الاشجار فهو عاجز فقير قد أعوزته القدرة والتقدير وليس في حسه الحيواني ما يفي بتعيشه الآتي فاذن عرض على العقل حاله وقدم اليه ما ناله فلم يجد العقل بدا من ان يقيم هذا العرش على كواهل الصنائع يستديم حفظه بأنواع البدائع فأقبل نحو أمهات الاسباب يستدرها ألبان الارزاق فسكبت اليه ما ضروعها من جميع الآفاق ومحضها بأيدي الآلات فاستخلص منها ما للبدن من الغايات فالنباتات أضحت حاملة لمادة غذائه وملتحفة بما يكنه من درعه ودوائه والمعادن والاشجار والاحجار استقبلته بوجه لم تنله نائلة النفار قائلة ها نحن لك فاتخذ ما تريد من جلب ملائم أو دفع بأس شديد فاستخدم البعض وانبسط سلطانه في الطول والعرض فاتخذ منها آلات لجميع الاعمال جاعلا زائد الاحتياج قائدا له الى جميع الآمال فلبس لباس العزة بعد ما كادت مشاركاته في الوجود ان تستفزه واستوى على عرش الراحة وأطلق من قيد العناء سراحه كل ذلك بتدبير العقل الرشيد وتصرفه الوحيد فقد كان البدن محتاجاً في قيامه الى ما يقتضيه العقل من أحكامه فحينئذ كان كل من الحيواني والعقلي مفتقراً في نيل غايته الى الآخر ومن ثم يرتبك الناظر في حالها

فمن جهة يرى ان العقل قد أفرغ جهده وبذل غاية ما عنده فى استيفاء لوازم البدن واقتناء اللذائذ ما ظهر منها وما بطن ويرتكب في ذلك المصاعب ويحتمل أنواع المتاعب ويرتب مقدمات الحيل للوصول الى ما قل منها وجل فيظن ان ليس وراء عبارات قرية وليس سوى هذه اللذائذ من بغية ويذهب الى ان الانسان يعيش لان يأكل ويشرب ويلهو ويلعب وهذا نظر أدنى

ومن جهة يرى ان كثيراً ممن لا يحصى عددهم ولا تحصر افرادهم يتجرعون كؤوس الشدائد ويتكلفون مخالفة العوائد تتجافى جنوبهم عن المضاجع

وان لذ العيش وعز المضاجع يكتحلون السهاد ويتمنطقون بطي الابعاد ويكتسبون ثياب النحول ويعترضون حد السيف المسلول يجوبون القفار راكبين متن الاسفار يتوسدون ما لا يتوسد ويأكلون ويشربون ما يزهد وذلك كله ليتكشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال أو ليستبين أن سلسلة جبال قد أخذت في امتدادها كم من الاميال أو ليعلم ان مقاطعة على كم تحتوي من افراد الانسان أو أنهم يتدينون بأي دين من الاديان فهؤلاء قد هجروا أوطانهم واتعبوا أبدانهم لتحقيق أمر جزئي خطره في ذاته يسير وان كان ما يترتب عليه من الآثار في جملة العالم كثير ويبصر ان كثيراً من الناس قد امتلك خزائن من الاموال وتحصن بقلاع من فرسان الرجال بحيث يكون له مكنة من الراحة التامة البدنية واقتناء جميع اللذائذ الحيوانية ومع ذلك ينتخل نحلة الفكرة وينتف لحية نفسه كرة بعد كرة يتمثل اليه الحور والولدان فيغض عنهم ساحبا ذيل النسيان وربما غفل الزمن الطويل عن غذائه الذي به دوام قوته واستحكام بنائه وانكب على النظر فيما بين أوراق الدفاتر ليقف على افكار الاوائل والاواخر ويضع قسط الميزان بين الآرا كأنما يحاكم بين الاسكندر ودارا حتى اذا أخذته الحيرة يرى ولها حيرانا ويملا سكرانا قد اكتفى بسلاف الشراب واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب وبقرع أقداح الكلام من قرع جامات المدام واذ قذفت به أمواج بحر الوله الى ساحل المعرفة وانقشعت عنه ظلمات الاوهام وأسفر له صبح الحق انتبه الى رمقه واطفأ حرقه وحسبك ما رووه عن نيوتن الفيلسوف المشهور ذلك حيث استغرقته الفكرة مع ان الجوع كان قد بلغ معه قدره طلب الطعام فلم يجد فأمر ان يصنع له البيض فانه أسرع الى النضج من غيره فأتي له بقدر فيه ماء وأوقدوا أسفله النار وأتي له بالبيض ثم قالت الخادمة له اذا غلا القدر فألق البيض فيه فأخذ بيضة ينتظر بها غليان القدر وكانت الساعة بيده ليعلم مقدار الزمن الباقي لدرسه فلما غلا القدر ألقى الساعة في القدر ظانا انها البيضة ثم أخذ ينظر الى البيضة ليعلم مقدار الزمن من حركة زلالها ويكتشف الواقع من صفاتها فأتت الخادمة وهي تظن ان الفيلسوف قد قضى عمله وبلغ من الغذاء

أمله فوجدت الساعة فى القدر دائرة بين الهبوط والصعود والركوع والسجود كسكران أطربته ألحان القانون والعود أوناسك حركته أهوال ذلك اليوم المشهود وأحوال غيره من أمثاله مشهورة وفي الكتب مسطورة وبالجملة فان كون البحث في دقائق العلوم وكشف معميات الامور مما يشغل الانسان عن نفسه فضلاً عن حسه أمر محقق قد قر في نفوس العموم حتى لايصح ان ينكر اذالم يجده كل شخص من نفسه

ويرى ويسمع ان من الناس من يقوم بنشر فضيلة من الفضائل أو تبيان حق فى مسئلة من المسائل ينتضل سيف لسانه ويستميل عقول الغافلين بسحر بيانه فيتعوذون من سحره بتمائم الانصراف ويغمدون عضب لسانه في اغماد الاجحاف قائلين (شعر)

من ذا الذي من غينا يخرجنا نحو العلى والحق من يرشدنا

ويجرعونه في ذلك كؤوس الاحن ويطلبون الراحة من عنائه بالاجلاء على الوطن وهو مع ذلك لايثني عنانه ولايسكن في طلب اسعادهم هيجانه وليس يهمه في ذلك قرع الصفاح والسنان ولااستفزازه من مكان الى مكان ولكن أن يقبل المستعدون سجال فيضه وان يرى ازهار غرسه في صالح أرضه ومن أولئك رجال لايحصى عددهم ولم ينقطع الى الآن مددهم ويرى ويعلم ان كثيرا من الناس يريق دم جميع اللذائذ دون حماية لائذ ولايحتمل ثقل العار وان دونه جبال النار وحسبك ما تراه من لاعبي نحو الشطرنج والنرد اذ يصرف أحدهم فكرته ويبذل همته في ان يحوز قصب السبق فى ميدان الغلبة بحيث لوأتى اليه محبوب كان دائم المماطلة وقد دعته داعية الرأفة للمواصلة لايلتفت اليه ولايعطف ميله عليه وكل ذلك حذرا من أن يلحقه عار المغلوبية مع أنها غلبة وهمية لاتكترث بها النفوس الابية فضلاعن الدنية فما ظنك بعار يلحق صاحبه الشناعة ويذهب ببهائه ويكشف قناعه خصوصاً ان أودع بطون الدفاتر ليكون عبرة من الاول للآخر فهناك يخلع لباس حب الحياة عن نفسه ويضع خوذة شرف الانسانية على رأسه حتى يتخلص

لحقه أو يلحق بمن سبقه وهو في ذلك يتلذذ بطعنات السنان كأنها غمزات حور وغلمان ومن هؤلاء كثيرون وأنتم بهم عالمون فمن هذه الجهة يظن بل يوقن أن ليس المقصد الاعلى والغاية القصوى من هذه النشأة الانسانية سوى التحلي بهذه الفضائل المعنوية واقتناء تلك اللذائذ الروحانية ولا محالة يذهب الى ان الانسان يأكل لان يعيش ويعيش لان يرى ويرى لان يعقل ويعقل لان يكمل وهذا هو النظر الادق والقول الاحق

فان قال قائل ان جميع ماذكرته ثابت لاينكر ولكن ان جميع مايرتكبه أولئك الذين عددتهم من ترك اللذائذ البدنية وميلهم نحو مازعمت من الخصائص العقلية ليس لاستكمال اللذة الثانية لذاتها بل لتكمل لهم الاولى بجميع جهاتها فان أرباب العلوم قد علموا ان لا تنال الرفاهية والراحة ولا يستوفى جميع ما يتقوم به البدن سالما عن جميع الآفات الا بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب فيشقون في تحصيلها ليسعدوا بنيل عاقبة أمرها وان الذين قد استنبوا راحتهم في نشر أفكارهم وبث فضائلهم لم يكن داعيتهم الى ذلك سوى حب الرياسة ليستعبدوا غيرهم ويتخلصوا مما كانوا ينالونه من الذل والتعاسة وإن أرباب الهمم العالية لم يجيروا المستجير ولم يحفظوا ذمار العشير الاخوفاً من أن يمتد اليهم عند التساهل في حواشيهم يد المتغلبين فيتمكنون من نواصيهم فيمنعونهم من لذاتهم الجسمانية ومقتضيات حياتهم البدنية وبالجملة مانشرته فهو اما لنيل لقمة أودفع لكمة فأقول مجيباً دقق النظر ياهذا في أحوال الذين بذلوا أرواحهم في طلب الكمالات العقلية مع ايقانهم اما بفوت هذه اللذائذ الحسية أوقطع عرق الحياة بالكلية الذين لم يكن مسعاهم سوى نيل المكارم والفضائل وكل مادون ذلك فهو له من الوسائل فانه لوكان لهم غاية سوى تلك الكمالات لماتوا دونها ولم يتجاوزها الى اضدادها بل في أحوال غيرهم فإنك قلما تجد انساناً لايفدي بلذة بدنية لنيل روحية والتي ان عددت لك أصنافهم الدانية التي لاتنحط درجة افرادها عن ذلك على اختلافها يطول المقال ويتسع المجال. نعم اننا لاننكر ان كثيراً من الافراد يتخذ المقاصد ومبادي ولم ينالوا من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي اشربوا في

قلوبهم عجل الشهوات ووسموا جميع الآثار الانسانية بالمقدمات وتكالبوا تكالب الذئاب على الفريسة وان مثلهم في نيلها بما ذكر مثل المختلس يتزيا بزي أرباب الامانة كيلا ينفر منه الأمين ولا يحترس فان بني نوعهم لو يقفون على مقاصدهم الدنية لم يرفدوهم شيئاً مما تهواه تلك الهمم الارضية الا من هم على مشربهم وارتضعوا من ثدي أمهم ومنهم من رسب في أرض حيوانية بالمرة ولم يوجه طرفه نحو سماء الانسانية بنظره فمثله كمثل الحمار يركبه كل راكب ليمده بعلف دائب وهذا مع ماقبله سواء في المقصد وشركاء في المصدر والمورد لا منتهى لحركاتهم سوى مآرب حيوانية بل نباتية فلا يصح لاحد منهم ان يرى نفسه أرقى من ثعلب يروغ من المحارب ويحتال في التوثب على ضعيف الدجاج والارانب ومع كل ذلك لا تقبل نفسي أنهم مجردون من اللذائذ الروحانية وان غلبتهم على ذلك دناءتهم وانحطت بهم طبيعتهم ولا أمل أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وتستشيط نفوسهم والالام غضباً ان أندادهم في أعراضهم جهلوا بدون من يلحظوا في ذلك تلك اللذات أو يكون لهم اليها التفات ثم اني أنشدك الله أيها الحكيم الا ما قلدت الانصاف في التحكيم وانبأتني على من ترتبت الآثار التي توقن أنها من خصائص الانسان كتمهيد دلائل العرفان التي قد استخدم بها ما في العالم من جماد وحيوان واستنقذ بها ابناء عالمه من ربقة التكليف الى فضاء ليس فيه مزعج ولا مخيف. وفي ظل من أنت ترفل في ثياب الفخار تحكم ما تريد وتعمل مما تشاء وتختار لا شك في أنك تحكم بان تلك آثار أولئك الذين قد بذلوا حياتهم في نيل الفضائل والمعارف وأجهدوا أنفسهم بتهامع ماصادمهم من أنواع المخاوف وجعلوا تلك الغايات نصب أعينهم حيثما ذهبوا ومنتهى سيرهم رغبوا أو أرغبوا قائلا كل واحد منهم (شعر)

ولست بنظار الى جانب الغنى اذا كانت العلياء في جانب الفقر

وهل سمعت ان ملة قد ارتقت الى صلاح حال أو تنعم بال الا بعد ان خضب ثراها بدماء أولئك الفضلاء واختطف عقاب جورها نفوس هؤلاء النبلاء ثم بعد يرتعون في مروج حميتهم ويختالون في ثياب عز غيرتهم فهل كان ذلك يحصل الا بايثار لذة واحدة على لذائذ متعددة بل غير متناهية وهي لذة الفضيلة

والصفات الجليلة فهي خاصة الانسان التي عنها ينشأ آثاره

فاذن لاجرم ينقسم الانسان الى قسمين قسم أخلد الى أرض الحيوانية فغايته غاياتها يقوم بدنه مدة ثم ينفلت من الحياة لا يبقى له أثر ولا يسمع له خبر وقسم قد ارتقى الى ذروة الانسانية فنهج المنهج العقلي الذي قدمنا بيانه وايدنا برهانه فكلما قوي في فطرة الشخص جانب الانسانية كان ميله نحو التصرفات العقلية يأنف الظلم ولا يجازف في الحكم ولا ينتحي نحو الغدر ولا يحتمل صدمات القهر لغير الحق بل تركض خيله في أرض العدالة لرفع آثار الجهالة ودفع معرة النذالة يأخذ بالبرهان ولا ينكص اذا استحكم البيان وذلك لا الى حد مخصوص ولا في مكان مخصوص ولا في زمان مخصوص . نعم الاقرب الى البحر أولى بمائه والدوى انما ينال من فضل استغنائه ومن ثم ترى ان أهل قارة أوروبا لما ارتقت لديهم المعارف الى ذارها وبلغت فيهم الكمالات قصاراها وألقت الرياسة اليهم زمامها وفوضت السياسة اليهم أحكامها وأصبح نور العقل فى أحيائهم يتلالا وسنا الفضل فى أقطارهم يتعالى تسابقت هممهم الى بث مقتضيات الانسانية فى نواحي الكرة الارضية واستئصال مادة التوحش وتطهير الارض من خصال التبربر وما استعصى عليهم فى ذلك من عوبصات الموانع انفذوا اليه قامعا من كتائبهم أيّ قامع

الا ان منهم من يتخذ هذه الفضائل اسما ويتقلدها رسما لتكون آلة لاعمالهم وسلما لسوء آمالهم خصوصاً الملك الكبير ذا الارض الواسعة والاقطار الشاسعة الذي قد منح أهل مملكته تمام الحرية حتى انه لا يبيح لهم ان تدرس العلوم الفلسفية فى مدارسهم الرسمية بل الاهلية بل ان أراد أحدهم ان يتبصر اتخذ له كينا وتستر وأولى أهل ملته من مقتضيات الحنو والشفقة ما تنفطر منه قلوب أهل الرأفة والرقة خصوصاً أهل ديانة الكاثوليك الذين مزقهم كل ممزق ونفى كثيرا منهم الى حيث لا يخاف ولا يفرق وما ترك وسيلة الى الاسترقاق الا أقامها ولا ذريعة الى استعباد غيره الا قص قصصها كيف لا وقد تقلد رتبة البطركية التي هي مقدم مركب الالوهية فقام بمامورية المقدسة ليؤدي بعض ما أسسه وكتبه على نفسه من القيام بحقوق الانسانية والتهافت على تقويم الحق على الوجه الاحق

الاليق فاوقد نيران الفتنة في بيوت أهل دينه الفقراء المحتاجين الى رعاية دولتهم ليجردهم من ذل الشوكة والقوة ويلبسهم عز الضعف والمهنة وينقذهم من ربقة الحرية التي قد نالوها حيث هم على حفظ عهودهم عاكفون وعلى إصلاح أحوالهم الداخلية متألبون يتدللون على دولتهم تدلل المشوق على العاشق وينالون منها ماينال الولد من والده أو الحبيب من محبه الصادق وليستخلصهم من كل ذلك الى فضاء عدله الذي قد بسط غطاءه على أنفاس أهل مملكته وبحبوحة الحرية التي قد استعبد بها ابناء امته وقد صادقه على ذلك جل الممالك القاسطة لما لكل واحد منهم من ساقطة ينتظر بها الالتقاط وبذلك الملك المقدس في نيلها يكون الارتباط وهم في ذلك ينادون بالانسانية وبالحقوق المدنية وتترنم منهم الخطباء على منابر الظلم والاجحاف بتلاوة آيات الاقلاع عن الالحاد واقتناء شرف الانصاف واني لست الآن معهم في ميدان المحاكمة حتى انبئهم انه قد فعل ذلك بأبناء دينهم بل ابناء أوطانهم وهم بمرأي من ذلك ومسمع مالا يصح فى مثل هذه الايام ان يسمع وقد سودت بذلك وجوه الصحف ومع ذلك لم يتحرك فيهم عرق الحماسة ولا فتحوا فى ذلك سجلات السياسة وان أمثال أولئك الكل لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي بها منعوا بيع الرقيق قضاء لحق المساواة ان يجعلوا تلك الرأفة والرقة خاصة ببعض المقاطعات أو منحصرة فى جهة من الجهات بل كان من الواجب ان ينظروا من وراء حجاب الى خيوه وخوقند كما نظروا جهارا الى السرب والجبل الاسود فاني لو تكلمت في هذا يطول أو يجيبني مجيب بأنهم الى الآن لم يبلغوا حد الكمال حتى يفعلوا أفعال الرجال ولا يتحرشون بحرش المغتال وللانسان كمال سوى ماهم فيه وتلك التي نتوسم فيها العظم مباديه ولكن أعجب لجعل المسئلة شرقية وغربية فان العاقل يتفرس في ذلك أسرارا خفية تدبئنا عنها التواريخ القديمة والحديثة وتحكي ما كانت تفعله القياصرة بالاكاسرة والاكاسرة بالقياصرة حيث كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر فهذا حقد بالميراث جدير بالاكتراث الا انه لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب وتركت الشرقيين بحمى يثرب قويت من الغربيين المهاجمة وبطلت من الشرقيين آثار

المقاومة فبات عدو بلا معادي ومبارز لاتصده الدواعي والعوادي فخفي الامر على غير بصير وذهب على غير خبير وما أوصل الشرقيين الى هذا الحد سوى تفرق الآراء واختلاف الاهواء حتى ان بعض الناس ممن لا يبالي بهم يتهللون بسوء أحوالهم ويبتهجون اذا بشروا بتسلط اعدائهم وما ذلك الا من تداني الهمم وتراكم الظلم والوقوع في حفرة الحيوانية والانحطاط عن درجة الانسانية حيث فقدت منهم الغيرة والحمية وذلك بدل ان ينبذوا في مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية لحماية أوطانهم ووقايتها من وطأة أعدائهم الذين لايرومون من الاستيلاء علينا معاشر الشرقيين الا توسعة ممالكهم والتمكن من استعبادنا بالدخول تحت حوزتهم لتكون لهم خزينة عند الافتقار وترسا يقون به أوطانهم ورجالهم مما عسى يبرزه الاستقبال وبعد ذلك يكون عاراً علينا أي عار يذهب بهاؤكم يتشفى منكم عدوكم وينهدم بناؤكم وينقطع من العزة رجاؤكم أنتم يامعشر الشرقيين أبناء وطن واحد متشاركون في المنافع والمضار وسائر المقاصد لايمس أحدكم خير الا نال الآخر منه مثل ما نال صاحبه ولا توجه اليه خير الا وهو الى الآخر يتعاقبه فما لهممكم تضاءلت وخطباؤكم تمثلت

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فؤادكم

محى السيف أسطار البلاغة وانتحى اليك ليوث الغاب من كل جانب

واذكروا اذ تسطر أحوالكم في صحف الرجال ويستقبل بها ما يأتي من الاجيال فان أنتم أبرزتم حميتكم ورعيتم حق وطنكم الذي منه ابتدأتم وفيه سكنتم ودافعتم عنه ببذل الارواح فضلا عن حسن المقال وبالجملة سلكتم مسالك الرجال لا نهوس الاطفال فتلك مأثرة انسانية تنالون بها مجدكم وفخاركم وتملكون سعدكم وحلية يختال فيها من تعقبونه بعدكم والا فالعار والشنار لاحق بكم وليس الا ان يحثى تراب الذل في وجوه اعقابكم وانظروا الى أحوال سلفكم لتكون مرآة لأحوالكم. فان قال قائل

ان الديانات ألقت بيننا احناً وأودعتنا أفانين العداوات

فكل واحد منا يتوقد من صاحبه لمخالفته له في مذهبه ومناوأته اياه في مشربه فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق وجمع كلمة الاتفاق والتخلص من خسة النفاق ؟ فنجيبه ان مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحد واصل واحد قد يقع بينهما بعض المنازعات المنزلية والمناوشات المعاشية فيأخذ كلا منهم ماشاء من الغيرة والحمية ويكادأن يفتك كل بالآخر ومع كل ذلك أنهما عند اقتراح أجنبي على أحدهما يقوم الآخر بنصرته ولايحجم عن رد تبعته فتلك العداوات الجزئية لا يصح لدى العاقل ان تضر بمصالحنا الكلية وعلى فرض ان لوعدت تلك المزاحمات شيئا يذكر وأمرا يصح اليه النظر فما اشنع حال من ينتقم بيد الغير و يلحق نفسه وعقبه عار السفاهة والضبر أين أنتم من تيمستكليس اليوناني الذي بعد ما صنع المكايد مع دارا وهزمه وجاهد ماجاهد في حماية وطنه اقصاه اليونانيون وطردوه وأجمعوا أمرهم على ان يقتلوه فالتجأ الى دارا يستنجده مما عراه فاعظم منزلته وأكرم مثواه ثم ان دارا طلب منه ان يحشد جيشاً على اليونانيين فقال وجهني الى أي مكان شئت من الآفاق سوى بلاد اليونان فانها وطني ومقر تربيتي لاترضى همتي بان أقدمها لغير أمتي وانه وان كان أهل اليونان طردوني ولكن تراب اليونان ماصنع معي قبيحا فلما أغلظ عليه دارا في الطلب نادته هواتف الانسانية أن ذلك من الموت أصعب فاختار الموت على الحياة وتناول السم ومات ألا فانتبهوا من سنة الغفلة واتخذوا لكم من الانسانية ظله ومن الفضائل خله واحذروا وبالحمية الوطنية اتقوا واعتصموا اه

العلوم الكلامية . والدعوة الى العلوم العصرية

وجاء في العدد ٣٦ منها وأعداد بعده ما يأتي:

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل ﴾

﴿ الاريب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب

ومنينا أنفسنا بانا نصرنا في نشأة أخرى وتقدمنا الى الأمام بعد أن كنا الى القهقرى واستصبحنا بمصباح الآمال في ليل الضلالة والاختلال وهمت أفكارنا بتحصيل ماسبقنا اليه غيرنا تذكرنا حوادث الأيام باننا لازلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الاول بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل وتنثني آمالنا عن تقدم أهالي أوطاننا فمن أعجب مارأيناه في هذه الايام ان بعض طلبة العلم الكرام الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل وافتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم قد تحركت الى المعالي همته ودعته الى التفنن غيرته فاخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الاسلامية لما انه قد علم كما هو الواقع ان العلوم المنطقية انما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الافكار غثها من السمين وتبيين ان كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان أن اي مقدمة يصح ان تؤخذ في البيان وأيها يجب أن يقذف ويطرح فهذا علم حقيق بان يتخذ سلماً لجميع العلوم ولا يعدل عن طلبه الا الجهول ظلوم والعلوم الكلامية انما هي أحكام لتأييد القواعد الدينية بالادلة العقلية القطعية حتى يحق لممارس تلك العلوم ان يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين على وجه لا يكون فيه ثبات الشيء بنفسه ولا تنزيل العقل عن درجته فى ادراكه وحسه فلما سمع بذلك بعض أحبائه وأصفيائه واقربائه الذين يؤثرون خيره ولا يرتضون ضرره اهتز لذلك واضطرب وأعجب كل العجب وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله ان يأخذه وأوسع لذلك الطالب النصيحة ويالها من فضيحة أي فضيحة قائلا كيف تدرس علوم الضلالات حتى تقع في الشبهات الافارتدع وبحالتك اقتنع وكن كما كان الاب والجد وجدّ فيما كانوا عليه فمن جد وجد فأجاب الطالب المسكين سؤله وطوى سجل علمه ونشر جهله ومع ذلك لم تدعه ألسنة حساده المتألبين على عناده ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام ورمي سهام الملام يقولون الى الآن فى ضلاله القديم لم يميز بين المنتج والعقيم والمخدوش والسليم حتى ان بعض ذوي (الجهل) من أهل بلاده المخلصين في وداده الساعين في إسعاده وشوا بهذا الطالب الى والده وأفصحوا له القول بشأن ولده قائلين

ان (الرجل) منا اذا سمع ان ولده يشتغل بالعلوم تتناوله أيدي الهموم (يقوم) ولا يهنأ له طعام ولا شراب ويبيت ليله في اضطراب ويظل نهاره في اكتئاب أسفاً على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا ولم يعمل على مثالتنا ألم تعلم ان الانسان كلما قوي في العلم اجتهاده وبدا له رشاده يتزلزل اعتقاده فكيف بك وهو ثمرة فؤادك وأرشد أولادك فتحرك في والده عرق الحمية وأسرع ذاهباً الى مصر المحمية ليرى هل صح الخبر أو كذب الناقل وفجر فوصل الى ولده في الساعة الثالثة من الليل ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل ان كان لتلك الاقاويل صحة فأجابه الطالب ان ذلك من كذب الناقلين وبغي الحاسدين وانني من يوم سعيت في منعي وقطع نفعي لم تقر عيني بنظرة في رياض تلك العلوم ولم أشف قلبي بأخذ منطوق منها ولا مفهوم فلم يصدقه حتى تمسك بالحبل المتين وأحلفه بالله رب العالمين ان الناقل كذاب وانه في أمره غير مرتاب فحلف وهو الصادق في حلفه وكيف لا وقد حفته المكاره من بين يديه ومن خلفه فلما أيقن أبوه بكذب ما نقل اليه حمد الله وأثنى عليه وأصبح من غده متوجهاً الى بلده فانظر الى هذا الرجل مع كثرة اشغاله واحتياجه لساعة ينظر فيها الى أحواله كيف ترك الاهم وصرف الدرهم ونقض انقضاض السهم وأقدم إقدام الشهم وماذاك الا لحادث أقلقه وشناعة عظيمة خاف ان تلحقه وداهية دهياء قد استفزته من أرضه وبأس شديد طلب التخلص من حلوله بركضه فان سألت ماهذا الأمر الفظيع والحادث البشع الشنيع قال ان ولدي يتعلم المنطق والكلام ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والاقدام وانظر الى هذه الحماسة والغيرة التي قد دعتهم الى التعاضد والتناصر والنخوة التي قد حركتهم على التكاثر للتخلص من هذا الحادث الملم وانقشاع هذا الليل المدلهم بغاية الحرارة الناشئة عن صدق طوية وخلوص نية فتباً لهذه العقول وبئست عواقبها وما اليه أمرها يؤول

إن دام هذا ولم تحدث له غيرٌ لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وانني لاتعجب من هؤلاء الاخوان في الوطن وأرباب البصائر والفطن كيف مالت بهم الحرارة الى الهبوط حتى آل أمرهم الى السقوط وياعجبا اذا لم

نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها ففي أي شيء نصرفه فانه ان ضل عنا رشادنا وغاب سدادنا فهل بشيء سوى الدليل نعرفه

الاوان هذا أمرغني عن البيان ويكل عن الافصاح به اللسان مع ان هذه العلوم ليست الاما يقرأ في سائر جوامع المسلمين مشارق الارض ومغاربها حتى الآن في نفس الاستانة يقرأ في مساجدها كثير من كتبها وقد قال الاكابر من المحققين كالامام الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم ان تعلم هذه العلوم من فروض الاعيان وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية خصوصاً في مثل هذه الازمان التي قد وقع فيه اختلاط الناس من سائر الاديان فانه من البين ان ما أخذ عن الآباء و بلغناه ألسنة الاقرباء إن لم يؤيد بالبراهين نالته أقوال الملحدين وادحضته شبه الجاحدين فيصبح وقد وهى بنيانه وانحط شانه أولم يطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الاسلام في استامبول الى الرجل الجرماني الشهير الذي قد أسلم في هذه الأيام اذ يقول له: نحن لا نجتنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ولا نقبل اعتقادا يناقض العلوم المتعارفة (كالمبرهنة) في فني الحساب والهندسة من أن الكل أعظم من الجزء وان الشيء لا يكون غير نفسه وان الشيء الواحد لا يكون واقعاً وغير واقع في آن واحد وأمثالها من العلوم المتعارفة وهي البديهيات الأولية أو الاولوية علي ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديث او آية كذلك أي تغاير العلوم المتعارفة لاولناه . اه

وليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدي الاسلام وغذيت بلبانه وتربت في حجره وتقلدت في إيوانه من زمن يزيد عن ألف سنة وتناولتها أيدي الخلص منا وتناقلتها عنهم الألسنة فما حالنا بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان وكافة عنا أيدي العدوان والهوان وأساس لسعادتنا ومعيار لثروتنا وقوتنا لابد لنا من اكتسابها وبذل المجهود في طلبها فبالاولى تقدم نضع أصابعنا في آذاننا ان ذكرت ونهاجر من كرة الارض اذا اسماؤها انشقت وان مثل هذه النفرة لو كانت في عهد المتوكل العباسي عندما كانت الامة بغرور وسوامي

وقوة متوهمة تحصنها من تعدي الأمم المتقدمة أوفي زمن المماليك والكولمان وغيرهم ممن تملك هذه الاوطان حين كانوا في ذروة التوحش لايهتدون الى ما به يدبرون أمورهم في التعيش وكانوا حائرين في تيه الخيالات والاوهام وقد أخذ بجميع احساساتهم جور الحكام ولم يكن بينهم و بين غيرهم من الامم اختلاط اذ كانوا في حفرة الانحطاط لكان لا يأخذنا العجب بل نضيف ذلك الى السبب ونلتمس لهم العذر في ذلك اذ قد عميت عنهم جميع المسالك وكنا نؤمل ان المبنج يفيق بشم روح النوشادر وان هؤلاء يهتدون اذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر و يقومون من غفلتهم اذا قام من يوقظهم ويخرجون عما هم فيه اذا نادى بهم من يعظهم ولكن (تعذر) ذلك الامر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عم انحاء الكرة على العموم وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الامم المتمدنة ورأينا ماهم عليه من الاحوال الحسنه وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا الهجنة كثرتهم وفاقتنا وعزتهم وذلتنا وقوتهم وضعفنا وقدرتهم وعجزنا وصولتهم وانهزامنا وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لاتعد و بها يعتد بل في زمان خرج فيه العلم من الاذهان الى الاعيان وتنزل من مرتبته الروحانية وتجلي في الصور الجسدانية وفتح لنا رياضه وهيأ للغرس غياضه وأصبح يجول بيننا في علاه وينادي بأرفع صوت وأعلاه الامن سائل فأعطيه الامن فقير فاغنيه الامن طالب سلطان فيناله الامن محارب عدوان فنحدد نصاله الامن حيران في غسق الضلال يمن على نفسه بنظرة لسنانا المتعال ونحن بمسمع من نداه ومرأى من سناه لكن صمت الاذان وعميت الابصار (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ـ ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وهل يليق (بقوم) أن تكون هذه الجهالات أفكارهم وتلك المستهجنات آثارهم مع كل ما قدروه من صنيع مليكهم وحامي ذمارهم جناب الخديوي الاعظم لازال قضاؤه في الكائنات يبرم حيث قد بذل الهمة في اجتلاب المعارف وتوسيع دائرة الآداب والعوارف اذ فتح المدارس والمكاتب (وعني) بالاساتذة من الاقارب والاجانب واجتذب التلامذة من كل جانب حتى أضحت غايات الارتقاء سهلة الاكتساب وخزائن الخيرات مفتحة

الابواب وترعرع روض المعارف وأزهر زهره وبدا صلاحه وينع ثمره (ولكن لم يكن له مقتطف ولا مجتني ولا عان ولا معتني) وأطلق الحرية أيده الله في اقتناء هذه الخيرات واجتناء هذه الثمرات وافترش بساط العدل ودعاهم بذلك الى دار الكرامة والفضل فهلا انتهزوا الفرصة قبل انقضاء آجالهم وانتكاس آمالهم ولعمري ان ما فعل الخديوي في هذه البلاد من موجبات الاسعاد لو كان عند أمة أخرى لكانت بلغت الى غاية الكمال ووقفت على حد الاعتدال وأصبحت مفيدة لا مستفيدة وتقلدت سيوف العز بدل القرعة والجريدة فانا لم نسمع ان ملكا من ملوك أوربا الذين قد خلدت أسماؤهم في الصحف الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن في أقطارهم قد بذل الهمة في ذلك معشار ما بذله جناب الخديوي فيه فلله سعيه اذ قد أتى بكل ما يمكن ان يؤتي به في سعادة أمته ولكن ماذا نصنع في همتنا الكمالى «يا خيبة المسعى اذا لم نسعف» لكن

على المرء ان يسعى الى الخير جهده وليس عليه ان تتم المطالب

فهلا ساعدوا هذا المليك في اسعاد أنفسهم وتخلصهم من بؤسهم «ان هذا الشيء عجاب» لا العواصف تحركهم ولا العواطف تجتذبهم ولعل ذلك المرض فيهم قد خفي دواؤه واعيا الطبيب شفاؤه نسأل الله العافية

ولعل قائلا يقول ان هذه الحادثة تثني الامل ولا تنذر بخيبة العمل فانها جزئية من الجزئيات لا يحكم بها على الكليات فانه في كل زمان وفي كل مكان يوجد الحمق والأغبياء وأرباب الجهالات والاشقياء وذلك لا ينافي حكم الغالب: فأجيبه بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ولا أبدع واقعة وقعت ولكن ذلك أكثر من الكثير وأمره فاش بيننا شهير خصوصاً من الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة فإنهم الى الآن لم ينظروا الى أنفسهم ولا الينابيع الرحمة ولم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على ابناء ملتهم (بعائدة) ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه وطويت صحفه وولت ركائبه غير ملتفتين الى انا أصبحنا في خلق جديد قد طرحتنا الايام بدينثا

وشرفنا في بادية قد غصت بآساد ضارية كل يطالب منا ثاره ويطلب شن الغاره فان كنا من آحاد تلك الاساد فقد وقينا أنفسنا ودِيننا والا فاما نطرح ديننا وننجو بانفسنا واما ان نبيد عن آخرنا بسوء الجهل وضلال الطريق مع ان ملاك الامر بأيدينا فعلينا ان ننظر الى أحوال جيراننا من الملل والدول وما الذي نقلهم عن حالهم الاول وأدى بهم الى ان صاروا أغنياء أقوياء حتى كادوا ان يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل فاذا حققنا السبب وجب علينا ان نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ونستعد لخيرنا فيما هو آت وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا

أليس من البين أنه لا دين الا بدولة ولا دولة الا بصولة ولا صولة الا بقوة ولا قوة الا بثروة وليس للدولة تجارة وصناعة وانما ثروتها بثروة أهاليها ولا تمكن ثروة الاهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب فان ذلك أمر قد خفي على ذوي الالباب فضلا عن غيرهم كيف لا وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالاخشاب والنبال والسهام وخزف الجبال وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهيد القيم وحضرنا زمان نضطر فيه الى المراكب المدرعة ومدافع المتراليوز والمكروب وبنادق الابرة وغير ذلك من الاسلحة التي تجددت وستجدد فيما بعد فان الشر الذي هو طعناصر الانسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع فانهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد واخلاص . وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا ودِيننا من شرر هذه النيران بدون ان يكون عندنا ما يماثلها إن لم نقل ما يزيد عنها وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بداني الحرف؟ كلا بل لا بد من أن تؤتى البيوت من أبوابها وتطلب المسببات من أسبابها فلا بد من البحث عن وجوه الاكتساب من وجه الصواب والاستضاءة بنور المعرفة والتبري عن مرافقة السفه وليس من يرشدنا الى ذلك الا ابناء هذه الطائفة فانهم أرواحنا وقائدوا أشباحنا حيثما توجهوا توجهنا وفي أي وقت على أي شيء عرجة

عرجنا وان من حقهم ان يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم و بيان فوائدها وما يترتب عليها من المنافع وعلى عدمها من المضار ووجه احتياجنا اليها ولعمر الله قد كان ذلك خير الاعمال وأحبها عند الله لان اعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الاسلام مقدم على جميع الشعائر فانه بعد زوال الرأس لا يبقى لسائر البدن الا الرمس كما هو بين عندهم وغير خاف عليهم ولا تظنن اني أقول ان توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بلزومه لرقة في دينهم حاشا الله بل أنهم لم يلتفتوا الى لزومه وانه أهم مايهم وأوجب مما يجب ولو أنهم التفتوا اليه وحققوا الامر على ماهو عليه لقاموا بارشاد الناس اليه على قدم وساق وضاقت المساجد بخطبائهم ووعاظهم وحث الاهالي وتحريضهم على استحصال ماهو أساس لحفظ دينهم على ماهو المعهود منهم من الهمة فيما يكون مقوياً للشوكة ديننا وصولته ومحافظتهم علي بقاء عزته وقوته ومن لي بان ينتبهوا الى هذه النكتة وانه لا بد لهم من الالتفات الى هذه اللوازم البتة كي يمنوا علينا بحسن النظر ويعينوا لنا حد الخير والشر فانا لا نسمع الا مقالهم ولا نرمق إلا أحوالهم بل لا نسمع الا بآذانهم ولا نبصر الا بابصارهم ولا نذوق الا بذائقتهم ولا نتكلم الا بألسنتهم كيف لا وهم الارواح ونحن الاشباح وهم النسمات ونحن الارواح حيثما مالوا ملنا وماملوا مللنا نعم اننا نحتاج زيادة على هذه المدارس الى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسئلة وهي ان العلم نافع والجهل ضار وافصاح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار بل هي ألزم من جميع اللوازم فانه مالم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الاقدام عليه بل يكون مبتذلا عند النفوس مرموقاً بعين البؤس تشمئز منه الطباع وتنفر منه الاسماع وان هذه المسألة أي ان العلم نافع لنا والجهل مهلك لارواحنا وأبداننا مسألة صارت عندنا من أدق النظريات يحتاج في بيانها الى كثير من المقدمات والحجج والبينات مع ماينضم الى ذلك من الاعتبارات كالترغيب والترهيب والتمثيل والتقريب والاجمال والتفصيل والايجاز والتطويل على حسب اختلاف أمزجتنا في القبول وعلى الله تمام المسئول

﴿ وجاء في العدد ٤١ من هذه السنة مانصه ﴾

التحفة الادبيه

انه حينما كانت همم أرباب الفطن النقادة والفكر الوقادة (من أهل) العربية في أوج كمالها وافلاك سعاداتها في منازل اقبالها كانت الأمة تباهي سائر الأمم برجالها العقلاء السياسيين وفلاسفتها المستبصرين وتختال بينها عجباً بمالها من الثروة والقوه والعزة والفتوه وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سمائهم حيث كانوا قد استووا على منصات الكمال في التعقل والتبصر على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت . وبينما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها واحاطتها بدقائق المعاني) التي كان يبديها العرفاء من المتكلمين بها وكانت متحلية متزينة بحلية الاصطلاحات العلمية كاصطلاحات الطبيعيات والالهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من سائر الفنون وكانت قريرة العين بتلك الحلية والزينة وازديادها وانتظامها على حسب مرور الازمان (إذ) فترت تلك الهمم وتنزلت الى حضيض الانحطاط لموانع قد اعترضت سيرهم وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأوقفتهم (عند حد) لم يتجاوزوه بل أرجعتهم الى مقام كانوا قد تقدسوا عنه وتركوه

تلك الامة (كان) ما كان لها من الشان وبدأ أمرها بعد التمام في النقصان وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الحلي والزينة وأمست للصغار والابتذال رهينة وتقدم سائر الامم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الامة وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ونالوا من الثروة والرفاهية وتحلت السنتهم بالعلوم والمعارف وديارهم بالبدائع وبهي الزخارف وتطاولت ألسنتهم بالفخار على لساننا وباهت رجالهم في السياسات والافكار رجالنا فلما قرع آذان أبناء الامة العربية سهام الملام قام فيهم قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهدا في استرجاع ما فقدوه رغما لتلك الموانع وقسراً لحركات هاتيك القواطع فنشأ فيهم من بذل الهمة في استحصال العلوم واللغات وبرعوا في ذلك وترجموا الى لغتهم العربية

(الكتب) من جميع الفنون كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذلك من الفنون المفيدة فتجلت لغتنا في حليتها وبدت ترفل (في) ثياب زينتها الا أنه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ويقلدها لآلئ مبانيه حتى قام بهذا الامر العظيم جناب الفاضل الاديب واللوذعي الاريب الذي يغنيك رؤية أثره عن عطر ذكره الخواجا حنين نعمة الله خوري فتبرع لابناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع لم يسبق سابق بمثاله ولم ينسج ناسج على منواله وهو ما ألفه الوزير الشهير كيزو فانه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسات ما تحار فيه ألباب أرباب الرياسات حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ومادة الحياة وهو الكتاب المسمى بالتحفة الادبية واني لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الاستاذ الاكرم والفيلسوف الاعظم الذي تشرف بذكر اسمه مسامع القاصي والداني جناب السيد جمال الدين الافغاني وهاك ما قال

«لا ريب ان كل انسان طالب للسعادة بطبعه وهارب من الشقاء بوسمه فجميع حركاته وسكناته انما هي لاستحصال تلك الغاية وان سعادة الانسان انما تقوم بسعادة ملته وأهالي وطنه فانه عضو من أعضاء الملة ولا شك في أن العضو يشقى بشقاء سائر الاعضاء ويتألم بآلامها الا ان يكون أشل عديم الاحساس فأعظم سعادة تطلب انما هو سعادة الامة والملة التى نشأ الانسان فيها الا أن للوصول الى هذه السعادة المطلوبة طرقا وعرة السلوك وربما ضل فيها الطالب فوقع في نقيض المقصود وتردى في حفرة الشقاء فكان من الواجب على كل انسان (أن) يأخذ الاهبة ويمتحن جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطلب الجليل ومن المعلوم ان المستبد برأيه كثيرا ما يعرض له الخطأ بل قلما تقع منه الاصابة فأحسن الطرق واولاها بالسلوك هو الطريق الذي قد امتحنته أيدي التجربة وترتبت عليه تلك النتائج في عالم الاعيان وها نحن لا نشك في أنه قد حصل لاهل أوربا تقدم ووصول الى الغاية المطلوبة في هذا العالم وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قياسا صحيح النتيجة حتى أوصلتهم الى هذا المطلوب فلا بد لكل انسان ان

يبحث عن تلك المقدمات التي انتجت سعادة أولئك الامم حتى يستعملها في ايصال أهالي ملته ووطنه الى مثل ماناله غيرهم حتى يسعد بسعادة ترابه الذي نشأ فيه والوزير كيزو قد جمع في كتابه هذا جميع الشروط والاسباب والوسائل والآلات التي كان لها المدخل في سعادة الاوروباويين والعناصر التي تكون منها ذلك المزاج اللطيف بحيث ماأبقى شاردة ألا اقتنصها ولا خفية الا الى العيان أبرزها وأحكم بيانها فعلى عالم الانسانية أن يشكر له هذا الصنع البديع وعلى أبناء العرب خاصة ان يقوموا بشكر مترجمه الفاضل فانه قد بالغ في تهذيب العبارات وتحقيق الاشارات حتى أتى على المرغوب من ايضاح معاني ذلك الكتاب بألفاظ رقيقة عذبة المذاق متسقة المساق تتسابق معانيها الى الاذهان وتبرز دقائقها في عالم العيان فكان حقيقا بأن يجعل قلادة في عنق كل واحد من أبناء هذه الامة العربية فعلى أبناء أوطاننا وأهالي لغتنا العربية ان يعرفوا له هذا الجميل الجليل ويبذلوا الهمة في مطالعة هذا الكتاب العظيم الشان ودراسته والاخذ بسيرته والسير على طريقته حتى تستنير عقولهم وتندفع الى المعالي هممهم ويعضدوا بذلك مقصد هذا الفاضل فانه لم يكن له بغية في هذا العمل سوى ترقية هذا الفن في ابناء هذا الوطن فليؤيدوه بالهمة والنشاط في ذلك وليقتدوا به في النهوض الى مثل هذا الصنيع المفيد فان بيت السعادة محتاج الى أركان كثيرة ومما يرشدك الى أنه لم يرم شيئا سوى نفع أبناء الوطن وانه محب صادق لخيراتهم أنه لما رأى أن بعض أهل العلم من الازهر قد نشر بعض مقالات على الطرز الجديد بدت منه علائم السرور والابتهاج وسارع الى مدحهم والثنا عليهم وشكر ذلك اليهم فجزاه الله عنا وعن أهالي أوطاننا خيرا وخلد له أحسن الذكرى»

محمد عبده

﴿يقول جامع الكتاب﴾ سقطت كلمات من هذه المقالة تعرف بالبداهة فوضعناها بين أقواس وسبق مثل ذلك في غيرها وهذا آخر مارأينا للاستاذ الامام من المقالات في السنة الاولى من جريدة الاهرام وكان لايزال مجاورا في الازهر لم يصر مدرسا رسميا وهي تدل على انه أوتي كمال العقل من أول نشأته رحمه الله ونفعنا به

٣

مقالات الوقائع المصرية (الرسمية)

كتب في العدد ٩٤٢ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في (١٤) القعدة سنة ١٢٩٧ — ١٩ اكتوبر سنة ١٨٨٠

حكومتنا والجمعيات الخيرية

ان مما تثلج به الصدور وترتاح له النفوس ويبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا ماتراه من اقدام ابناء قطرنا على الاعمال الخيرية وجدهم ونشاطهم في تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها وأخذهم بالوسائل الحقيقية التي تؤدي الى ذلك وان سبقنا اليها سكان الممالك المتمدنة وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكمال السطوة وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف اشكالها وتتحد مقاصدها وتتعدد أماكنها وطرق سيرها وتتفق غاياتها وفوائدها فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي اعضاء مختلفة يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة ويزيدنا املا وثقة مانشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات وشد عضدها بما تبديه من المساعدات لها في كل ما يوجب ثباتها وتقدمها وتشييد أركانها وتقوية دعائمها بما تصدره من الاوامر السامية في شأن تقريرها واعترافها بها حتى يظهر للي النظر ودقيقه ان الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة لطيف الإشارة يبث الغيرة في القلوب ويجذب الهمم من خطة الخطاء ويدعو افراد الرعايا إلى الهدى والرشد ويعلمهم الواجب عليهم لأنفسهم وهو المحبة الوطنية والألفة الأنسية والتعاون على جلب المنافع العامة التي يشترك فيها كل واحد منهم ودفع بلايا الفقر والفاقة والذلة الناشئة من الشقاق والتباغض المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الانسانية وصدور مثل ذلك من حكومة مصرية وان كان غريبا عجيبا اذا رجعنا الى صفحات التاريخ في الازمان الماضية الا أنه ليس بمكان الغرابة في عصرنا هذا فان الجناب الخديوي المعظم قد عرف من عهد شبوبيته بالميل الى المعارف وشدة الحب لها والسعي في تربية

الاهالي وتهذيب عقولهم وعلى ذلك وزراؤه الكرام أيد الله شأنهم ومن ذلك لانعجب اذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لاهل الخير ممهدة لهم طرق الوصول الى خير مايقصدون بعد ماذللت لهم المصاعب الكاية (التي أدركهم اليأس من تذليلها في سنين طويلة) بعناية خديويها الجليل وهمة دولتلو رئيس النظار (١) وان من أقوى البراهين على مانقول إقبال الجناب الخديوي ودولتلو رياض باشا ناظر الداخلية الجليلة على من قدموا اليه من رجال الجمعيتين الخيريتين الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية وجمعية المقاصد الخيرية بمصر فقد قابلهم الجناب المعظم بصدر رحيب ووجه باش وأجاب الناس كل بأن يصير سعادة ولي العهد رئيساً عاما للجمعية المبعوث من طرفها وعند ماعرض قانون كل من الجمعيتين على دولتلو ناظر الدخلية الجليلة أقره واستحسنه وبعث الى نظارة المعارف باعترافه وقبوله وأصدر الامر بتقرير كل من الجمعيتين وشكر صنيع كل من رجالهما وحث على مساعدتهما في كل مابه تقدمهما غير انه لم يغض الطرف عن مايلزم لعموم نفعهما وهو مراعاة وحدة التعليم وان تكون موضوعات التعليم فيهما متحدة مع مافي المدارس الميرية ليتأتى قبول تلامذتهما فى المدارس العالية ليتمتعوا بتتميم دروسهم فيهاونيل الشهادات الحقيقية على ما اكتسبوه من الفنون وخص جمعية الاسكندرية باعانة نقدية يبلغ مقدارها ٢٥٠ جنيها من جانب الحكومة في كل سنة حيث انها قرنت بين العزم والفعل وشوهد لها أثر في العيان الا أنه حث مندوبها على مراعاة الفقراء والايتام والاكثار منهم بالمدرسة قائلا ان للاغنياء طرقا كثيرة في تعليم أبنائهم أما الفقراء فليس لهم سبيل اليه واننا لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم في الاعانة والتقدية ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقيا راسخا فى القلوب ثابتا في العقول لا أن يكون ظاهريا على سطوح الخيالات والاوهام فهذا الصنيع الجميل من هذا الوزير الجليل يستدعي انطلاق الالسنة بالثناء عليه وميل الافئدة بكليتها اليه وما كل ذلك الا بعناية الخديوي وحسن مقاصده خلد الله دولته ومكن فى الآفاق سطوته وسنرى من آثار هاتين الجمعيتين مايحمد أثره ويخلد ذكره وهذا محصل

(١) كان رئيس النظار وناظر الداخلية لذلك العهد رياض باشا الشهير

ما كتب من نظارة الداخلية الى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالاسكندريه بتاريخ ١٢ القعدة سنة ٩٧

«ليس بخاف ما نهض اليه الموفقين من أهل البر والاحسان من ذوات ووجوه الثغر السكندري في تأليف وانشاء جمعية خيرية لتعلم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة وقد قرنوا العزم بالفعل اذ أنشأوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى وحبا فيما يعود على الوطن بالخير والآن قدموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم بما قرروه من إنشاء مستشفى للمرضى ومكتبة لمطالعة الكتب واستنساخها ثم دار ضيافة لمن يقدم على الجمعية وان يكون من شؤونها مواساة الارامل وتربية الايتام من أبناء أعضائها بعد موتهم وغيرهم ومساعدة من يصا ون في انفسهم وأموالهم بما يقوم بدوائهم وتكون رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الاكرم وحيث كان هذا المشروع من محاسن الاعمال العائدة بالمزايا على الوطن وأهله الدالة على جمال المقصد وهي مطابقة من كل وجه لافكار الحضرة الخديوية وعند تلاوة مفصلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع ملائما موافقا للطبع فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية وتقريرها على حدتها ومعرفتها بالاسم الذي عنونت به ولزم تحريره لسعادتكم اخطارا بذلك لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به تقدمها وحسن سيرها ومن طيه نسخة القانون للعلم بما اشتملت عليه وحفظها أساسا لذلك بالمعارف

«وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم ونشرها بالصفة التى أوضحت بقانونها وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها فعليكم اعطاء جميع التعليمات والاوامر التى تلزم لذلك »

احترام قوانين الحكومة وأوامرها

من سعادة الامة

وكتب في العدد ٩٥٢ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في ٢٦ القعدة سنة ١٢٩٧ — ٣١ اكتوبر سنة ١٧٨٠

انما تسعد البلاد ويستقيم حالها اذا ارتفع فيها شأن القانون وعلا قدره واحترمه الحاكمون قبل المحكومين واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقي ومفهومه عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ويسري فيها روح السعادة وتهطل عليها سحائب الرحمة فتخصب بها ارض الثروة لكون جميع الاعمال على اختلافها حينئذ متجهة الى غاية واحدة هي النفع العمومي المنقسم على كل فرد من أفراد الرعية على التساوي كل بمقدار عمله وصاحب الحظ الوافر من السعادة هم العمال والمأمورون وأركان الدولة لأنهم مصدر الاعمال الكلية التي عليها يدور نظام البلاد فينالون من الثمرة على مقدار مالهم من الفضل

وليس يكفي في راحة العباد وانتظام المملكة ان توضع القوانين حاوية لكليات الامور وجزئياتها ثم تهمل من النظر وتطرح عن الفكر ويستمر كل ذي عمل في عمله يتبع فيه رأي نفسه ان خطأ وان صوابا فان هذه الحالة يستوي معها وضع القانون وعدم وضعه ولا فائدة في ابراز فصوله وأبوابه من عالم الفكر الى عالم اللفظ والكتابة بل يكون هو والعدم سواء وتتساوى بلاد ارتقى فيها الفكر الشرعي الى أعلا درجة مع بلاد بلغت أقصى غاية من الهمجية والتوحش فان نهاية أمر الجهتين هو الاختلال والشقاء وطالما افتخرت حكومة مصر في الزمن السابق بإصدار اللوائح ووضع القوانين وتجديد النظامات وتنقيح الاصول الاساسية وسجلت ذلك في الدفاتر وخلدته في بطون الاوراق حتى كان الناظر في ذلك يظن ان بلادا هذا نظامها وذاك قانونها لفي غاية من السعادة والراحة لكنها كانت تحنو أعناقها خجلا عند ما كان يظهر من أعمالها وأعمال عمالها ما يضاد

القانون الذي وضعته و يؤدي الى شقاء البلاد التى حكمتها ولا تؤاخذ على ذلك
وهذه خصلة لا يرضاها العاقل لنفسه أعني أن يعمل على خلاف ما يرسم و يحدد
أما حكومتنا اليوم فلم تسمح بوضع اللوائح تحت المساند ولا فى مستودعات
الدفاتر ولا تحت تراب الاهمال والاغفال بل لا تزال همة رجالها متوجهة الى
جعل القانون عنوان العمل فلا تصدر حركة من آمر أو مأمور الا على طبق مارسمته
في أوامرها العالية فان بقي من تلك العادة السيئة (أعني اهمال الاوامر) شيء
في نفوس البعض من ذوي المناصب و بلغ ذلك مسامع رئيسه الاعلى وجه اليه
اللوم والعتاب وانذره انذار من يؤاخذ بالذنب و يعاقب على الجرم وأخذته
الغيرة على قانونه الذى سنه خوفا عليه من الضياع وعلى ثمرته من الفقدان فان
تكررت منه المخالفة أنزله عن منصبه بعد احالة النظر في مخالفته على المجالس القضائية
وذلك كله لحسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها باصلاح بلادها و بهمة دولتلو
رياض باشا رئيس النظار وغيرته على الحق وتيقظه وسهره على تنفيذ لوائح الحكومة
ومنشوراتها علما منه ان أسعد البلاد ما نفذ فيها حكم القانون خصوصا ان كان ذلك
القانون عادلا يوافق مصلحة البلاد وانه لا فائدة في اجهاد النفس لوضع اللوائح
وتأسيس المنشورات اذا لم يجر عليها العمل ولم تكن نصب أعين العمال في جميع
اجراآتهم ينظرون اليها و يسيرون في كل أحوالهم عليها

فرغب هذا الرئيس الجليل رغبة حقيقية في تأييد حرية العمل في هذه البلاد
ورفع سوط القسوة الغير القانونية وابطال عمله بالكلية اذ لم يجعل لاحد من المأمورين
سلطة على أحد من الاهالي الا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة كما هو شأن العدالة
وحقيقة النظام وأعلن ذلك بالصراحة فى منشورات الداخلية الجليلة مرارا ليعلمه
الحاكمون والمحكومون معا فيعرف الاهالي حقوقهم ممتازة ظاهرة فلا يسمحون بخدشها
و يعتبر بذلك المديرون وصغار المأمورين فلا يسخرون أحدا في عمل من الاعمال
بغير حق والا فلا يأمنون عاقبة ذلك وسوء مغبته. نعم لهم الحق فى أن يسوقوا
المتقاعدين عن الاعمال التى تطلبها مصلحة البلاد بسوط العدل الذي لا يرفع عن
المهملين وهذه صورة منشور جليل صدر من نظارة الداخلية فى هذا الشأن منبئا بغيرة

دولتلو ناظرها الافخم وشدة محافظته على رعاية القانون

* * *

« قد علمنا مما كتب لنظارة الداخلية من مديرية الشرقية بالتلغراف أنه أخذ جملة أنفار من أهالي مديريته وتوجه بهم الى جهة شالوفة لاصلاح ما حدث من الخلل وترميم ما وقع من التهدم بجسر سكة الحديد في المسافة الواقعة بين هذه الجهة والسويس ولما سئل عن إقدامه على هذا الاجراء بأمر من هو أجاب بأنه أقدم على ذلك بناء على تلغراف ورد اليه من عموم ادارة السكة الحديد ولما رآه من المصلحة العامة في ذلك مع تعهد ادارة السكة الحديد بدفع أجر الانفار ولا يخفى ان هذا الاجراء لا ينطبق على القواعد الاساسية المتبعة ولا يوافق نصوص الاوامر السامية المصرحة بأنه لا يجوز تكليف الاهالي بعمل من الاعمال الا اذا كان عائدا عليهم بالمنفعة العمومية كري مزروعاتهم وحفظ أراضيهم و بلادهم من غوائل الغرق فقط . نعم ان منفعة السكة الحديد تعد منفعة عامة لكن لها دائرة خصوصية ترجع اليها ايراداتها ومصاريفها فعليها أن تتدارك جميع أعمالها من طرفها باستعمال مأموريها أنفسهم فيما يلزم لها وليس لها أمر ولا نهي على المديرين من أعمال الادارة ولا غيرهم فيما يماثل هذا الامر ولو صدر عنها ذلك فلا يصح لمدير أو من دونه أن يجيبها أو غيرها الى ما تطلب بعد ما علم هذا الاساس المتين خصوصا ان أوامر الحكومة الصادرة الى المديرين ناطقة بأوضح عبارة بأن كل مأمور مكلف بامتثال أوامر النظارة التابع هو لها فالمديرون ليسوا بتبعة لمصلحة السكة الحديد ولا غيرها من المصالح ولكنهم تابعون لنظارة الداخلية ولا يسوغ لهم إجراء عمل ما يشبه ذلك الا بأمر يصدر لهم منها فعلى المديرين والاهالي عموما ان ينتبهوا لمثل هذه القوانين الثابتة و يراعوها حق المراعاة و يعلموا انه لا سلطة للمدير أو غيره على أحد من أهالي البلاد في عمل من الاعمال الا فيما يعود اليهم بالمنافع العامة فقط وهو ما يتقرر بالجداول في كل سنة من أعمال التطهير وتقوية الجسور وحفظ البلاد عند فيضان النيل وكل من يبدو منه أدنى مخالفة لهذه الاوامر بأن يكلف الاهالي بأداء أعمال لا تجب عليهم ولا هي في منفعتهم العمومية المقررة

في جداول العمليات فقد أوقع نفسه تحت خطر المحاكمة ونفوذ أحكام العدالة فيه ومجازاته بما يقضي به القانون وبهذا لزم الاخطار لعموم الجهات ومن الجملة لسعادتكم تحذيرا من الوقوع في المخالفة .

حب الفقر او سفه الفلاح

وكتب في العدد ٩٦٩ الصادر في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٧ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ تحت هذا العنوان ما يأتي

كان أهالي بلادنا محملين من الاثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب على الأراضي متنوعة متكثرة تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والاعوام وجرائم تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام لاتنتهي الى غاية ولا تقف عند حد حتى بلغت بهم نهاية لايستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ولا قاعدة معروفة بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم وارادته الغير المرتبة فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بانواعها في أول شهر منها وتارة يطالبون باموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ولا محيص لهم عن الاداء فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك والحبس المؤبد أو انتزع منه جميع ما بيده قهرا وماشا كل ذلك من المعاملات الخشنة

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الالتجاء الى التجار وأرباب البنوك الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم في ذلك الوقت وأشد أنصاره فاذا رأوا حاجة الاهالي اليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم ان اقرباج وراءهم فلا قدرة لهم على الصبر ولا سبيل الى التخلص من ألم العذاب ولو وقتا الا بالرضاء بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة فكان التاجر لا يؤدي نقوده سلما ولو قبل الحصاد بعشرين يوما الا ستين فيما يساوي مائة وقت الحصاد فتكون الفائدة أربعين أو أزيد في الشهر الواحد وصاحب البنك لا يعطي الا بفائدة في المائة عشرة بل أزيد في كل شهر ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر وجميع هؤلاء حاضرون

أحياء نعلمهم وهم يشهدون فكانت تلك الايام وبلا ووبالا على الحكومة والاهالي جميعا وكانت سعدا وربيعا للتجار وأرباب البنوكة الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الاغنام فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ عنها بالكلية فأحاط بهم الفقر وصاروا في أسوأ حال

والحمد لله أصبحوا في هذه الايام وقد خففت عنهم الاثقال وألغي كثير من الضرائب الغير القانونية ووقفت المطلوبات عند حد معروف وضربت لتأديتها مواقيت محددة على حسب فصول السنة وما يكون فيها من حاصلات الزراعة فتوفرت على الاهالي ثمرات أتعابهم وصار والآن لاحاجة لهم الى بيع شيء بأقل من قيمته ولا بفلس واحد فان اوقات الاداء هي أوقات اجتناء ثمرات الزراعة ومع ذلك فالمطلوب مقسط باقساط خفيفة سهلة الاداء لا تلجيء صاحبها الى ارتكاب شيء مما كان يرتكب أولا فنمت الثروة نموا لم يكن يخطر بالبال وأيقنا ان الاهالي سيثبتون على أملاكهم ويعتبرون بسوابق أحوالهم فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى حتى يستردوا ماسلب من أيديهم قهرا ولو باعلى قيمة وأغلى ثمن وتأخذهم الغيرة على أملاكهم وأملاك اخوانهم التي أصبحت في أيدي غيرهم يتمتع بخيراتها ويتلذذ بشهي ثمراتها فيطلبون رجوعها اليهم بدفع أضعاف قيمتها الاصلية كما هو شأن الاحرار ذوي الشرف والهمة وذلك لايكون الا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة أو دونها حرصاً على نيل الشرف الحقيقي وهو تخليص أملاكهم أو حفظها من تطرق يد الغير اليها

الا اننا نأسف كل الاسف اذلم نظفر بهذه الامنية فان الحكومة لما رفعت عن كواهلهم أثقال المظالم وخففت عنهم أحمال المغارم فتحوا على أنفسهم بابا من الفقر آخر يلجونه باختيارهم وارادتهم بدون قاسر ولا قاهر وهو باب السرف والتبذير والاكثار من لوازم الرفاهية والزينة وما يكسب الظهور الكاذب بلاطائل فرأيناهم يتفاخرون في إعداد الولائم وإتقان أشكال الزينة ويتنافسون في تشييد الابنيــة ويتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ لايقفون فيها عند حد ولا ينتهون

الى غاية (كما كانت الضرائب في الزمن السابق) وليتهم مع ذلك ينقدون في اجتلاب هذه الاشياء قيمتها الحقيقية ولكنهم من الجهل يشترون ما يساوي عشرة بعشرين إن لم تقل بمائة فان ضاق ايراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع أسرع الى البنوك يرهن فيه أرضه وعقاره بفائدة ليست بقليلة يلزم نفسه بأدائها أعواماً كثيرة و يظنها سهلة الاداء مع انها تحت شروط شديدة علیه لطيفة على صاحب البنك غير متدبر عاقبة الامر ولا متبصر في نتائج هذه الغفلة

بلغني ان بعض الاعيان في بلاد نارهن أرضه الزراعية الخصبة على خمسة وعشرين ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور . أليس هو الاحق بهذه الفائدة التي هي ثلاثة أضعاف ما أخذ وهي ثمرة كسبه ونتيجة تعبه وما عليه اذا اقتصر في مصرفه ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ بل أكثر منه ولعمر الحق انه لو أنفق على قدر ايراده أو نصفه لقلنا أنه من المسرفين ولكن أبى حاكم الشهوات الا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطي الافكار بما لا يطيقون كأنهم يبرهنون باعمالهم هذه وتهورهم في الاسراف والانفاق على أنهم ليسوا أهلا للثروة ولا مستحقين للغنى ولا يتحملون ثقل الخير على أنفسهم بل يحبون ان يكونوا على الدوام فقراء مترببن لا يملكون شيأ وان كانوا في صورة أغنياء مثرين و يرغبون ان يكونوا تحت ذل الدين وأثقاله اذ رسموا على ذواتهم ان تكون في قبضة أرباب الدين يتصرفون فيها وقت ما يشاؤن ولا يعلمون ان نكبات الدهر كثيرة الورود شديدة البطش فربما اجتاحت (زرعه) جائحة سماوية (كالمعروف عندنا بالدودة أو الهيفة) أو أصيب بموت ماشيته أو نزلت به حادثة غرق أو شرق أو ما شاكل ذلك من المصائب التي لا مندوحة عنها فيعجز عن الاداء فتباع أملاكه و يصبح من الخاسرين ولا يبقى له سوى الحسرة في قلبه على ما فرط في شأن نفسه وكان من الواجب على هؤلاء المساكين (الاغنياء والمتوسطين) ان ينتهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيها ما ينفعهم زمن الشدة ويوفروا على أنفسهم شيأ من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكربة والا فقد دلت التجارب على ان عاقبة الاسراف حسرة تملأ القلب وحيرة تدهش اللب وسنعود الى هذا الموضوع مرارا ان شاء الله

وكتب في العدد ٨٨٩ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٨ (١٨) ديسمبر سنة ١٨٨٠

(عدنا والعود احمد الى موضوع حب الفقر او سفه الفلاح)

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الانسانية الجليلة بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وامساك أعني ان الاقتصاد هو التوسط في الانفاق بحيث لا يبسط صاحب المال يده كل البسط حتى لا يبقي فيها شيئا ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا بل ينفق من ماله على حسب حاله يقدم الأهم فالمهم في دفع الضرورة ويقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناه وفقره مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض الغير المنتظرة التي قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بغتة من حيث لا يشعر فاذا جمع الشخص بين الامساك عما لا يلزمه والبذل فيما هو أحوج اليه فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم (الاقتصاد نصف المعيشة) والمعنى ان المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته فمن كسب مالا فقد حاز أحد الامرين فان لم يحز الآخر وهو حسن التدبير فقد فقد نصف معيشته أي فقد أنهدم أحد ركني المعيشة فان حاز الامر الثاني هو الاقتصاد فقد تمت له المعيشة وتوضيح الحقيقة في هذا الباب ان من أجهد نفسه في الاكتساب وتحصيل الاموال ولم ينفق منها شيئا على نفسه في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته أو أنفق منها قليلا جدا بحيث لا يفي بلوازمه ولا يقضي واجباته فهو وان كثر ماله وغزرت مادة ثروته لكنه في الحقيقة ناقص المعيشة فقير جدا وهذا الكاسب ليس الا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ فهو خفير فقير بيده مفاتيح الخزائن ولكن كأنها مملوكة لغيره لا ينال منها شيئا ولم ينل الا التعب والشقاء لا غير وكذلك ان تجاوز في النفقة حد الواجب بأن حدد لنفسه من الامور ما ليس بلازم وصرف جميع ما اكتسب أولا فأولا فانه يكون في غاية من الفقر وان كثر الايراد جدا لانه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئا فهو

بمنزلة من يصب مافي حوض فتح في قاعه بالوعة كبيرة لاتبقي شيئا مما يصب في الحوض فالماء دائم السيلان لكن الحوض فارغ فهو في الحقيقة فقير جدا ان ألمت به مصيبة أصبح مترباً فى غاية الاحتياج والاضطرار يرشد الى هذا كله قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) وهذه القاعدة الجلية مع ظهور فائدتها فى انتظام أحوال الانسان بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل وترغيب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها على مانطقت به الآيات والاحاديث نرى كثيرا من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف بعضهم يميل الى جانب الامساك بالمرة والبعض الآخر يميل الى جانب الاسراف بالكلية أما الاولون فانهم يصرفون جميع أوقاتهم في الكد والتعب والاخذ بأنواع الحيل لتحصيل الدينار والدرهم ثم يودعون جميع مايحصلون بطن الارض وترتعد يد الواحد منهم عند مايقرب من الصرة أو الوعاء المحتوي على النقود فان وجب فى ذمته لله أو للناس حق صعب عليه أداؤه فيكتسب الوزر والجرم وينال من الناس الاهانة والتعزير في طلب حقوقهم وتحيط به الضرورات بأنواعها ولا يدفع شيئاً منها بشيء من ماله بل أن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته ولكنه لا يرضى بذلك ويحب أن يدوم كما أودعه لا يزيد الا بما يضمه اليه من خارج ويقتر على نفسه فى كافة لوازمه فلا يحافظ على صحة بدنه ولا يبذل شيئا في تربية أبنائه وتهذيبهم وان كان على علم بأن ذلك واجب خشية من نقص عدد النقود وان كان ذا عائلة اضربها من عدم الانفاق وأهمل واجباتها وتركهم يئنون تحت آلام الاحتياج فمثل هذا السفيه اتعس حالا من الفقير فان الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والاعدام ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار والتلذذ الوهمي بأن له نقودا فى بيته فاذا مات تركها لا يعلم بها أحد لانه اكتنزها في أخفى الأمكنة وأشدها بعدا عن الاعين فيصبح أبناؤه ومن كان في نفقته فقراء معوزين لايملكون شيئا فهذا الصنف من الناس خلق لان يتحرك في الهواء حركات الذرات الغير الشاعرة لا يدرى لأي شيء يغدو ويروح وهو عاشق للافتقار والاضطرار ويلتقي في نهاية سيره مع اخوانه في الرذيلة المسرفين

وأما قسم المسرفين من أهالي بلادنا فأولئك شأنهم غريب اذا خفت عنهم المغارم واثقالهم الحكومية من المظالم وتوفر لدى البعض منهم شيء من النقود وارتفعت اسعار المحصولات أو جاد موسمها ورأى بعضا من النقود يرن في يديه قصد الى سوق البضائع الافرنجية (التي يعد اقتناءها عندنا) يشتري أخسها وأدناها بأعلى القيمة وأرفعها حلية لزوجته وزينة لابنته وابنه وبهرجة لنفسه يظن بها يظنها رونقا يكسبه حلية واعتبارا حتى يعود وقد صرف جميع ماتوفر لديه ورُبما كان مع ذلك بيته مهدما يحتاج الى البناء ومضجعه خاليا من الفراش لايستره سوى الحصير البسيط وزوجته التي يحليها هي المنغمسة في الاقذار المكلفة بأداء جميع الاعمال الخسيسة وليس عندها من الاوقات ماتتجمل فيه بتلك الزينة اللهم الا يوم المأتم والفرح وأبناؤه الذين حلاهم بتلك الزخرفة فاقدي التربية متروكين في زوايا الاهمال يسره ان يراهم يلعبون ويتواثبون في مساحة بيته المفترشة بطبقات من الاتربة ثم اذا زاد ايراده مرة أخرى رأيته يتفنن في الولائم واقامة الافراح لابنائه وأقاربه تحت مصاريف متى فتحها على نفسه أخرجته عن طاقته وأنفق فيها المئين والالوف بجلب الاشياء التالفة التي لاقيمة لها سوى العدم ويسره في كل ذلك انه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئا من الفضائل

وكان الاليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب معينا له في أعماله يخفف عنه بعضها فان ماينفق على المساعدين يأتي بالربح ويفرغ صاحب الكسب لاعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها أو يأتي لاهل بيته بمعين على أعمالهم حتى ينالوا شيئا من الراحة أو يؤدب أولادهم ويهذبهم على شرط ان يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب بل لابد أن يبقى منه ذخيرة ينفقها عند حدوث الحوادث وينظر للعواقب نظر الحكيم ويكفيه من الافراح ان ابنه ختن أو تزوج في حياته بدون احتياج الى ماهو أزيد من ذلك فقد رأينا كثيرا من هؤلاء المساكين تأتيهم أراضيهم بالمحصولات الجيدة والارزاق الوافرة ثم ينفقونها عند ورودها في امثال هذه الزخارف الباطلة حتى اذا مضت مدة السكرة التي أتى بها الايراد وطرقته نائبة من موت مواشيه أو فساد زرعه بجائحة سماوية أو خسران تجارته أو كساد صناعته

أو حدوث أمراض أوقفته عن الاعمال وكيسه فارغ وبيته خال (الا من الزخارف التي لا أساس لها) عمد الى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته ورهن أملاكه أو بيعها حتى يصبح فقيرا معدما وقلما مكنه الزمان من الرجوع الى مثل حالته الاولى أو ما يوازيها فيأخذ في الانزواء قهرا عنه ويخلع ثياب الفخفخة والزينة ويلبس رداء الخمول والفقر وترميه العقلاء بل وامثاله من السفهاء الذين ذاقوا مثل ما ذاق أو ينتظرون عاقبة كعاقبته بالسفه وضعف الرأي وقلة العقل ويمسي ذليلا محتاجا بعد ان كان يظن نفسه غنيا عزيزا فما أصعبها على النفس من حالة وياليت النقمة كانت خاصة بشخصه ولكنها تأتي على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله وهذه الحالة نراها في الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها وهذا كما يضر بهم وبحواشيهم يضر أيضا بثروة البلاد نفسها اذ تحصر الثروة في دوائر مخصوصة عند اشخاص قليلين لوازمهم ليست بالكثيرة فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين في الصنائع والبضائع أي لقلة القادرين على اقتنائها وتقل الرغبة في الاعمال الزراعية اذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك وان أغنى البلاد وأسعدها هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهلها ويزداد الضرر اذا وقعت الاملاك والمبيعات في أيدى الغرباء والاجانب الذين لا يسرنا ان نراهم واضعي أيديهم من غالب الاملاك العظيمة والاراضي الواسعة التي كانت في أيدي أبناء البلاد بل هذا أمر يحزن كل ذي عقل وادراك ولا يغفل عنه الا غبي دني محب للفقر والفاقة واننا لنخجل من حكاية هذه الاحوال عن أهالي بلادنا خوفا من وقوع بصر الاجنبي عليها فيعرفون منا ما لا نحب أن يعرف لكننا نظن انهم على خبرة من أمورنا بحيث لا يفيدنا السكوت ولكننا ندعو النبهاء بل والعلماء أن يجتهدوا في بث هذه الافكار بين عموم الناس لعلها تنجح فيهم ولا أراها لا ناجحة ونرغب الى بعض ذوي الكلمة في بلاد الفلاحين بل وفي المدن ان يلاحظوا ذلك وينصحوا المتوغلين في الاسراف على غير فائدة راشدة بأن يكفوا عنه وأن يعتدلوا في أحوالهم خيرا لهم من ضياع أموالهم

ثم كتب في العدد ١٠٢٤ الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٩٨ — ٢٩ يناير سنة ١٨٨١

﴿ حب الفقر او سفه الفلاح ﴾

(نعود اليه من وجه آخر غير الذي بدأنا به)

خلق الانسان ولوعاً بالمنفعة حريصاً على احراز الفوائد نفورا من غائلات الاضطرار يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل و بعيدها و يجهد النفس في توفير ثمرات الكسب توقيا من عوارض الاحتياج وطوارئ الافتقار وهذه فطرة ألهمه الله اياها لتكون له مخلصاً من تعاسة المعيشة التي تنشأ عن الاضطراب في حفظ الحياة فهو يتعب الجسم و يشغل الفكر و يواصل العمل وان كان في ذلك نوع من الآلام والشقاء ليعتاض من تعبه هذا راحة كان يعسر نيلها لولا هذه الاتعاب وهي الاطمئنان على النفس والوثوق بصونها من التهلكة فترى العامل يشتغل بأشق الاعمال بياض نهاره و يتألم و يتضجر من صعوبة العمل كأنما قهره عليه قاهر وفي الحقيقة لا قاهر له سوى علمه بأنه لو لم يشتغل لفقد أجر الاشتغال وهو مادة قوته وقوام معيشته في مسكنه وملبسه وكافة مابقي حياته من الزوال فيستسهل هذه الاعمال البدنية في جنب ما تأتي به من الفائدة الكلية وهي حفظ الوجود ورفع ألم الاضطرار الطبيعي وهو الجوع والعرى وتسلط القوى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه ومصداق ذلك مانراه من السنن المقررة في أهالي المعمورة عموماً على اختلاف أصنافهم ومواقع أوطانهم يشقى كل واحد شقاء جزئيا وقتيا لينال سعادة كلية ثابتة على زعمه و يترك فوائد جزئية لا ثبات لها كلذة الراحة والبطالة لتحصيل فوائد أعلى وأثبت ولو سألنا حال الصبيان في سن الرضاع لنطق بحقيقة ماقلنا فهل يرتاب في ذلك أحد

لكننا من العجب نرى هذا الالهام الآلهي (إلهام الدأب في السعي وارتكاب بعض المشقات لنيل الراحة الثابتة) قدغشيه في بلادنا سحب من الجهل فاستتر عن النفوس فعاد الناس لاينظرون الا للغايات الوقتية بل الآتية التي ربما لايكون لها امتداد أزيد من آن حصولها وذلك بعد ان نذكره عامًّا في غالب طبقات الناس كما

يشهد به العيان من ميل جميع الطبقات الى البطالة والكسل عن تعاطي الاعمال التي يناط بها كل واحد منهم استنادا اذا للراحة الوقتية وركونهم الى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان لا يحكم لواحد منهم قانونا ولا يستفتي شريعة طالبا لمنفعة آتية ربما أعقبها نكد يمتد مع الحياة نذكره كذلك خصا في طبقة الزارعين من اخواننا الفلاحين فان لهم في ذلك شؤونا غريبة وأطوارا عجيبة أقتصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن الجادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم

يعلم كل زارع علم اليقين ان الزرع لا ينبت والنبات لا يثمر والثمر لا يجود الا اذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني ويوقن ان بلادنا ليست أقطارا يكثر فيها نزول الامطار فتعم المزارع بدون عمل منا فننال حظنا منها ونحن رقود وليس لنا من الامر شيء سوى انتظار ماء السماء فان يبس الجو مات النبت ونزل القحط والعياذ بالله

بل يعلم حقا ان الله قد منح أراضينا ماء النيل روحا لنبتها وحيوانها وهو ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطرار حاملا من المواد المغذية للنبات ماشاء الله ان يحمل غير أنه يحتاج الى أعمال اليد في توزيعه على المزارع وحفظها من الزيادة المفسدة لها فتحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها واقامة الجسور والقناطر وما شاكل ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضا ويتحقق كل فلاح ان هذه الاعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة أو قيعان الترع غير عميقة الى الحد الكافي لجلب المياه بسرعة أو سدت مسالك المياه من أي وجه من الوجوه الطبيعية لفسد الزرع اما بالغرق العام أو اليبس الكلي المعبر عنه (بالشرق) فتتعطل مادة الرزق ويسوء حال الزارعين على العموم

جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم ثم تراهم مع ذلك يفرون من الاعمال العمومية التي دعت اليها ضرورة حياتهم على ماقدمنا فرار الفريسة من المفترس وما هذا الفرار الا ملاحظة للاتعاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم قليلا وترك بعض أعمال خصوصية في البيت أو أرض الزراعة وصعوبة العمل نوعا على

ان هذه الاتعاب لاتعد شيأ بالنسبة الى ماينشأ عنها من الفوائد وعن تركها من المضرات الكلية المؤدية الى فقد الحياة وعموم التحط فلو ان لهم بصيرة واعية لقسموها على أنفسهم بالتراضي كبيرهم يستوي مع صغيرهم في كيفية أدائها بطيب القلب وصفاء الخاطر استجلاباً لمادة رزقه بدون ان يحتاجوا في ذلك الى سائق يسوقهم أو قائد يقودهم خصوصاً في هذه الاوقات التي توفرت فيها الافراد توفرا تاما بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية التي كانت عامة البلوى في انحاء القطر فكان عدد البلد الواحد الذي لايزيد عدد القادرين على العمل فيه عن مائة يؤخذ منه عشرون للعمل في الجفلك الفلاني المتعلق بالست الفلانية وعشرون آخرون للاوسية الفلانية التابعة للباشا الفلاني وعشرة لابعادية أخرى وهكذا فربما أتى يوم من الايام لاتجد في البلاد الا الشياب والعجائز والصبيان أما الآن وقد علموا ان معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب والباقون يشتغلون بالاعمال الزراعية في الاراضي فلا يليق بهم التقاعد عنها بل من الواجب على كل واحد المسارعة والمبادرة اليها بكل مافي قوته وامكانه تعاضدا وتعاونا واتفاقا تاماً على جلب هذا الخير العظيم لانفسهم عموماً وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعته التي لاطريق له سواها ثم يتقاعد عنها ويحتاج الى من يجذبه اليها بالقوة القاهرة

فان تعللوا بأنهم لاينفرون من العمل نفسه ولكنهم ينفرون من الاعمال التي كانت تصدر من الحكام وتابعيهم من الضرب المؤلم والارهاق المزعج وأعمال سوط السطوة فيمن يذهب الى مواقع الاعمال العمومية وتكليف العامل بما لا يطاق من العمل والظلم البين وتوزيع مقاديره على حسب ميل المأمورين والمهندسين اذ ذاك الى بعض الجهات لغرض ما وانحرافهم عنها فيخففون عن بعض البلاد ما يثقلون به كاهل البعض الآخر حتى ينال من هذه أيضاً مثل ما نال من تلك فيقع التوازن والتعادل بين البلاد لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب اذ يخف العمل عن الجميع بواسطة مادفعوا من النقود فيقيمون الزمن المحدد ثم ينصرفون الى بلادهم بدون طائل فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الاعمال العمومية

كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها فأقول لهم في الجواب عن ذلك (أولا) ان تلك الايام قد مضت وانقضت وهي الايام التي كان قدر الفلاح فيها مجهولا وكان يستعمل في الاعمال كما تستعمل الدواب والماشية لا يعلم لأي شيء يشتغل ولا لأي شخص يعمل هل لنفسه أو لغيره حتى صار بعد جميع الاعمال لغيره لا لنفسه أما الآن فقد عرفت الحكومة قدر رعاياها وتقدمت اليهم بجميع الوسائل النافعة لهم وسارت أوامرها الشديدة في انحاء البلاد سيرا حثيثاً ناطقة بأن لا سلطة لأحد من الحكام على أحد من الناس الا فيما ينفعهم ويعود عليهم بثمرات الثروة والوقاية من موجبات الضرر وقد شاهدنا رأي العين ان كل من ينحرف في سيره رمقته عين الحكومة التي لا تغفل حتى تتحقق سوء فعله فتأخذه بجرمه وتضعه تحت المحاكمة كائنا من كان وقد نشرت الجرائد كثيرا من مثل هذا . أفيليق بالزارعين بعد ما رأوا صدق عزيمة الحكومة في تعميم المنافع بينهم وأنها تجد كل الجد في تيسيرها بأي الوسائل ان يتقاعدوا عن ما علموه منفعة لانفسهم استحضارا للصور الماضية وان كانت هائلة تنزعج منها النفوس (وثانيا) ان الذي دعا أرباب السلطة في الزمن السابق الى التطاول عليهم انما هو تباطؤهم عن منافعهم بتفرق الكلمة في طلب المنفعة العائدة على الجميع فلو أنهم صدقوا جميعا في تتميم ما يجب عليهم من الاعمال وكل واحد يشتغل وهو يعلم ان هذا العمل عائد اليه بالنفع كعمله في مزرعته بلا تفاوت فهل كان يمكن لاحد ان يثقل عليه أو يخفف عنه ؟ كلا انهم كانوا جميعاً يقدرون على ردع الظالم وتبديده لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره الى من فوقه واظهار حاله الرديئة فلا يستقر قدمه بينهم ولكن ظنهم ان العمل أجنبي للحكومة لا لهم هو الذي بث في نفوسهم حب التخلص منه بأي الوسائل فيتداخل كل منهم في صرفه عن نفسه بكل ما يمكنه فيقع الظلم على البعض بل الاغلب من جهة ويختل نظام الاعمال من جهة أخرى لوقوع التهاون من البعض الذي أرضى الحاكم السافل وهذا جهل بيّن فان الحكومة لا شأن لها في هذه الاعمال الا ايصال الخير الى رعاياها فهم الغاية المقصودة بثمرة العمل فليس من العقل بعد ما تحققوا هذا المقصد في عهد حكومتنا الحاضرة وان سلطة الباشوات (والستات)

والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق الا السلطة الحق والمساواة ان يتقاعد مكلف بعمل ما عن عمله اللهم الا أن يكون سفيها يستحق الحجر عليه

على اننا ننظر في أحوال الفلاحين أمراً اغرب من هذا الذي قدمنا وهو الاعراض عن الاعمال الخصوصية المتعلقة ببلد واحد كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه أو المحافظة على النقطة المقابلة له فيعلم أهل البلد علم اليقين ان ترعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهم المياه وتعطلت زراعتهم اما بتلفها كلية أو بالنقص في ثمراتها وان المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلا أمر لا بد منه والا اندفعت المياه على أراضيهم فافسدتها ثم ان عملية التطهير ربما لا تحتاج الى أكثر من أربعة أيام أو خمسة ومع ذلك ترى كثيرا من البلدان يهملون المساقي الخصوصية التي لا طريق لري المزروعات سواها فاذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الاراضي عن يمينهم وعن شمالهم وهم يتلهفون على نقطة من الماء فلا يجدونها وكلما دعاهم داع في أيام التطهير الى العمل يحتج كل واحد منهم بحجة ان له شغلا خصوصيا في بيته أو غيطه يمنعه من ذلك حتى تمضي الايام ويأتي وقت الندم حين لا ينفع فان لم يكن في البلد عمدة يهمه أمر زراعته لانها أكثر من زراعة الباقين فيلجئهم الى العمل قهرا لتعميم الفائدة — وان لم يبعثه الا المنفعة الخصوصية لكنها أوصلت الى العمومية — فهذا حالهم فانظر الى هذه الحالة الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب وانقطاع التواصل بين النفوس فلا يهتم واحد بعمل يشترك فى منفعته مع آخر وان كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه كأن اشتراك الغير في المنفعة صيرها مضرة ينبغي اجتنابها وكان من الواجب ان الاشتراك يدعو الى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط فكأنهم سلبوا الخواص الطبيعية التي لانسان الجبال والغابات وقد علمت الحكومة ذلك فأرسلت الى المديريات بالتأكيدات الشديدة لتتميم العمليات الخصوصية ومع ذلك لم نزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئا فى لوازمها الخصوصية فكأن المأمورين يعاملون الفلاحين بما في نيتهم لكن ليس هذا غرض الحكومة فالواجب على كل مأمور في جهة أن يهتم بتنجيز أعمالها الخصوصية فقد أزف وقت العمليات العمومية ولا يمكن فيه قضاء عمل خصوصي والا فكل مأمور سيسئل عن جهات مأموريته وان عاقبة

السؤال غير مجهولة نسأل الله أن يصلح أحوالهم ويمتعهم بنور البصيرة فيرشدون الى حسن المآل ويوفقون لخير الاعمال .

وكتب في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ المحرم سنة ١٢٩٧ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

كثر تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات وكأنهم لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية وما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال وتقلب الاشكال اذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العقلاء أخذوا يلتفتون الى مابه حياتهم الحقيقية ونمو هيئتهم الاجتماعية وظهور شأنهم بين الناس وحسبانهم في عداد أهل العالم وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره موجهين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانها ذات الشأن فيه فقالوا كلاما كثيرا اذكره كما قيل

قالوا ان المدارس ينبوع هذا الخير الجليل (العلم) وليس له من وسيلة سواها ولكن تحت شروط لابد من استيفائها (ولسنا الآن بصدد بيانها) وقد افتتحت المدارس في ديارنا من عهد المرحوم محمد علي باشا لكن كان اسمها غريبا على الآذان وحشيا عن القلوب يساق الناس اليها كأنما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون ان الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم والبلاء المحتم وبعض الناس بعد التنبه كانوا لا يرون خطة أرفع من خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكام والتصرف في الحقوق فاكتفوا بارسال ابنائهم الى الكتبة يعلمونهم حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة الى مدرسة ولا مكتب منتظم وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من

تربية أبنائه فيها ولكننا لا نبديها وأما في أيامنا هذه فقد تنبهت العقول ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف غير أن ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعدا على الطريقة المنتظمة أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الجهالة السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش إما بالتوظف في الخدمات الميرية أو طلب الكسب من وجوه أخر ولهم شوق تام الى كسب فضيلة العلم فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع الى التعليم في مكاتب الاطفال وتعطيل اسباب معاشهم فيود الكثير منهم ان تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض ما فاتهم في الازمنة السابقة أزمنة جهل آبائهم لعلهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ثم عارضتهم بعض الموانع فلم تساعدهم المقادير النجاح وكانوا في انتظار توفيق الهي يسوق اليهم ذلك الخير حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيقت الينا نؤدي له مزيد الشكر عليها ثم انقبضت نفوسهم عند ما سمعوا من شروط تلك المدرسة ان تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة ولا يقبل فيها الا من كانت عنده مبادىء الرياضيات والطبيعيات وله تقدم في اللغة الفرنساوية وقالوا يا سبحان الله ان المدارس الليلية فى البلاد المتمدنة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل في التعبير والتحاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم وذلك لفائدتين (الاولى) ان كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادىء العلوم بهذه الطريقة فلا تفتر همة الذين لم ينالوا حظ التعليم فى صغرهم وينتشر العلم حقيقة اذ لا يكون في فهمه صعوبة ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) انه اذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقربها الى الفهم كاحدوثات تتسلى بها النفس بل ألذ من ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا ويخرج بنور جديد فتنجذب نفوس الناس الى مستملحات العلم فبدل صرف أوقات ليلهم الطويل في مضاجعهم يتقلبون من جانب الى جانب أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل تحتها أو في أماكن أخرى نتحاشى عن ذكرها يهرعون الى معهد العلم ليغذوا

عقولهم و يروحوا قلوبهم ولم نسمع ان أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها
ليلية فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا واخترعت طريقة جديدة وهو
جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه
المتفنن منهم ولا العامي والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية حتى يحرم الناس
الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل
فضيلة العلم ولا يستطيعون و يتلهفون على ذلك ولا يجدون وهو مما يوجب الاسف
خصوصا وقد تواتر على الألسنة ان غالب من قبلوا فيها أجانب (وان كان ذلك
غير صحيح فعندي علم اليقين بأن الاكثر وطنيون لكن من الذين تعلموا في
مدارس الفرير ونحوها) فهل يقال باننا تقدمنا عن تلك الممالك فترقينا حتى صارت
مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم أو أيقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون
من ذلك شيئا أولا حظت نظارة المعارف أنها بذلك تستحصل في زمن قريب
على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها فان كان هذا الوجه الاخير قلنا
أنها ستجعل مدرسة الخوجات نهارا فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ماتشاء لهذا
الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول
الى بعض هذا المقصد فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة
ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس
فوق البدايات وان كان الثاني قلنا ان الاستعداد والشوق موجودان فى كثير من
الناس ولهم رغبة تامة في التعليم فكيف يصح اساءة الظن بجميع شباننا الى هذا
الحد وان كان الاول قلنا الاولى ان لا نتكلم واننا وحق الحق لفي حاجة كلية
الى ان يكون التعليم الليلي عندنا مستديما آخذا من البداية سهل الوسائل ميسر الاسباب
بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل و يبطل برهان الكاسل
وتنبعث الغيرة في الكل اذا أقبل البعض على التعليم و يقع التنافس في الفضائل
و يجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا وتوبخهم الذمة وتلعنهم ضمائرهم
اذا تركوه اذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها اذذاك نرى انه لا بد أن يكون هذا التعليم
الليلي اجباريا عاما لكل مستخدم وقارىء لم يتعلم تمام ما يجب عليه في وظائفه الا

الضرورة تمنعه من مرض ونحوه خصوصا بعد ما أعلنت الحكومة ان جميع المستخدمين في الادارات أو التحصيلات لا بد ان يكونوا من الدراية بحيث يقدرون على تحقيق القضايا وحل المشكلات بأنفسهم في مواد الجنايات والحقوق والحسابات ونحو ذلك وهذا لاريب يستدعي أن يكون جميعهم على بصيرة تامة وذوي عقل وافر وهذا لا يمكن الا بعد تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التي لا بد منها لكل من يريد الاستقلال في سيره

هذا حاصل أقوال الناس فى شأن المدرسة الليلية التى افتتحتها نظارة المعارف قريبا وربما كانت تلك الاقوال صحيحة لكن ان صح ما قالوا فعليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ثم يجيبهم الى مطلوبهم ان رآه موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات والا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن فحينئذ يعلمون الحق ويريحون أنفسهم من الجدال ولهم أقوال في مواضيع شتى يمنعنا من ذكرها في هذا العدد ضيق المقام وربما نذكرها غدا ان شاء الله

وكتب فى العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق ونذكر بعضا منها في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئا منها يقارن صحة فيصادف قبولا وليكون ذلك دليلا على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا

نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشورا مبسوط العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة قاضيا على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاتهم لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم مبينا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة قد أظهرت ان فى بعض المدارس قصورا فى التعليم وفي بعضها كمالا وزيادة فاستوجب موظفو الاولى التوبيخ والانذار وموظفو الثانية الشكر والثناء فعلى الجميع من الآن فصاعدا بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم بحيث تكون الاستفادة تعقلا وتبصرا لا حفظا

ولقلقة و يبن في هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم وانذر من لم يحذ حذوها بوقوعه تحت مسؤلية الديوان

فانشرحت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الاكيدة والتعليمات المفيدة وقالوا وعمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكافة الى تربية ابنائهم في مدارسنا التى يصرف بها آلاف من الجنيهات على خزينة الحكومة ليتربى بها على توالي الازمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة زمارها فقد كانت النفوس في ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ولذلك كانت مدارس الفرير والانكليز والامريكان والبروسيان وغيرها عامرة بأبناء الاهالي مسلمين ومسيحيين ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها ولم يكن ذلك الا لما أظهرته التجربة من نجاح التعليم في تلك وقصوره في هذه مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الوالدان والاقارب فى المدارس الاجنبية واغفالها فى مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت فان التفات سعادة ناظر المعارف الى كيفية التعليم وتشديده فى ان تكون على وجهها الحقيق مما يفيد الآمال ويقويها

الا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة منها قولهم هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين وهي مكافأة الدينار والدرهم فان مكافأة الشكر والثناء وان كانت واجبة وهي من أجل المكافأة وأجملها ولها تأثير فى جلب الرغبات وتقوية العزائم لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من ايراده لا تنفك عنه الوساوس ولا يبارح ذهنه الاضطراب وتغلب منغصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ماسمع كلمة الثناء عليه ثم ذلك ينقص من اجتهاده ويحط من همته بل ربما أورث خللا في كيفية تأديته لوظائفه خصوصاً اذا رأى غير المجتهد مماثلا له فى الرزق وأوفر راتبا منه ولقد صدق القائل: النقص من الرواتب نقص من الاعمال: لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة مع أن المسموع ان ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ونظارة المالية تسمح باستغراقها بل تود لو يزاد فيها

وقولهم هل جميع من نشر عليهم هـذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الادراك واذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدرب على الطرق الجديدة مايؤهلهم لاجرائه والسير بمقتضاه بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره أو ان الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق و يتمرن عليها والبعض ربما لايمكنه ذلك حتى ولا بالتعليم؟ وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة وعلم المستعد منهم وغير المستعد بوجه الدقة والضبط حتى اذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة أنزل عنها ورزقه على الله ومن يليق لأعلى منها رفع الى مايستحق لتوجد الرغبة الحقيقية أولاً وتخشى عواقب الجهل والاهمال و يتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى و يكون كله خسارا على التلامذة المساكين. ولا نقصد بالامتحان الا السؤال في الفن الذي يعلمه فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عد عارفاً ثم طلب الالقاء والتدريس وكيفية التفهيم فرب عالم لايستطيع البيان

يقول الناس إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء عارفون بفنونهم قادرون على تأديتها بالوجه اللائق لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقة وتعودوا عليها فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها وان كانوا علماء بفنونهم والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علما ويعجز عن تمرين المتعلم عليها عملا والبعض يوجد خاليا من الأمرين يهزأ به التلامذة ولا يوقرون أستاذيته كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ويوجد بين المعلمين صنف من النبهاء لايحب ان يجهد نفسه في التعليم ويكتفي في درسه بحكاية بعض ماوقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها واعترف للفاضل بفضله وعرف الناقص مقدار نفسه وأنزل كل منزلته هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصا من العرفاء كل في فن مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية ولا يكون لهم عمل سوى هـذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلا ويقدموا جميع ماير ونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة فان رأوا نقصا عرفوا سببه ومن أي الجهات منبعه فان كان اعوجاجاً

فى طريق التعليم ارشدوا المعلم بأنفسهم و بينوا له الطريق مرة بعد أخرى فان اعتدل والا اعتزل و يكون أولئك الاشخاص تحت مسؤلية شديدة اذا ظهر فيما بعد نقص ولم يكونوا نبهوا عليه فان ذلك يبعث الغيرة و ينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل الى المقصود باقرب الطرق المؤدية اليه و يسهل تدارك الخلل اذا ظهر وازالة النقص اذا طرأ ؟ هل دققت نظارة المعارف فى معرفة أخلاق النظار والاساتذة الذين وضع الاطفال في كفالتهم يدبرون أمورهم و يرشدونهم الى كمالهم وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة والافكار المستقيمة والعفة والنزاهة والغيرة على نفع من وكل أمرهم اليه وأداء ما وجب في ذمته حتى يكون حاله وكماله درسا آخر يعطى للتلامذة في كل يوم فتنطبع هذه الكمالات فى نفوسهم باشد من انطباع صور المعلومات فى عقولهم وهو المعنى المقصود من التربية و بين من لا اخلاق له بأن يكون أحمق أو دنيئا أو عديم الغيرة والذمة أو رديء الافكار ونحو ذلك من الذين تكون معاشرة التلامذة لهم موجبة لتلوثهم بالرذائل وتكون كلماته فى الدرس ممزوجة بسم الفساد فتميت أذهانهم وتكون عاقبة أمرهم إما جهلا وقد ضاع الزمان وولى الشباب واما علما ضائعا مصحوبا بشرور تعود على صاحبها بالشقاء و ياليتها تكون قاصرة عليه ولكن تتعدى الى غيره بحكم العادة المستمرة وعند الفصل بين الفريقين بارشاد الرقبا النبهاء ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم والامانة في الخبر والصدق فيه يميز الخبيث من الطيب و يبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في أنحاء البلاد لتفوض اليهم تربية الاطفال والشبان ليكونوا رجالا ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة أملا بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون انه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلا ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ولا موافقة لطريقة التعليم فى المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد وانه يلزم ايجاد طريقة جديدة في التأليف وازالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيرا من الناس عن التعليم فهل حصلت العناية

بتصنيف تلك الكتب وان حصلت فبمن أنيط تصنيفها وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ويكون لهذا المجلس حق في تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون حتى يتأتى اجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق ان سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أمورا كثيرة تستحق الالتفات وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لابد من تقريرها والاسعاف بها فهل أجيب طلبه وحصلت المذاكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداها حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها الى البحث فى غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سؤالاتهم سردناها للاحاطة بها وانا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك وأنها لا تغفل شيأ مما تعلمه نافعا ومفيدا ومن اليقين انها لاتشرع فى شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل اذ تعلم ان زماننا هذا لايرى فيه الا الأثر الظاهر ولا يؤثر عن رجاله الا الاعمال الحقيقية أما صدور الاوامر والنطق بالالفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها فقد مضى وقته وان الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء كسعادة ناظرها الاكرم الحريص على تقدم العلم والغيور الرفيع الهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري والبصير الحاذق وكيل المكاتب الاهلية حضرة على بك فهمى وسنرى من أعمالهم مايرفع جميع هذه الاوهام ويفتح للمعارف فى عصرنا هذا تاريخا جديدا فهذه هي الفرصة التى نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها فعلينا ان لا نضيعها

وكتب في العدد ٩٩٧ الصادر في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

المعارف

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عامة النفع شاملة الفوائد يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهارا عن التعليم مع رغبتهم فيه وميلهم اليه ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها اذا افتتح مثل هذه المدرسة الا في تعلم ماينفعهم ويزيدهم نورا و بصيرة وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا و يقرأ فيها درس باللغة الفرنساوية يكون قاصرا على تعليم اللغة لا غير يبتدأ فيه من الهجاء الفرنساوي الى نهاية مايلزم ان يتعلم في تلك اللغة أما دروس اللغة العربية فمنها ماهو خاص بتعليم قواعد اللغة ومنها مايكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ أحوال الامم وتاريخ طبيعي و بعض مبادىء الرياضة (فيما سمعت) بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التى سبق منا الكلام عليها المسماة بمدرسة الخوجات الليلية في جوهر مايقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك أجنبية وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين وتلك لا نتوسم فيها ذلك الا ببرهان وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة لكنها لا تضر في المقصود

ومما ينبغي ذكره انه ثبت في اذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها و يهتم بشأنها مع ان اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها ولا يصح أن تجعل غاية تقصد وانما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لا تكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية فطالب تعلم اللغة الفرنساوية مثلا اذا لم تكن عنده مبادىء علوم وملكة ادراك في بعض الفنون التى يطلب التفنن فيها لا يعد مصيبا في طلبه الا اذا طلب معها تعلم تلك المبادىء حتى انه عند بلوغه الى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول الى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون

التعلم والتعليم الليليين قاصرين على اللغات فقط بل يلزم أن يكون معها بعض مبادىء العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة التى لا نزال نرى مساعيها فى تقدم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون وتبطل حجة اللائمين الذين انصبوا الى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها وما يعود على البلاد منها ونشرنا وجوه انظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهانا فعليا لاجدليا يقنع الناظرين ويفحم المخاصمين ويذهب بتعللات المتعللين ومطالبا لاصحاب تلك الافكار بالبرهان الفعلي أيضا وهو توجه الهمم الى التعلم وافراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم حتى تظهر فوائد هذه الاثر وانا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها يجيبون نظارة المعارف الى طلبها كما أجابتهم الى طلبهم ويكون لجريدة الوقائع المصرية شرف الإخبار بخير الأخبار وأجر التنبيه على الامر ومافيه

وكتب في العدد ٩٥٧ من الوقائع الصادر فى ٣ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ — ٦٩ نوفمبر سنة ١٨٨٠ مانصه

التربية في المدارس والمكاتب الميرية

من المعلوم البين ان الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها انما هو تربية العقول والنفوس وايصالها الى حد يمكن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حيا وبعد موته ومرادنا من تربية العقول اخراجها من خير البساطة الصرفة والخلو من المعلومات وابعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة الى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ويكون النظر بذلك شجية لها أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الاشياء وخبائثها وهذا هو الركن الاول في المدارس والمكاتب ومرادنا من تربية النفوس ايجاد الملكات والصفات الفاضلة

في النفس وترويضها عليها وابعادها عن الصفات الرذيلة حتى يكون المتحلي بها
ناشئا على مايوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ومتعودا عليه وهذا هو الركن
الثاني واذا فقد أحد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة أو قلت جدا ولنترك البرهان
على ذلك الى علم كل انسان به فاذا اجتمع للشخص هذان الامران كان انسانا
له أن يطلب ماينفعه ويبعد عما يضره فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة
اذا رآه موافقا لاستعداده وفي قوته النهوض به فيختار من العلوم والصنائع مايشاء
ويبرع فيه بكل رغبة وغيرة حتى يصل الى ماتمكنه القوة منه ولا يتأتى منه الاهمال
فيه لوجود الباعث من ذاته وهو غيرته وتصوره للغاية الذي لايفارقه أما ان كان
الشخص ضعيف الادراك أو فاسد الاخلاق وان كان عالما بجميع علوم الدنيا فلا
ريب أن يكون شقيا في نفسه وسببا في الشقاء لغيره ولا تغني عنه المعلومات شيئا
بل ذهب بعض الحكماء الى انه لاينال العلم من أي نوع كان حقيقة الا بعد تحلي
النفس بالصفات الجميلة التي منها بل أعظمها حب الكمال الذي هو الداعي الحقيقي
الى طلب العلم والبراعة فيه وان أول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول
بالمعلومات اللطيفة والنفوس بالصفات الكريمة هو التعاليم المدينية الصحيحة أعني
ترغيب القلوب بما يرضى الخالق وادهابها مما يغضبه ثم يؤتى بابا لرغبة التي يراد
حث النفس عليها على حقيقتها المقصود للشارع بحيث لاتخرج عن مكارم الاخلاق
التي حصر الشارع علة بعثته فيها كما قال عليه الصلاة والسلام انما بعثت لأتمم مكارم
الاخلاق ويؤتى بالامر المنفور منه كذلك على وجهه ثم يقال ان ذلك يرضي الله
وهذا يغضبه وذلك لايتأتى نجاحه الا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت
خشية من الله وتعظيما لجلاله وتبجيلا لمقام ألوهيته السامي بحيث لو ذكر اسم الله
عند شيء خفق قلب السامع وأضربت جوارحه خشية منه ورهبة فيكون ذلك سببا
لاقدامه على مايرضيه من الفضائل ونفرته عما يغضبه من الرذائل فهذا هو أسهل
الطرق وأقربها للتربية والتهذيب فان الطفل في صغره بل والشاب في أول بلوغه
يعسر عليه لقلة التجربة ان يفهم مضار الاشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل
الصرف خصوصا مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب يستحسن

منها عند شخص ما يستقبح عند آخر و بالعكس وايداع مثل ذلك في القلوب انما يكون بتعويد الابدان على العبادة وتذكر جلال الله بالركوع والسجود ومعرفة العقائد الدينية السليمة فهي الاساس لكل ذلك وطالما تشوفت النفوس لان تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد الذي عول عليه جميع الامم المتمدنة في مبادئ تعاليمهم فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الاوروباوية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها الى ما يزيد عن ست سنوات تقريبا ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لاسباب نضرب عن ذكرها صفحا

والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها الى ذلك وطلبت تجويده والاهتمام بشأنه من المعلمين والنظار وان لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الامر وشددت عليهم في ذلك كل التشديد حتى أوجبت على الاساتذة ان يقوموا برسوم العبادة حق القيام امام التلامذة ويدعوهم لذلك ان كانوا مسلمين أما المسيحيون وغيرهم من ذوي الاديان الأخر فلا يكلفون بذلك أصلا بل هم على حريتهم فلها الشكر على هذا المقصد الحسن غير أنه يلزم ان لا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صورا يابسة لا روح فيها كعبادة الجاهلين بل يجب ان تكون معنوية حقيقية تخرق حجاب الغفلة وتتمكن في باطن الادراك وتبعث في الأشخاص روحا من الحياة يشهد أثره الناس أجمعون وعلى نظارة المعارف ان تلاحظ التعليمات الدينية التي يلقيها المعلمون حتى لا تكون محشوة بأنواع من التحريف المضاد لحقيقة الدين كما جرت به عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء وان كانوا في الحقيقة من أردإ الجهلاء فان ذلك يخل بالمقصود من التربية و يضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها (وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء) وهذه هي صورة منشور المعارف الى جميع نظار المدارس والمكاتب

***

« قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة الى ديوان المعارف وما معها من النتائج والملحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه ان بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الاسلام المندرجة في المسامرة

الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب
دروس المكاتب الاهلية والمدارس الملكية الابتدائية مع ان معرفة قواعد الاسلام
بالنسبة لاطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ولا يجوز اغفاله في حال من
الاحوال مطلقا فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة خوجات القرآن مع حسن تفهيمها
وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ويفهمون معناها فهماً جيداً ويعرفون
كيفية أدائها على أكمل وجه في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور وهي
الفرقة الثالثة من كل مكتب ومذاكرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون اليها
حتى لا ينسوها واذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم
يسبق لها قراءتها في تلك الفرقة يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر في الفرقة
التي هم بها بمعرفة خوجه النحو اذ من بعد الآن لا يرخص بترقي التلامذة من
فرقة الى أعلا منها من ابتداء الفرقة الثالثة الى أعلا فرقة الا بعد التحقق بالامتحان
من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظا وفهما وعلما وعملا ويكون من أخل بشيء
من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسؤلية الشديدة ويشترك معه في هذه
المسؤلية ناظر المكتب أو المدرسة اذ يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر ويجعل
لذلك خانة مخصوصة في جداول الامتحان العمومي والامتحانات التي تحصل في
أثناء السنة ويعطى فيها نمرة كسائر الدروس وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين
خاصة وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن
الذي يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم في ذلك وترغيبهم فيه وتحريضهم
عليه ونهيهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك
وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لاداء الصلاة مع الحث منه
للتلامذة عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف
أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة ان كان موجودا فان لم يكن
موجودا ففي مسجد قريب فان لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد
مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض الى الديوان عن تحديد محل للصلاة
مع ارسال رسمه ومقايسة تكاليفه ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك

ولو في حوش المكتب أو المدرسة موقتا الى ان يتم انشاء المحل المطلوب واذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم مع بيان القياس المطلوب وقد كتب بما ذكر الى النظار عموماً وهذا لحضرتكم للاجراء على الوجه المشروح بغاية الاهتمام والحذر من التهاون فيه بعد الآن

كتب في العدد ٩٨٤ الصادر في يوم الاثنين ١١ المحرم سنة ١٢٩٨ — ١٣ دسمبر سنة ١٨٨٠

وخامة الرشوة

ورد من مديرية الجيزة في ١٩ الحجة سنة ٩٧

«قبض على أشخاص من ناحية كومبره معهم أربع زكايب ملح براني بها ٥٠٧ اقه و ٢٤٠ درهما بواسطة مندوبي المديرية بارشاد متعهد المصلح بناحية بولاق الدكرور فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشا وكسورا على وجه الرشوة فورد المبلغ للخزينة وها هو اللازم جار لاتمام التحقيق ومحاكمة الاشخاص ومبيع الحمير التي كانت حاملة للملح لتورد أثمانها للميري حسب المنشورات في هذا الشأن» اه

***

قد تقرر في عقول جهلة العوام ان الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الاصول المتبعة أو يخل بالامن والسكينة أو يهتك حرمات الحقوق اتكالا على ما يضمره في نفسه من ان الرشوة كافية للنجاة عن العقاب أو الحصول على غرضه بأي وجه كان وقد غلب على عقول العامة ان كل صاحب وظيفة ميرية أو غير ميرية لا يصح أن يقضي أمرا في مصلحته لاحد الا بالرشوة ولذلك يرون انه من الوجوب على من التمس إنجاز أي عمل يتعلق بمصلحته ان يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التي انطبقت بذمته على أجر يتقاضاه في رأس كل شهر ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحد منهم بل كادت أن تكون من

الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتال ولا يكتفي بذلك في اقتضائها فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخليص حقه غنيمة باردة وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليه في قبولها منه لظنه ان لانجاح بدونها وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم تقربا لذوي المناصب وتذللا خبيثا لايجوزه الشرع ولا قانون البلاد وتنفر منـه نفس كل ذي احساس انساني مع ان حفظ الاموال من الضياع فيما لا ينبغي وصرفها في وجوهها الضرورية كالمطاليب الميرية والنفقات اللازمة أليق بفعل العقلاء وأصون لحرمات القانون وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت اعباء المعاقبة والتهلكة وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة اذ لو كف كل ذي حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الاقوم وخضع للاحكام الحقة لتحصل على حقه بدون ان يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة الا بالحق و بدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتثبطه طمعا في ما يأخذه منه

على ان أي متوظف كان وان بلغ ما بلغ من الزهد والعفة فلا أظنه يمتنع عن تناول ما يقدمه الغير اليه بالرغبة والرجاء خصوصا اذا أكثر التردد مع ظهور الحق له فاذا مد يده اليها تعود شيئا فشيئا حتى يرتشي في الحق والباطل و بالرهبة بدل الرغبة فالعلة الاولى في فساد اخلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوي اليسار في ارشائهم بدون تأمل فيعودونهم على ذلك وحينئذ فما يلحق الراشي من اللوم أشد مما يلحق المرتشي وان كان كل منهما مجرما لان الاول ضيع ماله واسترسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوي فيه الحاكم والمحكوم عليه امام القانون وأمال المرتشي لاخذ الرشوة وقوى طمعه ودله على الشره وكلف نفسه بما لم يكلف به

ومن غوائل الرشوة ما رأيناه في الزمان السابق يحصل كثيرا بين الخصماء حيث يبذل الواحد منهم ما يدخل تحت طاقته من الاموال رشوة بالغة ما بلغت في سبيل اعنات خصمه والحصول على غرضه وان زادت النفقات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعافا مضاعفة ومثل ذلك كثير لايمكن الشرح ان يأتي على بعضه وهذه الحادثة المتقدمة

تشهد بالتقريب لما قلناه فان مادفعه الاشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من ثمن الملح الذي كان معهم فلو أنهم اشتروه على الطريقة المألوفة لما وقعوا في الخسائر الجمة وأثقال المحاكمة ولكان ذلك أقرب الى وفرة الكسب وأسلم للمال والنفس ولكنهم ظنوا ان الزمن الحاضر هو السالف والحكومة هي هي فسهل عليهم ان يتعدو الحدود ظنا منهم ان الرشوة تقيهم من عواقب أعمالهم وقد خاب ظنهم بتيقظ المتعهد والمندوبين وأمانتهم

ومن العجب بل مما يتأسف عليه غاية الاسف ان الاهالي مع علمهم بأن الحكومة تنادي بمنشوراتها وأوامرها واجراآتها الفعلية بأن لا يستقر في وظائفها سوى ذوي الاستقامة والعفاف وأنها تبادر الى عقاب المرتكبين ولو بالمظنة نرى البعض منهم بل الكثير لا يزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك التي سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الازمنة السالفة (وصعب على الانسان مالم يعود) أليس كان من الواجب على الاهالي ان ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) و يقوموا في طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التي سهر في انشائها وتنقيحها أولو الامر طلبا للعدل ورغبة في الانصاف ويتفق أهالي كل جهة على ان لا يدفعوا لذي وظيفة شيأ من الاشياء بل يسلمون أمورهم الى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه فان الحاكم اذا لم يكن له ميل الى أحد الجانبين لغرض كهذا الغرض الخبيث فلا يرى سبيلا ولا يجد من نفسه داعية الا الى الحكم بالقانون فان أخطأ فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا يستأنف في كل منها النظر في القضايا من أي نوع

لا شك في ان سلوك طريق الاستقامة أهدى وأقوم وأفيد للعموم والخصوص وأحكم أما تلك الطرق العتيقة فهي قريبة العطب شديدة الخطر لا نرى لمرتكبها نجاة خصوصا في هذه الاوقات التي أصبح بصر الحكومة فيها حديدا ومن توارى تحت الستر وقتا ظهر بعار الفضيحة في آخر نسأل الله الهداية والتوفيق لارشد طريق

وكتب في العدد ٩٩٥ الصادر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٦ دسمبر سنة ١٨٨٠

العفة ولوازمها

سبق انا ادرجنا في جريدتنا فصلا معنونا بالرشوة ووخامتها بينا فيه ان هذا الداء المميت لروح العدل المفسد لمزاج النظام ازمن في طباع الاهالي من زمن بعيد حتى ظنوه صحة وحسبوه حالا لازمة لهم وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم ويجازفون فيه بأموالهم مع عدم التبصر والتدبر وانتفاء الموجب والمقتضي ولا يقتصرون في أداء نقودهم وعروضهم لارباب الوظائف (ان قبلوا منهم) على حالة الضرورة وربما يؤدون على طريق الرشوة ما يساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه وهذا يعد من سفه الرأي وقلة العقل ودناءة الطبع وكان من الواجب على أرباب الحقوق ان يعلموا ان الوظائف ليست للموظفين مجانا بل كل متوظف فله مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته يصرف له ذلك المرتب من خزينة الحكومة التي هي خزينة الاهالي حقيقة فلا حق لمتوظف أيا كان أن يأخذ بارة من أحد من الناس في مقابلة عمل من الاعمال بل كل ما أخذه فهو سحت وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم (كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به) أو كما قال وقد أجمعت الشرائع الالهية على لعن الراشي والمرتشي وأطبقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرد والخزي واللعنة على كليهما أيضا

غير ان كلا منا فى ذلك الفصل لم يكن موضوعه ان الموظفين يتعاطون هذا الامر على العموم بل صرحنا فيه بأن من الحكام العفيف الذي ينهر راشيه ويبعده وكيف يصح التعميم مع علمنا عين اليقين ان في رجال الحكومة وموظفيها الاعفاء المنزهين ولولاهم لما استقامت الاعمال وانتظمت الاحوال وهم معروفون بين الناس تشهد لهم اعمالهم وتنشرح صدورهم وتثني عليهم سرائرهم عند ما يحسون من أنفسهم الاستقامة وسلامة الذمة حتى كأني بالرجل العفيف منهم عند ما يخلو بنفسه ويدخل الى مخدعه يحدثه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم الذي عرض عليه حطام الدنيا والنفيس من الذهب والفضة وربما كان محتاجا اليه ومع ذلك

كف يده عن أخذه وترفع عن مد كف يد الخيانة لاستلامه حفظا لشرفه وصونا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء بل والسفهاء اذا ذكر عنه انه ارتشى ومراقبة للاحكام الالهية والعهود الانسانية فعند مايرى لنفسه هذه المزية الشريفة يطير فرحا وهو وحده وتكون صداقته سميرا ومحدثا له ينسر بموافقتها وملازمتها ويتحكم في نفسه سلطان الافتخار الحق الذي لايعارضه فيه أحد فامثال هؤلاء (الاعزاء الوجود) هم عماد الملك وقوام النظام وان دوائر حكومتنا متشرفة بهم . بخلاف أولئك الساقطي الهمة الفاسدي الاخلاق الذين يقبلون ما يقدم اليهم من أرباب الحاجات قليلا كان أو كبيرا أو يطلبون ذلك منهم بصريح أقوالهم أو بتعطيل أشغالهم اذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة: ان شاء الله يكون قضاها: فاذا جاءه مرة ثانية قال اذهب الى غد فان جاء في الغد عبس في وجهه وقال: ان عندي أشغالا أهم من شغلك: ونحو ذلك من المماطلات وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد حريص على نيل مقصوده فان كانت فيه غفلة عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكني ويلوح ويعرض حتى يتنبه الطالب الى الغرض فيبذل مايقصر به على نفسه مدة الطلب ولولا جهله مافعل فهؤلاء الاشرار وان استتروا تحت ذيل الحيل والخداع يوما فلابد ان تنتشر في الجو روائحهم الكريهة وربما غضت عنهم الابصار زمنا لكن لابد من نفوذ أشعتها اليهم في آخر فاذا أدركتهم كانت يد السطوة ضاربة على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق التي لاتفلت ولعلمهم بقبح سيرتهم ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة وشدة حرصهم على اخفاء هذا الأمر الشنيع تراهم اذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ماصنعوا من الحيل لالتهام الاموال وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة فرب صاحب حاجة ذكي نبيه يشكو أمره لمن فوقه ورب رقيب من طرف الحاكم يقظ يطلع على وجوه حيله ورب ناقد بصير رأى صاحب الحاجة سائرا الى بيته ورب حر غيور يبصر الهدية وهي طارقة باب منزله ثم يأخذ يعلل نفسه بأن تلك الاشارة كانت غامضة على الحاضرين والناظرين وذلك كان خفيا على المراقبين وهكذا تستولي عليه الافكار السيئة والاوهام الخبيثة فيبيت مضطربا خائفا مرهوبا لكن شقاءه يحتم عليه الرجوع

الى قبيح صنعه فخبث السريرة يكون بمنزلة منكر ونكير يحاسبه ويعاقبه على مافرط منه خصوصاً وان قلبه وعقله فى كل وقت يحدثانه بأن هذا مضاد للانسانية منافر للطبيعة اذ لولا ذلك لما حافظ على اخفائه كالسرقة والنصب بل يحرص على كتمانه أكثر من ذلك فان عاره أشد وجرمه أعظم وكفى بهذا عقابا وعذابا لو كان له عقل وبصيرة طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا وقطع من الكون دابرهم

وانه ليسرني ويملأ قلبي ابتهاجاً ماسمعته من ان كثيرا من المتوظفين تكدروا من قولنا فى ذلك الفصل : على اني لا أظن ان المتوظف وان بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح يمتنع عن أخذ مايقدم اليه بطريق الرجاء خصوصا مع ظهور السائق لصاحب التقدمه الخ خوفا على أنفسهم من الدخول تحت هذه الحكاية فيمسهم ولو بطريق الوهم شيء من عار هذ الوصف الشنيع أعني أخذ الرشوة على أي وجه كان فان تكدرهم هذا برهان على نزاهتهم وعفتهم وحبهم ان لا ينتظموا في سلك المتصفين به ولوفى مفهومات الالفاظ على وجه بعيد وهذا غاية في المحافظة على الشرف والنفرة من هذا النقص الذي موت الانسان خير من ان يتصف به لكني أقول لو دققوا النظر لما تكدروا من هذه الجملة لوجهين الاول الاستثناء المتقدم في صدر العبارة والمفهوم من السياق والثاني ان منطوق جملتنا صادق فيمن يقدم اليه ويسكت حتى يحصل الرجاء واني اعلم ان العفيف لا يتجاسر أحد على ان يقدم اليه شيئا متى اشتهر عنه ذلك ولو اتفق ان أحدا بذل له رشوة ولم يقبلها فلا يصح له السكوت عليها بل عليه ان يخبر في الحال جهة الاختصاص به حتى يعاقب الراشي وتضاف الرشوة الى جانب الديوان فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الادلة وأوضحها أما ان سكت على ذلك واكتفى بالمنع من جهته فاني أراه موضحا لقولنا في الجملة السابقة فان كثرة الرجاء تلين الحديد اذا كانت في أمر يتكلف الشخص فيه مشقة فما ظنك اذا كانت في ايصال منفعة الى الراجو وأنه ليعجبني جدا ماذكر في قانون العقوبات من قوانين المحاكم الجاري عليها العمل في بلادنا في باب الرشوة منه ببند ١٠٧ حيث قال فيه : المتوظف أو المأمور الذي قدمت له أو أعطيت له عطية أودعه بشيء ما لاجل التوصل الى الغرض السابق ذكره

(أداء عمل من أعمال وظيفته ولو كان العمل حقاً أو لامتناعه عن عمل من الاعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فورا جهة الاقتضاء يجوز ان يحكم عليه بالعقوبات المقررة في حق الرشوة اه على ان هذا الانذار لو لم يكن مثبتا في القانون لوجب ان تثبته الذمة والغيرة فان من عرض عليه شيء على سبيل الرشوة اذا كان غيورا وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة من عرض عليه لوجهين الوجه الأول خصوصي وهو الانتقام من الشخص الذي ظن السوء في هذا المتوظف بل جزم بنقصه وعدم شرفه حتى أقدم على ارشائه فهو حقيق بأن ينتقم منه والثاني عمومي وهو أنه اذا عوقب الراشي لسبب إخبار المتوظف وشاع ذلك بين الناس يقع الرعب في قلوبهم ويخافون من ان يقدموا شيأ لمتوظف خشية ان يخبر كما أخبر ذاك فيقع الراشي تحت العقاب فينكف أرباب الحاجات عن البذل خوفاً حتى لو مد المتوظف يده طالبا الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لايقاعه في الخطر هذا من جهة ذوي الحاجات وأما من جهة أرباب الوظائف فانهم متى سمعوا ان فلاناً أخبر براشيه وظهر اسمه وانتشر ذكره خصوصاً اذا ترتب على ذلك رفعة قدره اقتدوا به لينالوا مثل مانال في ظهور الشرف والافتخار فيمتنعوا عن قبول الرشوة بل يتسببون في اضافة أموال جمة الى بيت المال ويقع التنافر والتسابق في فضيلة العفة والاستقامة وقد بلغنا ان بعضا من الموظفين أخبر الجهة الموظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك لكن بمبالغ زهيدة ربما يسمح بها الخاطر لاظهار العفة فينال شرفها بقيمة زهيدة ولم نسمع بأن موظفا أخبر جهة عمومه بمبلغ وافر من تلك المبالغ التى كنا نسمعها وهي التي يعد التعفف عنها تعففا حقيقيا ومع ذلك فانا نشكر المتزهد عن القليل والكثير

وربما يتوهم بعض ذوي الاستقامة ان في الاخبار ضررا بالراشي وفضيحة له فالتستر عليه أولى فهذا الوهم خطأ صرف لان الله تعالى جعل فى العقاب حكمة بالغة وهو ردع النفوس الشريرة عن الشر حتى يقل الشر أو ينقطع قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب) والمعنى ان قتل القاتل وان كان فيه اعدام لنفس واحدة لكن يرتدع بسببه أشخاص كثيرون ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس

اذ لم يعلموا ان جزاءهم القتل فترتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة فكان في القصاص الذي هو موت حياة وان الشفقة والرأفة على من استحق العقاب غير جائزة بل مخالفة لامر الله فقد قال في سياق حد الزاني والزانية (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) وهكذا الذمة والالهام الالهي المودع في طبيعة النوع البشري يرشدنا الى ذلك أي ان الواجبات الانسانية تطالبنا بان من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة وتؤدي الى مفسدة عامة كالرشوة وجبت علينا المبادرة لطلب عقابه فان فيه صلاحا له بعدم عوده وردعا لغيره وبالجملة فانا نؤمل من ذوي الاستقامة ان يكونوا قدوة للناس ودعاة الى مثل أخلاقهم وذلك لايكون الا بظهور آثارها واجراء مايوجب التنافس فيها والمسابقة في ميدانها وان داء الرشوة وان كان لاريب يظهر أثره على المبتلى به فيكون ممقوتا وان اجتهد في اخفائه باظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه أو أخذ العهود والمواثيق على من يقدم اليه هذا السحت لكن لايظهر رسما على وجه مطرد حتى تظهر المجازاة عليه وتعرف عند العامة والخاصة فتتعود الانفس على تصور عاقبته الا بطريقة أخبار المتوظف بمن يرشيه فانها تظهر لنا شطر المقصود والمراقبة والتيقظ يظهر ان الشطر الثاني (عند عدم الاستقامة) وانا نسأل الله تعالى ان يكثر في بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين النزهاء ويمحق أولئك المجرمين الاشقياء

وكتب في العدد ١٠٣١ الصادر في ٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — ٧ فبراير سنة ١٨٨١

القوة والقانون

قبل الكلام على خصائص هذين الركنين لهيئة الوجود الانساني نريد ان نبين حقيقة كل منهما ليكون القارىء على علم بما يلقى اليه بعد فلا يخطىء الغرض ولا يجاوز المرمى ولا تلحقه شبهة توقعه في ظلام الحيرة وغيهب التردد

اما القوة فلا نعني بها الا مايستعمل لجلب الملائم ودفع المكروه سواء كان من شخص واحد أو جماعة متآلفة أو شعب من الشعوب أو أمة من الأمم

وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ودفع المعاند هي القوة البدنية مجردة عن سواها كما تراه في السباع الضارية والحيوانات الكاسرة أو هي منضمة الى السيوف القاطعة ولآلات المحرقة وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والصيال

اما القانون فهو الناموس الحق الذي ترجع اليه الأمم في معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية وهيئاتها النفسانية أعم من ان يكون متعلقاً بروابط الممالك وعلائقها أو منوطا بالسياسة الداخلية كالادارة المدنية والتدابير المنزلية أو باحثاً عن الاخلاق الفاضلة وما ينبغي ان يتحلى به الانسان منها وما يجب ان يبتعد عنه من اضدادها وسواء كان في أمة واحدة أو أمم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن اما القوة فكانت شرعة الأمم الغابرة والشعوب السالفة وقت ان كان الانسان جبلي الطبع لا يمتاز عن غيره من أنواع الحيوانات الا بالفصل المميز اعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف وشمار التمدن فكانت له الحاكم الفيصل يرجع اليها في تحصيل غرضه ونوال مطلوبه وباختلافها وتفاوتها اشتداداً وضعفاً وتقدماً وتقهقرا كانت تختلف الأمم وقتئذ في الشرف والضعة والسطوة والفقر والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مهما كانت طرائقها فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجراءة وكثرة السلب والنهب والبتك والفتك وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل في هذه الصفات تعرف بالمجد الاثيل والشرف الباذخ والمكانة العالية فيدين لها مجاوروها وتخضع لسطوتها كل أمة قرع أسماعها ماهي عليه من علو المنزلة وشدة الانفة وقوة الشمم وتساق اليها الهدايا من تخوم الاقطار وشاسع البلدان وتأتيها الغنائم أفواجاً يقتادها رجالها الأبطال من ساحات الصدام والنزال ولم تزل الازمان الغابرة محكومة بسلطان القوة تقلب الامم على جمر الخوف والاضطراب وتضرب بصولجانها جراثيم القلوب الضعيفة فتلقي بها في مهاوي الذل والهوان حتى خضعت لها الامم ودانت لها الشعوب وصارت هي الديان المسيطر على كل شيء فاذا تمت لقوم تبعتها السلطة التامة والحكم المطلق فيتسلطون بقدر مكنتهم على ما شاء الله من الشعوب والقبائل ويتخيرون واحداً منهم سلطاناً أو ملكاً قد امتاز

بالتهور والجراءة وجلالة المنظر والضارة بملكونه زمام الحكم والسلطة ثم ينتخبون من عشائرهم رجالا يعدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة والنصرة على العدوّ والعدة لفتح الممالك والامصار ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سطائهم بالرهبة والقساوة لئلا يتملصوا من ربقته فيذعنون لملكهم قهرا لاطوعا وينظرونه مقتاً لاحباً ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون وذلك دون مراعاة طرق عادلة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة بل بحسب ماتقتضيه القوة التي سفكت الدماء وذللت الشعوب وانتهكت حرمات الامم وسجنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد

هذا ماولدته القوة في تلك الاعصار الخاليه التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة مسربلة بجلابيب الغباوة مغمورة في بحار الوحشية وما أظن تلك الشريعة المشار اليها كانت خاصة بأمة من الامم أو صنف من أصناف البشر بل كانت عامة بين أبناء الانسان على اختلاف أجناسه وتباين مواطنه فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة وإمارات متباينة تجول فيها يد القوة ويحكمها مجرد الرهبة ويطويها الخوف وينشرها الفزع ويشملها الاضطراب والاختلال وتتبادلها أيادي السلب يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ويصبح اقوياؤها غير مطمئنين على حياتهم فانبعثت في قلوب هؤلاء الاوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعصا القوة علة الضعف ودبت فيها سخائم الحقد فاختلفت الاغراض وتباينت المشارب وتفرقت القلوب وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى انواع لايجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق وتبدلت فطرته السليمة الى أخلاق لامناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب وارتسمت صورها في مخيلاتهم ونسجت معانيها الى ذاكراتهم وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم قائمة نصب أعينهم حتى توهموها مقلب القلوب والاحوال حافظ القوى والاكوان اليها مرجع الحوادث وعليها تدبير النوازل والكوارث فاحتسبوها المدبر في المكونات باجمعها وصوروا تماثيل على صور مختلفة وانواع متباينة تشير ظواهرها الى القوة وتؤدي هيآتها

معاني العظمة والسطوة ووضعوها في أماكن عباداتهم ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان وهذه اصنام العرب والصين والعجم وآثار قدماء المصريين وآلهة اليونانيين المصنوعة على اشكال الحيوانات العادية والملوك العاتية يشرح التاريخ أحوالها فلا داعي الى الاسهاب في تفاصيل شؤونها ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي بامعان وتبصر ظهر له ان القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلمية وبددتها وأحدثت به من القبائح ما أحدثت ولولا ان القانون كسر سورتها وذلل صعوبتها لما اشرق نور الحق على صفحات الوجود ولا تمتع الانسان في الازمان الاخيرة بلذة الراحة والسعادة فالحق للقانون لا للقوة

وبينما الانسان تائه في أغوار الاستعباد، في هاتيك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد، والجور والعيث والفساد، ليس له حق يصان، ولا عرض الا ويهتك ويهان، اذ أشرقت عليه قرائح الذين جادت بهم مراحم الفضل وعرفوا بمناهج الخير فأبصر من طلائع افكارهم ما يهديه الى سبل الرشاد ويوقظ فكرته الى التماس الصواب من ابواب السداد فعلم ان القوة هي منحة جليلة ونعمة كبيرة يستعين بها على حاجاته الضرورية ولوازم معيشته المرضية قد عززها الله تعالى بالاتحاد والائتلاف حتى اذا عجز الفرد الواحد عن ما لا طاقة له عليه من نفائس المطالب وجلائل الرغائب استعان بعشيرته ثم بقبيلته ثم بأمته التي يجمعها دين أو ملك ثم بجميع افراد نوعه وان القوة ان لم تكن على قانون لا تتعداه وخط لا تتخطاه بان استعملت على أي وجه وفي أي زمان أو مكان لا ينال ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة فأسف على ما كان ونزع من رقدة الغفلة يحاول لها هذا النظام المعبر عنه بالقانون فكان نورا يهتدى به وقائدا رشيدا يسلك بالانسان الى ما أهله له من الكرامة والنعيم فاتبع سبيله المهتدون ومال عن سنته الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالانقياد لاحكام القانون فانه حققه باطنا وظاهرا، وتمسك به غائبا وحاضرا، حتى صار ركنا من لوازم حياته، وعدة لمقاصده وغاياته، ولهج لسانه في بكره وعشياته، الى ان عرف به واجباته الحقوقية، وفرائض معيشته العمومية

والخصوصية، وامن به من مصائب الظلم ونوازله والجور وغوائله واطمأن به على نفسه وعرضه وماله فسكن قلبه بعد الاضطراب وقرت عينه برياض الامن والامان وتولد فيه أمل جده على ادمان العمل فأعمل فكرته الخامدة وأجرى حركته الراكدة ولا زال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ويقتنص بحبالة الاستكشاف كل فائدة ويستعمل قواه في حل المبهمات ويستطلع ببصيرته ماخفي من مجهول الكائنات الى ان حداه العلم الى معرض الاختراع والابداع فطار على جناح البخار بدل الشراع واستخدم البضار لقضاء الاوطار واستعمل البرق على بعد الديار رسول الاخبار وجعل المدافع والقنابل ليبيد بها مضاديه ومعانديه وانغمس في النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا الى غير ذلك مما اتيح له من محاسن الحضارة ولطائف الرفاهة والنضارة ولازال يضرب في تخوم البلاد ويذلل بقوة عزمه أخلاق العباد الى ان اصبحت البسيطة في قبضة زمامه ولا غرو فان قائده الاتحاد والائتلاف وباعثه الوفق لا الاختلاف وهو لآن كما بدأ يحافظ على القانون بانسان مقلته ويصرف في حراسته مايدخل تحت قوته فانه ملاك سعده وأساس مجده ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفحا وطوى عنه كشحا فهو هو على رذالة أخلاقه وبساطة أفكاره يصبح مضغة تحت اضراس الظلم ويمسي كرة لصولجان البغي فليحي صاحب القانون على بساط النعمة الهني

فيا أيها الذين ينحرفون عن القوانين ويعدلون عن طرق النظامات لغرور وقتي ارفقوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ورفعوا شأن الحقوق فاصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهضوا لمجاراتهم في الصدق ان كنتم تعقلون وإياكم والتمادي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من السلطة فللايام تغلب وتقلب لكن صراط الحق واحد وسالكه لايضل ان عثر يوما استقام اعواما أما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطرة كثيرة الغوائل سالكها معارض لمدبر العالم سبحانه وتعالى في أحكامه فانه عز شأنه قد أقام الكون بنظام الحكمة ورتب لكل شيء حدودا هي سور بقائه وسياج دوامه فان خرج عنه انحدر الى مهاوي العدم والفناء ومن تأمل الكون الاعلى ومافيه من

الكواكب والشموس والاقمار ثم نظر الى العالم الاسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان يشهد في الجميع لكل نوع منها قانونا خاصا في سير وجوده تقوم البراهين القاطعة على انه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الالهي بالعدم والانقلاب وانه بباهر حكمته قد جعل للهيئة الانسانية حدودا عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في معيشته الخاصة نفسه أو معاملته مع غيره وقد أودعها العلماء والحكماء بطون كتب التهذيب والتربية البشرية بعد ان نطقت بها الشرائع الالهية وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة عن الامم الماضية والمشاهدة الحالية في الاوقات الحاضرة ان من تخطى حدود هذه الحقائق رماه القهر الالهي بسهام لا يخطىء مرماها فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الامم وان القوة لا تأتي بثمرتها الحقيقية الا اذا عضدت باتباع الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه .

فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة ان يغتر بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته أو يعجب بصولته ويدع الامور لارادته ومشيئته ويزدري ما للقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت امرته فيفعل ماتسول له نفسه ويأتي كل مايسوقه اليه حسه فيسري الاهمال في طبقات رجاله ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه وتصير الاموال لديهم مباحة والحقوق مبتذلة والاعراض منتهكة ووسائل الربط والضبط معطلة وعقد المواثيق والعهود محللة فيكثر فيها وليه غوائل الخسران وينمو به جوائح البهتان حتى تصير أفراد المحكومين اخلاطا رعاعا لافرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات والتمكن من وسائل اللذات مع توافق في الفطرة وتشابه في الغريزة ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بجم غفير من الغرماء يتجاذبونه بايد طالما تقدته من خزائنها ماظنه نزرا يسيرا في جانب اسرافه وتبذيره وهو على كاهل الاهالي حمل ثقيل العبء لا تقدر ان تقله وتمسي عمارية البلاد تبكي محاسن صبحتها أربابها طوامس المعالم مظلمة الاطراف ليس فيها سوى نعاب البوم وهمس الهوام وحينئذ لا تسل عن العاقبة فانها أمر وتهب وبئس المآل

ذلك ما يولده الغرور بالقوة والاعجاب بالسطوة وترك القانون الذي عليه سعادة العباد وخصب البلاد فاذا أرادت تلك الامة التي تصرف ذوو البغي والغرور فيها على خلاف القانون ان تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول فلابد لها من اعادة شأن القانون فتشيد منه ما هدمته يد الغرور وبددته سطوة الفجور وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه ومتابعة رشده وهداه ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض وما كان أغناها عن الاصلاح بعد الافساد والتعمير بعد التخريب ولكنها باعت القانون بثمن بخس فكان جزاؤها ان تشتريه بنفوسها العزيزة ودمائها الشريفة حيث عرفت ما هي القوة وهو القانون ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد ان شاء الله تعالى .

وكتب في العدد ١٠١٢ الصادر في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ — ١٥ يناير سنة ١٨٨١

ما اكثر القول وما اقل العمل

ان من أخس الأوصاف وادناها ان يقول الانسان مالا يفعل وان يدل غيره على ما ضل هو عنه وان يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه وذلك ان من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر وخبيث المقصد دنيء الهمة من الوجه الثالث . اما جهله فلأنه اذا ادعى بما ليس فيه من علم أو فضل مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله بمعنى انه لم يؤلف تأليفاً نفيساً مثلا ينتفع به عموم الناس ويعترف بنفاسة ما فيه العقلاء والمتبصرون من أي أمة ولم يكشف حقيقة ولم يحل مشكلة واعتقد ان سامعيه يصدقونه فيما يدعيه فقد جهل ان النفوس مجبولة على تطبيق المسموعات على المشاهدات وواقع الأمر فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائلها فتنقلب دعواه مقتا عليه ويسقط من قلوب الناس أجمعين اذ لم يروا له أثرا يفيدهم سوى انه يخبر عن نفسه بأوصاف لاحقيقة لها وكذلك اذا أرشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها ويظن ان الناس يسترشدون بارشاده فهو لامحالة مطبق الغفلة مركب الجهل اذ لا يعلم

ان الافعال تؤثر في النفوس أضعاف ماتؤثر الاقوال فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب فتتردد في مفهومه فلا يقودها الى العمل الا بعد تكرار وتذكار اما الفعل فهو أمر مشهور ينطبع في النفس أشد انطباع فتندفع اليه خصوصاً ان كانت فيه لذة معجلة وان عاب على غيره وصفا هو موجود فيه فقد جهل ان ذكره لعيب الغير ينبه الاذهان للنقص القائم بنفسه فان المتكبر مثلا اذا ذم الكبر في غيره فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر فهو جاهل بنفسه وبما يعود عليها وهو ظاهر.

وأما اعترافه بنقصه وعجزه فلانه لم يصدر منه ذلك أي الدعوى بما ليس فيه وترغيب الناس فيما لا يرغبه لنفسه أي فيما ليس بمتصف به بل هو منحرف عنه وذكره لمثالب الغير وهي فيه الا لاجل ان يبين للسامعين كماله وفضله ويظهر لهم وصوله لما يهديهم اليه وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته حيث علم ان الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع وكأنه بذلك ينادي على نفسه بانه لم يبلغ من ذلك شيئا لانه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره شاهدة بعلو مقامه سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع وسواء نقص غيره أو كمل ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه أو ذمه لغيره بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها فمن تكلف الاطراء على نفسه بوصف من الاوصاف الفاضلة أورام اظهار كماله بالحط من قدر غيره فذاك معترف بانه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة فاضطر الى النداء بالكذب ليقنع السامعين بانه كذلك

واما خبث مقصده ودناءة همته فلأن من هذه صفته لا يريد ان يكون ذا فضيلة قط ولا يبتغي الوصول الى كمال ولكنه يطلب عيشا حيثما اتفق فاذا جلس الى بعض البسطاء أو غيرهم طلب التلبيس على عقولهم ليقرر في نفوسهم انه بالصفة التي يذكرها عن نفسه أو يرشد اليها وانه خال من العيب الذي يسب به غيره ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض اغراضه الخسيسة أو يستفيد منهم حطاما يسد به بابا من أبواب نهمته وشرهه فهو في ذلك بمنزلة المشعبذين أو المختلسين أو السارقين ونحو ذلك من كل ذي حيلة خسيسة لجلب الأموال ولا يختلف عن

هؤلاء الا بالاسم فقط حيث يقال انه غش الناس بحكاية الكذب عن نفسه وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده الفعل يحسب من اردإ الأوصاف واقبحها لانه يشعر بوجود أوصاف تشهد البداهة بقبحها ومن الأسف ان هـذا الوصف يوجد في كثير من أهالي بلادنا بل فى الغالب منهـم بل لا يوجد القائل الفاعل الا قليلا جدا (واننا نخجل من تسجيل مثـل ذلك في الجرائد ولكن أي فائدة فى اخفاء عيب فينا عرفه الغير منا فحق علينا ان نذكر به لعلها تنفع الذكرى)

اننا ان طرقنا المجالس الخصوصيـة في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لانعدم قائلا عن نفسه أنه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ووقف على المباحث الجليلة وكشف بواطن الدقائق الخفية واستطلع الاسرار وكان مع ذلك مشهورا في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء وتوقد الفكر وقوة الحافظة ونحو ذلك وآخر يقول إنه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل والافحام عند المخاصمة وتفهيم الطالب عند الاستفادة حدا لا يصـل العالمون الى غباره وان له من طرق الاقناع والافهام مالا يتيسر لغيره معرفتها وأنه يحيي بكلامه الاذهان الميتـة ويحشر اليها صور المعلومات ويودع فيها أسرار الكائنات ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيته يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي أسلكه لانتشر العلم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا ان التآليف والتصانيف مفقودة وان وجد منها شيء كان ناقصا إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ماقصد منه فيكون كعدمه والطالبون للعلوم على اختلافهم قاصرون عن ادراك ماأضاعوا عمرهم فيه ودليلنا على ذلك احتياجهم دائما الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم أو الصناعة التى تعلموها فتارة يحتاجون الى الاجانب وأخرى الى بعض من الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها والطرق الموصلة الى جلب النافع ورفع الضار والوسائل المؤدية الى تقويم حال الامم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة وبث روح العلم وتقرير المساواة وماشاكل ذلك ثم اذا فوض اليه أمر من تلك المصالح رأيته أبعد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر واستنكف عن المساواة واستهجن معنى العدالة وان كان يعبر عن نفسه بلفظها وسار مع أغراضه وشهواته وجعلها قانوناً يتبع ويعد كل ذلك حقا وهو في درجة وعظه الاولى لم يخجل ولم يتلعثم له لسان في النصح ودعوى معرفة الحق ولو ان أحدا عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغيبه في قبول النصح والمساواة لرأيته يتذمر ويتضجر ويود ان يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ويهدي اليه نصحاً في بعض أعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألمت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية وعدم الاكتراث بمنافع العامة ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به مدعيا أنه يميل في كل الميل الى الاتحاد والائتلاف وانما تأتي النفرة من غيره ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيته يعد هذه المطالبة أمرا كبيرا وان كانت بغاية من اللطف والانسانية والتوى من الغيظ التواء الثعبان ولو دعي الى إغاثة ملهوف أو ازالة مكروه عن بعض اخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيته يتعلل ويعتذر أو يتمنع ويستكبر ويقول: ليس هذا من خصائصي: ولو طلب الى تأسيس أمر خير يفيد الزراعة أو الصناعة أو يساعد على التربية الحقة وجدته يستصغر ذلك ويسفه آراء طالبيه ويقول ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعامة دعهم في شأنهم يرزقهم الله من غيري كأن جنابه يظن ان المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل اليها يجب ان تكون له من الغير لا في مقابلة منفعة ولا جزاء لدفع مضرة بل لابد ان ينفعه الناس وهو لا ينفعهم وما أجهل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم (ومن العجيب أنهم كثير جدا)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف ولكن اذا عرض له حق

في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلبا للوصول الى غايته وكأنه يعد ذلك من قبيل الانصاف الذي يدعيه أو اضرب عن النصح والارشاد الى وقت آخر

ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم وفاسدي الادارة وسيئي التدبير ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادرا عن سواهم اما اذا كان صادرا عنهم فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة فامثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحا ولا حسنا ولا صحيحا ولا فاسدا وانما هي ألفاظ ورثوها نطقا ولم يتفهموها حق الفهم وألفوا استعمالها في مواقع مخصوصة فهم يستعملونها كما سمعوها بدون ان يعلموا لها حقيقة أو يقفوا لها على مرمى وحقيقة أمرهم أنهم جهلاء انذال عديمو الشرف الانساني حقيقة ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤم عليها وهم في رتبة الحيوانية الاولى لا يعترفون بالحقائق الثابتة بل لا يرون حسنا الا ما يصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية فاذا مضى وقتها ذهلت اذهانهم عنها ولا ينتبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا ولا يرون قبيحا الا ما يصل الى ادراكاتهم من المؤلمات الوقتية كذلك فاذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تمسهم فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة ولم ينظروا اليها نظر الاسف المستنكر فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة الى أنفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرى وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار وانما هي أهواؤهم يعبرون عنها بالالفاظ المطنطنة كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية والحقوق الوطنية وما شاكل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعاني يلوكونها بألسنتهم ومع ذلك فهم لا يسلمون من شر ما يقولون وما يفعلون فجهلهم لا محالة يعود عليهم بعاقبة بئس العاقبة

ولكنا لا نحب ذلك ونود ان يكون الفعل أكثر من القول وان يكون كل شخص من أبناء بلادنا صغيرا كان أو كبيرا مجدا في نيل الفضيلة الثابتة التي يلهج بتحسينها واجراء مقتضاها حتى تكون بذاتها شاهدا عدلا على أهلية صاحبها لما يقول وتنتشر الاعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين فتسير المصالح على صراط مستقيم

وينال كل شخص حظه الحقيقي من ثمرات أتعابه الآتية علي وجه منتظم فيعود النفع على العامة والخاصة أما الفخفخة وكثرة اللغو فانها من شدة العجز لا تعيد ولا تبدي وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصة ان شاء الله

وكتب في العدد ١٠٣٣ الصادر في ١٠ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — ٩ فبراير سنة ١٨٨١

منتدياتنا العمومية واحاديثها

وعدنا فيما سلف بنشر ماألفناه من الاحاديث وماعكفنا عليه من الاقاويل في مجامعنا الاعتيادية ومحافلنا المتتابعة مما هو عقبات في طريق تقدمنا وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية وحواجز دون الوصول الى محجة الرشاد وانتهاج خطة السداد وان خاله الكثير منا تمدنا وزعمه السواد الاعظم من شعار الادب وعلائم الذوق والترف وقد أردنا الآن ان نتكلم على هذا الموضوع وفاء بما وعدنا فنقول.

ان أحاديث الامم تدور على محور أفكارها اذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة على اختلاف أشكالها وتنوع فنونها فباختلاف صنوف البشر في المعارف والامزجة تتباين مفاوضاتها وأحاديثها وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها وان تواريخ الامم الغابرة وحوادث الملل الحاضرة لترشدنا الى ذلك باجلى بيان فهذه الامة العربية في صدر الاسلام وقبيله لما مال عنصرها الى التحبب في خلق الجرأة وحملتها شهامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح قصرت أحاديث رجالها على مايتعلق بحرب ماضية ومعركة آتية تعقد مجالسها على ذكر جياد الخيل ومحاسنها شارحة معايب الاقواس وأوتارها منتقلة الى الكلام عمن اشتهر من رجالها بالاقدام والظفر والبسالة والانتصار وقصائدهم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس وخطبهم النثرية موقوفة على مدح النزال والبراز وبقيت هكذا أحاديثهم الى ان ضعفت تلك الحواس واستعيض عنها بالميل الى الراحة

والانغماس في النعيم فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ولهجت شعراؤهم باوصاف الغزل بعد الحماس وبنعت الحاجبين والخصر بعد الاسهاب في وصفي القوس والوتر وهذه أمة اليونان لما كانت ديارها مهد الحكمة ومطلع شموس العرفان دارت أحاديث قومها في المجامع على تحديد العلوم وتبيين مهايا الاجناس والفصول يطلب الواحد منهم منزل صديقه ليتحاور معه في كيفية إنتاج الاقيسة المنطقية مع تغاير أشكالها فيطول بينهما الحديث وهما بين مثبت وسالب ومعترض ومجيب وهذا في حال كون المجالس الاخرى غاصة بجماهير النبلاء فئة تغوص في البحث عن أمزجة المواد وعناصرها وأخرى تطلق عنان اللسان لاستكناه حركات الافلاك ومراكزها فاذا عقدوا عزائمهم على المزايلة والانصراف ودعتهم أوقات أحاديثهم شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من تقرير المسائل واماطة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات واستقبلتهم الايام بوجه باش وثغر باسم فرحة بما سيكون لها في بطون التواريخ مرسوما بمداد الثناء على صفحات الاعصار والدهور لما ستبرزه فيها أفكار هؤلاء القوم الى عالم الوجود من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة والحجج السديدة وهذا مع محافظتهم وقت المحاورة والجدال على رعاية الآداب وحرمة قوانين المباحثة وهذه أمم أوروبا تشعبت مجالسها وتنوعت مواضيعها تحمل الينا الجرائد من أخبارها ما لا نكاد نصدقه لولا علمنا بوفرة معلوماتهم وكثرة مخترعاتهم فيوما نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداولة فيما يلزم اتخاذه لانشاء بنك مالي يكون مركزه في احدى الممالك الاسيوية مثلا فتطول بينهم المخابرة في ذلك ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها فمنهم من يرجح انشاءه في الاملاك الفلانية من تلك القارة محتجا بان فلاحي تلك الديار يقترضون النقود بفوائد باهظة لاحتياجهم وشدة فقرهم فتكون الثمرة أجزل والربح أوفر مما لو أنشيء هذا البنك في احدى الديار الافريقية التي أصبحت لخصب تربتها ووفرة حاصلاتها وأخذ الاموال الاميرية منها بتقسيط عادل لا تحتاج الى استقراض من مالنا بل ربما اذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من ايراداتها التي تقتدر بها على انجاز مشروعات عمومية حتى تصير بذلك معادلة لاعظم ممالك أوربا في

الثروة واليسار فيجاوبه الآخر قائلا ان الاجدر بنا أيها الشريك أن نعدل عن انشائه في أي مركز من مراكز آسيا مطلقا الى اتخاذه بديار مصر وأما ماقيل من ان تخفيف الضرائب عنها مع حسن تربتها وكثرة ايراداتها يجعلانها غنية عن الاستقراض فذلك انما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه والا فما دام على هذه الحال فانه يكون أبدا مثقلا بديوننا يقرع أبوابنا آناء الليل وأطراف النهار ولو أثمرت أرضه ذهبا وعوفي من جميع الضرائب سرمدا فانه على مايقال رهن عند أحد البيوت فيها مايجاوز العشرين في المائة من أطيانها تأمينا على ماأخذ منه من النقود في مدة لاتزيد عن العام كثيرا فيستحسن الحضور بيانه وتختم الجلسة بالعزم على الشروع فيما قصدوا ليدركوا من الربح مثل من سلفوا

وبينما هم كذلك ترى فئة أخرى تتروى في مد سكك حديدية في احدى الايالات المشرقية وانشاء أسلاك برقية فوق البحار وتحتها تسهيلا للمواصلات التجارية واحكاماً للعلاقات الدولية وأخرى مجتمعة لتتخير من بينها نبيلا يكون رسولا من قبلها عند رجال احدى البلاد فيعقد معها شروط التزام مصالح عديدة وأراضي فسيحة ومياه عذبة ما كانت أهل تلك الديار في حاجة الى التزامه وترى على مقربة من هذه الفئات جماهير متألبة وجماعات متضافرة يحسنون صنع الخطابة ولا يجهلون تاريخ الخلقة يقلبون العالم بين أصابعهم ويقطعون وجه البسيطة في أقل من لمح البصر وهم جلوس يتحادثون يعينون أوقات الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الامارة أو ذلك الاقليم يستطلعون الرسائل المتوالية الورود من أبناء جلدتهم المنبثين في انحاء المعمورة لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التي هم بين ظهرانيهم يذللون المصاعب ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح ونحن عن كل ذلك غافلون نواصل الليل بالنهار في اللهو واللعب بلغت منا الخرافات والهذيانات مبلغا جسيما حتى استحوذت علينا فأنستنا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة وصارت تلك الاخلاط الفاسدة كملكات للنفس يتعسر زوالها الا بذهاب الارواح والاشباح تعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمور والمسكرات يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان ويصرفون ثلثي الليل على قهاويهن

(كذا اصطلح والا فهي مواضع رجس ودنس) يشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسمة قدرا لاتسوغه طباع الوحوش الضارية ولا الاسود الكاسرة وفي خلال ذلك يتشاقون و يتخاصمون حيث ان كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه و يعدد أوصافه و يذكر محاسنه و يشرح مزاياه من حور عيون ورقة خصور وعذوبة منطق وماشا كل ذلك و يحتج عليه بأن فلانا لا يبيت في ذلك المخدع ولا يطأ ذلك الموضع حتى يدفع عشرين أو ثلاثين جنيها وماشا به ذلك والآخر يناقضه و ينافسه و يروم اقناعه في مقام الجدل ولا يروق لهم الحديث الا اذا انتقلوا الى القذف في شرف من بينه و بينهم جامعة ديوانية أو علاقة مجاورة منزلية أولا هذه ولا تلك وانما هدتهم شهرة ذكره الى معرفته فيرمونه بالجبن وعدم الذوق لكونه نزيه النفس يأنف من سلوكهم و يرمونه بغلظ الطبع والتقشف و يسمونه (نطعا) وهم في خلال ذلك يهزءون و يسخرون و يضحكون بصوت جهوري (ولا يبكون وهم سامدون) يتبارون في ميادين البذاء واستحضار كل ماقبح وخبث من الالفاظ وهو المسمى عندهم (تنكيتا) فقسموا الالفاظ العرفية أبوابا وفصولا ليستعملوها في هزلياتهم السخيفة حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع واذا تبارى اثنان منهم في باب منها استداما ساعة أو أكثروهما مع الحضور في خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج فمن عجز منهما قبل صاحبه أوسعوه توبيخا وصفقوا للمنتصر اعلانا بظفره وأجلسوه مكانا عليا و يسمونه المعلم الماهر وهذه فئة غير قليلة في المدن وأكثرها من أبناء الاغنياء عديمي التربية

وأما مجالس ذوي الكمالات من أهل المدن فانها ان اتفق وتجردت عن الحديث في منكر فهي لاتخلو عن حشو فانه على الاقل لابد ان يتشرف المجلس ولو زمنا قليلا بحلول الغيبة أو النميمة المرافقتين لنا مرافقة الشخص لظله الا اذا سمحت الصدفة وكان زمن المجلس قليلا جدا لايسع سوى التحية دون ردها وانهم لن يستطيعوا ان يبرهنوا على خلاف ذلك فاني قائل اذا لم يجلسوا مستديمين الصمت ومنصرفين كذلك فبماذا ينطقون هل ينطقون بعلم شرعي وقد جهلوه أو تجاهلوه أم بعلم صناعي وقد عادوه أم فن طبي وقد تناسوه أم حديث عن منفعة عمومية

وقد أغفلوها أم استفسار عن حوادث سياسية وقد زعموا الاشتغال بها عبثا فاذا لاسبيل الا الاشتغال بالعابهم المعتادة كالشطرنج والنرد (الطاولة) وغيرهما من أصناف الملاعب وانها دون ريب لتحملهم الى أسوأ مما فروا منه كما هو مشاهد نعم يوجد بيننا بعض الاذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة ولكن فضلا عن كونهم نزرا يسيرا فان أعمالهم غير منطبقة على مايقولون لكونها جملا حفظوها من غير ان يعقلوا لها معنى أو لكونها أمورا اجمالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها هذه هي المجالس المنزلية

وأما المجالس التي تعقد على قهاوي الشعراء أو الحشاشين المحرفين فلا نستطيع تفاصيل ما فيها من العجائب والاحاديث الجنونية لكثرتها وتشعب مسالكها سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين أو خرافات المعاتيه والمجانين كما اننا نكتفي في الكلام على منتديات الارياف بانها وان قيل فيها مايتعلق بالزراعة ومصالحها ولكن لا تخلو من كلمات تدل علي تمكن الحسد والحقد في أفئدتهم وان العداوة والبغضاء راسختان في ضمائرهم بحيث يعسر زوالهما وهذا مع مساواة غالبهم لاهل المدن في البغي والفجور وان بعض عمد البلاد أسوأ حالا وأقبح عملا من أهل المدن كما هو معروف

فهذه أحاديثنا في مجالسنا وتلك أقاويل غيرنا فى مجامعهم سرورنا لذوي النقد والبصيرة معرضين عن كثير مما نتفوه به وقت اجتماعنا ولعلنا نذكره وقتا ما اذا رأينا لهذه البزرة أوراقا يانعة وثمارا طيبة فيقوى فينا ضعيف الامل ويحيي ميت الرجاء ونشمر عن ساعد الاجتهاد ونطلق لسان العظة داعين الى طرق النجاح وأنا لنخشي ان تقابل هذه الجملة بمثل ما قوبلت به اخواتها من قبل كأن يقول زيد ما كتبت هذه الجملة الا للتنديد على أقوالي ويظن مثله عمرو فيصرفونها عما وضعت لاجله من خالص النصح ومحض الارشاد من غير ان تناط بشخص مخصوص أو فئة معينة فالملحوظ فيها كسابقاتها الخلق من حيث تعلقه بالافراد أيا كانت كما هو الشأن في جميع المواعظ والنصائح العمومية لا المرء المخصوص المتصف بتلك الاخلاق حتى تكون تنديدا وطعنا فعسى ان لا نسمع بعد بمثل تلك التصورات

من أحد من الناس و يعلموا ان ما كتب وسيكتب صادر عن نفوس تسعى في تهذيب الاخلاق ما استطاعت ويسرها ان ترى أبناء الديار رافلة في حلل من الكمالات متحلية بالعزة والفخار حقق الله آمالنا وختم لنا بحسن مآلنا

وكتب فى العدد ١٠٥٥ الصادر في ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ — ٧ مارس سنة ١٨٨١

حاجة الانسان الى الزواج

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية ان نتكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن فالآن نوفي بما وعدنا بادئين بتمهيد نتبعه بالمقصود فنقول

لما كان من لوازم حفظ النوع الانساني المعرض للفناء والزوال التناسل والتوالد أودع الحق سبحانه في طبيعة الانسان قوة شهوية تدعوه الى الاقتران وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير ان الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة يستحضر بها ماشهده في الماضي فيطلبه ان كان لذيذا استحصالا لمجرد اللذة وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل مايروم جلبه لنفسه من ان تمسه يد الغير و يدافع عنه مااستطاع كل من حاول مشاركته فيه ثم ان هذا التمييز العقلي دعاه لان يطلب من الازواج ماهو أبهى في المنظر وأنعم في الملمس وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك فلا يسمح لاحد بمقتضى الحرص الذي نسميه غيرة ان يشاركه فيه ويدفع ذلك بكل مايمكنه حتى القتل والجرح وهذا بخلاف باقي الحيوانات فانها وان كان يغار ذكرها على أنثاها وقت طلبه لها لكنها لحيظات وتنقضي فاذا سافدها انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة والانسان لفكره ليس كذلك بل يلازم الحرص في جميع أحواله خوفا على المستقبل

ومن المعلوم ان تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الافراد البشرية فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال وسلم من الآفات حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به و يدافع الغير عنه لما قدمناه من

الاسباب وزد على ذلك ان الانسان في حاجة الى التعاون بالضرورة وهو في فطرته لا ينظر الى التعاون بجميع أفراد الانسان فلابد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص فلو ترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ويكفل سلامة نتيجتها لاختل عقد نظام الانسان وفسدت أركان سعادته ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء وذلك من وجوه (الاول) ان النسوة اذا أبيحت لكل ذكر من الرجال وأبيح لكل أنثى ان تقترن بكل زوج في أي وقت لاشتعلت نار الغيرة في أفئدة كل واحد من البشر وسارع كل الى مدافعة من يروم الاشتراك معه ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات (الثاني) ان المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ودرء المكروهات عن ذاتها خصوصا في أزمنة الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع ومالم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى في القيام بحاجاتها والمدافعة عن حقوقها فتضيع وتضيع ذريتها (الثالث) وهو أعم من هذا ان الرجل لا يخاطر بنفسه في تحمل الاتعاب وقتحام الشدائد طلبا للحصول على وسائل المعيشة الا اذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه في أمور معيشتهم ونوال مآربهم يؤدي اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته مؤملا فيهم أنه اذا وهنت قواه بعد عنايته بتربيتهم اذا كبروا يعوضون عليه اتعابه السالفة وتسيئهم مصيبته ويفرحون بثروته وسعادته بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به وتعد نسبته اليها كنسبة الجسد للروح لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته فان ادخار العيش الذي هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والابناء وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العاني فهو مجتهد للايجاد وهم يهتمون بحفظ الموجود وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الانساب وجهلت الاصول بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعي في تربية ولد فيستأصل الموت افراد النوع في أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك ان سعادة الانسان في معيشته بل صيانة وجوده في هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ويضرب لها حدودا يقف كل شخص عندها وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة فيمتنع التعدي ثم

يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته وكل زوجة و بعلها فيسمى كل لخير من اختص به حيث ان سعيه لـكل البشر غير ممكن بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشري وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الامر وان اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الامم لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والاعصار ولم تبح للرجل أية امرأة يريدها الا اذا كانت خالية عن الازواج وتيقن فراغها من الحمل وخلوها عن جميع الموانع التي تخل بهذا الاختصاص وطلب العقد عليها والاجابة منها أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من الناس تذيع هـذا الامر لتنكف الناس عن ارادتها اذا علموا أنها خصت برجـل يقوم بحاجاتها و يدرأ عنها أي مكروه وأمرت الطرفين بحسـن المعاشرة ونهت عن ارتكاب أي أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي الذي لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها وحسن الاقتصاد في المعيشة وان ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخصوصية و بعبارة أظهر ليس عنده أمر يعد مصلحة الا اذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم و ينقلها من خطة الشقاء الى درجات السعادة والهناء

فتبين من ذلك ان الشهوة الحيوية المغروسة في الانسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الانسان مآربه التي لا يستطيع المقام بدونها كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقرابة الذي يعد من أقوى الروابط الانسانية التي لولاها لاختل نظام الوجود الانساني بالمرة كما هو ظاهر ولما كان التعاون على المصالح المعاشية والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج لم يبح الاجماع ان يقترن الرجل باخته أو عمته أو ابنته لانه يضيق تلك الفوائد و يقلل من الثمرات فضلا عن كونه في نظر الاطباء يوجب العقم وانقطاع النسل فلذلك أوجبت الشريعة ان يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة بل لا بد ان يقع الاقتران من بيتين ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل وتتجاذب صلات

المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة وتجعلها متجهة الى كعبة الاتحاد والائتلاف فتستريح الناس من ألم الشقاق ووخامة البغض والعناء أما العائلة الواحدة فيكفي في ارتباطها العلاقة النسبية

هذا ما أتت به الشرائع ونطقت به علماء الدين وأوضحته العقلاء في حكمة الزواج والاقتران بقطع النظر عن كونه بواحدة أو متعددة اقتصرنا عليه الآن وسنشفعه في صحيفة غد ببيان ماجاءت به شريعتنا من اباحة الزواج باربع من النسوة وجواز مفارقتهن بالطلاق مع بيان ما كان عليه السلف الصالح فى معاشرة زوجاتهم ومانحن عليه الآن من سوء معاشرتهن وعدم العدل بينهن وحصول ضد المقصود اذ يكون الزواج موجبا للعداوات وتفريق الشمل بدلا عن المحبة وجمع الكلمة كما أوجبته الشريعة وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم .

وكتب فى العدد ١٠٥٦ الصادر فى ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

حكم الشريعة في تعدد الزوجات

قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة ان علم من نفسه القدرة على العدل بينهن والا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالى (فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) فان الرجل اذا لم يستطع اعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة اذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد كان يستقضيها حاجة فى يوم الاخرى امتعضت تلك الاخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه الى من لاحق لها وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن فكان صلى الله عليه وسلم

وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة احدى الزوجات في نوبة الاخرى الا باذنها

من ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ولم يرض بالاقامة في بيت احداهن خاصة فلما كان عند احدى نسائه سأل في أي بيت أكون غدا فعلم نساؤه انه يسأل عن نوبة عائشة فأذنّ له في المقام عندها مدة المرض فقال «هل رضيتنّ» فقلن نعم فلم يقم في بيت عائشة حتى علم رضاهن. وهذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصائحه ووصاياه فقد روي في الصحيح ان آخر ماأوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه وخفي كلامه «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لاتكلفوهم مالا يطيقون الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم — أي أسراء — أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» وقال «من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الاخرى — وفي رواية ولم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل» وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله «اللهم هذا (أي العدل في المبات والعطاء) جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك» (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهن اذا أراد سفرا

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيتوتة باجماع الأئمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوفه على نسائه وقالوا لايجوز للزوج الدخول عند احدى زوجاته في نوبة الاخرى الا لضرورة مبيحة غايته يجوز له أن يسلم عليها من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول. وصرحت كتب اللغة بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه ان يبيت بحجرتها ولا يذهب الى ضرتها الا لدفع برد ونحوه. وقال علماء الحنفية ان ظاهر آية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ان العدل فرض في البيتوتة وفي الملبوس والمأكول والصحبة لا في المجامعة لافرق في ذلك بين فحل وعنين ومجبوب ومريض وصحيح. وقالوا

ان العدل من حقوق الزوجية فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعا اذ لا تفاوت بينها وقالوا اذا لم يعدل ورفع الى القاضي وجب نهيه وزجره فان عاد عزّر بالضرب لا بالحبس وما ذلك الا محافظة على المقصد الاصلي من الزواج وهو التعاون في المعيشة وحسن السلوك فيها

أفبعد الوعيد الشرعي وذاك الإلزام الدقيق الحتمي الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف فإنا نرى انه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الاخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها واتقانها وتحلف بالله انها لصادقة فيما افترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها أخلصت له النصح لفرط ميله اليها ويوسع الأخريات ضربا مبرحا وسبا فظيعا ويسومهن طردا ونهرا من غير أن يتبين فيما ألقي اليه اذ لا هداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل وفضلا عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائما يتوقعن منه الطلاق إما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج. وأيا ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهن تزرع كل واحدة في ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لاخوته أولاد النسوة الأخريات فانها دائما تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له وجوه الامتياز. فكل ذلك وما شابهه ان ألقي الى الولد حال الطفولية يفعل في نفسه فعلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله فيبقى نفورا من أخيه عدواً له (لا نصيرا

وظهيرا له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الأخ)
وان تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يعقل مالفظ ان كان خيرا أو شرا لكونه صغيرا انتصب سوق العراك بين والدتيهما وأوسعت كل واحدة الاخرى بما في وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب (وان كن من المخدرات في بيوت المعتبرين) كما هو مشاهد في كثير من الجهات خصوصا الريفية واذا دخل الزوج عليهن في هذه الحالة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن بحسن القول ولين الجانب اذ لا يسمعن له أمرا ولا يرهبهن منه وعيد لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الاسباب أو غيرها التي أفضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحمق الطبع فتقوده تلك الاسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعا أو طلاق من هي عنده أقل منزلة في الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فتخرج من المنزل سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الاطفال عديدا فتأوي بهم الى منزل أبيها ان كان ثم لا يمضي عليها بضعة أشهر عنده الا سئمها فلا تجد بداً من رد الاولاد الى أبيهم وان علمت ان زوجته الحالية تعاملهم بأسوإ مما عوملوا به من عشيرة أبيها ولا تسل عن أم الاولاد اذا طلقت وليس لها من تأوي اليه فان شرح ماتعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس بحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتقريع يئنون من الجوع ويبكون من ألم المعاملة

ولا يقال ان ذلك غير واقع فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم وعلى من يقوم مقامها في الحضانة ان خرجت من عدتها وتزوجت : فان الزوج وان كلفته الشريعة بذلك لكن لا يرضخ لأحكامها في مثل هذا الامر الذي يكلفه نفقات كبيرة الا مكرهاً مجبورا والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعي إما لبعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيها لا يملكون شيئاً مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج وربما آبت اليهم حاملة صكاً بالزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجبه القاضي عليه من النفقة من غير ان تقبض منه مايسد الرمق

أو يذهب بالعوز ويرجع الزوج مصرًا على عدم الوفاء بما وعد لكونه متحققاً من ان المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية أو حياء من شكاية الزوج فان كثيرا من أهل الارياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيباً فظيعاً فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلباً لما تقيم به بنيتها هي وبنوها على الشكاية التي توجب لها العار وربما لم تأت بالثمرة المقصودة. وغير خفي ان ارتكاب المرأة الأيم لهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التي أقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فسادا وفي طباعها قبحاً مما يذهب بكمالها ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الامور الى أن تبقى أيماً مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل وان خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق فلا يكون في الغالب الا أقل منزلة وأصغر قدرا من بعلها السابق أو كهلا قلت رغبة النساء فيه ويمكث زمناً طويلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء ان فعل ذلك كأن مطلقها يريد أن تبقى أيماً الى الممات رغبة في نكالها وإساءتها ان طلقها كارهاً لها أما اذا كان طلاقها ناشئاً عن حماقة الرجل لإكثاره من الحلف به عند أدنى الاسباب وأضعف المقتضيات كما هو كثير الوقوع الآن اشتد حنقه وغيرته عليها وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكأني بمن يقولون ان هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة الناس وأدنيائهم وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئا من ذلك فانهم ينفقون مالاً لبداً على مطلقاتهم وأولادهم منها وعلى نسوتهم العديدات في بيوتهم فلا ضير عليهم في الاكثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا أرادوا بل هو الأجمل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الامم يوم القيامة » وأما ما يقع من سفلة الناس فلا يصح ان يجعل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من

الأمة خصوصاً وآية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)
لم تنسخ بالاجماع فاذاً يلزم العمل بمدلولها ما دام الكتاب
نقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من
الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهن فتربى أولادهم عند أقوام
غير عشيرتهم لا يعتنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم وكثير مارأينا الآباء يطردون
أبناءهم وهم كبار مرضاة لنسائهم الجديدات ويسيئون الى النساء بما لا يستطاع
حتى أنه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا ارادة الاضرار بالاولى
وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات
لا يمكننا الا ان نقول كما هو الواقع ان انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية
من القسم في المبيت ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعاً على الرجل
لزوجاته فهذه النفقة تستوي مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات
الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لا تمايز بينهم وبين الفقراء
فى أن كلا قد ارتكب ماحرمته الشرائع ونهت عنه نهيا شديدا خصوصا وان
مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء كما هو الغالب
فان المرأة قد تبقى فى بيت الغني سنة أو سنتين بل ثلاثا بل خمسا بل عشرا
لا يقربها الزوج خشية ان تغضب عليه (من يميل اليها ميلا شديدا) وهي مع ذلك
لا تستطيع ان تطلب منه ان يطلقها لخوفها على نفسها من بأسه فتضطر الى فعل ما
لا يليق وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم بل وابيهم
أيضا موجودة عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء ولا تصح المكابرة في انكار
هذا الامر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي وتطاير شره فى
اكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار المشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من أغنياء وفقراء فى حالة التزوج بالمتعددات
كأنهم لم يفهموا حكمة الله فى مشروعيته بل اتخذوه طريقا لصرف الشهوة
واستحصال اللذة لا غير وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه وهذا لا تجيزه الشريعة ولا
يقبله العقل فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على

العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان خفتم(١) وإما ان يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الاولاد وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدي بهن الى الاعمال الغير اللائقة ولا يحملونهن على الاضرار بهم و بأولادهم ولا يطلقونهن الا لداع ومقتض شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله و يوقرون شريعة العدل و يحافظون على حرمات النساء وحقوقهن و يعاشرونهن بالمعروف و يفارقونهن عند الحاجة فهؤلاء الافاضل الاتقياء لالوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعاً وهم وان كانوا عددا قليلا في كل بلد وأقليم لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم الثناء العميم والشكر الجزيل وتقربهم من الله العادل العزيز

وكتب فى العدد ١٠٧٩ الصادر في ٥ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ — ٤ أبريل سنة ١٨٨١

خطأ العقلاء

ان كثيرا من ذوي القرائح الجيدة اذا أكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة أخبار الامم وأحوالهم الحاضرة تتولد فى عقولهم أفكار جليلة وتنبعث في نفوسهم هممم رفيعة تندفع الى قول الحق وطلب الغاية التي ينبغي ان يكون العالم عليها ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والاخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ماعلموه هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم والالفاظ من أسماعهم فيطلبون من الناس طلباً حاثا ان يكونوا على مشاربهم و يرغبون ان يكون نظام الامة وناموسها العام على طبق أفكارهم وان كانت الامة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين و يظنون ان أفكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ووضعت أصولا

---

(١) جملة وأما آية الخ معترضة بين التقسيم والآية واحدة

وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة وتتبدل العادات وتتحول الاخلاق وليس بين غاية النقص والكمال الا ان ينادى على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وانهم وان كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعاث الغيرة لكنهم أخطأوا خطأ عظيما من حيث انهم لم يقارنوا بين ماحصلوه و بين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها ولم يختبروا قابلية الاذهان واستعدادات الطباع للانقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب وتبينوا كيفية انتقال الامم من بداياتها الى نهاياتها لعلموا ان الامم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية وليست الامة مثلا الا مجموع أفرادها وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد الا مجموع أحوال هاته الافراد

فعلى من يريد كمال امة بتمامها ان يقيس ذلك بكمال كل فرد منها و يسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع ان يودع في عقل الطفل الرضيع أو الصبي قبل رشده وقبل ان يتعلم شيئا من مبادي العلوم تلك الافكار العالية التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا بل لو أراد ان يجعل شخصا من الاشخاص على مثل فكره احتاج الى ان يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ثم مبادي الفنون السهلة التحصيل ثم يتدرج به شيئا فشيئا حتى ينتهي بعد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ثم هو في خلال ذلك محتاج الى ان يحصر أعماله و يقيدها بقيود من الترغيب والترهيب وان يراقب حركاته في أعماله خوفا من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار أو المائلين الى الكسالة والبطالة أو ورود موارد الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التي لابد منها فان اختل شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الاصعب على الاسهل مثلا

أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله اختلت التربية وذهبت الاتعاب سدى واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو انه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه ان يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه كلا ان الذي تمكن في العقل أزمانا لايفارقه الا في أزمان فلا بد لصاحب الفكر ان يجتهد اولا فى ازالة الشبه التي تمسك بها ذلك الشخص فى اعتقاداته وذلك لا يكون في آن واحد ولا بعبارة واحدة ولكن بعبارات مختلفة في التقريب بعضها سهل المأخذ قريب المنال والبعض أرقى منه وبعضها خطابي والآخر برهاني وما شابه ذلك فان لم يتخذ تلك الوسائل فى ارشاده امتنع عليه مقصوده بل ربما جرَّه نصحه الى الضرر بنفسه. تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد ثم ان نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد موقوف على ان صاحب ذلك الفكر الفاسد لايعاشر ولا يخالط في خلال تعلمه الا مرشده صاحب الفكر السليم فان كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الاول طال الزمن وربما لم ينجع فيه الارشاد وأظن (أن) هذا يعترف به كل من مارس الاخلاق والعادات

ان كان هذا حال شخص واحد اذا أردنا اصلاح شأنه في صغره أو كبره مع انه يسهل ضبط أعماله وأحواله والوقوف على كنه أوصافه ودرجات تقدمه فى المقصود وتأخره فيه فما ظنك بحال أمة من الامم تختلف عناصرها وتتباين شعوبها فمن الخطأ بل من الجهالة ان تكلف الامة بالسير على ما لا تعرف له حقيقة أو يطلب منها ماهو بعيد عن مداركها بالكلية كما انه لايليق ان يطلب من الشخص الواحد مالا يعقله أو ما لا يجد اليه سبيلا

وانما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لاتبعد منها بالمرة فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج حتى لايمضي زمن طويل الا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة الى ماهو أرقى وأعلى من حيث لايشعرون أما اذا وضع لهم من الحدود مالم يصلوا الى كنهه أو كلفوا من العمل مالم يعهدوه أو خولوا من السلطة مالم

يعودوه رأيتهم يتخبطون في السير لخفاء المقصود عنهم وضلال الرأي فيما لم يكن يمر على خواطرهم فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن الى ما هو أتعس منها بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها وأعضاء نوابها ومجالسها وما شاكل ذلك ونعرف مقدار السعادة التي نالها الاهالي من تلك الحالة ونعلم ان هذه السعادة انما أتت لهم من كون أفراد الامة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم لانهم أرباب الانتخاب وانما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لانفسهم وتتشوق النفوس الحرة ان تكون على مثل هذه الحالة الجليلة لكننا لانستحسن ان تكون تلك الحالة بعينها لافغانستان مثلا حال كونها على مانعهد من الخشونة فانه لو فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لايرى سواها فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحباً له أونسيباً أوقريباً فربما ينتخبون آلافاً مؤلفة ثم لاينتهي الانتخاب الى المرغوب أصلا لوقوف كل واحد عند انتخابه الاول ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ثم يقع الهرج بين الرؤساء وهكذا حال الامم التي تعودت على ان يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون ان يكون لها دخل في رؤية مصالحها لايمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة والا فسدت فاذا أردنا ابلاغ الافغان مثلا الى درجة أمريكا فلا بد من قرون نبث فيها العلوم ونهذب العقول وتذلل الشهوات الخصوصية وتوسع الافكار الكلية حتى ينشأ في البلاد مايسمى بالرأي العمومي فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لامريكا

وياعجبا هل الشخص الذي توارث العوائد عن آبائه وأجداده ومرن عليها من مهده الى كهولته وتعود تفويض مصلحته الى ارادة غيره يصح ان يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ويلقى اليه زمام مصلحته وهو في جميع عمره لم

يفكر فيها ان هذا لخطأ ظاهر

ولكون أرباب الافكار منا يرومون ان تكون بلادنا وهي هي كبلاد أوربا وهي هي لا ينجعون فى مقاصدهم ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ورجع الامر الى أسوأ مما كان فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم امكان أن يكونوا على أحسن منه فمن يريد خير البلاد فلا يسعى الا في اتقان التربية وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه ان كان طالباً حقاً بدون اتعاب فكر ولا إجهاد نفس وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

وكتب فى العدد ١٨٢

كلام في خطأ العقلاء

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس فى أزمنة مختلفة تظاهر كل منهم بانه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التي عليها أبناء الامم المتمدنة وجعلوا الوسيلة الى ذلك ان تنقل عادات أولئك الامم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم وأخذنا الآن بافكارهم اليومية وتشبهنا بهم في الاطوار كاف في أن نكون مثلهم وان استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الافكار أمر غير عسير

لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الامم الى هذه الحال التي هم عليها حتى يعتمدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن ان تكون بداية مع ان ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا اليه الا بعد معاناة أتعاب ومقاساة مشاق وسفك دماء شريفة وثل عروش ملك رفيعة وكانوا في كل ذلك يقربون من المقصود تارة ويبعدون عنه أخرى كما يرشدنا اليه تاريخهم حتى بدلت الحوادث الدهرية طبائع الاهالي وغيرت

أخلاقهم ونبهت الضرورات أفكارهم وهذبت المخالطات الجهادية والتجارية عقولهم ان بداية التقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الاهالي وأفراد الرعايا علمتهم الحروب الصليبية سبر البر والبحر وخالطوا فيها الامم الشرقية أجيالا وطمحت أنظارهم لمغالبتهم فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم اذ ذاك) وبحثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة وفيما بينهم أفكار سامية ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية ولذلك كان الغنى والعز مستوكرا أقطارهم فاخذ أهالي أوربا عند ذلك في تقليدهم لكن لافي البهارج والزخارف بل في أسبابها والموصلات اليها وهي توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب فكان ذلك أساساً للعمل وقر في النفوس وثبت في العقول وبنوا عليه ماشاءوا ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الاوربي لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد وهو احساس نفوس الاهالي بآلام صعبة الاحتمال من ظلم الاشراف (النبلاء) وغدر الملوك وضيق وجوه الاكتساب ونفرة دينية على المسلمين الذين استولوا على حرمهم المقدس وهذا الاحساس هو الذي دعا الانفس الكثيرة العدد الى الخروج من هذه الآلام فطلبوا لذلك أسباباً متنوعة أقواها التعاضد والتعاون على ترويج وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات وتتألف له الجمعيات فكان جرثومة تقدمهم أمرا منبثاً في غالب الافراد ومحرزا في أغلب العقول وهو نشاط الاهالي في اجتلاب الثروة وطلبهم لحرية العمل لينالوها ورفضهم لتلك التقييدات التي كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ثم تدرجوا فيه ينتقلون من حال الى حال والاصل ثابت لايتغير حتى عم التغير جميع العوائد والمشارب والقوانين ولم يكن ذلك كله الا من حرص الاهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم ويتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبناؤهم من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والأهالي على غير علم منها بانفسهم فاستلفتهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختيارا

أو ألجأتهم اليه اضطرارا وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد وطبقاتها اشخاص مختلفون في الافكار والاحوال الى تلك البلاد المتمدنة ويشهدوا عاداتها وأحوالها ويهتم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء اهتمام المضطر الذي يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه بل جلبوا اليهم كثيرا من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية وترى عليهم آثار النعمة يتكلمون بما لا يفهم ويتفكرون فيما لا يعقل فشادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة وجلبوا الينا من مصنوعاتهم ما راق منظره وطاب مخبره لكننا لم نشهد مصنعه ولم ندر منبعه ورأيناهم يتزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن وتشرح الخواطر ويتنافسون فيها فاعجبتنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا مثلهم والحقوا بهم في هذه السعادة ثم صاروا أئمة لنا في العمل فاخذنا نتشبه بهم لكن فيما رأيناه وهو الزينة والبهرجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا ومن ذلك ترى أفكار الغالب منا دائما عند ما يجد فرصة الاقتدار موجهة الى تشييد الابنية وتجويد وضعها واتقان ترتيبها وتزيين بواطنها وظواهرها والتوسع في لوازم المآكل والمشارب وآلاتها وأوانيها والتفنن فيها وجلب ماهو أغلى ثمنا وأدخل في النظر وأجلب للأنس والتأنق في الملابس ومحاذاة الاوربيين فيها ومحاولة ان تكون على النمط الاعلا عندهم وعلى هذا النحو تفننا في أنواع المفروشات وتأنقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلا ثمنه وارتفعت عن الطاقة قيمه وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد وتملك الحصون وبالجملة فقد سلكنا مسالك المتمدنين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زوائدهم فاسرفنا في الانفاق وصار الناظر لملابسنا ومساكننا والذائق لمطاعمنا ومشاربنا يشهد باننا في ذلك بحمد الله متمدنون فقد اشتركنا معهم في ثمرات التمدن أي ما ينتهي اليه حال المتمدن من طلبه للتمتع باللذائذ وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الامر علم ان مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت ان الاوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت ان تبيض مثلها فأجهدت نفسها في ان يكون ذلك غير عارفة ان ذلك لا يكون الا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فحبست

نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشق منها ما انشق وتمزق منها ما تمزق فان افراطنا في تقليد الاوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الاغنياء منا فعلا غريبا صرف نظرهم الى اللذائذ واستكمال لوازم الترف والنعيم وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل الى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة استتبعة للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجوه اللذائذ والآلام والتنشط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الامنة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الامم المتمدنة فصح ان يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع أنهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب اللذات مفتحة قبل ان يجدوا عقلا يقدر لهم ما يلزم منها وما لا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك العوائد الترفهية الى بلادنا وطلب التحلي بها بدون ان نحوز ما يوصلنا اليها من أنفسنا وليتنا قبل ان نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاثات أبقيناها على بساطتها وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا تمتد اليها الايدي وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ علينا ما وجدنا وتجذب الينا ما فقدنا وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ورفق بالملهوفين وغيرة على البلاد وأنفة عن الصغار

لعمر الله لو قدمنا هذه الزينة الجوهرية على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بأسره ينظر الينا نظر الراهب الخائف أو يرمقنا بلحظ المعظم المبجل وكانت معيشتنا البسيطة أوقع في نفسه من معيشته الرفيعة وكان ذلك سهلا لو ان الزاعمين فينا حب الترقي والتقدم ساروا بنا من البدايات وحجبونا عن النهايات حتى لا نراها الا من أنفسنا فنطلبها لا لانها أعجبت النظر ولكن لانها بنت الفكر ونتيجته وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين في أصول أعمالهم لا في زوائدها فكنا بذلك نصل الى

ماوصلوا اليه في زمن أقل بكثير من الزمن الذي نالوا فيه ما نالوا لكن فات الوقت ونحن الآن فيه فعلينا بالعمل غير مقتصرين على مجرد الامل

وكتب في العدد ١٠٩٢ الصادر في ١٩ ابريل سنة ١٨٨

كلام في خطأ العقلاء

لسنا ننكر ان بلادنا كانت في الازمان السابقة تحت تصرف أقوام خشنين لا يعلمون للخلقة غاية الا وجودهم الشريف وكانوا يعدون افراد الاهالي انعاما خلقت لهم يستعملونها كيفما يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الامم غربية وشرقية) فارغموا أنف الطبيعة ومحوا أنوار الالهام الفطري الذي وضعه الله في نفوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سدا حصيناً بين كل شخص ومنافعه فاستأثروا بجميع ثمرات الاعمال فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني ثمرة عمله فانه عند ما تبدو الثمرة يسرع حاكمه الى قطفها وكانت حياته معقودة بغضب ذاك الحاكم ورضاه فان رضي عنه فهو في أمن عليها وان غضب عليه فهو ان عاش كمريض بلغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لقضاء حاكمه) وبالجملة لم يكن لاحد من الاهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم وكان يعتقد أنه وما ملكت يداه حل للآمر عليه وليس لتصرف ذلك الآمر حد يجب ان ينتهي اليه وهذه حالة يصعد بها تاريخ هذه البلاد اجيالا كثيرة اذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لا نصل وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فنيت الارادة ومات الاختيار وطفىء نور الفكر بالمرة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون الحجر على أهالي المدن وغيرها في الاعمال والاقوال الشخصية حتى كانوا من شدة التضييق يستعملون طريقة يقال لها الكبسة وهو ان يهجم رجال الضابطة على بعض

الاماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق كفحش بالنساء أو شرب للمسكرات وماشاكل هذا فان وجدوا شيأ من ذلك ساقوا من يجدونه الى حيث يستوفي عقاباً أليماً وكذلك وضعوا في الافواه لجاماً من الرهبة فلا يكاد ينطق الناطق بكلمة في مطلب علمي أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقة أو طعن في حاكمه وله عند ذلك الويل الذي لا مخلص منه كل ذلك سمعنا بعضه بالنقل ورأينا بعضه الآخر بالعيان

فتلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا ان ينتحلوا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها فرزق الله هذه البلاد باناس خالطوا الامم المتمدنة وطالعوا أحوالها ورأوا ماعليه أهلوها من اطلاق الارادة وحرية الاختيار فطلبوا لبلادنا ان تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة لكنهم أول مابدأوا به ان أباحوا (ما أقبحها من اباحة) لكل شخص ان يعمل فيما يخص نفسه بارادته ويتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره وشرطوا في ذلك شرطاً (ما أنفسه من شرط) وهو ان تكون تلك الاعمال والاقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه فان كانت كذلك فدونها ضرب الرقاب أو سكن الحبوس أو الجلاء عن الاوطان وسموا تلك الاباحة حرية ونادوا بها على الالسنة الظالمة فكان حاصل تلك الحرية ان لاجناح على من ارتكب أي جريمة وتطبع باي خلق حسناً كان أو سيئاً وذهب الى أي مذهب صحيحاً كان أو فاسداً وانما عليه ان يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوباً أو يستقضى منه مسلوباً أياً كان فلم يجعلوا للسلطة حداً معيناً وهو الذي نسميه بالقانون الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده بل أبقوها على ما كانت عليه وجعلوا تلك الحرية غطاء على هذا الاستعباد فهم في الحقيقة لم يقلدوا الامم المتمدنة في اطلاق الارادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة فهذا خطأ من وجه ان كان لهم مقصد إصلاح وظلم ان كانوا متعمدين هذا التقييد ثم انهم قلدوها في الاحوال الجزئية الشخصية مع علمهم ان البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات وهتكوا حرمة الوقار وتهالكوا على شرب المسكرات في

بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه الاوربيون في بلادهم الباردة وكثرت لذلك الحانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والابدان ثم تولعوا بما يتبع السكر من اللهو واللعب وتنافسوا في الحظوة عند النساء الباغيات واتسع الامر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال فى الطرق والشوارع وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فذهب الكثير منهن الى حيث يتغين وافتضحت بذلك بيوت شريفة وكلما طلبت لذلك منعاً أو رمت له دفعاً قال المولع هذ حرية فضاع شأن الآداب وانحطت قيمة الشرف والوقار حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الاحوال الرديئة ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) ويصرفون فيها مالا يقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعاً خاصاً) وكاد فساد الاخلاق يسري الى كثير من طبقات الاهالي—هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات والمشارب الدينية فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه فان قيل له خفض من صوتك واجمل فى قولك فما كل الناس يرضاه قال انا في زمان الحرية على ان أفكاره التي يذهب اليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادي ربما يقال انه اتخذها مشرباً بل ألفاظ حفظها من معاشريه لو سئل عن معناها أو طلب منه أي وهم ساقه اليها لعجز عن التعبير والتجأ الى التهوس ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة حيث لم يوافقه على مشربه الفاسد ثم يتخذ هذه الخزعبلات الاعتقادية التي يظنها تنوراً وتبصراً ذريعة لاستباحة القبائح واستحلال المحظورات ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعياذ بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ومنهم من ينكر النبوات ويعتقد بالشياطين وماأشبه ذلك فهؤلاء من الجهل بمكان لا يعلوهم فيه حيوان فضلا عن انسان

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لهـا أثرا يحمد وان كان الأوربيون يحرصون عليها فان استعداد بلادنا لم يكن ملائما لمثل هذا الاطلاق الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد فان الجاهل الذي لم يتعود على

تصريف ارادته واعمال اختياره اذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية نعم انه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء ولكن شهواته الخبيثة تبيعه بأبخس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل وجميع أنواع الشرور وتودعه سجن الفقر وتغله بطوق الذل والعار وياليته بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الانفس والاموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية فيكون لكل شخص زاجر من نفسه فترتفع الكبسة بذاتها ويذهب الناس أحرارا بطبعهم وما كان ذلك بعسير ولا محتاج الى زمن طويل وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها

فتلك الحرية التي سموها اطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل وأسلمته الى الجهل الأعمى فهو يتصرف به كيف مايقتضي من المضرات ولو أنه بقي تحت سيادة العقل يسوسه المهذبون ويقوده المتبصرون حتى يعلم من أين تؤتى الافكار وبأي الوسائل يوفي العقل حظوظه الحقيقية لكان ذلك خيرا وأبقى ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شناعات المتعصبين وتعيين دائرة منتظمة يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول فتضرب لنفسها حداً تقف عنده ولكننا طلبنا ان نكون على مثال الاوربيين في عوائدهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

وياليت العقلاء منا فى الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتمدنة فى الازمان السابقة عند إرادتهم تأييد الاستقلال حقيقة حيث بدأوا بالمجالس البلدية فكان يمكنهم ان يصنعوا لأهل البلاد قانونا بسيطا ينطبق على عوائدهم وأحوالهم ويقرب فهمه من ادراكاتهم ثم يفوض الى أهل كل بلد ان تنتخب منها عددا معينا ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ويذهب اشخاص من العارفين الى القرى والمدن ليفهموا أولئك مواد القانون السهل البسيط ويدربوهم على كيفية العمل به ثم لايزالوا على المراقبة ازمانا فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الاهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم فتنمو فيهم القوة

ونحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد ايطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولا مع تفهيمه وتعليمه لجمهور الاهالي ليعلموه فيقفوا عند حده

وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لا يفهمها الا الراسخون في العلم وهي محفوظة بين دفات الكتب وصدور بعض من النبهاء لكن الاهالي أنفسهم الذين قد وضعت هذه القوانين لهم غير عالمين بها فكيف يطلب منهم ان يعملوا بمقتضاها ان هذا لشيء عجاب غير ان العقلاء منا يقولون لابد ان نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغماً عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لاحكام بقعتنا وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذي نشأنا فيه ولن يكون ذلك أبدا

واننا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الاعمى واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة ان تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا وان يكون انتقالنا عنها (لو انتقلنا) على وجه تقليدي أيضا فلا يفيد لكن الوقت لم يفت بعد فعلى من يريد بنا خيرا ان يذهب بنا طريقاً قويماً ولا أراه الا نشر القوانين (وان كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا وما لا يدرك كله لا يترك كله) انما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد فان قارئها قليل ولا بارسال المنشورات الى عمد البلاد فان كثيرا منهم قلما يفهم اذا قرأ ولكن لابد من تشكيل جمعيات فى القرى والمدن لتفاهم القوانين واللوائح والمنشورات والا ضاعت الحقوق وكثرت المشاكل وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراآت المضرة بالحكومة والاهالي معا ثم وضع حدود قويمة للاعمال الشخصية والاخلاق والتصرفات فان اصلاح الاخلاق والافكار والاعمال من أهم واجبات البلاد وبدونه لا يمكن اصلاح شيء من أمورها وليس بجائز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط

ومركز النظر فى جميع ذلك نبهاء البلاد وذوو الشأن فيها فعليهم ان كانوا صادقين فى الوطنية ان يبذلوا الجهد فى طلب ذلك والقيام بما يلزم والا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

وكتب فى العدد ٩٥٨ الصادر فى ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٧

ابطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية

عرض الى نظارة الاوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه في تاريخ ٣ القعدة مامفاده ان مجلس ذكر السعدية الذي ينعقد بذلك المسجد في كل يوم ثلاثاء لايذكر فيه اسم الله الا مصحوبا بضرب الباز (نوع من الطبل ذي الصوت المزعج معروف) ولما فى ذلك من تشويش الاسماع نبهنا عليم مرارا بابطال هذه العادة (وان يذكروا الله ذكرا مجردا عن الطبل) فلم تثمر التنبيهات أدنى ثمرة وحيث أن الزائرين لضريح الامام الحسين وطلبة العلم وجهوا اللوم والاعتراض على هذه العادة يقولون انها من المحرمات شرعاً ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الامر بابطاله فكتب من نظارة الاوقاف العمومية الى حضرة فضيلتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ما معناه

قد تبين من افادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ما ذكر فيها وحيث ان النظر فى ذلك مختص بسيادتكم بعثنا بها اليكم لافادة الحكم الشرعي فيها فوردت افادة حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى ديوان الاوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أي ونحوه) في المساجد مما لايسوغ شرعا فعلى ديوان الاوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه ثم زاد حضرة الاستاذ فى حاشية رقيمه ان ذلك ليس مختصاً بالباز بل هو عام في كل ماأوجب تشويشاً على المصلين حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله فى المسجد اذا ترتب عليه التشويش وكذلك كل مايترتب عليه اجتماع من لايليق اجتماعه بالمسجد كاختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفتهم معهن فى المساجد المحترمة فصدر أمر نظارة الاوقاف الى مأموري أقسام أوقاف المحروسة بالزام كل مأمور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لقسمه وأرسلت الى كل منهم صورة الافتاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الازهر ونبهت عليهم بالاطلاع عليه وفهم ماأودعه من الحكم الشرعي والسير على مقتضاه وأخذ التعهدات القوية على خدمة

المساجد وأم المراقبة والتيقظ لمنع أي لفظ يوجب تشويشاً على المصلين أواخلالا بحرمة المساجد اتباعا لنصوص الشريعة الغراء اهـ

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة والسنة القويمة وبانتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة اذ وجه أولو الامر منا نظارهم الى تخفيض شأن البدع وازالتها فلنشكر همة سعادتلو ناظر الاوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف واهتمامه باحترام أماكن العبادة وصيانتها عن وقوع اللهو وسيئ الافعال ونثني كل الثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم ولا يبالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين فلقد نسمع بعضا من الجهلة بل عددا وافرا منهم يقول هذه سنة وجدنا عليها آباءنا وأخذ العهود علينا باتباعها أشياخنا وطبعت على حبها قلوبنا وتمرنت على القيام بها اعضاؤنا فكيف يصح ان يحكم علينا بتركها ان هذا لشيء عجاب: تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدعين يهدرون دم الشريعة طوعا لأغراضهم وتنفيذا لأحكام عاداتهم ولبئس ما كانوا يصنعون ويأبى الله الا ان يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لاتغني من الجاه شيئاً

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الاوقاف ان المنع خاص بالباز وطريقة السعدية أو بالطبل على العموم بل هو صريح فى عموم كل فعل يوجب تشويشاً على مصل أواخلالا بحرمة مسجد فيدخل في المنع طريقة المغاربة المنسوبة للسيد عبد السلام الاسمر (كذباً وافتراء) ومن شعائر ابناء تلك الطريقة اتخاذ طبول متنوعة بعضها مستطيل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذكر وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضاً و بعضها مستدير (يعرف بالطار) الا انه كبير ينشأ من ضربه صوت عنيف يصم الآذان ولا يجتمعون للذكر الا وفى مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت فاذا قاموا الى الذكر غضوا شناعة أصوات الطبول الكثيرة بضجتهم المزعجة يجأرون بألفاظ لا مدلول لها وعند مايشتد خمر الاوهام فى عقولهم يهيمون هيام المداتيه

و يتجرد البعض منهم عن ثيابه و يأخذ جذوات من النار و يدخلها في فيه و يلامس بها بدنه اظهارا للكرامة وحاشا ان تكون — من الكرامة - كل ذلك مع حركات شديدة واختباط غريب ومن عادتهم ان يأتوا بمثل هذا العمل في مسجد سيدنا الحسين بمولد، فيجتمع عليهم الناس و يزدحم المتفرجون و يشوشون أذهان الزائرين وهذا حظهم ولا يعلم أية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التي يجريها الجهلة في بيوت الله المعظمة ولا يخرجه من حكم المنع أيضا ما يفعل من نحو ذلك بأضرحة الاولياء رضي الله عنهم وان لم تكن مساجد لمنافاتها الأدب الواجب في حقهم على ان الشريعة المطهرة مانعة من ان يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم بدون استثناء خصوصا وانه لا يشك عاقل في ان قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نغماتها انما هو اللهو والطرب الممنوعان شرعا يرشد لذلك تضاحكهم وتلاعبهم في نفس محافلهم الموقرة وتهافتهم فيها على مالا يليق بشأن العبادة ولو كلف أحدهم ان يهتف بذكر الله مرة وهو وحده لم تسمح نفسه بذلك ولكن يحركه الي هذا الذي يسميه ذكرا حب الطرب والميل الى اللعب وأقبح شيء في هذا الباب اعتقادهم ان طاعة شهواتهم هذه طاعة لله نعوذ بالله من الزيغ ولا ريب ان علماءنا رفع الله قدرهم سيفرحون بمنع هذه البدع فرحا شديدا و يرجون من عدالة الحكومة ازالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع ويعاب على العقول السليمة ان تقره ويشمل حكم المنع أيضا الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والاربعاء بمسجد السيدة زينب و يومي السبت والثلاثاء و يوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين اذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعا و يجري فيها من الفعال القبيحة مالا يليق ذكره ولا يدع الازدحام مكانا لمصل يصلي فيه ولئن وجد المكان فقلما يستطيع اداء الاركان بدون تشويش فيها فهذا الأمر الذي أصدرته نظارة الاوقاف متبعة فيه افتاء شيخ الاسلام حفظه الله يعتبر أساسا جليلا لمنع كثير من البدع وقد فتح به باب من الخير لا بد من الوصول الى غايته ان شاء الله وسيسري ذلك من القاهرة الى بلاد الارياف فعلى الناهجين

اطرق البدعة ان يعدلوا عنها قبل ان تمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين

وكتب في العدد ١٠٣٨ الصادر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ ما يأتي

تنبيه رسمي

بطلان الدوسة

اطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة من عهد قريب (١) لسان الشكر والثناء للجناب الخديوي وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة وللسيد البكري على عنايتهم بابطال بدع كثيرة ليست من الدين في شيء بل هي مناقضة للدين المحمدي على خط مستقيم. ومن افظع تلك البدع بدعة الدوسة وهي أن ينطرح الناس على الارض مصطفين أحدهم لجنب الآخر ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحد بعد واحد حتى ينتهي الى آخرهم وهم مسلمون من أهل الايمان قد أمر الله بتكريمهم وحرم اهانتهم الا لحد أو تعزير شرعي بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم بني آدم على سائر الحيوانات مطلقا فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته سبحانه وتعالى فقال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم وقد نهت الشريعة الغراء عن اهانة أجساد الاموات فضلا عن الاحياء

وانا لنعلم علم اليقين ان حضرة مولانا سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية قد وقع لديه هذا الامر أعني ابطال الدوسة موقع الاستحسان لعلمه أنها كانت من المنكرات الشرعية وكان يتمنى التفات الحكومة الى ابطالها وهو متشكر من الحكومة التي أقرت السيد البكري على ازالتها ولما عاد الجناب

---

(١) كتب ذلك في عدد ١٠٣٥ الصادر في ١٣ ربيع الاول اذ ذكر ابطال الدوسة من حفلة المولد النبوي وكان قد مهد لمثل ذلك وسعى له سعيه

الخديوي للمذاكرة معه في هذا الشأن بيّن حفظه الله ما في هذه البدعة من المحظورات الشرعية كإهانة المؤمنين والتعرض للخطر فانه لا يؤمن من أن تفلت رجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة فترض عضوا يابسا أوتبتك عضوا رخوا ويكون فيه تلف المصاب وان التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب فأمره الجناب الخديوي أن ينبه على بعض المشايخ ليبينوا ذلك للعامة حتى يقتنعوا بحرمة هذه البدعة وقد نبه سيادته على كثير من الوعاظ والمدرسين وأوعز اليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الامر ويوقفوهم على أن امثال هذه البدع مما لا أصل له في الدين (على أن أصل الدوسة فيما تقول العامة كانت كرامة للشيخ يونس بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر وهي مرة واحدة فكيف تبدل الزجاج بالانسان وصارت عادة مستمرة نعوذ بالله)

وكذلك سرّ كل السرور بذلك حضرات العلماء الاعلام أيدهم الله فانهم متضلعون من الادلة النقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وتحريم امتهانهم خصوصا وان الدوسة وامثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الغراء حتى يلتمس احد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه على بعد . وأما دعوى انها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السنة والجماعة فانهم نصوا في كتب التوحيد على ان من شروط الكرامة ان لا تصير عادة يتعاطاها من يريد اظهارها على حسب ارادته فان صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة ونحوها التي يتعاطاها كل من (يأخذ عهدا على طريقة الرفاعي أو السعدي) أو (يتولى مشيخة السعدية) أيا كان فلا تكون من قبيل الكرامة بل تعد من الحيل المذمومة ومن أجل ذلك قد بادر السيد البكري وساعده أهل الشرع والعقل على ابطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الانسانية ولا يميزون الحسن والقبيح من ان هذه عادة قديمة فكيف يسوغ ابطالها يعد من الهذيان الذي لا طائل تحته فان العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بان الدوسة ونحوها من البدع المنكرة فهل يريد الجهال بجهلهم أن يغيروا شرع الله أو يرومون ان

العلماء يتحاشون عن انكار البدع خوفا من جهل الجهلاء ؟ أولا يعلم الجاهلون ان مصر بل وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما كاد يذهب ببهجة الشريعة وأن ذلك كان تبعا لأهواء الامراء السالفين وان العلماء في الازمان السابقة كانوا لا يستطيعون اعلان الحقيقة خوفا من سطوة الظالمين أما الآن وقد نظر الجناب الخديوي ورجال حكومته الى الاصول الدينية بعين الاحترام فلا يخشى العلماء لومة لائم فى انكار المنكر واقرار المعروف فليس على الجاهلين بالاصول الشرعية الان يتعلموا خيرا لهم من ان يصادموا أوامر الدين الحق التي اتفق عليها العلماء وغضب الله ورسوله على كل من خالفها فان المصائب لم تصب علينا ولم تصل أيدي الغدر والفجور الينا الا من يوم نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهريا ولم يلتفتوا الى حقيقة الشرع ولم يقفوا عند حدوده القويمة بل زادوا فيه أمورا ظنوها منه وهي ليست منه في شيء وان بطلان هذه العادة السيئة ليس الا مفتاحا لبطلان عادات كثيرة وسنرى البدع الضلالية تبطل شيئا فشيئا حتى يرجع الامر الى الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الراشدين هدانا الله للاقتداء بهم وسنعود الى الكلام في أمثال هاته البدع مرارا أخرى ان شاء الله تعالى

وكتب فى العدد ١٠٧٨ الصادر في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ — ٣ ابريل سنة ١٨٨١

الدوسة

تقدم لنا الكلام على ما يتعلق بهذه العادة المخالفة لاحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية وأظهرنا ما شملنا من الافراح وما عمنا من المسرات عندما توجهت عناية الجناب العالي الخديوي الى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المنابذة لقواعده القويمة الاساس الواضحة البيان واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الأستاذ السيد البكري فأعلن أمره فى السنة الاولى من تولية نقابة الاشراف (سنتنا هذه) ببطلان الدوسة وإلغائها كليا من جميع الموالد والاحتفالات وقد رأينا بداية اتباع هذا الامر في مولد النبي صلى الله عليه

وسلم الذي أقيم في سنتنا الحاضرة فى العاصمة وجميع مدن القطر و بنادره فتيقنا ان جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها وان انوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا فتطهر مرآة العقل من رجس الخرافات وتحفظ هيكل الانسان (الذي كرمه الله) من وطئه بمناسم الحيوانات ورجونا ان يثل عرش كثير من أعاهم الجهل وأضلتهم الشهوات

فبينما نحن نستنشق خبرا ينبئ بابادة تلك البدعة أو يشعر بزجر أولئك المشعوذين وتأديب المحرفين اذ سمعنا الآن ان نفرا ممن ألفوا تلك العادات استفزتهم مصالحهم الخصوصية وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكري أن يبيح لهم إعادة الدوسة في مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر (الذي روي عنه ان الزجاج صف امام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير ان يصاب بكسر أو يمر به اختلال) محتجين على حضرة السيد المشار اليه في طلبهم هذا بأن الدوسة فضلا عن أنها من كرامات أحد الاولياء (الشيخ يونس) فانه عمل بها منذ زمن طويل بمحضر كثير من العلماء الاعلام والسادة الفضلاء ولم يبد من واحد من حضراتهم معارضة أو تنديد بها ومضت تلك الازمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف فلا يصح بطلانها الآن اتباعا لسنة الآباء والاجداد ومحافظة على العادات والمشارب

فاسفنا لهذا الخبر ووقفنا ننتظر ماسيكون من اجابتهم وترددنا بين ان ندحض ماقام بمخيلاتهم من الشبهات التي جسمها لهم حب الصالح الخصوصي اونقتصر على ما شرحناه من ذلك في بعض الاعداد السالفة ولكن لعلمنا بأن تلك العادة وماشابهها متمكنة في أفكار كثير من العامة و بسطاء الادراك فلابد وان يكون طلب تلك الفئة ملائما لمذاق الجاهلين باحكام الشرع منهم ترجح عندنا أن نذكر شيأ مما يتعلق بطلبهم دفعا لاوهام بعض العامة الذين ربما يوقرون أولئك البسطاء الملحين على اعادة البدع وان كنا على يقين من أنهم لا يجابون لما طلبوه فنقول

اذا صح ماعزوه الى الولي الشهير الشيخ يونس من أنه ركب الحصان وداس به على ألواح الزجاج ولم تنكسر فتلك كرامة خصه بها المولى عزوجل وذلك لا يفيد

اباحة الدوسة بمعنى ان تصف الرجال منكبين على وجوههم متلاصقي الاكتاف يطأ ظهورها حيوان من العجم لم تشم من سيمته كرامة ولم تتبين من حافره منهاج الصالحين ويمشي أمامه وخلفه نفر من حاشيته وجم من المتفرجين وكلهم يطؤن بنعالهم أجساماً أعلى قدرها الحق في كتابه العزيز ولكن سوت بينها وبين العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين ولو توسعنا في تلك الرواية الغير الموثوق بها وقلنا ان ذاك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضا ولم يلحقهم من ذلك ضرر فهذا انما كان (لو وقع) اظهارا لامر خارق للعادة على يد رجل من المتقين ولا يستلزم جواز وطئ أجسام الرجال بحوافر الخيل ونعال العامة من الناس بحيث يكون ذلك عادة يقع في كل زمان ومكان فانه لا يكون من باب الكرامات في شيء فضلا عما فيه من انتهاك حرمة الانسان وتعريضه للخطر والمضرات

وأما وقوعها في الازمان السالفة بمحضر العلماء والافاضل بهذه الصفة التي كانت عليها الآن فلا يستدل به على جوازها وذلك لأن نصوص الشرع الشريف تكلفنا بالنظر في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها وعدمه على المباحات فان كان وجودها مخالفا لتلك النصوص (القرآن الشريف والاحاديث الصحيحة وقول الائمة المجتهدين) أو يترتب عليها ما يخالفها كانت من المحرمات ووجب نهي فاعليها مهما طال عليها المدى في أي وقت وأي مكان وسواء نهى عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم بعدم اذاعة النهي عنها والا فتكون من الملحقات بالمباح

وحيث ان هذه البدعة التي كلامنا الآن فيها (الدوسة) موجبة لانتهاك حرمة الانسان المنصوص على تكريمه ومظنة للخطر المنهي عن التعرض له شرعا ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف سيما وان عملها تحت اسم كرامة من كرامات الاولياء مما يؤدي بالعقول الى سوء الظن بالمتقين والصلحاء فهي لهذه الاسباب من المحرمات التي يجب التضافر على ازالتها من صفحة الوجوه وان أتى عليها دور غير قليل من الزمان وهي متسلطة على عقول الجاهلين بل التي طال الزمن علي وجودها يجب الاهتمام بازالتها بكل ما أمكن من الوسائل خشية ان تعتقدها

العامة من المعالم الدينية ولا يخفى ما في ذلك من المضرات التي توجب اشتباه الحق بالباطل والخبيث بالطيب

وأما سكوت العلماء عن ازالتها وقت مشاهدتهم لها في تلك الايام الخالية فليس ناشئا الا عن تسلط الخرافات والبدع في أفكار معاصريهم من العامة و يأسهم من ان تساعدهم ولاة أمورهم على بطلانها لعدم اهتمامهم بشؤون معالم الدين والمحافظة على سلامته من الاوهام والبدع فلو طلبوا اذ ذاك ازالتها لم يجدوا سميعا لدعوتهم ولا ظهيرا يعضد مقاصدهم من أولي الحل والعقد فضلا عن ان عامة الناس تسلقهم بألسنة الجهالة وترميهم بالخروج عن الدين

أما الآن وقد رزقنا أميرا يهمه أمر الدين و يسعى ما استطاع في تشييد معالمه وتثبيت أركانه فلا غرو اذا رأينا الفضلاء من العلماء والاتقياء من الصلحاء يتسابقون في وعظ العامة وزجرهم عن الاقدام على اعتناق البدع والتهافت على الخرافات المفسدة لكمال العقل والطامسة لنور البصيرة (وقد رأينا من حضراتهم هذه الفعال المكافين بها شرعاً رأي العين) فان ذلك من قبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم يثابون عليها اثابتهم على الفروض العينية والواجبات (وقد نشرنا من مدة ما كان من جناب الاستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشريعة وكفى بهذا إقناعاً للمتعصبين)

فلتعلم اذا أهل البدع والخرافات ان نجوم طلاسمهم قد أفلت واستعيض عنها ببزوغ شموس الحق ومصابيح الارشاد الى طرق الدين القويم فليريحوا أنفسهم من طلبات لا تعود عليهم الا بالخيبة والنكال وليعودوا نفوسهم على التمسك بعروة الشرع والاستضاءة بنور الحق فانه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة فلا يصغون لكلماتهم المبهمة ولا يعبؤن باعمالهم الشعوذية ذلك خير لهم من ان يحاولوا اعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسرا بل متعذرا

ولنا أمل قوي في ان غيرة حضرة السيد البكري وميله الى تعزيز شأن الشرع والمحافظة على دعائمه لا تسمح له باجابة طلب هؤلاء الناس بل يحثهم على العدول

عن هذا الامر الذي لايوافق مذاهب السنة ولا ينطبق على قواعد الشريعة (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

وجاء في العدد ١٠٧٣ الصادر في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ — ٢٨ مارس سنة ١٨٨١

ماهو الفقر الحقيقي في البلاد

ان أرضنا خصبة طيبة التربة ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه المسكونة وهواؤها ونباتها في غاية الجودة يصلحان لتغذية كافة الحيوانات البرية و بنوها أصحاب كد ونصب وذوو صبر على العمل وجلد على التعب فهي من هذا الوجه عالم برأسه غنية مثرية لاتفنى كنوزها ولا تفرغ خزائنها وانها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها وتقوية شوكتها بل ان تكون سلطتها مبسوطة الى أقطار أخر

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة والعزة والشوكة وان كان من كليات أسبابها بل لابد ان ينضم اليه حسن استعمال هذه الاسباب الجليلة ورشاد الرأي في استخدامها ليوضع كل شيء في موضعه الطبيعي وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها فان ضلت الآراء وساء الاستعمال فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه وماذا تصنع الوسائل المهيئة اذا لم تجد من يستعملها فيما هي وسيلة له وأي شيء تفيد الفرص اذا لم تصادف من ينتهزها وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل كلا فما فقر البلاد الاقلة الراشدين فيها وما غناها الحقيقي الا كثرة المهتدين

فان سألنا سائل هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد اذا وجدوا وهم فقرها اذا فقدوا قلت مع الاسف لانهم قليل نخشى اذا انقضى دورهم أوقضي أجلهم ان لايوجد بدلهم والبرهان على ذلك ان الرجال تعرف بالآثار الثابتة في البلاد التي تدوم بدوامها أوعلى الاقل اجيالا واحقاباوان ذوي

الآثار الحقيقية في بلادنا التى أثمرت ثمرا جناه ابناء الاوطان وتمتعوا بلذته مع الثقة بدوامه هم قليلون جدا بل ينحصرون في أوائل مراتب الاعداد وان النفوس الطيبة تعرفهم وهم أيضا يعرفون أنفسهم

الزراعة على حالها القديم لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الحاصلات أوتسهيل العمل وتخفيف المشقة بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الانواع التي كانت تزرع في الازمان البعيدة كالكتان والسمسم وغيرهما والاقتصار على بعض أصناف قليلة والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة واظن هذا لايحتاج الى البيان والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصرا و بيوت التجارة الواسعة من أبنائنا قليلة جدا ان لم تقل مفقودة بالنسبه لبلاد أخر ورجال العلم ومصابيح الفضل لانراهم الا قليلا اذا أردنا أن نعددهم لانحتاج الى زيادة عن عقد الاصابع بل ربما نقف دونها بكثير والمترشحون لاستلام ادارة المصالح العمومية التي هي اساس العمران وأدائها حق الواجب لها على وجه العدل وطريق الحق الذى لايخامره الباطل اللهم الا خطأ نادرا هم أيضا كسابقيهم نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان

على ان أولئك الافاضل من رجال المعارف أو المحنكين فى السياسة والادارة ان كانوا في هذا الوقت كثيرا فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب ان يتأثرهم من بعدهم حتى لاتنقطع سلسلة الصالحين بل ان كانوا وجدوا فبالصدفة والاتفاق ثم ينثرهم الزمان فلا يطول الا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم وهيهات ان يأتي هذا التراب بامثالهم فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء (ان كانوا) كمثل عاجز نبش في أرض قفر فوجد فيها كنزا يكفي لنفقته مدة معينة فاذا مضت تلك المدة فقد المال واستسلم المسكين لاحكام الصدف والغالب على حاله ان يموت جوعا فيكون فريسة لذئب أوطعمة لكلب

والسبب فى ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التي تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه وشعوره باضرار وطنه

كشعوره باضرار ذاته ان لم نقل تجعل الاحساس الاول أقوى من الثاني وتزيد في احساس الانسان بمنافعه ومضاره ولا أتكلم فيها الآن فان لي في مقالي هذا مقصدا سواها فبلادنا من هذا الوجه فقيرة وا أسفاه

(تلك آثار السابقين من الذين وسد اليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم ألعوبة وتولوا أمرها فصيروها بسيء تصرفاتهم أعجوبة فلا حول ولا قوة الا بالله)

ان جميع النبهاء في أوطاننا يرافقوننا على هذا الذي قلناه ويشاركوننا في الاسف على مثل هـذه الحال أعني فقر البلاد من الرجال والدليل على ذلك ان غالبهم اذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيته ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول الى ما انتهى اليه من درجات الفضل ويتأسف على ان بقية الناس لم يلحقوه فهذه منهم شهادة على ان الفضل قليل وبنوه مثله

فان سألنا سائل هل من مانع يحول دون وضع ذلك الاساس أساس المجد والعزة أعني به أساس التربية الحقة وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة وانحطاط همم الافراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليه قلت لا اننا كنا في الزمن السابق نتعلل في اغفال مصالحنا واغماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة وكان لنا بعض الحق في ذلك فان السلطة في تلك الازمان كانت ضاربة على العقول والافكار حجبا من الرعب والخشية فان غاياتها من التصرف في الحقوق بما تشاء ونفوذ الكلمة واستيفاء الاغراض وقضاء الاوطار الذاتيـة لا يمكن الا مع جهل المحكومين وعمائهم حتى لا يعرفون حقا فيطلبونه ولا باطلا فيدفعونه

وهي وان أدخلت في البلاد أسماء كثيرة كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والاوامر واللوائح وما شاكل ذلك الا أنها كانت بدون مسميات بل تطلق عليها هـذه الاسماء مجازا بعيدا وانما كانت تجلب على النظر والسمع صورا خيالية اذا امتحنها العقل ذهبت أوهاما فلم تكن في تلك الايام سعة لفاعل خير ان يفعله بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأن له ثروة يريد ان ينفق منها في سبيل خيري

أصبح لايجد نفســه ولا ماله فهذه كانت أعذارنا في الازمان السابقة ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لالنا فكيف الاعتذار

لكنافى هذه الايام والحمدلله قد أصبحنا فى مأمن من هذا . لوتحققت حكومتنا انلاحدنا كنوز الارض لم يسعها الا المحافظة على روحه وماله ولكانت حريصة على ازدياد ثروته ولئن طلب الانفاق جهده في الاعمال الخيرية لجدت هي فى مساعدته وتسهيل الوسائل الى بلوغ مقصده ولو أبصرت شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت الى تقويته حتى يكون شمسا منيرة وان تنشط أقوام من رعيتها الى الاجتماع والتألف والاتحاد لغاية محمودة كبث علم أو اذاعة فضل رأيتها تقيم لبيت الالفة أعمدة وتوطد له أركانا وتحيط به سورا منيعا كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في القاهرة والاسكندرية بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية و بالجملة فان الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق وقاصد صلاح وراغب فلاح فليس من جهة الحكومة هذا المانع فبطل ذاك التعلل

فان سأل سائل أليس في البلاد ذوو ثروة وأولو جاه تحوم عليهم الافكار وتتوجه نحوهم القلوب وتنجذب اليهم النفوس ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم من الاعمال الجليلة التي تكون عنوانا لمجدهم وسياجا حافظا لناموسهم ورفعة شأنهم فتحركهم الغيرة وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم الى بعض و بذل الزائد من فضلات أموالهم في سبيل حفظ الشرف في أبنائهم وأعقابهم على ماهو شأن العقلاء في سائر أقطار الدنيا

قلت اني أجيبك عن هذا السؤال غدا ان شاء الله وان غدا لناظره قريب

الجواب (١)

نعم يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار وهم المتمتعون بخير البلاد وهم الذين ينبغي لهم ان يطلبوا لها رفعة الشان ومنعة الجانب لان الاعين الغادرة محلقة اليهم طالبة انتزاع ما بأيديهم وان تسلط الدخلاء (٢) عليها وتلاعب الايدي المتغلبة بامورها يضر بأولئك الاغنياء أولا و بالذات ولا يضر غيرهم من الفقراء الا ثانيا و بالعرض

(١) جاء هذا الجواب بعد عدة أعداد لكثرة المواد الرسمية (٢) يعني الاجانب

بل ربما لا يصل الضرر الى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلا فان الانظار لا ترمق الا ذوي الاعتبار فهم منتهى الاطماع

فان سأل سائل الايجب أولئك الاغنياء ان يطمئنوا على أنفسهم وأموالهم ألا يبتغون ان تثبت قاعدة العدل فيهم وفى أعقابهم من بعدهم ألا يعلمون ان الزمان قد انقلب وضعه وتغير طبعه فصارت السلطة الخشنية لادوام لها وان الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ولا لتحصيل ما فقدناه أولم ينظروا الى الايدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلبا لاختلاس أرواحهم من أبدانهم وان جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ولن يدفعها الا حرس الحزم والبصيرة ألا يعقلون ان التغالب في هذه الاوقات أصبح معظمه ان لم أقل جميعه تغالب الافكار والآراء فالامة ذات البسطة في الافكار والمهارة في المعارف هي الاقوى سلطانا والاقوم سياسة وهي الغالبة على سواها من الامم أفلم يبصروا انه لا معنى لشدة البأس في أيامنا هذه الا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء ألم يقفوا على الاسباب التى أعدها غيرنا من جيراننا لنوال أعلى مراقي المجد في أوطانه ثم اندفع الينا لاندري ماذا يريد ان يصنع بنا فان عقلوا جميع ذلك أفلا يفقهون انهم ان لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر

قلنا بلى ان اختلاطنا بالامم الاروبية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب الضعف ووسائل القوة وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الخشونة فلا يكاد أحد من أولئك الذين نحدث عنهم الا وقد وقف على الشيء من ذلك وكثيرا ما نسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ويلوكون امثال هذه المباحث فيما بين أشداقهم كأنهم يعلمونها حق العلم

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك الى ابراز الآثار وطلب ماعلموه صلاحا بالفعل دون القول كل واحد منهم يطلب الخير ولكن لايحب ان يكون البادىء به بل يريد ان يبدأ الغير ثم هو يتبعه فان كانوا كذلك فلا بادىء ولا تابع وكأني بهم على احدى حالتين اما ان جميع الحوادث التي مرت على

رؤوسهم لم تكسبهم معرفة ولم تحرك فيهم غيرة فذلك غاية الجهل نعوذ بالله وانا نتزههم عنه واما انهم علموا وتفقهوا ولكن استولى اليأس على نفوسهم فذلك ليس من شأن العقلاء فان القنوط من رحمة الله كفر

هذه أيامنا نسمع فيها طنين الاماني صادرا من القادرين على بلوغها لكنهم يطلبونها من غير وجهها فيعز عليهم منالها يروم كثير من الناس خصوصا من ذوي الاقتدار ان يكون ميزان العدل منتصبا لا يميل حبة ولا مثقالا ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم وان لا يكلفوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون ويودون ان تنتشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بسيطها لكن على شرط ان لا يكون له فيها مدخل لا ببذل نقد ولا تجشم عمل ويرغب ان يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة والجد والاجتهاد ومراعاة المصلحة العامة لكن بدون ان يقف واحد منهم على باب مدرسة ولم يخطر بباله ما هي المصلحة العمومية ولم يجد من نفسه احساسا بحلاوة الاستقامة ومرارة الاعوجاج وان ذلك لمن المحال البين وبالجملة فطالب الاصلاح منا لا يرضى لنفسه ان يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله بل يحب ان يأتيه الاصلاح ساعيا اليه ويحدق نظره نحو الحكومة يطلب منها ان تخلق خلقا جديدا مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا ان يسعى افراد الامة ونبلاؤها في جمع الكلمة وبذل الدينار والدرهم وتعاضد الافكار والاعمال على تحصيل ما يطلبون باسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان في العمل ولا فتور في الهمم

فعلى الاغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتطاول الايدي الظالمة اليهم أكثر من الفقراء ان يتألفوا ويتحدوا ويبذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية وتثبت في البلاد جراثيم العقل والادراك وتنمو روح الحق والصلاح وتتهذب النفوس ويشتد الاحساس بالمنافع والمضار فيوجد من ابناء البلاد من يضارع بني غيرها من الامم فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة لهم مالنا وعليهم ماعلينا وعلى الحكومة في جميع ذلك ان تسن قوانين التعليم وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين

أفلم يعتبروا بالجميات الاوربية التي لم يكن أعضاؤها الا الزارعين والصانعين والتجار كيف يبلغ ايراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليونا من الجنيهات و بعضها أكثر وبعضها أقل وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم واتساع دائرة الصنائع والفنون وتقوية روح التربية الحقة التي لاشأن للبلاد الا اذا تحلى ابناؤها بحلاها

أيظنون انه يمكن لهم نوال شرف أوحفظ ناموس الا اذا جاهدوا في سبيل الاصلاح باموالهم وأنفسهم وانشؤا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الافتخار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المالوف

ان شأن الحكومة ليس الا ان تطلق للناس عنان العمل فيعملون لانفسهم ما يعلمونه خيرا لها فان أية حكومة قيل انها عادلة حرة لم يكن لها الا انها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة فاذا لم يكن في الناس خصوصاً الكبراء من يهمه أمر مصلحته و بقاء شرفه وناموسه فسفه منه ان يطلب من الحكومة مالايطلبه هو لنفسه من نفسه

اني بالاختصار أوجه كلامي هذا الى الاغنيا الذين يتكلمون كثيرا فيقولون لو : ياليت:لوما: كان:وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ثم ينفقون النفقات الجسيمة فيما يسمونه بانفسهم لهوا وفخارا كاذبا ولا يبذلون درهما أو ان بذلوا فشيء يسير جدا يقدر عليه أفقر الناس في المطلوب الذي يعدونه عظيما

وانهم يعلمون ان عدل الجاهل ظلم فان صدر منه بطريق الصدفة لاعن مقصد فلا بدله من الخبط فيظلم وان غناه فقر فانه أتى من البخت الاتفاقي ولا بد يوما ان يختل سيره فيفتقر وان كمال الجاهل نقص فانه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط و يتناثر منه التراب ثم ينهدم

فقر الجهول بلا علم الى أدب فقر الحمار بلا رأس الى ذنب

لانصدقهم فيما يقولون من انهم يحبون العدل ويرغبون الاصلاح و يعرفون خير أنفسهم و بلادهم بل ولا يصدقهم أحد أبدا الا اذا برزوا الى ميدان العمل فحينئذ نعترف لهم بكل مايدعون ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون و يشتهون اما الكلام فقد شبعت منه الآذان وافعمت به القلوب والسلام

وكتب في العدد ١١٠٥ الصادر في ٩ جماد الثاني سنة ١٢٩٨ — ٧ مايو سنة ١٨٨١

وضع الشيء في غير محله

هو تصرف مضر يدعو اليه الجهل بالعواقب أوعدم الاكتراث بما يترتب عليه من المضار وانا نذكر من أمثاله بعض الاوضاع الالهية التي ألهمنا الله حكمتها وأرشدنا بالفطرة الى فائدتها ثم أقام لنا من الحوادث برهانا على المضار التي تأتي من سوء التصرف فيها والعدول بها عن وضعها

ان الله تعالى يهب للكثير من عباده أو كلهم قرائح جيدة شديدة النفوذ في الحقائق وفطنة زائدة سريعة الانتباه الى الدقائق ذلك لان تكون هذه المنحة عدة لصاحبها وآلة للوقوف على مخبآت الامور والوصول من المقدمات الى النتائج ومن المشهودات الى ماوراءها من الخفيات ليحرز من المنافع ماشاء الله أن يحرز ويحذر من المضرات ماربما يكون خبيئا له في ضمن مايتصوره نافعا فيعيش بهذا النور سعيدا يعلم الخير فيقتنيه ويبصر الشر فيتقيه

لكن من الاسف ان كثيرا من أرباب هذه المنح مع احساسهم من أنفسهم هذه الصفة الجليلة فيهم (أعني شدة الادراك وجودة القريحة) ينحرفون بها عن هذا الوضع الحق فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول الى غايات ساقطة حتى من نظرهم أيضا فترى البعض من أولئك الاذكياء يعمل فكره ويقلب نظره ليدبر حيلة في استمالة غيداء واستعطاف هيفاء أو يجد وسيلة للحظوة عند ذات قد يهزأ بالاسل وأعين غنية عن الكُحل بالكَحل ويبذل هذا الجوهر النفيس في منافسة الانداد في ذلك ومغالبتهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين طالبيه وما شابه ذلك من الامور الدقيقة التي تحتاج (والحق يقال) الى صرف زمن واعمال فكر كما يشهد بذلك المجربون غير أن هذه الامور مع دقتها لاداعي اليها والاتعاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها وهي معلومة يخجل الانسان بعد نيلها من جميع ما كان استعمله لها قبل ذلك

وزيادة عن الاتعاب التي هي خسارة محضة لا ربح فيها يفوت صاحب الادراك وقت غالي الثمن عالي القيمة يطالبه باغتنام فوائده وانتهاز فرصه وهو في غفلة عنه بهذا اللهو بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه فيمضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذكائه فيحول عنها وجهه فتدبر عنه عازمة على أن لا تعود اليه قاطبة هذا هو الذي يزعج كل فطن ذكي يلتفت الى ماضيه فيجده خاليا من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة لمستقبله ويعدها العقلاء منفعة أو شرفا حقيقيا ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرقى وأملك لناصية الدهر منه فيتقلب على جمر الاسف خصوصا اذا طرقه الزمان بمطرقة المصائب فينتبه كأن لم يكن ذا انتباه ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجد قوة أوهنها في أعمال باطلة الى ما أعدت له من الاعمال الحقيقية فاذا طلب لنفسه بعد ذلك ما يطلب العقلاء من أسباب السعادة رأى تلك القريحة قد صدأت والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة فيجتهد كل الاجتهاد لاماطتها عنه ليخلص من ظلماتها المكدرة وكأنه لا يستطيع أن يعيدها الى صفاتها الاولى ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل ما يكفي في تعذيبه وتعنيفه حتى يتدارك مافاته ويملك زمام الاعمال المستقيمة ويرشد مع الراشدين

خصوصاً اذا كان من أبناء الذوات أو الاغنياء أو موظفي الحكومة أو من شابههم من الذين تحكم عليهم مكانتهم بان يكونوا أسرع الناس الى الجد وأقربهم الى الحق وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الاول على رفعته والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الانفس من غيرهما فهذا الوجدان منه يبعثه على ان يكون أعلى وأجل من غيره فيما به الرفعة والشأن في كل زمن على اختلاف الاحوال وتقلب الهيآت وهو الكمال الادراكي والفضل الذي ينشأ عن صحة الادراك فهذا هو الامر الثابت الذي يمكن للانسان ان ينال به جميع مرغوباته سواء صلحت أحوال العالم أو فسدت بخلاف من يفوته هذا الكمال فان أمره موكول الى اختلال الاحوال وفسادها فما دام النظام مختلا والعدل ضائعا والحق مستورا فهو يؤمل التقدم وعلو

المنزلة فان لمع بارق من الحق أو استقام أمر النظام وأخذ في التصرف بالعدل أصبح هذا الذكي النبيه في زاوية من الاهمال واهدر شأنه وعد في الآحاد السافلة

هذا كله اذا اقتصر في تصرفه على استعمال قوة القريحة في غير موضعها و بقي حافظاً لجرثومة هذه القوة (القريحة والادراك)

فان أضاف الى سوء التصرف سعيا في اطفاء نورها من أصله بأن عكف على معاطاة الارواح المسكرة والجواهر المخدرة من أنواع الخمور والحشيش والافيون والمعاجين والجوارش ونحو ذلك فقد أضاع هذا النور الالهي الذي أودعه الله فيه وانقطع الامل من عودته الى ما كان عليه فان مزاج عضو الادراك يختل بتعاطي هذه المهلكات فلا يعود للقوة مركز تقوم عليه فان ظن أنه يدرك في بعض الاحيان سرا أو يفهم خطاباً أو يرد جوابا فليعلم ان ذلك ماهو الا بقية تعلق خفيف لتلك القوة الشريفة ببدنه المعتل وأنه لولم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقي عنده أضعاف مايجده من نفسه بكثير وان الذي منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاء جزيلا فجعله نزرا قليلا

خصوصاً وان الانهماك في قرع الأكواب والتهالك على الشراب مما يستدعي زيادة السهر بالليل و يتبعها فتور البدن واستيلاء الوخامة بالنهار و يقتضي تمادياً في الملاهي والهذر و يفتح على الانسان باب الزهو واللعب و يستلزم رفع الحجاب عن السر وكشف ستار الحياء وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات و يستوي فيه الضار والنافع فيختلط به الامر و يكتسب صاحبه ذكرا سيئا بما يفعل من الامور الخسيسة التي لايشعر بها حال ضياع الفكرة واستيلاء السكرة ثم يزداد الوصف الاول وهو سوء التصرف الى حد يهدم الشرف و يحط من القدر حتى عند أدنياء الناس واخسائهم وذلك ان يفرغ مابقي من فطنته في انتخاب كلمة تضحك الحاضرين وحركة تطرب الناظرين و بدل ان يستعمل مخيلته في تشخيص الاحوال الواقعية وتقريب الحقائق الى الاذهان وتنوير الافكار بما يبتدعه من حسن التصور يستعملها في ثلم الاعراض الطاهرة بتخييل حال عالم أو صفة فاضل ثم يبرزها على صورة بشعة وحالة مستنكرة فيعجب ذلك جلساءه لكنه

يغضب ذمته وسريرته ولا يرضى به مابقي من عقله
فان تمادى به هذا الحال ازمانا حتى عرفته العامة ووقف عليه الخاصة ونظراليه بعين الازدراء من الفضلاء والعقلاء (وان بقي مبجلا في أعين أصحابه فهذا لا ينفعه بشيء) ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعا عنه من نفسه فهذا هو الذي يخشى على الهيئة الاجتماعية من وجوده فسدت طبيعته وانقلبت فطرته وعميت بصيرته حتى لا يدرك هذا الذي نقول أيضاً فبئست الحال حاله فعلى حكومة البلاد ان تقتفي أثره وتضع لمن يكون على هذه الشاكلة قانونا صعبا يخيف القلوب وان لم تكن واعية ويزعج الخواطر وان لم تكن حاضرة ويؤثر في العقول وان لم تكن سليمة والا فان هذه أمراض خبيثة سريعة الانتشار لاسيما اذا بدأت في الخاصة فانها لا تلبث ان تسري فيما بين العامة

وكتب في العدد ١١٠٩ الصادر في ١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٩٨ — ١١ مايو سنة ١٨٨١

الكتب العلمية وغيرها

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين الى أقسام متفاوتة بتفاوت أميال المطالعين سواء كانت هذه الاميال غريزية أومكتسبة من طوارئ التربية وعوارضها وهذه الاقسام كما اختلفت في الشهرة والخفاء وكثرة التداول بين يدي الكثير من الناس وفي منتديات المشتغلين بمطالعتها ومحافلهم الخصوصية والعمومية

فمنها الكتب النقلية الدينية وهي مابين فيها مسائل الدين سواء كانت من الاصول كعلم الكلام أوالفروع كالعبارات والمعاملات ومن هذا القبيل كتب التفسير والحديث وكتب الاخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الاحياء لحجة الاسلام الغزالي وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عددا كثيرا نبغ منهم الافاضل والاماثل وكثرت فيهم المؤلفات وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات

ومنها الكتب العقليـة الحكمية وهي مايبحث فيها عن الحقائق الوجودية وأحوالها ولوازمها على تمدر الطاقة البشرية وهـذا القسم نادر الوجود فى بلادنا والمشتغلون بكتبه أقل من القليل بل انه لم يطبع منه في مطابعنا الا نزر يسير من فروعه كبعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضـة غير صحيحة العبارات والكتب الموجودة منه عنـد البعض من الناس كلها اما بالنسخ واما بالطبع الاجنبي ولا تشترى الا بالثمن الجسيم ومنها الكتب الادبية وهى مايبحث فيها عن تنوير الافكار وتهذيب الاخلاق ومن هـذا القبيل كتب التاريخ وكتب الاخلاق العقلية وكتب الرومانيات وهي المخترعة لمقصد جليل كتعليم الادب وبيان أحوال الامم والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ككتاب كليلة ودمنه وفاكهة الخلفا والمرزبان والتليماك والقصـة التى تترجم في جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور ويكثر في ابناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته العاكفين على مطالعته

ومنها كتب الاكاذيب الصرفـة وهي مايذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع وتارة تكون بعبارة سخيفة مخله بقوانين اللغة ومن هـذا القبيل كتب أبو زيد وعنتر عبس وابراهيم بن حسن والظاهر بيبرس والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها ولم يكن بين الطبعة والثانية الازمن قليل

ومنها كتب الخرافات وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات الى الارواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الاسباب التي لامناسبة بينها وبين مازعموه ناشئا عنها وتارة تثبت مالا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف ومن هذا القبيل مايعرف عند الناس بعلم الريحاني وعلم الكيميا (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزايرجات وذلك ككتاب أبومعشر والكواكب السيارة وشمس المعارف الكبرى والصغرى وكتاب الحرف المنسوب للحكيم هرمس والبرهتية وشرحها

والخلخلوتية وشرحها والجلجلوتيه وشرحها ودعوة السباب ودعوة القمر بشروحها وكتب المنادل واستحضار الخادم والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض وعقد الرجل عن الجماع وارسال الهواتف والتسليط بالرجم على البيوت وغير ذلك مما لا يحصيه القلم وهذا القسم قد اشتغل به في ديارنا كثير من الناس ونبغ منهم الدجالون والمحتالون وطبع من كتبه عندنا مايخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان واذا تمهدت هذه المقدمات فنقول

قد كانت جميع هذه الكتب باصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ثم من عهد قريب (على عهد وزارتنا الحاضرة) صدرت الاوامر بان لا يطبع كتاب في احدى المطابع الا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع وحجر في أثناء ذلك على طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس الا وكان يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الاخيرين (هما كتب الاكاذيب الصرفة وكتب الخرافات) على أنهما ليسا مما يخل بالدين ولا مما يناقض السياسة ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر واشتغل بمطالعتها كثير من الاهلين فاذا شب الولد ومالت نفسه الى المطالعة في الكتب لم يجد امامه الا أصناف هذه الكتب الكاذبة او الخرافية فيجهد نفسه في قراءتها فيشيب وهي بين يديه و يموت وهو معتقد لما فيها من الاضاليل ونجم عن ذلك انغماس الغالب فى ظلم الجهالات وانحطاطهم عن درجات الكمالات وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد و بقائها فى حفر الهمجية والاخشيشان ولهذا فان الحكومة السنية قد وجهت عنايتها الى تطهير البلاد من هذه الامراض المعدية السريعة الانتقال فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجر على طبع الكتب المضرة بالعقول المخلة بالآداب وهي كتب القسمين الاخيرين فمن الآن وصاعدا لا يرخص لأية مطبعة ان تطبع من هذه الكتب شيأ ومن يتعد ذلك يجاز بأشد الجزاء وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن فعلى الذين يميلون الى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح الخاطر ان يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة فمن كانت رغبته متجهة الى كتب (ابو زيد)

وما معها من الكتب كعنتر عبس وغيرها ان يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة كتاريخ المسعودي وتاريخ اظهار أنوار الجليل لحضرة رفاعة بك وتاريخ الكامل لابن الاثير وتاريخ الدولة العلية وكتب القصص الادبية المترجمة فى أعداد الاهرام والقصة التي طبعت فى مطبعة العصر الجديد وهى المعنونة بالانتقام وغيرها من بقية الرومانيات العربية الاصل ككتاب كليلة ودمنة وما ماثلها من الكتب التي جعلت على ألسنة الطيور والحيوانات وعلى من كانت فيه بقية من حب كتب الخرافات المعبر عنها بالروحاني أوغيرها من كتب الوفق والتنجيم ان يقلع عنها ويشغل نفسه بما يري منه الفائدة والا فأي فائدة عادت الى من صرف نقوده وأباد بصره واراق ماء وجهه في طلب الكيميا الكاذبة وهو لم ينظر منها ما يجعله عوضا لهذه المصاريف وتلك المشقات واي عائدة رجعت على من حفظ العزائم وأجهد نفسه فى حفظ أسماء الشياطين وأتعب عقله وبدنه فى الخلوة لاستخدام العفاريت؟ انالم نر لكل ذلك من فائدة ولا عائدة بل رأينا ان المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين ويعدون مع المحتالين وان العاقل لايرضي لنفسه أن يشار اليه بأنه من احدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليهما المقت ولحقهما غضب الله والملائكة والناس أجمعين وحينئذ فمن اواجب على كل عاقل ان يترك كل هذه الكتب الخرافية ويتباعد عنها على قدر الامكان وان يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ككتب الديانة المطهرة وكتب الآداب والفضائل وتهذيب الاخلاق وكتب التواريخ الصحيحة وكتب العلوم الحقيقية فانها أنفع للنفس ويرى المشتغل بها فائدتها في أقرب زمن على أسهل وجه بدون ان يلحقه جزء من مائة من تلك المشقات ولا ان يلتجيء الى اضاعة الاموال فيما لايفيد

وفى ظني ان كل هذا مما يقع عند اخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان فان كل واحد منهم يذهب الي ماذهبنا اليه ويرى ما رأيناه وسنعود الى هذا الى الموضوع مرة ثانية ان دعت الحال ثم نأتي على ماجرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات ونبين تأثيرها في النفوس ودرجتها عند أهل المدن والارياف

وتفصل الاصناف المتعارفة منها عند العامة و بالجملة نذكر كل مايتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد ان شاء الله

وكتب في العدد ١١٤٢ الصادر في ٢٢ رجب سنة ١٢٩٨ — ١٩ يونيه سنة ١٨٨١

اختلاف القوانين باختلاف أحوال الامم

(عدنا الى الكلام في القانون حسبما وعدنا)

ان المبدع الاول جل شأنه أودع في الانسان قوتين عملية ونظرية ليتوصل بهما الى كماله المخصوص به وربط احداهما بالاخرى فجعل كمال الاولى متوقفا على كمال الثانية فصار الانسان مفطورا على طلب النظريات والوقوف على الحقائق قبل ان يباشر عملا ما فان العمل لايقصد الا اذا كان له من النتائج مايبعث على مباشرته وليس كل عمل ينتج الفائدة المعتد بها بل لا بد ان يكون على نهج مخصوص ولا جرم ان تصور النتيجة ومعرفة أساليب العمل مما يناط بقوة النظر فاذا كملت جاء العمل على أحسن الوجوه وكانت الفائدة أعظم والغاية أكمل

ومن هذا صار كل انسان حريصا على استكمال النظريات أولا و بالذات ليهتدي بها الى مناهج أعماله التي يقارفها للحصول على كمال حياته و يميز النتائج على اختلاف درجاتها في النفع ليضع بازاء كل واحدة منها عملا مخصوصا مرتبا على وجه معلوم أقرب فائدة وأسهل تناولا وأحكم وضعا

فعلوم الانسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة و يضبط بها طرق الاعمال الموصلة الى تلك الفوائد حتى لايخبط في سيره ولا يختلط عليه النافع والضار فيقع فى الشقاء وتتناوبه أيدي البلاء

وحيث ان أحوال كل أمة تابعة لمعلوماتها على نسبة بينهما كنسبة العلة والمعلول فهي انما تتخذ لاعمالها حدودا وتختار لاوضاعها قوانين بحسب قوتها في النظر ورتبتها في الفكر بحيث لاتخرج وقتا من الاوقات عما تسنه سجيتها من

التقاليد والاخـلاق الا اذا أتاحت لها الفرص الارتقاء الى درجة أعلى في النظر وأرقى في الفكر

ولما كانت القوانين مناط ضبط الاعمال لتكون منتجة لجلائل الفوائد وهي ثمرة الاعمال النظرية وخلاصة الابحاث الفكرية صارت قوانين كل أمة على نسبة درجتها في العرفان واختلفت القوانين باختلاف الامم في الجهالة والعلم

فلا يجوز حينئذ وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى تباينها في درجة العرفان وتزيد عليها فيه لأنه لايلائم حالة أفكارها ولا ينطبق على عوائدها وأخلاقها والا لاختل نظامها والتبس عليها سبيل الرشد وانسد دونها طريق الفهم وحسبت الصحيح فاسدا والصواب خطأ وحرفت الاوضاع و بدلت وغيرت فيقلب عليها دواء غيرها داء وذلك لقصر نظرها وعدم درايتها بوجوه تلك القوانين وماهي الداعية لها والحاجة اليها فان الحاجة هي الاستاذ المرشد والمعلم الاول متى علمها الانسان حق العلم صار حريصا عليها مقيدا بها فلا يخالف مادعت اليه وقضت به واذا كان وضع القوانين بين قوم داعيته حاجتهم اليها فلا تسمح لهم ظروف الاحوال بمخالفتها أما من لم تدعهم الحاجة اليها فلا يرونها من الضروريات فلا لوم عليهم اذا نبذوها ويكون تكليفهم بها من قبيل التكليف بالمحال بل الاجدر بهم ان يعلموا أولا ماهي الحاجة ليستووا مع غيرهم في العالمية ويتحدوا معهم في مايترتب عليها

وقد جرت عادة المشرعين في كل زمان ان يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذين يراد وضعها لهم حتى لا تكون مبهمة عليهم فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها وان يلاحظوا العوائد والاخلاق ملاحظة تامة فلا يخرجون في تأسيس القوانين عما تقتضيه من الشدة والتخفيف فرب طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف و يردعهم الوعيد بالجزاء الهين اذا كانت طباعهم سهلة الانقياد ونفوسهم شريفة وحواسهم سريعة التأثر فهولاء لايسن لهم من القوانين الاما كان منطبقا على أحوالهم فلا يكلفون بالقوانين الصارمة لأنها تضر بهم شأن من يتجاوز في استعمال الدواء الحد المخصوص

مثلا اذا فرض أن واحدا ممن وصفناهم فعل مايستوجب العقاب وكان السجن

بالنسبة اليه أمرا يؤثر في طبيعته ويؤلم نفسه على ما بها من العزة ولطف الحاسة ألما شديدا ويشق على نفوس عشيرته وأهل وطنه ان يقال فلان سجن لجناية كذا بحيث يكون وقوع ذلك لواحد منهم من أكبر الزواجر عن اقتراف الذنب الذي وقع منه فيكون الحكم على هذا المجرم حينئذ بما هو أعظم من ذلك كالنفي والطرد والاعمال الممتهنة الشاقة ظلما بينا لان ذلك ربما يفضي به الى الموت العاجل ويؤثر في نفوس عشيرته وبني جلدته انقباضا مستمرا وحقدا أبديا لعلمهم بخطأ الحكم وظلم الحاكم وليس بعد ذلك الا ان تتقد نيران الفتن وتلتهب حمية الغضب بين هؤلاء الناس وتكون عاقبتهم شرا أو تخمد النفوس وتذل الطباع وتنعدم الشهامة من الافراد وبئست العاقبة هذه

ورب أمة فطرت افرادها على الغلظة ومجافاة الرقة وكانت بواطنهم منطوية على الخسة والسفالة ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف فهؤلاء لا يردعهم عن غيهم ولا يصدهم عن موارد بهتانهم الا القوانين الصارمة المؤسسة على الجزاآت الشديدة فمن الخطأ البين ان يعامل مذنبهم بالسجن مثلا اذا كانت نفسه تستخف ما هو أشد منه عقابا فان الغرض من وضع القوانين انما هو مجانبة ما يخل بالنظام ويبدد هيئة الاجتماع ويضر بالمصالح الشخصية والمنافع العمومية فاذا لم تكن مؤدية لهذا الغرض فليست الا مجرد تكاليف ألقيت على كواهل الناس بل لا تعد الا توسيعا لدائرة المفاسد وانكثارا للمظالم

ولنا شاهد على ما ذكرناه حالة بلادنا من قبل فقد مر على أهلها زمن كانوا فيه همجا لا يعرفون صالح نفوسهم لتمكن الجهل منها وقتئذ فكانوا لا يعتدون بالزراعة مع توفر أسبابها وصلاحية الاراضي لها وكان الملاك لا يعرفون قيمة ما يمتلكونه منها فيود الواحد منهم ان لو انتقلت أملاكه لشخص آخر حتى لا يكلف بأداء ما فرضته عليه الحكومة من المطالب ولا يقيم في بلده مدة تناله فيها أيدي الحكام فكان أهالي البلاد يهاجرون منها الى بلاد أخرى خوفا على نفوسهم من الزراعة والاخذ بوسائل الغنى والثروة فاضطرت الحكومة وقتئذ ان تلزم الاهالي امتلاك الأراضي وزراعتها ورتبت على المخالفين قوانين صارمة تشتمل على مواد

العقاب الشديد فاذا جاء الوقت الذي تطالب فيه الحكومة بالمطاليب الاميرية امتلأت السجون من بقايا الذين هاجروا من البلاد وراج سوق الكرابيج فكنت ترى كافة الاهالي مابين فار من بلده ومودع في السجن وموجع بالضرب وكان لخراب البلاد وعمارها أوقات معينة في السنة لاتتعداها واستمرت على هذه الحالة السيئة أمدا طويلا الى أن توطدت نفوسهم على العمل وتمهدت لهم طرق الزراعة ودخلت في دور جديد بما أتيح لها من المعدات التي سهلت طرقها وثبتت الاهالي في البلاد وأخذوا خطة واحـدة فى فلاحة أراضيهم غير مبالين بمطاليب الحكومة لكونهم ابتدؤا يعلمون أهمية الزراعة ويعظمونها ويتنافسون في حاصلاتها فتبدلت القوانين التي كانت تتخذها الحكومة لزجر الفلاح عن الفرار واهمال الزراعة والتقاعد عن الآداء نوعاً من التبدل ثم تبادلتهم الايدي الظالمة أمدا ليس بقصير ولكنهم لم يزالوا ثابتين على أملاكهم فسئموا سوء المعاملة واشتاقت نفوسهم الى قانون عادل ينتظم به أمر الآداء فساقت لهم يد العناية الالهية من لدن الحكومة التوفيقية من أسس لهـم قانونا عادلا في هذا الشأن دخلت به مصر في عصر جديد وارتفع من بين أهلها صوت الكرباج وبدل جزاء التأخير عن آداء المطاليب بما لا يحط من شرف الانسان ورتبت المصالح العامة على قوانين لاتخالف مشرب أهل البلاد بوجه يغاير القوانين السالفة وذلك مرتب على تغاير الحالتين وتباين المشر بين أولا وآخرا فلو جعل جزاء التأخير في الزمن السابق هو انتزاع الارض من يد مالكها لكان أحب شيء اليهم هو التاخير ليستريحوا من كتابة اسمهم في دفتر الملاك وكان هذا الجزاء ثوابا عندهم في الحقيقة لاعقابا لكنه الآن أصبح من أشد العقاب

وقد آن لحكومتنا ان تعطف عنان النظر الى قوانين المجالس القضائية لتجعلها مناسبة للحالة الراهنة فتختار منها مالا يصعب فهمه ولا تحتمل عباراته معنيين أو جملة معان ولا تكون مواده من قبيل القواعد العـمومية التي تنطبق أحكامها على جملة من الجزاآت لكثير من الجنايات المتباينة حتى لاتكون القوانين نفسها ذريعة لارباب الاغراض الفاسدة فيلعبون بالحقوق كما يشاؤن مع ان من بايديهم أزمة القوانين ليسوا في رتبة المشرعين الذين يستنبطون مما يحتمل خلاف الظاهر

أو من القواعد العموميه الحكم المنطبق على حقيقة الامر والواقع على أن أرباب الحقوق منا ليسوا منزهين عن الشكوك والظنون الفاسدة فربما أساؤا الظن بمن يكون بريئا عن الخطأ والخيانة مع خفاء الحكم من نفس المواد القانونيه وعدم انكشاف النص منها وذلك يؤدي الى حرصهم على استئناف التحقيق أولا وثانيا فيطول الامر وتتعطل المصالح وتزيد النفقات وتشتد الضغائن وتتسع أبواب المفاسد مع كثرة الوقائع والمشاكل كما هو حاصل في بلادنا الآن فيجب حينئذ أن تكون مواد القوانين نصوصها صريحة ظاهرة الاحكام منطبقة على كافة الوقائع مفصلة الابواب سهلة التراكيب

أما القوانين التي كانت متناولة في بلادنا حتى اليوم فانها (مع كونها قاصرة مجملة غير بينة الاساليب) ليست مضبوطة ولا معروفة عند الناس بل بعضها يعرف بالقانون الهمايوني و بعضها يسمى باللوائح و بعضها يدعي بتعليمات الاقانية والبعض يقال له قرار الخصوصي والبعض الآخر منشور الاحكام والبعض الامر العالي الصادر في تاريخ كذا وهكذا مما لا يحصى عدده ولا يمكن لاحد ما حصره فكيف يعقل أن يكون هذا التشديد (لعلها التشتيت) قانونا يقف العالم عند حدوده على أنهم لو علموه لما تصوروه لكونه غريبا عن أحوالهم بعيدا عن مداركهم

فمن الواجب اصلاح هذا الخلل البين الذي أضاع الحقوق وأضر بالأمن ومن اللازم الاسراع به وعدم تفويت الوقت واضاعة الزمن في الاقوال التي لا طائل تحتها و يلزم ان تكون القوانين مستوفاة جميع القيود والشروط ولا يحال فيها على المنشورات ولا اللوائح تسهيلا لضبط الاحكام وتطبيقا لها على مقتضى الحال وان تكون منطبقة على حالة الاهالي ودرجة ادراكهم ليمكنهم دركها والعمل بمقتضاها كل على حسبه والا كانت حبرا على ورق فقد تقرر في مدارك العلماء والسياسيين من سابق ولا حق ان المشرعين وواضعي القوانين يضطرون دائما الى مراعاة العوائد والاخلاق ليتمكنوا من تأسيسها على وجه عادل نافع بل ان أحوال الامم بنفسها هو المشرع الحقيقي والمرشد الحكيم النطاسي وان القوة الحاكمة تابعة لقوة رعاياها فلا تخطو الاولى خطوة الا اذا كان لها من الثانية سائق الى

ماخطت اليه نعم لاننكر ان أعداد الوسائل والمعدات منوط بالقوة الحاكمة فهي تلزم بها رعاياها كرها أو اختيارا لكن على قدر طاقة المحكومين فاختلاف هيئات الحكومات وتبدل قوانينها تابع لما تقضي به حقوق الوطنية التي هي فى الحقيقة حالة الرعية فان انتقال حكومة فرنسا مثلا من الملكية المطلقة الى المقيدة ثم الى الجمهورية الحرة لم يكن بارادة أولي الحل والعقد فقط بل المساعد الاقوى حالة الاهالي وارتفاع أفكارهم وتنبه احساساتهم لطلب الرقي الى أعلى مما هم عليه فتغلبوا على جميع القوى الغريبة التي كانت تحول بينهم و بين الوصول الى مطلوبهم من معرفة الواجبات الحقيقية على أنهم لم يصلوا الى هذه الغاية الشريفة الا بعد قطع العقبات التي هي دون الوصول اليها اذ بدون ذلك لايمكن ان تنال الغاية ولايدرك المطلوب

وحيث كانت تلك الوسائل وهذه المعدات من مزالق الافهام والعقول كانت معرفتها والحصول عليها بذاتها في غاية الصعوبة فربما يقع فى وهم طائفة من الناس أنهم تهيئوا لان ينتقلوا الى خطة أرقى في المدنية والنظامات القانونية وليس الامر ماتوهموه فيتقهقروا الى الوراء بأن يعمدوا الى جعل التشريع حرا والمشاركة في التأسيس مباحة وليسوا آمنين من دسائس الاغراض ولا متمكنين من الوسائل التي تهيئهم لهذا الامر فيفشو فيهم داء الاختلاف و يلحقهم دخل العناد فلا يهتدون الى الصواب ولا يبرمون رأيا ولا يبتون حكما و يمضون الزمن في قيل وقال فتفوتهم ثمرة الحزم وتضيع مصالحهم ويصدق فيهم المثل (من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه) و بالجملة فليست هيئة النظام المدني لامة من الناس سوى صورة لمادة الملكات التي اكتسبتها افرادها من مألوفاتها وعوائدها التي نشأت عليها سواء كانت ممدوحة أو مذمومة وان اختلاف قوانينها في معارج صعودها ومدارك هبوطها لاينفك عن هذه الملكات مهما تغيرت أصنافها وتبدلت شؤونها وهذا ماجعل عقلاء الناس يجتهدون أولا في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عند مايريدون ان يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكما فيقدمون التربية الحقيقية على ماسواها ليتسنى لهم ان يحصلوا على هذه الغاية بل يجعلون فى نفس القوانين النظامية فصولا وأبوابا تضبط الاخلاق وتحفظ الملكات الفاضلة وتكون حدا تقف عنده

النفوس في أعمالها وتلتزمه الاشخاص في سيرها حتى تنتقل الاعمال من حالة التكليف الى حالة العادة والملكة فتصبح الاخلاق فاضلة والعادات حسنة وتسير الامة فى طريق الاستقامة الى خير غاية .

وكتب في العدد ١١٨٦ الصادر فى ١٤ رمضان سنة ١٢٩٨ — ٩ أغطس سنة ١٨٨١

تأثير التعليم في الدين والعقيدة

من المعلوم الذي لايشتبه فيه ان أرباب المذاهب والاديان على العموم وان اختلفت عقائدهم وتنوعت مشاربهم يحترمون اعتقاداتهم ويجلونها وينزلونها من العلو اعلى منزلة ويدافعون عن حرمتها ببذل الاموال وفناء الارواح حتى ان صاحب العقيدة الثابتة في دينه ليموت بالسيف قطعا وبالنار حرقا وبالحجر رضا ولا يتحول عن عقيدته وذلك ظاهر فان كل دين يرشد متقلده الى ان الدنيا فانية وان هناك دارا باقية نعيمها يفوق كل نعيم وشقاؤها يهون دونه كل شقاء وكلاهما ابدي لاينقطع فالرجاء والخوف يدفعانه الى الموت على أي وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها والجحيم عقاب العدول عنها

ثم ان التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض نقيضها ودحض كل حجة تخالفها وتقضي عليه بأن يرى جميع مخالفيه فيها من الاشقياء الهالكين حيث ان النجاة مربوطة بعقيدته والهلاك معقود بمخالفتها وذلك يلزمه بمقتضى الطبع ان يسعى جهده فى نشر عقيدته وتمكينها في القلوب وتثبيتها في النفوس لاحد أمرين

الاول سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة وخوفه من أن يسعى في ضرره لانتقاض الرابطة الاعتقادية بينهما فهو يسعى فى ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد حتى يكون واسطة فى الاتحاد على التعاون والانتفاع الذاتي والأمن من المضار وان صاحب العقيدة لهذا السبب لايألو جهدا ولا يؤخر سعيا ولا

يترك وسيلة توصله الى الاكثار من الموافقين له في الاعتقاد حتى تتوفر له المنافع ويكونوا له عونا على دفع الاخطار

الثاني الشفقة الانسانية فان الذى يعلم ان عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية وان جاحدها لابد ان يصيبه الشقاء السرمدي ويعلم ان بني الانسان كلهم اخوة أبناء أب واحد وأم واحدة يجب على كل منهم ان يسعى طاقته في نفع الآخر كل هذا يحمله على ان يرق و يرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة فيدعوهم الي ان يكونوا على مثل اعتقاده لينجو في الناجين ويستعمل كل حيلة لانقاذهم من الاعتقادات التى يظنها مضرة بهم مهلكة لارواحهم بعد مفارقة أبدانهم

ولهذا نرى أرباب المذاهب والاديان منتشرين في كل جهة ضاربين في أرض يطلبون انتشار مذاهبهم وبث معتقداتهم بكل مايمكنهم من الوسائل فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ومنهم من ينشىء المدارس والمكاتب للتعليم وهذا القسم الاخير هو الاكثر عددا والانجح سعياً فان العقول في سن الصغر ساذجة والاذهان خالية وهي مستعدة لقبول مايرد اليها من الافكار قابلة للتأثر والانفعال بما يطرأ عليها من صور الاعمال والآراء والاحوال خصوصا اذا كان جميع ذلك صادرا من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي فمتى وجد الولد صغيرا في حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله و يغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم فلا ريب تؤثر فيه احوالهم وأعمالهم واقوالهم وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه فأيًا كان اباؤه واسلافه الاولون لايحفظ عقائدهم ولاهيئات احوالهم بل يتشكل عقله ولبه بالاشكال التي يفيضها عليه مهذبوه ومعلموه ايا كانوا فان خالفت مذاهبهم مذاهب ابائه وأسلافه فلاشك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذهبهم لتأثير أحوالهم عليه

خصوصا وقد بينا فيما سبق ان كل ذي دين يميل بالطبيعة الي بث دينه

وإعلاء كلمة اعتقاده فأي مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو رؤساء مذهب بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب فلا شك ان حالهم وقالهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه و يزداد التأثير بطول المدة وحسن المعاملة والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربهم لافرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب وجميع هذا لالوم فيه على صاحب الدين أو المذهب فالذي دعاه اليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر واما الشفقة والرأفة على عباد الله بحسب اعتقاده الذي يراه يقينا لاريب فيه بل ان هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلميهم ومهذبيهم قد تحصل بدون قصد من المعلمين بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في أقطارنا المصرية التي أسسها وانشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب وانما الغرض منها نشر العلوم و بث أنوار التمدن (وعلى مايقولون) كمدارس الفرير والامريكان والانكليز وغيرها فاننا وان فرضنا انه لاغرض لهم في انشائها وصرف المصاريف الزائدة عليها الا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط لكن حيث ان رؤساءها ينتسب كل واحد منهم الى مذهب من المذاهب المسيحية فالرئيس منهم ليس بملزم ان يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتبا خاصة توافق مذهب التلميذ وديانته ولا ان يجعل التعليم في كتب تختص بمذهب غير مذهبه لايعرفها وان عرفها فربما لايفهمها ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتبا توافق مشربه ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والاملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم والكاثوليك يقرؤنهم مايوافق مشربهم وهكذا فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرؤن كتبا واحدة توافق مشرب مؤسس المدرسة

خاصة فاذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت مثلا فلا شك ان عقائدهم تتحول بالتدريج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أو الدين الاسلامي الى مثل عقائد البروتستانت ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك أو في المكاتب الدينية الاسلامية كمكاتب الفقها مثلا أو مدرسة الازهر فان المتعلم فيها ان كان صغيرا لاشك تحول عقائده أيا كانت الى الدين الاسلامي بتأثير الكتب فيه فضلا عن تأثير هيئات العبادة وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لانشعر وكل هذا لالوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلا فانهم لم يعملوا شيئا الا بحسن النية وصدق القصد وليس لهم من غرض سوى افادة العموم على حسب اعتقادهم

غير ان عزة العقائد على النفس كما بيناه في صدر مقالنا هذا تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الأبناء فاذا شعر الوالد بان ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول طار عقله وانبعث الى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ماعساه يحدث تشويشا في العموم وقلقا في الافكار ومن ذلك ماحدث من مدة سنوات ان أحد أولاد مصطفى أفندي المنشاوي واسمه أحمد فهمي كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الامريكان البرتستانتية وبعد مضي ثماني عشرة سنة من عمره أظهر التمذهب بالمذهب البروتستنتي ودعا أباه واخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة وكان لهذه المسئلة قصة هائلة لم يزل يتحدث بها الناس حتى اليوم وتداخلت فيها الحكومة وقنصلاتو أمريكا وانتهى الامر بفقد الوالد ولده حيث سافر الولد الى جهة لايعلمها والده وهو باق في حسرة فراقه يتقلب على جمر القلق حتى الآن خصوصا مع مايراه في هذا الامر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته اجيالا

وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع وقعت في هذه الايام وهي ان أحد أولاد حسن أفندي الحكيم من رجال الحقانية كان تلميذا في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ثم انتقل منها الى مدرسة الطب غير ان المودة كانت لم تزل بينه وبين رؤساء المدرسة وبعد ان أقام في تعلم الطب سنتين تغيب من مدة أسابيع

ولم يعلم أين ذهب ولم يهتد والده الى السبب حتى أخبر أخ له صغير بأنه رأى رقيما من رؤساء المدرسة مبعوثا الى أخيه المتغيب يعينون له فيه يوم السفر فقط بدون زيادة و بعد البحث والتدقيق علم انه في مدرسة الفرير بالاسكندرية غير ان المسئلة لم تتضح حتى الآن كمال الوضوح

فهذا الامر أفزع والده وعائلته وأوقع بهم من المصائب مالم يكن في حسابهم غير ان اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد الى المدارس التي يتولى التعليم والادارة فيها معلمون على غير مذهبهم أوغير دينهم ويقيمون بينهم الازمنة الطويلة يتلقون عنهم الافكار والتعاليم من كل نوع حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم

فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أومذهبه سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا وسواء كان قبطيا أو أرثوذكسيا أو بروتستانتيا أو غير ذلك من المذاهب ان لا يبعث باولاده وهم صغار لا يعقلون ولا يفهمون الا مايلقى اليهم من المعلم والمؤدب الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه أودينه ومن تساهل في ذلك ثم تغير اعتقاد ابنائه وانقلبت مذاهبهم الى مذاهب أخرى فلا يلومن الا نفسه

اما من لا يلتزم اعتقادا خاصا ولا يرى لنفسه مذهباً معيناً فله ان يرسل أولاده في أي سن الى أي مدرسة اذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم ولا تتفاوت عنده اشكال التربية وصورها فجميعها لديه سواء

و بالجملة فأنا نقول ان كل صاحب اعتقاد يخاف عليه و يحرص على بقائه و يحب ذلك لاولاده ونسله فاول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده بحفظهم عن مخالطة من يخالفه فى العقيدة وهم في سن الصغر فاذا بلغوا رشدهم وعقلوا عقائدهم وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم فلا بأس باطلاق سراحهم يعاشرون من شاءوا و يستفيدون العلم ممن يريدون ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته العديم الغيرة في حفظها وسنعود الى هذا الموضوع عند مايرد الينا تفصيل الحادثة الاخيرة وما انتهى اليه الامر فيها

وكتب في العدد ١١٩٧ الصادر في ٢٩ رمضان سنة ١٢٩٨

(بقايا مسئلة تأثير التعليم في العقيدة)

نوهنا في احد أعداد جريدتنا سابقاً بتغيب ابن حسن أفندي الحكيم بما أغراه بعض رؤساء المدارس الاجنبية واستهواه عن عقيدته وفيما يقال انهم رغبوا السفر به الى الجهات الخارجة عن القطر المصري حسب مايوجهونه وان كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة وجحد احسانهما اليه بالتربية البدنية وما أنفقا من كسب الايدي عليه لتكميل تربيته النفسية وجرح قلوبهما بفراقه وهو عزيز لديهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما فى تهذيبه وتعليمه

وأشرنا في ذلك الى أن حضرة والده الوله المحزون على ما أصابه توجه الى الى الاسكندرية مستقصياً خبره فبلغنا بعد ذلك أنه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه فرجع الى المحروسة فى حالة اليأس فأشير عليه بتقديم تقرير الى قنصلاتو دولة فرنسا يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغووه وأغروه بفراق والده وارتكاب العار الشنيع الذي لايخصه بل يعم العائلة بتمامها كما وقع لسابقه فحرر تقريرا بذلك وذهب الى الاسكندرية لهذا الغرض فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة الى ان ورد الينا من أحد أصحابنا بالاسكندرية رقيما يفيد ان الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت الى مثل هـذا العمل (التفريق بين الوالد والولد) ولنورد عبارة هذا الرقيم ببعض تلخيص فمنها تتضح حقيقة المسئلة قال صاحبنا بعد الديباجة

ان نجل حضرة حسن أفندي الحكيم الذي نوهتم بذكره في أحد أعداد الوقائع في الاسبوع الماضي قد أحضره خاله من الميناء الغربية باسكندرية (محل وجود الوابورات البحرية) وعلم من كلامه (كلام الفتى) انه كان متغيبا جهة الرمل (بالاسكندرية) يدارس مع أحد الاساتذة بعض فصول علمية وانه لما علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الاسلامية وحضر قاصدا خاله ولم يكن له علم بان والده بالاسكندرية ولما قيل له انه موجود بهذه

المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم سعى اليه وقابله وقبل يديه وأظهر له الخضوع والطاعة وأبان له انه حريص على دينه المحمدي وأنه لايرغب عنه ولم يحمله على التغيب الا حب العلوم وتشوقه لاتمام علم الطب لشدة شغفه به ثم ان والده أخذ يلاطفه و يعده بما يميل اليه و بأنه سيهتم في توجيهه الى أي جهة يريدها من الجهات الاوربية حتى آنس منه الامتثال وقد حملته الغيرة على ان يكتب الى الجريدة الرسمية بنفي مانسب اليه الا ان والده رغب الي ان أكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد الوقائع اه

غير اني كنت أحب أن يكتب الي هذا الفتى بنفسه ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره وأرجو ان يكتب الينا بشيء من الفصول العلمية بأي عبارة كانت لننشرها تحت اسمه ويكون له الفضل ونؤدي له على ذلك الشكر

ولنعد الى أصل الموضوع فنقول ان عبارة هذا الرقيم في الحقيقة وافية بكشف الواقع وانه لم يخرج عن حد مانوهنا به سابقا الا أننا نضرب عن بيان وجوه ذلك صفحا فقد ظهر لنا وتحقق ان هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الالهية بارضاء والده الحنون الشفوق والابتعاد مما يلحق به و بوالديه وعائلته من ألم الحزن والاسف اذ يلم بوالديه مالا يقدر من الاحزان على فراقه و بعده و يحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ في فكره أوخطر بباله حالة أبويه وما وصل أمرهما اليه اذ توبخه ذمته و يلعنه ضميره كلما تذكر الاحسان السابق منهما اليه مع اساءته اليهما وهو قادر على مكافأة الاحسان بالاحسان فنحن نشكر له هذا الانتباه ونحمده على تلك الغيرة الدينية بل الحمية الانسانية ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى في الرتبة تالية للاقرار بربوبيته ووحدانيته اذ قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا) وقال تعالى (وقضى ربك انلاتعبدوا الا اياه و بالوالدين احسانا) و بأن يعظم قدر الاحسان الذي أسدياه اليه صغيرا وهو فاقد القدرة والارادة ووالياه بالبر حتى صار رجلا ذا قدرة على الكسب واختيار وارادة في الخير والشر فقد قرن الله شكر الوالدين بشكره في أمره فقال تعالي (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في

عامين ان اشكر لي ولوالديك اليّ المصير)

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ولا ريب ان هذا هو الذي يمحو عنه كل شيء لحقه من تلك الاشاعة التي ظهر آخر الامر على ضدها وفقه الله تعالى لحسن الطوية وفنه عقله بنور المعرفة ليسعى في ارضاء والديه وتسكين خواطرهما قياماً بأمر الله في جميع كتبه على لسان جميع رسله

والامل بعد هذا ان لايتغيب عنهما الا باذنهما سواء كان لمدارسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت حرصا على برهما ثم اننا نعيد انذار الآباء هداهم الله بان لايسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر وتشويش البال وان لايبعثوا بأبنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى باذن الله تعالى بمنع التعلم الديني في جميع مدارس العالم فتكون المدارس قاصرة على العلوم الغير الدينية والصنائع ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه وهذا خصوصا في مثل أقطارنا أبعد من مجيء الالف على رأس المائة على ان ماسبق مانشره في الاعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر في العقيدة فلا يؤمن على الاطفال من تغيير المذاهب الا اذا ارتفع استحسان الشخص لمعتقد واستوى جميع الاعتقادات عنده وهذا محال مادام الدين دينا فليتنبه من يتنبه ولينته الآباء ان كانوا يعقلون

وكتب في العدد ١٢٢٣ الصادر في ٨ القعدة سنة ١٢٩٨ — ١ اكتوبر سنة ١٨٨١

نيل المعالي بالفضيلة

عثرنا في جريدة المقتطف على فصل مفيد يحكي تاريخ الجنرال غارفيلد رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا فكان هذا التاريخ شاهدا على ماللرجل من وفرة العلم وكثرة التجربة وتقلبه في الاعمال النافعة لبلاده ودليلا على مالبلاد أمريكا من التقدم في المدنية حيث ان فضل الرجل عندهم يعرف ويشهد لهم

به فلا يحول بينه و بين مايؤهله له استعداده وضاعة أصوله أو خمول عشيرته أو فراغ يده من النقود أو حقارة مسكنه أو خشونة أكله فجميع هذه الظواهر التي لادخل لها في جواهر الرجال ليست معتبرة عندهم ولا هي المدار في ارتقاء مراتب الشرف والسيادة وقد استفيد من هذا التاريخ ان هذا الرجل لم يصل الى ما وصل اليه بلزوم أعتاب الكبراء ولا الوقوف خلف أبواب الامراء ولم يرفعه الى منزلة الرياسة العظمى صفاء لون الوجه ولا حسن تركيب الخلق ولا توسطه في منافع من هم أرفع منه منزلة ليجذبوه من حضيض حطته الى أوج رفعتهم وهكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الفاضلة وسعة المعلومات و بذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة

وهذا (هو) الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجد في كسب الفضائل الحقيقية واستعمال العقل الانساني فيما خلق لاجله من اصلاح أحوال المعيشة وسعادة الدارين وسلوك طرق الرشاد واستخدام جميع الوسائل الالهية التي أعدها الله تعالى لمنافع خلقه ووهب لهم ادراكا يتمكنون به من اجتناء منافعهم منها

فأرباب الثروة وذوو المقامات الرفيعة يعلمون ان المناصب وارتفاع الشؤون انما تنال بالفضائل التي ألهم الله بها عباده وهداهم اليها على لسان من اختصهم بمزايا الادراكات السامية ودلهم عليها بالحاجات والضرورات بما ساقه اليهم من حوادث الكون التي هي خير أستاذ ماهر للعقول الانسانية والنفوس البشرية وجعلها قواما لسعادة المعيشة وركنا شديدا لبيت الحياة وهي الفضائل التي دونت لها كتب العلماء والحكماء وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم ويجمعها طلب النفع الخاص من طريق الفائدة العامة أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حد ماينفع الجمعية المعنونة باسم واحد كمصر أو الشام أو أمريكا أو ينفع لعموم نوع الانسان ولا يجلب ضررا على أحد من المجتمعين لافي العاجل ولافي الآجل الا أن يتوقف عليه نفع جميعهم و يتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع لها وكل واحدة منها أصل لفضائل لاتنحصر الا بالذوق الطاهر والفكر الدقيق و يلزم لنوال كلها اتساع دائرة العقل في المعلومات ومقارنة الحوادث بعضها

بعض في السير المدني ونسبة كل منها الى الآخر في المنفعة والمضرة حتى يتيسر للشخص حسن الطلب على النحو الذي يبناه ويتبع هذا الواجب نشاط في العمل المفيد للفرد والمجموع واحتمال الكثير من المشاق المتعبة في أوقات وان أعقبها راحة دائمة ثم يعقب ذلك تحل بصفات كثيرة وتخل عن أغراض جمة تسمى الاولى باسم الفضائل وتعنون الثانية بعنوان الرذائل فاذا تيقن الأعلون من الناس ان لا رفعة ولا ثروة الا بحوز هذه الفضائل دأبوا في تحصيلها و بذلوا الجهد في المحافظة عليها فيسعدون بما يستفيدون ويسعد غيرهم بما يفيدون اذ يحرصون على التفنن في العلوم والصنائع التي يحتاجها غيرهم فيطلبها منهم بالثمن الذي يرغبون ويجتهدون في منع كل ضرر يخشى وقوعه لهيئتهم الاجتماعية التي هم أعضاؤها الرئيسة فتطلبهم الافراد للسيادة عليهم جزاء لهم بحسن خصالهم وجميل فعالهم

أما الوضعاء من الناس وذوو الانساب الحقيرة ومن لا اسم لهم فانهم يعلمون ان هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة وان من لا قدر لهم ولا تعلم أسماؤهم لخمول ذكرهم وحجب ستارة الفقر والاعدام شواخصهم عن أعين الناظرين يعلو ذكرهم وتتوجه الافكار الى معرفتهم والقلوب الى احترامهم وتطلبهم المنازل الرفيعة وهم في مساكنهم الحقيرة فيجدون ويجتهدون في اكتساب مايؤهلهم و يعدهم للحاق بمن سبقهم في الاعمال النافعة والاوصاف الفاضلة لينالوا من رفعة الشأن مثل مانال السابقون و بذلك تكون الامة على اختلاف طبقاتها في حركة صعود دائما فان الغني وذا الجاه لا يريان لحفظ غناهما وجاههما أو الاستزادة منهما الا المحافظة على منابع الخير من ذاته والبعد عن قواذف الشر ومطارح الضر والفقير وخامل الذكر لا يجد سبيلا الى الغنى ونباهة الاسم الا المبادرة الى أسبابه الحقيقية وهي التشبه بالنبلاء والوجهاء الذين لم ينالوا النبالة والوجاهة الا بالفضائل الحقيقية في التحلي بتلك الفضائل حتى يصبح نبيلا وجيها مثلهم فتقوى في الامة دعائم العمران وتثبت فيها أصول السعادة التي وضعها الله تعالى لتحسين حالة الانسان في حياته ووقايته من الخطر الذي يتوقع أن يحل به وعند ذلك تكون للامة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة والقوة والشوكة والغنى

والثروة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات التي تمدح بها ويعلو شأنها

وهذا بخلاف مايوجد في كثير من البلاد التي لاعناية لها بشأن الفضائل فلا ينظر فيها الى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينته العقلية ولكن أهاليها ينظرون الى الرونق الظاهر والحلية الصورية ويعدون الاعراض الساقطة في المنزلة الاولى من الاعتبار فلا ينزل الواحد فيها منازل الشرف الا اذا كانت له من أبيه أومن متبوعه جهة الشرف ثم ان صاحب الجاه والشأن الرفيع لايسقط من مقامه فان جاهه هو الحافظ له وشأنه هو الذي يقدم أبناءه وحواشيه الى مثل مقامه وان كان فاقدا لكل فضيلة وخاليا من كل صفة الانسانية فتكون الطبقات في مثل هذه البلاد على الدوام ثابتة افرادها على حال واحد في أزمنة كثيرة فالفقراء يبقون على فقرهم والاغنياء يدومون على غناهم وقليل ان يصير الفقير غنياً ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى وفي مثل هذه البلاد قد ينال بعض المستضعفين وآحاد الناس ومن لاشأن لهم رفعة شأن أو علو مقام ولكن لامن أسبابه الطبيعية التي سنها الله في خلقه بل بوسائل التذلل والمداجاة واظهار العبودية لمن فوقه ولزوم أعتابهم والوقوف على أبوابهم أو بأن ينتصب لجلب منافعهم الخاصة فاذا داوم على ذلك أزماناً رقوا له وأخذوا بيده فدرجوه في مراقي الشرف سلما بعد سلم حتى يلحق بهم ويعد في حاشيتهم فيشرف بمثل شرفهم فبهذه الوسائل تنحرف القلوب وتميل الافكار عن الجادة المستقيمة ويدخل الناس في هذه الطرق فتنعدم الرغبات في الفضائل بل تغفل الاذهان عنها بالكلية فلا تتوجه الا الى تلك الرذائل

غير ان هذه الوسائل وان أفادت في بابها وأتت بالغاية المطلوبة منها لكن لايمضي زمن قليل حتى تسقط الامة بتمامها وينتهي بها الحال الى الخراب ويعم الشر جميع الافراد

فهنيئا للبلاد التي تعرف فيها الحقوق لاربابها ويدخل لها السعادة من أبوابها وأنا ننشر هذا الفصل التاريخي ليستفيد منه المطالعون .

وكتب في العدد ١٢٧١ الصادر في ١١ محرم سنة ١٢٩٩ — ٣ ستمبر سنة ١٨٨١

العلم وتأثيره في الارادة والاختيار

(لاحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية قال (*)

سألني أحد الافاضل عن سلطة الفكر والتعقل على الارادة وسلطة الارادة عليهما فلم أجد بدا من المذاكرة معه في هذه المسئلة وتوضيح ما وصل اليه عقلي نقلا عن العلماء المحققين واستنباطاً من كلامهم ولظني أن في ذلك نوعا من الفائدة لقراء جريدة الوقائع رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء وما أداهم اليه التدقيق في هذه المسئلة ولا بد قبل الكلام في الفكر والتعقل من تقديم مقدمة في العلم ولا نتكلم في العلم من جهة ما نقول ويقول المرشدون من انه نور العالم الانساني وشمس وجوده وروح حياته وأنه وسيلة التقدم في المدنية وكمال الحقيقة الانسانية وهو سيف القوة وينبوع الثروة وما شابه ذلك من الاوصاف الحقة التي أجمع عليها العقلاء بعد أن صدر بها النطق الالهي على لسان الرسل والانبياء والصديقين والاصفياء فان هذه الاوصاف انما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع ومثال للحقائق الثابتة وحاكٍ عن الاوضاع الالهية في عالمنا الوجودي أما كلامنا الآن فهو في مطلق الادراك المعبر عنه بالشعور الذهني الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي

اختلفت كلمة العلماء في مسمى لفظ العلم فمنهم من قال انه الصور المنطبعة في النفس آتية من طرقها المعلومة (الحواس الخمس) أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر ومنهم من قال انه انفعال النفس بتلك الصور أي التأثر الذي يحصل فيها بورود الصور عليها ومنهم من قال غير ذلك من كونه نسبة بين العالم والمعلوم مجهولة الحقيقة أو اتحاد العالم بالمعلوم الى غير ذلك من الاقوال التي لا حاجة بنا الى ذكرها لكن القولين الاولين هما الاقرب الى العقل والاشهر في النقل ويكاد الخلف بينهما

(*) المقالة بطولها له رحمه الله ولكنه أراد أن ينظر في هذا البحث المهم لذاته

يكون لفظيا لاتفاقهما على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور فهي متأثرة بها الا أن الخلاف فى كون العلم هل هو الصورة نفسها أو تأثر النفس وانفعالها بهـا والاقرب للحقيقة هو الرأي الثاني وهو ما يرشد اليه الوجدان الذي يدركه كل متعقل من نفسه

فالعلم بناء عليه انفعال فى هذا الجوهر المدرك الذي تخفى علينا حقيقته لكنا نعرف آثاره وهو الروح الحيوي والقوة المودعة فى المخ والأعصاب من الحيوان أو المعبر عنه بالنفس الناطقة في الانسان فالضياء الذي قال العلماء أنه يحمل الصور الى الباصرة مثلا ليس المراد أنه ينقـل صور المرئيات كما ينقل أحدنا الشيء من المـكان الى البصر فيودعها فيه اذ هذا من المحالات الاولية فان صورة الشيء الذي نراه لاتفارقه بالضرورة بل المـراد أن الضياء للطفه عند مروره على الصور والاشـكال يتشكل بها فيكون أيضاً بنفسه قد حدث فيـه شكل يشاكل هيئة مامر وانطبق عليه على حسب حالة الانطباق ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة ينعكس الى البصر بشكله فيؤثر فى الروح اللطيف (أشد لطفاً من الضياء بكثير) المودع بالحكمة الالهية في مركز الادراك بمثل ماتأثر الضياء من المرئي عند انطباقه عليه وهكذا يقال فى تموج الهواء بالنسبة الى المسموعات وفى الملموسات والمشمومات والمذوقات يتأثر الروح المنبث في الأعصاب الإدراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به فيحصل فيها مثل هيئتها التى خالطته

فالعـلم والادراك أثر فى الجوهر الدراك يحـدث فيـه من المؤثرات الاخر المحيطة به كسائر الآثار التي تحدث في الاشياء من اتصال بعضها ببعض وانفعال كل منها بما في الآخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن ينفعل بها كالحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها والماء يكتسب شـكل الاناء عند وضعه فيـه وما شابه ذلك

وهذا الاثر بحكم الوضـع الالهي الذي لاتصـل الى كنهه العقول يثبت في جوهر المدرك مستتبعاً جميع لوازمه التي لاتفارقه فصورة الانسان مثلا يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء وهي في مكانها المخصوص ووضعها المعين

فكما صارت تلك الصورة فى الروح يكون فيه أيضا حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية ومقدار البعد بينها و بين الاشياء التى أحاط بها الضياء وأتى بها معها و بالجملة فان الشيء يكون فى العقل كما هو في الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده الفطري حتى ذهب كثير من المحققين الى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها فى العقل كما هي موجودة في الخارج لما رأوه من التماثل التام بين صورة العلم والمعلوم فكان عالم الادراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه وكما ان حركة الموجودات في العالم الخارج عن نفوسنا تدعو الى اتصال بعضها ببعض فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أوغير منتظم يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها مالم يكن لها قبل التألف فان حركة الاجزاء الغذائية مثلا وانضمامها الى البدن الانساني أو الحيواني يكسبها من صفات الحياة مالم يكن لها قبل اتصالها بالبدن كذلك حركة الجوهر المدرك فينا تفضي الى انضمام بعض الاشكال الادراكية فيه الى بعض آخر فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقيلة في ذلك الجوهر مالم يكن للشكلين الاولين ونريد من الاشكال أنواع الحركات الحادثة فى جوهر الروح فان انضمام بعضها الى بعض يحدث أنواعا أخر من الحركة

وكما يرى في عالم الشهود ان بعض اجزاء العالم يجذب بعضاً و بعضها يطرد بعضاً آخر لتمام مناسبة أوتمام منافرة بينهما كذلك بعض المعلومات فى العقل اذا حصل يوجب انضمام معلوم آخر اليه أوانفصاله عنه وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثرا جديدا ومن ذلك تذكر الشيء بعد الذهول عنه لوجود مايلائمه أو يضاده بالكلية وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة ومع بطوء تارة أخرى كما يحصل ذلك في الموجودات المشهورة بلافرق ومعنى هذا ان تأثر جوهر الادراك بحالة قد يوجب تأثره بحالة أخرى لرابطة بين التأثرين سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل ان هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على

لابدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهرا لآثاره بمعنى ان حركات هذا الروح في أجزاء الابدان توجب مطاوعة تلك الاجزاء له فهذه التأثرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة اليه توجب في هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية و بحكم حركة هذا الروح تتحرك الاجسام والابدان بآلاتها المخصوصة على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثرها وهذا مانسميه بالحركة الارادية وهي التي يندفع بها البدن الى طلب شيء أو الهروب عنه عند العلم بملاءمته أو منافرته أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أو المنافرة حسب الشكل الذي حدث في الجوهر الروحي المعبر عنه بالذهن يتحرك في الاجزاء المعدة لحركته فيها فتتحرك هي أيضا بحركته اما طلبا واما هربا (جذبا أو طردا)

وقد يتعارض أثران في الجوهر المدرك الذي هو الروح و بعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل أحداهما تقتضي اندفاع الروح وحركته نوعا من الحركة والاخرى تطلب نوعا آخر منها فيقف وهي حالة التردد فاذا عرض من الآثار الادراكية أو الصور العلمية مايقوي أحد الاثرين تحرك الى مايوافقه والا فهو في مركز الوقوف و يبقى أثر ضعيف في الادراك للصورة المرجوحة عند مايغلب على الروح أثر الصور الاخرى

فالارادة انما هي تابعة للاثر العلمي في الروح الادراكي أو هي صورة أخرى لذلك الاثر بل الفعل الصادر عن الروح في البدن أعني الحركة البدنية نفسها انما هو ظهور الاثر الادراكي في الروح فيكون حاصل القول ان المتصل بالروح أثر فيها أثرا وهو العلم أوجب حركتها في أجزاء البدن فكان عنها حركة البدن نفسها وان شئت قلت تشكل الروح وهو في الاجزاء بشكل ما اتصل به فظهر ذلك الشكل بعينه في الاعضاء بالحركة الفعلية وهذا ما يقول العلماء ان الارادة تنزل العلم والفعل تنزل الارادة ومعناه ان حقيقة الاثر واحدة ظهرت في الاشياء المتعددة بمظاهر مختلفة

وقد يكون تأثير الادراك في أعضاء البدن واجزائه والمواد التي يتركب

منها خارجا عن الطور الذي نسميه بالارادة وذلك كفعله في الدم عند ماينتقش بصورة فعل منافر وفي الامكان دفعه فيفور الدم و يغلي و ينتشر في جميع العروق و يدور فيهادورة غير اعتياديه فاذا اشتدت الدورة تحرك البدن الى الايقاع بمن صدر عنه الفعل الغير الملائم وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب فان تأثير الامر المغضب على الدم ليس فى حد الارادة والاختيار وان كان التحرك للايقاع واقعاً تحت الارادة لكن ربما اذا أمعنا النظر نجده خارجاً عنها وانما نعده داخلا تحتها عند ما نلاحظ ان عندنا أثرا علميا آخر يدافع طلب الانتقام و يرد النفس عنه وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يخشى من خطرها فلوجود هذا الاثر عند الغضب نحسب الحركة الغضبية حركة إرادية والا فالغاضب يحس من من نفسه انه مغلوب لادراكه

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق فانه يفعل في الدم حركة وفي القلب خفقانا خصوصا اذا كان المعشوق بمرأى منه و يشهد من أعماله و يتبع ذلك ارتعاد خفيف في الاعصاب والأربطة البدنية ربما يفضي الى الرعشة وليس هذا التأثر داخلا تحت الارادة ولا هو منها في شيء ولكن قد يتبعه فعل ارادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب وانما يعتبر الفعل اراديا ما اذا كان ناشئا عن ادراك آخر سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أو المقابلة ومرادنا من المقابلة تصور الشيء وضده وترجيح غايته على غاية الضد كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما

وقد يفعل الادراك في الدم وقفة وانقباضاً ربما تؤدي الى الجمود وفقد الحياة كما نشهده فيمن فجع بموت ولده أو صديقه أو تصور خطرا وخطبا جسيما فان قوة هذا الاثر الادراكي وفعلها في جوهر الادراك قد تتسلط على الدم فترده من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه أو توقف دورته وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والآيس و يتبع ذلك من الاعمال الارادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم وقد يؤدي ادراك من الادراكات — كتصور أمر مخيف — الى ذهاب الادراك وسلب الشعور بالكلية وهو ما يعبر عنه بالاغماء والغشي وذلك لاستيلاء أثر الصورة المخيفة على

الجوهر المدرك في البدن فلا يسفله سواها فتضمحل جميع الانفعالات المعبر عنها بالادراكات وتفنى في نوع هذا الادراك والانفعال الشديد

وهذه الاحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة الى أن التأثر الادراكي من الانفعالات الطبيعية التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء والكهرباء وغيرها وان ما ينشأ عن التأثر الادراكي انما هو كيفيات تتبع الحالة التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثر الذي عرض عليه أي ما نسميه علماً وادراكاً

الملكات والعادات

ان هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل اليه وينفعل أشكالاً من الانفعال لكل متصل به يأخذ بتوارد أنواع التأثرات هيئات مخصوصة تثبت فيه مستتبعة لوازمها حتى تصير كأنها من أصل خلقته لكثرة ماوردت عليه وهي التي نسميها ملكات ادراكية وعلوما ثابتة في النفس لا تزايلها ويتبعها السجايا والطبائع والاخلاق النفسانية الملائمة لتلك الملكات الادراكية ويلزمها الافاعيل البدنية المعبر عنها بالعادات

فليست الاخلاق والعادات الا توابع ومستلزمات للعلم والادراك الذي هو أثر في جوهر الروح يتبعه الأثر الفعلي فان عرض للنفس مؤثر أو وقف على أبواب الادراك وارد غريب عن ملكاتها السابقة وبعيد عن الهيئات الادراكية التي أخذ الجوهر شكلها عسر على الذهن ادراكه وتعسر على النفس فهمه ومانعت الاعضاء البدنية أثره فهذه الاخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الادراكي من نوع واحد حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الافعال الجزئية الملائمة لها كلما عرض عليها أثر جزئي من نوع الهيئة الكلية فسجية الكرم مثلا ثبتت في نفس الكريم لكثرة انفعال عقله وادراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم والفوائد الجليلة التي يكتسبها باذل المال أو باذل الهمة في سد حاجات المحتاجين فبتكرار هذه الصور والادراكات على العقل وصدور الاثر الارادي عنها وطول الزمن على ذلك تمكنت فى النفس هيئة مخصوصة ادراكية وهي اليقين الذي خالط الروح بأن الكرم جميل مفيد ويتبعها انطباع

النفس بالنهي (كذا) التام لحركة الاعطاء وايصال الخير الى من يحتاج اليه فاذا أخطر ببال الكريم وصاحب هذه السجية التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدتها فعل لبخيل مناع للخير رأيت عقله يبعد عن ادراك هذا الفعل ويجد من روحه انقباضا وتعاصيا عن الانفعال به بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه احدى الحواس أو يذكر به راوي العمل وحاكيه فاذا كلف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخلاء رأى من نفسه بعد الاباية الادراكية والمصادرة العقلية انحطاطاً بدنيا وارتباطاً في الاعضاء حتى كأنه يجد عاقدا يعقد كل طرف بآخر ومانعا يمنعه من نفسه عن تحريك عضلاته بل يحس من ذاته كأن القوة المحركة الى هذا العمل الخبيث فاقدة (كذا) بالكلية وهكذا يقال فيمن تعودت نفسه ادراك غوائل الفقر والحاجة وتكاثر عليها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب وتهيأ جوهره الادراكي بصورة الانخذال والانهزام من صدمات الحوادث فهذا الذي أحاط بادراكه جميع المزعجات تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من من هذه الانفعالات وانطبعت نفسه ومبادئ الحركة فيه على الميل الى مايلائم ادراكه الثابت فهذا الراسخ هو ملكة العلم بفوائد البخل والامساك عنده وهذا المنطبع سجية البخل وعنهما تصدر الارادة بالافاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك السجية ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والاحسان وما ينشأ عنهما من الفوائد لمن تحلى بهما رأيته ينفر من ذلك نفور الوحش ويطلب سد أبواب الادراك على نفسه حتى يتكدر خاطره ويتألم بهذه الصور الرديئة المستبشعة

من جملة هذه الملكات التي ترتكز في جوهر النفس المدركة ملكات الصناعة كالكتابة والادارة والرسم والحدادة والنجارة وغير ذلك من أنواع الصنائع التي ترتسم في ذهن المدرك صورها الآتية اليه من احدى الحواس مقترنة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها وتارة لاتأتي اليه صورة الصناعة من طرق الحاسة ولكن يضطره الاحساس المؤلم (مثلا) العارض له من المؤثرات الجوية الى طلب الخلاص منه فيندفع الى التأمل في الموجودات المحيطة به لعله يجد منها ملجأ فينفعل بصور منها على هيئات مختلفة انفعالا يلائم الانفعال

الاصلي أعني طلب الخلاص من الالم فيتحرك للعمل فيها على غير انتظام ولا حالة تمام وكمال في مبدأ الامر ثم يلجوء مركوز الفائدة المقترنة بهذه الهيئة ولزوم الحاجة لمداومة الاعمال فيها الى جبر الاعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة ان كانت الصناعة بدنية حتى تلين تلك الاعضاء وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك أعني أنها تكون في حركاتها مثالا لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو لمسها مثلا مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة حيث أثر ارتسامها في الروح أثرا خاصا وبه سرى في الاعضاء على هيئة وكيفية خاصة ويصعب أول الامر ان تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه ولكن باستحكام الاثر ومداومة العمل تنطبع الهيئة بتمامها في الاعضاء كما انطبعت في مركز الادراك ومثل ذلك الهيئة المخترعة التي دعت الضرورة الى ارتسام الذهن بها

فان كان العمل غير بدني كالادارة والسياسة مثلا من الاعمال الفكرية التي لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع ويمكن بالسهولة الاجراء على مثالها وهو ما نعبر عنه في اصطلاح الحكومة بالتنفيذ فملكتها انما تثبت في العقل وتنطبع في الروح حتى تكون كهيئة فطرية له كما في سائر الملكات بتوارد صور كثيرة مختلفة الانواع والاشكال من صور المضار والمنافع والمصالح والمفاسد ثم يوجد عنده انفعال وتأثر بغاية وداعية تبعثه على المقارنة بين تلك الصور والحركة في تطلاب لوازمها الكامنة فيها فاذا استحكمت هذه الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والاشكال العلمية أمواجه أو كالضياء لا ينفك عن الحركة يؤلف بين عدد من الصور ثم يفرق بينها ثم يجمع بين المتفرقات في نقطة ولا تسكن له حركة حتى يستقر في ملتقى المنافع وهي الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له أي التي تأثر وانفعل بها فانبعث لطلبها بحكم ذلك الانفعال وفي مبدأ الامر لا تأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه السرعة لكن متى استحكم في الروح الاثر الباعث على هذا العمل الفكري استمرت الحركة العقلية مرة تحاذي الغاية وأخرى تنحرف عنها فتحفظ للانحراف أثرا يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الاتجاه الى وجهة الطلب كطبع جبلي فيها وهذا اجمال في القول ربما

نأتي على تفاصيله فيما بعد

ومن تأمل حال سير الانسان بل طريق ترقيه وتدنيه في أعماله واختلاف عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكافة شئونه وأنه قلما يتفق جيلان من الناس بل قبيلتان بل فخذان على استحسان شيء أو استقباحه بل اذا تنزلنا الى النظر في الجزئيات رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في بيت واحد هذا يستحسن شيأ وذاك يستقبحه و يستهجنه ومن يدقق نظره في ذلك يوافقنا على ان هذه الاحوال الادراكية التي تتبعها الملكات والاعمال التي نسميها بالعادات انما منشاؤها الانفعال من المؤثرات الخارجية التي تختلف على الشخص باختلاف موقعه وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة ومن يكتنفه من أبناء جنسه وما ينشأ عليه من نوع المأكل والمشرب والملبس والمسكن وما يطرق اذنه من الاصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة وما يراه من الصور والاشكال متعاقبة بعضها أثر بعض وما يذهب اليه ادراكه من جميع ذلك مستعقبا ومستتبعا لوازمه فان جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك و يكون هيئة فيه وما تكرر منه ثبت شكله فيه أي انطبع الروح بطابعه أي صار الروح على ذلك الشكل فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال وهو مانعني من تقرر الملكة وثبوت العادة ومالم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الاشكال عليه و يعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بدون فكر ولا روية وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية انها غير ارادية بالمرة أوأنها رمي بدون رام تارة يخطىء وتارة يصيب ولكن مرادهم ان الروح ينطبع عليها فالارادة موجهة الى مايكون على مثالها بدون احتياج الى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض و بعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الاعضاء على محاذاتها في الحركة يكون من الصعب بل ربما كان من المتعذر ان يتحول الانسان عنه الا بقاهر تشتد وطأته على النفس فيوصل اليها من المؤلمات أو يخيل لها من المخوفات مايؤثر فيها أثرا قويا يلويها عن الاثر الأول و يقودها الى الاثر الجديد ثم يستمر ذلك أزمانا واذ شئت قلت اجيالا حتى تضمحل الهيئة الأولى وتثبت الهيئة الاخرى ومن ذلك الحديث الشريف (اذا

سمعتم ان جبل كذا انتقل من مكانه فصدقوا واذا سمعتم أن فلانا تحول عن خلقه فلا تصدقوا) يشير بذلك الى صعوبة الانتقال عن الاخلاق والعادات الثابتة من تلقاء النفس بدون ان يضطرها لذلك قاسر أو زاجر وهيهات ان ينال المطلوب مع ذلك ومما يرشد الى ان تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية ما حكاه عبد الوهاب (لعله عبد اللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥ هجرية في مصر ان شدة القحط وفقد المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع وفشا ذلك فاستبشعته النفوس ونفرت منه حتى ان بعض الناس انزعج لهيئة أكل الانسان فمات من بشاعة المنظر ثم لما عم ذلك غالب الافراد زالت البشاعة شيئا فشيئا حتى صار من المألوفات ان يأكل الرجل أحد أقربائه والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها وكانوا يطبخون لحم الآدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان فانظر الى الانفعال الذي حدث فى النفس من غائلة الجوع كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام وانقلب القبيح حسناً الا انه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول الى مكانه لارتفاع الضرورة لكن لم يعد الى حالته الأولى على وجه الكمال الا بعد أزمان

نظن انك التفت فيما ألقينا اليك من المقدمات السابقة الى ان العلم والإدراك الذي يستولي على الإرادة انما هو الانفعال بالصور الواردة الى الروح الدراك اذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها ملائمة لذي الروح أو منافرة ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثا فى الأعضاء أوما تجافى مركزه الفكري لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة الا اذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح الى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات اذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز فى النفس ومتى قوى ارتسام الصورة الادراكية وتغلب على سائر الادراكات الاخرى وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه اندفع الروح الى الحركة كما مر بك بيانه وعن ذلك تكون الاعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علوما وأرى لهم في التسمية حقاً لانها نوع من التأثرات النفسية الادراكية وان كانت لا أثر لها في باب الادراك يصح اعتباره الا من وجه انها اشكال مؤلفة من خواطر النفس لاغير وهي ماتخيله التعاليم والالفاظ الموضوعة بازاء معان يمثلها المعلمون للذهن بالتمثيل والتشبيه ويقربونها الى الجوهر الدرّاك بتذكير بعض المألوفات فيحدث منها في المخيلة أنواع من الاشكال بسائط ومركبات أي يتشكل الجوهر الدرّاك بهيئات تناسب التقريبات التعليمية تحضر عنده بالتذكر وضم بعض المذكورات الى بعض وذلك كما يوصف للاعمى هيئة الافلاك والكواكب وحركاتها ويمثل له ذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات كمحيط الغربال الا انها في السعة على نحو كذا وفي التدوير على كيفية كذا الخ الأوصاف وكما يقرب للبخيل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه لمستحقه وصرف ثمرات الكسب فيما يؤثل المجد ويعلي شأن الحسب وأشباه ذلك فانه يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه وانما التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو الكرم مثلا الا أنها لاتجاوز المركز الادراكي فهي ترتسم فيه من حيث التمثيل والتعليم فان تواردت عليها الاشباه والمذكرات من وجه التعليم والتذكر بقيت ثابتة ويقال لمن هي عنده انه عالم بتلك الصفة وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به عنده ومن ذلك كل مايتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد ان يتعقلها أي ان توجد في جوهر روحه صور مؤتلفة على نوع خاص من الائتلاف وترجع الى وجهة واحدة في الجنس كعلم النحو وعلم العروض مثلا أو فن الاخلاق والسياسة

وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة لكنه ليس من نوع الملكات التي بينا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام وانما هو نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة بحيث اذا وجد جزئي من الجزئيات يرد على الذهن من الخارج فربما ينتبه المدرك الى كون هذا من نوع بعض الصور وليس من نوع البعض الآخر ويكون لصاحب هذه الملكة انه يولد في عقله من

هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أو غير تامة ويطابق بين الأصل وما تولد عنه كل ذلك في عقله لا يراعي فيه الانطباق على الواقع أو عدم الانطباق فان لاحظ ذلك فهو على شريطة ان لا يباين الاصل الذي تلقاه فهذا انما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أو متعاكسة ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية وذهبت عقولهم خلفها فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد تبين حقيقة ما قلنا فمثل هذا النوع من العلوم لا يؤثر في الارادة شيأ سوى انه يحولها الى إجالة الفكر فيه فلا يكون له همّ الا تأليف الاشكال العقلية وتفريقها وهذ نوع من تسلط الارادة على الادراك بعد تسلطه عليها

مثلا الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس الا بعد ان صار كهلا بين قوم بعيدين عن التهذب وتلقفت احساساته من أحوالهم ما انطبع عليه روحه الدراك وسرى به في الدم والعروق وجرت به الاعمال العضوية ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة وللبدن عادة وحفظ جميع ماحوته الكتب الشهيرة في هذا الفن فان قواعد الفن وصور أصوله تكون جاثمة في مركز الادراك واشكالها ثابتة فيه لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل وهو العمل وانما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه ان يعلمه و يلقيه كما تلقاه فان العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط فاذا انضم الى ذلك غايته وهي ان يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة تحرك الروح في لسانه وتضامّت الاشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله فيتمكن من ذلك بالتعويد حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له وتكون الارادة تابعة للادراك هذا النوع من التبعية

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية وهو مسلم أو بالعكس لا لقصد العمل ولكن لقصد ان يتكلم أو يكتب مايدل على تلك الاعمال وفروعها فالارادة تابعة للانفعال الادراكي بالداعية والباعث الى الحركة فان كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده أو انضمام الترتيب والتأليف في الالفاظ والارقام

تجاوزت الى هذه الغاية وهي الى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية التي هو بها جزء من هذا الوجود شيئا يعتد به وأرباب هذه الحالة يعرفون في الاصطلاح باللفظيين تشبيها لعلومهم باشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالالفاظ لا أثر لها الا بالعرض

ومن ذلك الذين يتكلمون كثيرا بالحكم العالية والأصول النظامية الجليلة لكنهم في أعمالهم لا يراعون شيئا مما يقولون وما ذلك الا لكون تصوراتهم انما هي تأليف أشكال خيلها لهم الممثلون والمقربون فوجد لتأثر أذهانهم بها نوع من الارتياح للطف الاشكال المؤلفة منها في حد ذاتها فانبسطت نفوسهم لاستثبانها وانضم الى ذلك احساسهم باجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام فوجهوا الارادة الى ذلك فلم ينالوا سواه . وعلى هذا المثال من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب الا انه اذا قرأ لا يتذكر شيئا منها واذا كتب جال قلمه خارجاً عن دائرتها وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون ولو علم النحوي مثلا قواعد النحو حق العلم أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الدراك على النحو الذي أسلفنا لتبع ذلك الانفعال غايته فان الغاية من الأصل المدرك التي ما وضع الأصل الا لها من لوازمه لا تفارقه فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الاصل نفسه فيها ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العلمية لتحصيلها فيعوج في السير و يستقيم حتى ينطبع شكل الاصل وغايته في الروح المنبث في كافة الاعضاء فتصدر لذلك الأعمال تابعة للاصل الثابت بدون عسر وهنالك تمام العلم وكماله أفلا يرى ان مدرس السياسة عند ما يقبض على زمامها لاجراء العمل بما علم يلتبس عليه الحال الواحد لا يدري يطبقه على أي أصل من الاصول الثابتة عنده أليس هذا جهلا بنفس الأصل حيث لم يقف على نوع جزئياته لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه انه فتح له باب جديد من العلم وكذلك ان حدث منه أثر رديء فهذا الارتباك الاول والرشاد الثاني شاهدان على نقص الادراك قبل تمكن الملكة النفسية

والاعمال التعويدية وكماله بعد تمكنهما ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئاً و يعلمونه حق العلم بل و يدافعون عنه ولكنهم يعملون على خلاف مايقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة فى اتباعه والهلاك في العدول عنه وقد تبين أنهم في الحقيقة لايعلمون

* * *

الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي لامجرد الاثر التصوري هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد لانه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كانه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به وما عدا ذلك هو الخيل والموهوم يحوك في النفس وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته وموجبات انفعال النفس به فاذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب رأيت المعتقد قد احتوى على الروح فتحرك به وتوجه الى وجهته وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن وانما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المخروطي فأثر في انحرافه عن المخروطية فاذا قويت الشعلة حتى أحرقته عادت الى تمام الشكل ولا يحصل انحراف الشكل الا عند عروض عارض آخر فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالاشكال الطبيعية وما دونها لايؤثر فيها أثرا حقيقياً ثابتاً وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم (لايزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن) ولست أريد تفصيل ذلك

تأمل الى من جلس امام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل انصات ويهز رأسه هزة الهائم بجمال ما يسمع وتارة يذرف الدمع من عينه لما حاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب ويكون ذلك الوعظ في تخفيض شأن الدنيا وتهوين أمر الحياة وان كل طويل فيها قصير وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشرور وان لا غنيمة فيها سوى مايقدمه العاقل بين يديه من طيبات الاعمال ليكسب بها نعيما مؤبدا حتى اذا انفض المجلس وانتشر القوم لطلب الرزق رأيت ذلك الباكي وهو يتقرب الى موارد الشهوات ويدنو من مساقط

الدنيئات و يستعمل لذلك أنواع الحيل التي طبعتها في جوهر ادرا كه فواعل الاحتياجات التي ألمت به أو وردت عليه صورها ملمة بفبره مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ و يتفق مع ارشاد المرشد فيكون عمله على ضد مايزعم اعتقاده حيث ان هـذه الطرق لم تألف احساساته ولم تنتقش في مداركه على النحو الذي يبث الروح في الاعضاء فيحركها على مشاكلة تلك الرسوم الجبلة فقد وضح لنا من هذه الآثار النامة للادراك ان الصور التعليمية التي تحضر الذاكرة دائما أو في بعض الاحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لاتعد في الحقيقة معتقدات وانما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط ثم لايترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح يثبت فيه ولكن ينشأ عنها اعراض وقتية

تبين من هذا الذي أوردناه من التقريبات في باب تأثير الادراك في الارادة أنه يعم جميع الادراكات والارادات سواء كانت مطابقة للصواب جالبة للسعادة الحقيقية مانعة من الشقاء أو لم تكن كذلك وان ذلك تابع لما يصل الى المدرك من المؤثرات الخارجية التي تحدث فيه آثارا تناسب هيئتها التي وصلت بها اليه ولم يخرج في ذلك الانفعال الادراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية الا من حيث الكيفية والنوع المخصوص فاختلاف العادات والملكات والاخلاق والاعمال في النوع الانساني تشهد لنا بناء على تلك المقدمات السابقة أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مركز الادراك من الأكوان الطبيعية المكتنفة بالمدرك وعوارضها وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث وتخالف الطبائع الخارجة من حيث الخلقة الاصلية والوضع الالهي واما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول تلك التأثرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الادراك

أما الوجه الثاني أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الخلقة لجوهر الادراك فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني والعناصر الداخلة فيه والوضع الذي أبدعته يد القدرة الالهية عليه فعناصر التركيب البدني وجودتها ورداءتها ووضعها فيه وكيفية تأليف الاعضاء ونسب الاجزاء بعضها لبعض مما له دخل في ظهور الجوهر الادراكي بآثاره و بعبارة أخرى في شدة انفعاله بالمؤثرات

الواردة عليه وضعفه وفى قوة استثبات الصور المنفعل بها وضعف تلك القوة وغير ذلك من صفات الادراك التي لاتخفى على مدرك وهذا لا دخل مما لا يشك فيه

وأما الوجه الاول أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث وتخالف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك فهو يظهر من اختلاف العادات والاخلاق والادراكات باختلاف الاقطار والبقاع وتنوعها بتنوع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتنمو فيه و يمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة التعيش وطرق اكتساب الرزق ووقاية الوجود من الخطر والاحساس من الالم التي تستدعيها طبيعة الاراضي فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري وتدعو اليه المحاماة عن النفس بمدافعة الوحوش الكاسرة والسباع الضارية أو يبعث اليه التأثر من شدة البرد و يبوسة المنشأ وجدب المكان كل ذلك غير ذلك الذى يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة والفرار من المهلكات بالاستكنان فى بعض الاكواخ لسهولة الارض وخلوها من المفترسات و بعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة وتوسطها في الحر والبرد وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطلب الارزاق فان تأثر الجوهر الدراك بالاخطار الاولى يبلغ من الشدة مبلغا يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على انحاء توصل الى المطلوب أعني التخلص من تلك الاخطار و بتكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الاعمال على ذلك النحو المتقدم مثلا اذا نشأ الانسان فى أرض جبلية كثيرة الغور والنجد غزيرة الغابات وعرة المسالك قليلة الخصب تسكنها أنواع الحيوانات المفترسة ومع ذلك تكون فى جو شديد البرد كثير الصواعق سريع التقلب فلا ريب ان الانفعالات التي تعرض على احساساته من هذه الاشياء المكتنفة به وكثرة ماتدعوه الى المقاومة والمصادمة واحتمال المصاعب في دفع المصائب وتجشم المشاق ليتخلص بها من المهلكات ونحو ذلك تجعل في الاعضاء قوة على العمل ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والاقدام وتتجه بذلك قوة الادراك الى البراعة فى الكر والفر وفنون الدفاع والهجوم وتثبت فيها ملكة الحذر والتيقظ وملكة النشاط في السعي لطلب المعيشة وملكة الثبات في

العزائم وملكة حب التألف والاجتماع للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة وملكة القسوة والتهاون بالدماء وعدم الاكتراث باتلاف النفوس وازهاق الارواح وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام وملكة الغدر التي تتولد دائما من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث ويتبع هذه الملكات ملكات أخرى ويتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها .

وهذا بخلاف ماذا نشأ في سهولة العيش وخصب الارض وهشاشة التربة وخلوها من الغابات واستواء سطوحها واعتدال هوائها وصفاء جوها وخلوها من الحوادث المخيفة فان ذلك لايحدث في النفس الا صورا لطيفة تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والنزاهة عن الضغائن والبعد عن الطمع والرضا بالقليل وما يتبع ذلك من الصفات التى لاتتخلف عن مناشئها الواقعية الا بالطوارىء العرضية التي نذكرها فيما بعد فانتظرها

(يقول جامع الكتاب) ان الفقيد وعد هنا باتمام هذه المقالات الفلسفية التي نشرت في خمسة أعداد وقد تصفحنا سائر اعداد الوقائع المصرية التي صدرت بتوقيعه فلم نجد فيها هذه التتمة ولعله شغل عن أمثال هذه المباحث الدقيقة في الفلسفة بحوادث الثورة العرابية التي نجمت في تلك الايام واضطر لمقاومتها كما علم من بعض ماسبق ويعلم من المقالات الآتية في الشورى وغيرها

وكتب في العدد ١٢٦٧ الصادر في ٦ محرم سنة ١٢٩٩ — ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١

الحياة السياسية

تقرر فيما سلف ان لابد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا وان خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً فهو والسكن بمعنى: استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك ومن أقوالهم فيه لا وطن الا مع الحرية وقال لابرويير الحكيم الفرنساوي لا وطن فى حالة الاستبداد ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب سمية وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الأخير لا ينقض قولهم لا وطن الا مع الحرية بل هما سيان فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق وهما شعار الأوطان التي تفتدى بالاموال والابدان وتقدم على الاهل والخلان و يبلغ حبها فى النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان

أما السكن الذى لا حق فيه للساكن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا فان عظم فلا يسر وان صغر فلا يساء قال لابروير السابق الذكر ما الفائدة من ان يكون وطني عظيما كبيرا ان كنت فيه حزينا حقيرا أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيرا

على ان النسبة للوطن تصل بينه و بين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه وان كان سيء الخلق شديدا عليه ولذلك قيل في مثل هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنساوي على فرنسا والانكليزي على انكلترة فأنكر ذلك بعض الناس وكان فى الامر لاشك سوء فهم أو سوء افهام

وجملة القول ان فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدودا الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والاهل والولد والثاني

أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز أو يسفل ويذل وهو معنوي محضاً

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئا ويشرب مريئا ويبيت في الاهل أمينا وهو مقامه الذي ينسب اليه ولا يجد في النسبة عارا ولا يخاف تعبيرا وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية

وللحب على أهله شروط محفوظة عند الاذكياء مجهولة عند المدعين الاغبياء فما تنفع فيه الشكوى ولا تقدم لصاحبه دعوى الا ببيان من الواقع وشاهد من الفعل وما أحسن ماقيل

دلائل الحب لاتخفى على أحد كحامل المسك لايخلو من العبق

وله مراتب مناسبة لموضوعه موافقة لمنشأه فهو في الكرامة كريم وفي النبالة شريف وفي المآثر حميد وفي العز والمجد رفيع وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات فان قيل في حب الحسان

أحبك حبا لو تحبين مثله أصابك من وجد على جنون
لطيف مع الاحشاء اما نهاره فدمع وأما ليله فأنين

فقل في حب الاوطان

أحبك حباً لو تحبين مثله أصابك منه يا ديار تغير
شديد مع الاشواق اما نهاره فسعي واما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر والباسهم جميعا لباس الجهالة والذل ولكن أبت الحوادث الا ان تثبت لنا وجودا وطنيا ورأيا عموميا ولو كره المبطلون على ان منهم فئة لايزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفساف القول من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف وألفنا الخدمة والرق فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية كأنما هم لايعلمون ان أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصارا

وكانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح وأن العالم بأسره كان فريقين أحرارا يظلمون وعبيدا يطيعون أولم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الارض لغيرهم و يباعون كأتباع العجماوات أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة لايزال في بلادنا ستون ألفا أوسبعون ألفا عبيدا للرهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول الى ما أدركوه من رفعة المقام وان يروا أمثال تيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبدانا أرقاء

ولئن كان من فضل هذه المائة ان يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاما

وكتب في العدد ١٢٧٩ الصادر في ٢٠ المحرم سنة ١٢٩٩ — ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨١

الشورى والاستبداد

تكلمت بعض الجرائد العربية في الشورى وأشربت بعض جملها عبارات في الاستبداد أوهم ظاهرها وعمومها بعض الناس ان القصد منها مدح الاستبداد الذي عرفوا من آثاره مايكرهون ولقوا من جرائه مالا يودون فشددوا على محررها نكيرا وولوا عنه نفورا وقالوا مدحه ظلما وزورا وكان في ذلك من المخطئين

وان مانعهده في حضرة هذا المحرر من حسن القصد وسلامة النية يجعلنا في ريب من ان يكون الاستبداد ممدوحاً له ومقصودا بالثناء عليه بل مانعتقده فيه من التفقه في الدين والتضلع منه يصور لنا ان ليس المقصود من تلك العبارات ماتدل عليه ظواهرها التي أوقعت في أوهام كثير من مطالعيها خلاف ما عليه شرعنا فاردنا ان ندفع هذه الأوهام ببيان حقيقة الشرع في هذا الموضوع

مؤيدين ما نقول بالآيات الشريفة والاحاديث المنيفة وأقوال الائمة الأعلام من علماء المسلمين رضي الله عنهم فنقول

ان الاستبداد يقال على معنيين أحدهما تصرف الواحد في الكل على وجه الاطلاق في الارادة ان شاء وافق الشرع والقانون وان شاء خالفهما فيكون اتباع النظام مفوض اليه وحده ان أراد قام به وان لم يرد لا يؤخذ عليه وهو الاستبداد المطلق وثانيهما استقلال الحاكم في تنفيذ القانون المرسوم والشرع المسنون بعد التحقق من موافقتهما على قدر الامكان وهذا بالحقيقة لا يسمى استبدادا الا على ضرب من التساهل وانما يسمى في عرف السياسيين توحيد السلطة المنفذة ومن تتبع الشريعة الغراء ونصوصها الواضحة ووقف على حكمة تنزيل الكتب السماوية وتدوين الاحاديث النبوية يرى أن الاستبداد المطلق ممنوع منابذ لحكمة الله في تشريع الشرائع ومعاند كل المعاندة لصريح الآيات الشريفة والأحاديث الصحيحة الآمرة باتباع أحكام الكتاب العزيز والاخذ بالسنة الراشدة فانه نبذ للدين وأحكامه وسعي خلف الهوى ومذاهبه وذهاب الى خفض كلمة الله العليا وخرق لاجماع السلف الصالح من المؤمنين اذ لم يبيحوا فى جميع أطوارهم أن يتولى عليهم من يخالف الكتاب والسنة الى أحكام شهوته وهواه يشهد بهذا صيغهم في بيعة الأمر والعهد الى الولاة يقولون لمن يبايعونه بايعناك على ان تكون خليفة رسول الله تتبع سنته وتسلك بنا طريقته أوعلى ان تحكم فينا بما أمر الله وما سن رسوله صلى الله عليه وسلم ولم نر طائفة منهم ولا قوما ولوا عليهم أميرا على كونه يتبع هواه أو يعمل فيهم بما يراه وافق الدين أوخالفه و يدل عليه العهود التي كان يعهد بها الخلفاء الراشدون الى عمالهم في الاقاليم فانها كلها مشحونة بعبارات الوصية والحث على اتباع منهاج الشرع الشريف والجري على السنة الراشدة والوعيد على مخالفتهما وأخصها عهد الامام علي رضي الله عنه الذي عهد به للاشتر النخعي حين ولاه أمور مصر ويؤيده أقوال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في خطاباتهم ومقالاتهم عند انعقاد المحافل كقول عمر رضي الله عنه بعد ان ولي الخلافة (أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه : فقام بعض الحاضرين

قائلاً (والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) ويؤكده ماسنتلوه عليك من الآيات والاحاديث

اما المعنى الثاني وهو ان يرجع الأمر في تنفيذ الشريعة الى فرد واحد فهو غير ممنوع في الشرع ولا فى العقل بل هما على وجوبه أما الشريعة فنصوصها متضافرة على وجوب نصب امام ينفذ الشرع القويم ويحفظ الدين المستقيم ويجري أحكامه العادلة على الرعية وأما العقل فلما في قصر التنفيذ على الواحد الفرد – أي أجراء الاحكام باسمه المخصوص – من الهيبة والرهبة اللتين تلزمان لتنفيذ الأحكام واذعان الرعية لها وانقيادها لما قضت به ثم ان هذا لا يسمى فى العرف استبدادا كما أسلفنا اذ صاحبه يكون مقيدا بالمرسوم محصورا فى دائرة المشروع بحيث لا يجوز له الخروج عنها ولا تجاوز حدها والمستبد عرفا من يفعل ما يشاء غير مسئول ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أوخالفه ناسب السنة أو نابذها ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أوما يضارعه صرفوه الى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم منه وكثرة ماجلب على الامم والشعوب من الاضرار وحق لهم النفور والاشمئزاز اذ لم ينالوا من جرائه الاوبالا ولم يلقوا من أحكامه الا نكالا بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلما وتؤكل فيه الاموال أكلاً وتسفك الدماء زورا وتدمر البلاد تدميرا فلا تثريب عليهم اذ كرهوا سوقه في سياق مدح ولو مرادا به غير ماعرفوه

ولقد تبين لك مما قدمناه ان الشريعة لا تبيحه وانها توجب تقييد الحاكم بالسنة والقانون ومن البديهي الواضح ان نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها فانها ليست الا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وحملتها أومدلولا عليها بنقوش مرقومة فى الكتب ولا يكفي في تقيد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد فى ذلك من وجود أناس يتحققون بمعانيها ويظهرون بمظاهرها فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير في طريقها ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضي الله عنه الناس في خطبته الى تقويم ماعساه يكون منه من الاعوجاج في تنفيذ أحكام الشريعة فقال (أيها الناس من رأى

منكم في اعوجاجاً فليقومه الخ الاثر المشهور) وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) اذ لايخفي ان هذه الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم على معنى أن تلك الأمة أي الطائفة من المسلمين تدعو الملوك وغيرهم الى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده حاكما كان أومحكوماً وليس الامر هنا للندب كما فهم بعضهم بل للوجوب والفرض على ماصرح به العلماء ويؤيده ان قيام تلك الأمة بذلك مما لا يتم الواجب المفروض وهو التقيد بالشريعة الابه فيكون واجبا على حكم القاعدة عند فقهاء الشرع (مالايتم الواجب الا به فهو واجب) وقالوا ان هذه الطائفة يجب تأليفها من أفراد الأمة وجوباً كفائيا على معنى انها ان لم تقم فيهم أثمت أفراد الأمة بجملتها واستحقت العقاب برمتها فقد فرض الله على الأمة الاسلامية ان تقوم منها أمة أي طائفة وظيفتها الدعوة للخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للشريعة من ان يتجاوز حدودها المعتدون وصوناً لأحكامها من ان يتعالى عليها ذوو الشهوات فينتهكوا حرمتها و يخلوا نظامها اذ تحرفهم عن العمل بها الاهواء اذا تركوا وشأنهم ولم يؤخذ على أيديهم في الاسترسال مع داعيات الشهوات فلم يجعل الله الشريعة في يدي شخص واحد يتصرف فيها كيف شاء بل فرض على العامة ان تستخلص منها قوماً عارفين لجلب كل ما يؤيد جانب الحق وتبعيد كل مامن شأنه ان يحدث خللا في نظامه أوانحرافاً في أوضاعه العادلة

ولقد قلنا ان الملوك والسلاطين داخلون تحت من يجب على تلك الطائفة ارشادهم وذلك لتضافر الأحاديث الصحيحة والأخبار الشريفة على وجوب نصيحة الأمراء قال صلى الله عليه وسلم « ان الدين النصيحة » ثلاث مرات قيل لمن يارسول الله قال « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم » وقال « ان الله يرضى لكم ثلاثا و يسخط لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبل الله جميعاً وان تناصحوا من ولاه الله أمركم » الحديث . قال العلماء والنصيحة للائمة وأولياء الأمر هي معاونتهم على ما تكلفوا

القيام به في تنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ماجهلوا وتحذيرهم ممن يريد السوء بهم واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية وسدخلتهم عند الحاجة ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم ورد القلوب النافرة اليهم والنصح لعامة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرأفة بصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم الى ما يسعدهم وتوقي مايشغل خواطرهم و يفتح باب الوسواس عليهم بل قال عليه الصلاة والسلام « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده » فهذه الانباء الشرعية وغيرها مما لم يسع المقام سرده تدل بصراحتها على وجوب رصد أعمال الولاة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وردهم الى الشريعة الحقة عند الاعوجاج ومعلوم ان الأمة بتمامها لايمكنها القيام بهذا فوجب اختصاص ذلك بمن تحتم عليها — بمقتضى تلك الآية (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير الخ) استخلاصهم منها عارفين بالواجب فيدعون اليه والممنوع فينهون عنه وكما كافت الشريعة المطهرة جماعة المسلمين بمناصحة أولياء الأمور والاخذ على أيدي الظالم منهم وانتقاء طائفة من خيارهم للهداية والارشاد ووعدتهم بقرب العقاب اذا لم يردوا الظالم عن ظلمه عند احساسهم به كذلك كافت ولاة الأمور بأن يأخذوا آراء رعاياهم فيما ينظرون فيه من مظان المنافع ومجالبها قال تعالى مخاطباً لنبيه الذي لا ينطق عن الهوى (وشاورهم في الأمر) قال ابن عباس قد علم الله ان مابه اليهم حاجة ولكن أراد ان يستن به من بعده وقال بعض المفسرين ان الله تعالى لما علم أن العرب يثقل عليهم الاستبداد بالرأي أمر نبيه بمشاورة أصحابه كي لا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم وقال المفسرون في قوله تعالى (فاذا عزمت فتوكل على الله) أي اذا عزمت بعد الشورى فتوكل على الله في تنفيذ الرأي وامضائه ومن هنا قال العلماء من أقبح مايوصف به الرجال ملوكا كانوا أوسوقة الاستبداد بالرأي وترك المشاورة

واذا علمنا ان مناصحة الأمراء أمر واجب على الرعية كما تدل عليه الاحاديث والآيات السابقة الشريفة وجب على ولاة الامر ان لا يمنعوهم من

قضاء هذا الواجب فدل ذلك على ان الأمر في قوله تعالى (وشاورهم في الامر) للوجوب لا للندب وهو ما يؤخذ من عبارات بعض المحققين من علماء التفسير خلافاً لما في تلك الجريدة من كونه للندب فوضح من كل هذا ان تصرف الواحد في الكل ممنوع شرعاً وان الرعية يجب عليها ان تجعل الحاكم والمحكوم بحيث لا يخرجان عن حد الشريعة الحقة وأن الولاة يجب عليهم استشارة ذوي الرأي في مصالح البلاد ومنافع العباد وأن الشورى من الأمور الشرعية الواجبة فمن رامها فقد رام أمرا شرعياً قضت به الشريعة وحتمته على الحاكم والمحكوم جميعاً بحيث لو منعناه لاكتسبنا بذلك اثما مبيناً

ومعلوم أن الشرع لم يجيء ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام ولا طريقة معروفة للشور عليهم كما لم يمنع كيفية من كيفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها فالشورى واجب شرعي وكيفية اجرائها غير محصورة في طريق معين فاختيار الطريق المعين باق على الاصل من الاباحة والجواز كما هو القاعدة في كل مالم يرد نص بنفيه أو اثباته غير انا اذا نظرنا الى الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو (كان النبي عليه الصلاة والسلام يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم وكان المشركون يفرقون رؤسهم فسدل النبي ناصيته ثم فرق بعد) ندب لنا ان نوافق في كيفية الشورى ومناصحة أولياء الامر الأمم التي أخذت هذا الواجب نقلا عنا وأنشأت له نظاماً مخصوصاً متى رأينا في الموافقة نفعاً ووجدنا منها فائدة تعود على الأمة والدين والا اخترنا من الكيفيات والهيئات ما يلائم مصالحنا ويطابق منافعنا ويثبت بيننا قواعد العدل وأركانه بل وجب علينا اذا رأينا شكلا من الاشكال مجلبة للعدل ان نتخذه ولا نعدل عنه الى غيره كيف وقد قال ابن قيم الجوزية ما معناه ان أمارات العدل اذا ظهرت بأي طريق كان فهناك شرع الله ودينه والله تعالى أحكم من ان يخص طرق العدل بشيء ثم ينفي ماهو أظهر منه وأبين

فتألف من مجموع هذا أن الشورى واجبة وان طريقها مناط بما يكون أقرب

الى غايات الصواب وأدنى الى مظان المنافع ومجالبها على انها ان كانت في أصل الشرع مندوبة فقاعدة تغير الأحكام بتغير الزمان تجعلها عند مسيس الحاجة اليها واجبة وجوباً شرعياً ومن هنا نعلم ان نزوع بعض الناس الى طلب الشورى ونفورهم من الاستبداد ليس واردا عليهم من طريق التقليد للاجانب ولا آتيا لهم من ذم بعض الجرائد فيها هكذا جزافا ورجماً بالغيب كما سبق اليه قلم محرر تلك الجريدة بل ذلك نزوع الى ماهو واجب بالشرع ونفور عما منعه الدين وقبحه العلماء وشهدوا من آثاره المشؤومة ماعرفوا به قبح سيرته ووخامة عقباه

نعم لاننكر انه ربما كان في الطالبين النافرين من سبق الى حب الشورى وكراهية الاستبداد المطلق بطبيعة التقليد ولكن ذلك ان كان فليس الا نزراً يسيرا من مقدار كثير فلا يصح اطلاق القول بالتقليد على فرض ان يجوز التخصيص ولو قال حضرة المحرر ان كثرة ذم الجرائد للاستبداد ونشو يقهم الى الشورى أحضرتهم صور ماأخذوه من الواقع وأخطرت بأذهانهم أمثلة المشهود في العيان فجسمت ذلك عندهم فلذلك اشتدت كراهتهم فيه وقويت رغبتهم فيهالكان ذلك أدنى الى الصواب ولكن ربما سبق القلم الى غير المراد

وأماقول حضرة هذاالمحرر ان جواز إعطاء الحرية للافرادفي ابداء آرائهم مع كونه تفردا بالرأي أي استبدادا بحتايستلزم جوازه في جانب الأمراء بالطريق الأولى فهو خلاف التحقيق فان حرية الافراد على معنى تنفيذ مايرونه صوابا لايقال لها استبداد أصلا لالغة ولا عرفا فان واحدا منهم لم يستقل بتنفيذ مارآه كماهوحقيقة الاستبداد بل انما طلب غيره لمشاركته في الرأي وماهو من معنى الاستبداد في شيء وذهاب المحرر في هذه العبارة خلف فكره يعد من سبق القلم وجريانه بما لايرجع الى أصل علمي اذليس في تشارك أفراد العامة تصرف الواحدفي الكل بل تصرف الكل في الكل أوتصرف الكل في الواحد سلمنا كونه استبدادا فهل يستلزم ذلك صحة الاستبداد في جانب الامراء مع العلم بأن رأي الواحد ليس مثل رأي الكل اذ الاول مظنة الخطأ ولا يحتمل الثاني خطأ الا احتمالا يفرضه العقل وتكذبه العادة والاختيار ومن ثم قال سيدنا عمر بن الخطاب . الرأي الواحد كالخيط السحيل — وهو

الحبل على قوة واحدة — والرأيان كالخيطين والثلاثة الآراء كالثلاثة لا تنقطع) وقال صلى الله عليه وسلم (ماتشاور قوم الاهدوا لأرشد أمرهم) وقال تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه السلام (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري) وقال عمر رضي الله عنه عند ماجعل الخلافة شورى بين ستة (ان انقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الاربعة ميلا منه الى الاكثر لان رأيهم الى الصواب أقرب) قاله السيد السند وعن أبي هريرة (مارأيت أكثر تشاورا من أصحاب رسول الله) أفبعد هذا يصح الحكم بأولوية استبداد ولاة الامور ؟ لاشك ان الحكم بهذا يكون من قبيل ترجيح المرجوح من حيث هو مرجوح بل من ضرب تجويز الممنوع ان أريد الاستبداد المطلق حيث علمت امتناعه مما أسلفناه لك من الادلة المنقولة والبراهين المسموعة

هذا ما أردنا ايراده في هذا المقام دفعا لما توهمه عبارات تلك الجريدة من تجويز ديننا للاستبداد المطلق أو ايجابه مع كونه براء منه ورفعا لما عساه يتولى بعض الاذهان من كون حكم الشورى عندنا معاشر المسلمين الندب مع أنه الوجوب كما قررنا ولعل من يدعي ان الامة الاسلامية لاتصلح للشورى زعماً منه ان ديننا القويم يأباها يكتفي بهذا المقال فيعلم ان شريعتنا شريعة سمحة تأبى ان يتولى أمور ذويها من لايراعون للشرع حرمة ولا يحفظون للسنة ذمة وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعا ذلك هو الحق والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل ·

وكتب في العدد ١٢٨٩ الصادر في ٣ صفر سنة ١٢٩٩ — ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨١

الشورى

نتكلم عليها من جهة وجوبها عقلا على الحاكم والمحكوم معاً فنقول خلق الانسان محاطاً بالشهوات مكتنفاً بالاميال مقيدا بالاغراض فهو أسيرها تدفعه الى

مقتضياتها وتجذبه الى لوازمها بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها وتستعملها فيما يلائمها فلا يتصور حسنا الا ماتستحسن ولا يتخيل جميلا الا ما تستجمل وهذا أمر يكاد ان يكون طبيعياً فطرياً لا يمكن الانسان ان يغالبه ولا أن يتخلص منه وان امكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته على ان هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ولا في طاقة كل شخص فلا يستطيعه الا من كبرت همته ولا يقدر عليه الا من ذكت فطنته حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب بما يتخذه من الوسائل المختلفة حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها وتمكنهم من لوازمها كانوا مضطرين الى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية الى ذلك حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد وليس من وسيلة الى ذلك الا مشاورة العارفين العالمين بطرقها فان للرأي العام في مغالبة الأهواء مالايخفى من القوة ولذلك ترى ان الانسان ربما مال الى شيء ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام لا يستحسنه وأيضا فالانسان الواحد قاصر وان بلغ مابلغ من اتساع نطاق الفكر على ان يحيط علما بمصالح عامة خصوصاً اذا كانت مصالح أمة كبيرة فانها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الانسان الواحد ان يستوعبها ويستوفيها اطلاعاً

وقد يتنبه بعض الناس من نفسهم لهذا الامر ويعلمون انهم لو تركوا انفسهم وشأنها فربما استرسلت مع شهواتها ومالت مع أغراضها ووقفت دون الصواب حجابا فيجتهدون فى منع ذلك بأن يستنصحوا الناس ويسترشدوهم ويستهدوهم استعانة منهم بآرائهم على كشف الحجاب ورفع النقاب عن وجه الصواب وهؤلاء هم القوم الذين صفت سرائرهم وطابت نفوسهم فلا يرون حسناً الا ما وافق الصواب ولا جميلا الا ماطابق الحق ومن هذا يتبين وجوب الشورى على الحاكم

أما وجوبها على المحكوم فيتبين مما أقول قد علمت أن الواحد وان بلغ من علو

الفكر ورفعة الذكاء مكانا عليا قاصر عن الاحاطة بمصالح الأمة وحينئذ يلزمها اذا ألقت اليه مقاليد مصالحها ان تمده من آرائها بما يقدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها فليس من الانصاف ان تلقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه ثم اذا رأت ما لا بد منه من التقصير وجهت اليه سهام اللوم بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقا لوجه الصواب ثم اذا وجدت منه تقصيرا فيما اختص به كان لها حينئذ ان تلوم وكما لا يصح ان تتخلى عنه في الاعمال البدنية العمومية مثل حمى البلاد ممن يريدها بسوء بل لا بد من مساعدته فيها وان لم تفعل فقد قصرت فيما وجب عليها كذلك لا يصح التخلي عنه في الاعمال الفكرية العمومية فان كونها فكرية لا يسلب عنها الجسامة المقتضية للتشارك فيها وهل من العدل ان تترك الامة حاكما بين أعمال مهمة مختلفة الأنواع متشابهة الالوان يصعب على أي مخلوق كان وحده أن يقوم باعبائها ثم اذا رأت منه تقصيرا بحسب ما يبدو لأول النظر بادرت الى تعنيفه ؟ لعمري لو فعلت ذلك انها اذن لمن الظالمين

وان لنا على صحة ماقدمنا من الادلة لدليلا فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله تعالى عنهم حيث قام بينهم خطيبا فقال (أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا الخ) اذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا الا التنبيه على الحق والارشاد الى الطريق المستقيم فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه وما يدل على وجوبه على المحكوم هو اجابة الصحابي بقوله (والله الخ) فانه لا يجوز استعمال القوة الا بعد الاعذار بالارشاد والهدى

ولقد رأى خديوينا الافخم حفظه الله مثل مارأى سيدنا عمر مما قضى بالتشاور وان بلاده قد كثرت بها خصوصا في هذه الايام مواد الاعمال واختلفت مواضيع المصالح وتنوعت أسباب المنافع اذ لا يخفى ان هذه البلاد قد امتازت عما سواها بكثرة الاعمال الداخلية المختلفة اختلافا كليا بحيث يناسب بعض البلاد منها مالا يناسب البعض الآخر فندب رعاياه الى التشاور حرصا منه على الاقتداء بالسلف الصالح كما هو شأنه حتى في الامور الجزئية الخاصة فضلا عن الامور

الكلية العامة وعلما منه بما وراء التشاور من الفوائد الجليلة والمنافع الجزيلة

وكأني بمن يقول ان لنا فيما كان عليه السلف من طريقة التشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية فأقول في جوابه ان هذه الطريقة الحالية قد صارت دون سواها ذات الوقع العظيم والتأثير القويّ في النفوس بما اتصفت به من كونها مناطا للعدل ومظهرا للاستقامة في سائر الممالك وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لاتترتب الا عليها أما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض لما أنها هي المستعملة في زمنهم على ان هذه الهيئات ليست الا وسائل غير مقصودة لذاتها فاذا انقطعت الرابطة بينها و بين الغايات كانت مهملة غير مقصودة وتحول القصد الى ماصار بينه و بين الغاية ارتباط ووفاق

وكتب في العدد ١٢٩٠ الصادر في ٦ صفر سنة ١٢٩٩ — ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١

الشورى والقانون

قد أسلفنا فيما سبق من أعداد الجريدة أن القوانين تختلف باختلاف أحوال الامم وبينا الاسباب الموجبة للاختلاف وضربنا لذلك أمثالا لتقريب المطالب من الاذهان وان ذلك صريح في أن القوانين متعددة وأصنافها متنوعة لتفاوتها بحسب الغرض المقصود منها أعني ضبط المصالح وفتح سبل المنافع وسد طرق المفاسد والآن نريد ان نبين أقربها للغرض وأبعدها عن مساقط الاهمال وأمنعها عن عبث الجهل والاغراض فنقول

ان القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا و بيانه ان الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لايكون له داعية سوى الصدفة أو أسباب أخرى قهرية لاتخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين وانقطع كل منهم في الاسباب التي توصله الى لوازم

المعيشة نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي وتولد من ذلك شدة الطمع والشره وجر الامر الى الحسد والبغض والبطر فأصبحوا وهم في مكان واحد متباعدي المقاصد أشتات القلوب لا يبالي أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ونسي رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك في الوطن وتناول أشدهم عضدا مقاليد الحكم عليهم وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الاعمال وتبين الحدود فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ولا قصدين متطابقين بل لا ترى الا نفوسا شاردة واغراضا متباينة تسوقهم عصا الظلم وتجمعهم دائرة الغرم فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم بحيث تكون محورا لدائرة أفكارهم وغاية تنتهي اليها حركاتهم في كافة أمورهم اذ مازل بهم من دواعي الاضطراب وأسباب تبلبل الالباب جعل لكل منهم شأنا خاصاً به فلا يفكر يوما ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط فكأنه أمة وحده مقطوع العلائق بغيره فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم واذا استمرت بهم هذه الحال زمنا طويلا فسدت طباعهم وتبدلت أخلاقهم الى ملكات رديئة تحملهم على البطالة والكسل وتكلهم الى الآمال العاطلة والاماني الكاذبة وتورثهم الخمول والذل والفتور فاذا توالت عليهم الحوادث وعلمتهم أسفار الاخبار طرفا من سير الامم تذكروا انه قد كان لهم من حقوق الاجتماع ما يسوقهم الى العيش الرغد ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناءة الاتضاع فهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي نطالبهم بها طبيعته فتمانعهم تلك الاخلاق التي نشأوا بها ممانعة تضعف منهم قوة العمل فكلما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهتهم للتقاعد عن الاخذ بالوسائل وطفقت نفوسهم تنفض عنها درن الملكات الفاسدة وتوفرت فيهم بواعث الاعمال المختلفة وأصبحت المقاصد متجهة الى غاية واحدة وهي المعاضدة على حفظ الهيئة الاجتماعية فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على "المنافع العامة" ولم يفقه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ويعلمها حق العلم بدون ان يتلقى درسها من معلم فان الحاجة هي الاستاذ الذي لا يضيع تعليمه

ولا يخيب ارشاده ومن هنا ينشأ بين الناس مايعبر عنه بالرأي العام وهو الاساس الذي بدونه لايمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الافكار المتشعبة وتنمحي فيها الاغراض المتعددة اذ ليست في الحقيقة أغراضاً ذاتية وان تلبست بصورها وانما هي طرق متخالفة تؤدي الى مقصد لايخرج عن الرأي العام وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد وكل عامل للامة مسخر لانتقاء أقرب الطرق الخالية عن أعباء الكلفة كما يشهده من وقف على مشارب القدماء والمتأخرين من السياسيين حيث يتفرقون احزابا و ينصبون حلبة الجدال في البحث عن الصالح العام

فاذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنور وأصبحوا جميعاً على رأى واحد في وجوب ضبط المصالح وتقييد الاعمال بحدود مقدسة تصان ولا تهان اندفعوا جميعا الى طلب هذه الحقوق الشريفة بدون ان يخشوا لومة ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانونا عادلا لائقا بحالهم منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم كافلا بمصالحهم يرجعون اليه في أمر المساواة والامن على العباد والبلاد ولا يعجبهم ان يكلوا وضعه لواحد منهم يتولاه بنفسه اذ الواحد لايتأتى له ان يشخص مصالح الجميع مع تباينها وهذا أمر ينبني عليه صحة القوانين وما يترتب عليها من الفوائد ولا يمكنهم أن يباشروا وضعه جميعا اذ فيهم من تمنعه موانع قوية عن ذلك فلم يبق الا ان ينتخبوا منهم نوابا بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ومن كل ذوي حرفة ليكونوا جميعاً على علم بأحوال موكليهم عموما وطبائع أمكنتهم فاذا أتموا هذا القانون على وجه كامل شامل بعد البحث الدقيق وان استغرق عملهم أمدا كان هو القانون المعول عليه علماً وعملا أما علما فلأن أحكامه كلها صارت معلومة لدى أفراد الناس جميعا لان من وضعها هم نوابهم ولايخفى أن نفس المنوب عنهم لا يغفلون طرفة عين عن كل أمر من أمورهم يشرع النواب في المداولة فيه ليقفوا على طريق الجدال في كل مبحث ويعلموا ماتم عليه الرأي فيه على أن صحف الاخبار التي لايخلو منها قطر من الاقطار تتكفل بنشر المفاوضات والاحكام في كل مسألة فتكون هي السفراء بين مجلس النواب و بين

الرعايا على اختلافهم ولا يضر عدم العلم لافراد منها كالسوقة الرعاع والعملة وان كثروا فانهم كالآلات الصماء الموقوفة على الاعمال البدنية ليس الا فتبين من ذلك أن العلم بأحكام القانون الذي يضعه جملة النواب لابد أن يتحقق بين الافراد فبعد اتمامه لايحتاج الامر الى المدارسة فيه الا لمن هو حديث عهد به وأما عملا فلان القانون عادل منطبق على المصالح ومثله حقيق بأن يرسم في صفحات القلوب خصوصا وأن واضعيه هم النواب والنائب لسان المنوب عنه فكان من وضع الامة بتمامها وتلك حجة عليهم بأنهم جميعا متعاهدون عليه سيما وأنهم هم الذين تقاسموا بالايمان على الاخذ بالاحسن من كل شيء نافع وأن قلوبهم طويت على المحافظة على الرأي العام وأنهم جميعا سائرون الى غاية واحدة فكيف بعد هذا كله يترك القانون حبرا على ورق بدون علم ولا عمل

فقد وضح مما ذكرناه أن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأي الامة العام أعني المؤسس على مبادئ الشورى وان الشورى لا تنجح الا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة كأن يكونوا جميعا طالبين تعزيز شأن مصالح بلادهم فيطلبونها من وجوهها وأبوابها فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه فلا يلتبس عليهم بالباطل ولا لوم عليهم اذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال فان الحصول على أقصى المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة كما قضت حكمة الله تعالى فى خلقه أن الشيء لا يبلغ حده فى الكمال الا بالتدريج بل اللوم كل اللوم ان يضرب الطالب صفحا عن مطلبه ويقصر فى السعي ويرضى بحالته فيقف عندها وقد هيأ الله له الاسباب ومهد له الوسائل اذ ذلك ضرب من الجهل المركب القبيح الذي يجعل صاحبه أدنى درجة من الحيوانات العجم

وان استعداد الناس لان ينهجوا المنهج الشوري غير متوقف على أن يكونوا متدربين فى البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله بل يكفي كونهم نصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق لمصالح البلاد وأحوال العباد ولا يتوهم أن القانون العادل المؤسس علي الحرية هو الذي

يكون منطبقاً على الاصول المدنية والقواعد السياسية في البلاد الاخرى انطباقاً تاماً فان البلاد تختلف باختلاف المواقع وتباين أحوال التجارة والزراعة وكذلك سكانها يختلفون في العوائد والاخلاق والمعتقدات الى غير ذلك فرب قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر بهؤلاء اذ على مؤسس القوانين أن يراعي أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم وطبيعة أراضيهم ومعتقداتهم وكافة عوائدهم ليتسنى له ان يحدد مصالحهم ويربط أعمالهم بحدود تجر اليهم جلائل الفوائد وتسد عليهم أبواب المفاسد وحينئذ لا يسوغ لارباب الشورى ان يجاروا غير بلادهم في سن القوانين بل عليهم ان يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الاهالي الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيء لهم حينئذ ان يرسموا مالا بد منه من الاحكام الملائمة فاذا أمعنوا النظر ودققوا في البحث وطلبوا الحق حيث كان وان من صغير وكان هذا المقصد السائق للجميع على البحث والتنقيب انفتحت لهم عيون المسائل وسهلت عليهم صعاب المطالب وحومت أفكارهم على ما كان يحسب أبعد خطور بالبال فتغلغل أفكارهم في ما وراء ذلك من الامور التي لا يكاد يكشف الحجاب عنها في مبدأ الأمر حتى يحصلوا على مباد أولية يتخذونها قواعد كلية لما يرد عليهم من الابحاث كأن يستعملوا قاعدة القياس والحكم على النظائر والاستدلال بالاصل والعادة والعرف وأمثال ذلك في محاوراتهم بعد ان صارت لديهم من المسلمات الاولية وقد كانت في بداية الامر من الغوامض التي يحتاجون في حلها الى نظر وبحث وهكذا يتدرجون من الوسائل الى المقاصد ثم ينساقون من المقاصد التي لديهم بديهية المبادي الى مقاصد أعلا وأسمى حتى يثبت قدمهم في الشورى كل الثبات

ومما تقدم سرده تعلم ان أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام وأخذوا ينتصلون من جرم الاهمال ويستيقظون من نومة الاغفال وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار حتى اشرأبت مطامعهم الى بث أفكارهم في ما يصلح الشأن ويلم الشعث ويجمع

المتفرق من الامور ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاضد فى الرأي فقد أزف الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا عن سن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على وجه ملائم يتبادلون فيه الافكار الحرة والآراء الصائبة فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ممن لهم دربة ودراية تامة بشؤون البلاد وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ماقضت به نواميس الحرية وانشرحت صدور الناس عامة بهذا الامر واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل سيما وقد عهدوا من الحضرة الخديوية ارتياحا تاماً لما يؤيد شأن البلاد ويعلي كلمة الوطن ولنا أمل لايخيب فى أهل البلاد وحضرات النواب فهم أجل من ان يعدلوا عن طريق النجاح أو يكون سعيهم الا فى حب الاصلاح وهذه هي خطوة نعدها ان شاء الله فى سبيل تقدمنا فاتحة الالطاف

وكتب فى العدد ١٤٠٠ الصادر في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٢٩٩ — ٤ مايو سنة ١٨٨٢

التمرن والاعتياد

حصول صورة الشيء في النفس علم وميلها الى طلبه أوتركه ارادة والتصميم على أحد الامرين عزم وليس بعده الا الطلب بالفعل أوالترك والترك لايحمل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تتكلف بها النفس تكليفاضروريا أوكماليا كان من الامور المباحة أوالمحظورة فاذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافاً

أما الطلب فهو أحد الامرين الذي يحمل النفس عنائين أحدها يتعلق بها من جهة قوتها الفكرية والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الامرين المتضايفين لايوجد أحدهما بدون الآخر

أما الاول فهو البحث في أصل الطلب واستقصاء مايعود منه على الطالب أوغيره من المنافع والتنقيب عن الوسائل التي توصل الى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة وتقدير الاعمال إزاء الفائدة لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل في الاعمال البشرية أو زائدة عنها على أصل التفاضل وذلك كله انما يكون بعد ان نعرف نسبة الطلب الى غيره من المطالب ليترجح عما سواه بخاصية من الخواص حتى لايلزم على الشروع فيه الترجيح بلامرجح هذا شرح حال العناء الاول وليس بعده الا الشروع في العناء الثاني عناء الاعمال البدنية

أما فوائد الاعمال فهي وان كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار اذ هي نتيجة أعمال متجددة وكل متجدد فنتائجه كذلك ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواماً غير مطلق والطالب لايستغني عن هذه الفوائد وقتاً من الاوقات وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته الى فوائده سواء كانت من الضروريات أوالكماليات فهو محتاج الى دوام الفوائد ودوامها يتوقف على دوام الاعمال وهو أمر موقوف على العامل وليس ادمانه العمل المطلوب في موضوعنا هذا أمرا من لوازم وجود ذاته فيحتاج الى صفة زائدة تقضي عليه ان يكون دائم العمل بقدر الحاجة وليس احتياجه كافيا لهذا الاقتضاء اذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والاهمال وما شاكلها على أن الحاجة متفاوتة فما كان منها فى الدرجة الاولى درجة الاضطرار البحت فهو بنفسه كاف لادمان العمل بخلاف ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق والصفة القاضية بالادمان أي المتممة لعلته هي التمرن والاعتياد

وبعبارة أوفق بالغرض: ان ما لاتدعو اليه الحاجة أصلا فى زمن من الازمان قد تدعو اليه في زمن آخر لا لسد الاضطرار البحت بل لما زاد عنه من الحاجات الثانوية كالكماليات والمحسنات وقد تدعو اليه بعد زمن طويل أو قصير لسد الاضطرار البحت فلا يجد الانسان عنه فرارا فيتكلفه مقهورا مقسورا يتصور المنفعة على بعد ولكنه غائب في دهشة آلام الاعمال التي لم يتكلفها يوما من الايام لولا حكم الصروف والحادثات التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور

في يدي الطفل فلايزال يحس بالالم و يدمن العمل حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً الى ان يزول الألم بالكلية ولا يجد الا عملا بدون ألم فاذا مضت برهة بعد الابتداء يحس من نفسه بعض الميل الى العمل فكأن الألم الاول استحال الى ضده (على حكم تلاقي الطرفين) و يجد منه باعثا طبيعياً اليه وهكذا يزداد الميل و يشتد العشق حتى لايميل به الكسل يوما ما الى اهمال العمل وهذا هو المقصود من التمرن والاعتياد

أما كون الشيء ربما يكون ضروريا في وقت دون وقت فالامر فيه وان كان على ما أظن لايحتاج الى البيان غير اني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظرين أقول

ان الانسان من حيث هو مفكر لايقف عند حد محدود فيما يتعلق بلوازم حياته وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو الحضارة أو الترف في المعيشة أوغير ذلك بل يكفيه مايسد الرمق من القوت و يقيه الحر أو البرد من اللباس ويكنه وقت الايواء من البيوت غير أنه لما تأنق في هذه الضروريات بعض التأنق ورأى أنها تقبل التحسين شيأ فشيأ أخذ على نفسه أن لايقر له قرار ولا يهدأ له جاش حتى يستخرج من دائرة الامكان كل ماتتأدى اليه فكرته فجد واجتهد واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها عند ما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه أنها لم تخلق الا له فتسلط عليها بصفتي التحليل والتركيب حتى فتح أبوابا للتجارة والزراعة والصناعة ووصل الى ما وصل اليه الآن وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالا على أثقال كلما وصل منه الى درجة ظنها آخر الدرجات وحسب نفسه فيها غريبا فيتخذ نتائج تقاليدها الغريبة زينة شأن كل أمر غريب نادر الوجود اذ كل نادر عزيز قال الشاعر

سبحان من خص القليل بعزه والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذي نفس لمحتاج الى أنفاسه

فاذا توطنت نفسه الى هذه الغرائب زمنا استزاد منها حتى يبلغ بها حد

الكثرة فيستعملها في لوازمه الضرورية في كافة أحواله ولا يخص بها وقتا دون وقت الى ان تصير من قبيل الأمور المتادة التي لايستغني عنها بحيث يعتبر كل ما كان أقدم منها وفي درجة قبلها من التقاليد ساقطاً عن درجة الاعتبار وغير جائز الاستعمال و يتوهم أن استعماله في الحالة التي وصل اليها يزري بمقامه المنيف و يحط بمقداره الشريف ولا يتذكر أنه هو هو الانسان أيام كان يقتات بسائط النبات و يستتر بأوراق الاشجار و يأوي الكهوف والأغوار فبان بما ذكر أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر

ومن وجه آخر نقول انا اذا سبرنا أخبار الأمم نعلم يقيناً ان الهيئة الاجتماعية البشرية ماوصلت الى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات دفعة بل لابد كما يشهد العيان ان تسبق أمة من الأمم الى غاية في المدنية فاذا نظرت الى جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها والانسان (قتل الانسان ما أكفره) بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره فتفاخرها بما يدهش العقول و يبهر النواظر من صناعاتها الغريبة وأوضاعها الجميلة فترمقها تلك بعين الذاهل المندهش وتتوهم أن ضعفها واقعي فتنقبض نوعا من الانقباض فاذا توسمت فيها هذه الانكماش والذعر (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها من ضروب الحيل والدهاء و بما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد فتقف تلك وقفة الحائر المتفكر الى أن يرشدها التأمل الى أن هذه ما وصلت الى ماوصلت الا بالعلم والعمل المتوقفين على الكد والاجتهاد فتندفع وراء الجد بحكم الاضطرار حتى تصل الى ماوصلت اليه أوتكاد غير ان تلك أيضا بعد ان تذوق لذة التقدم وتنسيها سكرة التيه طعم الذل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة جارتها الأولى تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ما كانت تعامل به في مبدأ الأمر حتى تضطرها كذلك الى ان تركب متن الاجتهاد في السير وراء من تقدمها وهكذا كلما دخلت أمة من باب كلفت به من يجاورها من الامم حتى تنتظم الامم جميعا في سلك واحد في هذا الباب ولكن حيث ان حب التسابق طبيعية في الناس فلا تراهم يقفون لدى نقطة بل متى وصلوا الى حد ما من حدود التقدم

فلا يمضي زمن طويل حتى يقال ان أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة وفتحت بابا من أبواب التقدم عاد عليها بالنماء في الاموال والانفس والثمرات و بأن مجاورها يخشون بأسها و يرقبون حركاتها فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ولا تسكن خواطر بقية الامم والممالك حتى يتساقوا الى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون فبان ان الامم قد يحتاجون في زمن مالا يحتاجونه في آخر فصدق القول أن الشيء قد يكون ضروريا وقد لا يكون

وما ذكرناه من التلقبات والتنقلات يحكي حال الجمعية الانسانية من يوم ان تفرقت شعوبا وقبائل يتخالفون في العوائد والاخلاق فيتنافسون و يتحاسدون على النقير والقطمير و يغلب عليهم حب الذات والميل الى الخصوصيات فيدعون أنهم أجناس شتى ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحناء و يعذبون بعوامل البغضاء فتارة ترمي بهم الاطماع في مخاليب التكلف ومشاق التنقل من حال الى حال فيضطربون لهذا الأمر اضطرابا و ينقبضون منه انقباضا وآونة يلقي بهم الجهد الجهيد بعد أن يروا من الصعوبات ألوانا في بوادي الراحة عند مايصلون الى نقطة التمرن والاعتياد ولكنها نقطة غير ثابتة كما أن درجات تقدمهم غير متناهية فلا يزالون يترددون من التعب الى الراحة حتى يرجعوا الى المجرى الطبيعي فيلتئمون بعد التفرق و يرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت

و ياليت شعري ماهو النازل الذي حل بالانسان فغير معالمه الطبيعية و بدل أخلاقه السلمية وحل رابطته النوعية والا فعهدنا به ان لم نقل انه من أم وأب تسلسلا جدليا فهو من نوع واحد يشف مرآه عن الوحدة التامة الناطقة بأن الانسان من جرثومة واحدة نشأ عنها عائلة واحدة حواها بسيط واحد ر بطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة ولقد رمزت تعاليمه الحاضرة — التي منها وهو أكبرها تعميم المواصلات وتأكيد الروابط بين الممالك وحركة الاجتماع والتألف — الى هذا السر المكنون و بشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين حفظا لحقوق الانسان وصونا لذمة الشرف بان الحركة العمومية موجهة الى النقطة الاولى

وكلما قربت الى المركز زادت سرعتها شان كل حركة طبيعية ولقد أثرت هذه الحال تأثيرا خفيا في الجم الغفير من عقلاء الناس فمالوا الى خدمة الانسانية من غير ان يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب فاذا رجع الانسان الى مركزه الطبيعي لا ترى الجمعية البشرية بعد إلا كساكني منزل واحد يرتفقون بمنافعه على السواء و يجدون من بركات الارض ما يكفيهم مؤنة التعب و يكفهم عن الشقاق والعناد اذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص على حكم تبادل الاعمال واذا نزل بقبيل نازل توجه الكل الى انقاذه مما ألمّ به وساروا جميعا على وفق القانون الطبيعي المودع في فطرة الانسان يهديه اليه من علم الطير النياحة ومرنه على السباحة ثم لا ترى فيهم اذ ذاك ما يحتاج معه الانسان الى كلفة وعناء بل لا ترى الا أعمالا جارية على منهج السهولة منهج التمرن والاعتياد

وكتب في العدد ١٤٥٨ الصادر في ١٢ القعدة سنة ١٢٩٩ — ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢

جملة سياسية

ان صوالح الافراد وان تكن مما لا أهمية لها بالنسبة الى الصوالح العمومية فالافراد هم الذين يقومون بها ويرجونها فالناس بالملوك والجيوش بالقواد وكما أن الخراب قد يطرأ على بلد أو أمة بسوء ادارة أفراد أو بعدوانهم وسطوتهم فكذلك يتم العمران بافراد يحسنون الادارة و يصلحون الفساد و يصح ذلك في البلدان التي لم تبلغ فيها الشورى الدرجة الكمالية أكثر مما يصح في البلدان التي تقيدت فيها القوة الاجرائية بسلاسل الرأي العام وآراء أهل المشورة واذا تأملنا في أعمال أحمد عرابي في مصر نرى أنه أوقف دولاب تجارة ذات أهميـة ودمر عمرانا متسع الدائرة وحجب الوفا عن أعمالهم في أهم أوقاتها و بدر من الذهب خزائن وجلب العار على وطن عزيز قد اتصف أهله باللطف والانقياد بأعمال نسبتها أوروبا الى البربرية مع أن الذين قاموا بها هم قليلون من جهلاء القوم الذين سمعوا كلمته وأنفذوا

أوامره وجلب على نفسه لوم كل الذين ينطقون بالضاد لانه هو وأعوانه سودوا وجه تاريخهم باعمال بينها وبين روح المصريون عظيم بعد أن أفرغت حكوماتهم وعلماؤهم ورؤساؤهم الجهد في سبيل اظهار اكتسابهم روح المدنية العصري لا كتساب المنزلة السياسية واعتبار الرأي العام ولو كان ذلك ترويجاً لصالح جلي أومقروناً بأمل نوال غاية ممدوحة أوحرية مفقودة أوحقوقاً مهضوماً منها لماصعب علينا إدراك غايته وفهم مقاصده على اننا بالنظر الى ما نعهده في سياسة أوروبا في الشرق خاصة في مصر وما هو معلوم من قوتها التي اذا ضعف قسم منها تعززه بقسم آخر لانقدر أن ننسب الاعمال العرابية الا الى طمع أعمى الابصار عن صالح الوطن وداس المصلحة العامة ترويجا للمصلحة الخصوصية وعلق رئيس الفتنة وأعوانه أملهم بان يستبدوا في القطر ويقبضوا على أزمة الامور ويرتقوا سلم المجد والعز ويحرزوا الملايين وفي بادي٠ أمرهم خدعوا بكلامهم وادعاآتهم محبي القطر المصري حتى توهموا أن في مطالبهم خيرا وفي مقاصدهم تعزيز الوطن على أنهم منذ وجهوا خواطرهم الى تقوية العنصر العسكري وتبذير الاموال في سبيل استجلاب رضائه وابعاده عن الحكومة القانونية انكشف الستار عن مقاصدهم الشخصية وابتعدت عنهم قلوب الذين يهمهم شأن بلادهم وراحة أبناء وطنهم ويحسبون حسابا لدوس المعاهدات الدولية والحقوق العادية التي لاتتجرأ على ان تمسها أعظم الدول على أن العسكرية في يدها القوة المجموعة فانقادت بجهلها لما تقتضيه الادارة والسياسة الى قوادهم انقيادا قد جعل وطنهم ينحط من ذروة التقدم والراحة والرفاهية الى وهدة حالة الفوضى وجرت حملة أجنبية طالما حذرناهم منها مبينين لهم أن تصرفهم لابد من أن يجلبها ويهضم من الحقوق التي لاتزال محفوظة للوطن وبسطنا لديهم بأجلى بيان الوسائل التي تمكنهم من نوال ما يرومون بالتدريج وما هي الا استمرار الانتظام المالي والاداري فالذين عاثوا وأفسدوا وخربوا وهدموا وبذروا وألقوا الناس في تهلكة أفراد حادوا عن السبيل المستقيم وانقادوا الى دواعي المطامع الشخصية وخانوا وطنهم وأمتهم وروجوا ماادعوا أنهم راغبون في دفعه عنهم فكما أن حلول تلك البلايا تم بأولئك الافراد لابد من ان يتم اصلاح الشؤن ورجوع

﴿تنبيه﴾ هذه الجملة السياسية ليست من مقالات الفقيد وقد كان طبع ماتقدم منها خطأ

وكتب في العدد ١٠١٧ الصادر في ١٩ صفر سنة ٢٩٨ و ٢٠ يناير سنة ٨٨١

التمدن

ماوصلت اليه أمة الا وحط عن كاهلها جميع الاتعاب والبلايا، والاضطهادات والرزايا ولا رقي اليه شعب الا وأمن غائلة الاعنات والاعتساف، وتحصنت أعماله من جائحة السلب والاعتداء، فصاحبه هو الساكن في منازل الرغد والهناء، واللابس حلة الاسعاد، نقول ولا مغالاة في الحق انه هو الضامن لتوطيد أركان العمران والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع، كيف لا وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكمالات من غير فرق بين أن يكون أدبيا، أو ماديا حسيا أو معنويا، فالتفنن في الصنائع فصل من فصوله، والتسابق في ميادين العلوم باب من أبوابه، والتجافي عن مواضع النقيصة جزء منه، والتجمل بالاخلاق الفاضلة نبذ من جواهره فاذا لابدع اذا قلنا ان صاحبه هو السعيد، والواطيء بنعله غرف النعيم، جد في طلبه من أدرك نتيجته من الامم فجنى ثمره اليانع، تراه يتقلب على بساط العز، ويتدرج في معارج الاجلال والجمال، عمرت دياره بعد أن كانت قاعا صفصفا بالابنية العالية وتزينت بالاسواق الفسيحة، والصنائع العديدة، وصارت محط رحال السياسة ومطمح أنظار النبلاء ضاق بسيطها عن القيام بنفقاته الواسعات فطار على جناح العلم يستطلع بقاعا ربتها الجهالة، وثلمتها يد البغي، ليكون فيها هو الوارث بعد بنيها، يستخرج منها الكنوز بحكمته، ويفجر منها الينابيع بقدرته، ليجني وأهلها الفارسون، ويقضي وهم المطيعون، تسمع أهل تلك الديار، صدى صوته في العشي والابكار، والغدو والآصال، ولكن يغالطون الحس ويكابرون بانكار البداهة ويسلون أنفسهم بأن هذا الاجنبي لاسطوة له ولا حكم وانما هو غريب دعته الحاجة للتجول في البلاد لطلب الرزق ثم تحدثهم خواطرهم بأننا أرفع شأنا من أولئك الغرباء وأسبق منهم يدا في المدنية ولئن تأخرنا عنهم حينا من الزمن

لكنا لحقنا بهم في انتظام الهيئة وحسن السلوك وهذه قصورنا المشيدة وثيابنا الملونة وقدودنا المجملة وأطعمتنا المتنوعة تشهد بأننا قوم غمسنا في الترف وحظينا بالثروة ونهجنا الصراط المستقيم

يحسبون تلك الاوهام حقائق تجعلهم من ذوي النعمة واليسار، والعزة والكمال اعتمادا على كونها سنة الامم المترية، والشعوب المتنورة، وأيم الله انها بالنسبة الى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع ومجلبة الشر، وان هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق يتوهم الغافل من بريقها ولمعانها أنها تأتي بوابل ينعش البقل ويحيي الموات ولكن اذا حل الاجل أمطرت مايذهب بالحياة ويبدد الاجسام وذلك لان الامم المتمدنة وان أنفقت الاموال الكثيرة في تشييد القصور وتزيين الملابس وتحسين الاثاث الى غير ذلك من المصارف فانما يكون على نسبة مخصوصة من ايراداتهم الحائزين لها بالكد والتعب في ابراز المصنوعات الجميلة والمخترعات الجمة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسعة وقدرا رفيعاً ولا يجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها ومع ذلك فنفقاتهم هذه لاتتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم فكلها موسسة على قاعدة جلب المصلحة ورفع الحاجة. تدخل منزل الرجل منهم فترى غرفه ومخادعه مشغولات بامتعته وبضائعه ونقوده وليس فيها قدر شبر عمر لغير حاجة حتى حديقته ولا يشتري ثوبا له أولزوجته وأولاده الا بقدر العوز وحلي آل بيته ثلاثة أرباعه من النحاس مهما كثرت ثروته وليس في اصطبله سوى عربة أوحمار للركوب لايجمع بينهما . الا نادرا . فرشه وغطاؤه لايخرج عن نوعي القطن والصوف كثيابه

أما أهل تلك الديار الذين يزعمون أنهم قوم متمدنون (وهم في ذلك مخطئون) فقد ركبوا الشطط وحملوا أنفسهم مالا يطيقون من النفقات الباهظة يصرف الواحد منهم آلافا من النقود في سبيل تعمير أرض فسيحة وربما كفاه مالا يبلغ العشر من مساحتها ويفرشها من أعلى أنواع الفرش ويزينها بأبهج أصناف الزينة فتبقى غرف المنزل بلا ساكن يعلو التراب على مافيها من

الاثاثات والفرش المغشاة بالفضة والذهب حتى يبيدها ور بما لايستعملها مرة في العام يتختم في أصبعه بما تجاوز قيمته عقد الالوف من الفرنكات ولدى زوجته من الالماس والجواهر مايكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد لواستعمل ثمنه في شيء يتجر به (اذا كان ممن يفقهون) الى غيرذلك من المصارف التي يضيق بنا المقام عن تفصيلها وما حمله عليها سوى الطيش والانهماك في الشهوات والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون فان رجعنا الى سيرهم في طرق جلب المنافع وتخفيف اتعاب المعيشة وتحسين وسائل الاكتساب رأيناهم واقفين على نقطة واحدة من آلاف من السنين فايراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الاخضر المفروشة بقصب (الحلفاء) المفروشة بقضبان شجر (الجميز) وجذوع النخل مكتفين من الثياب بما يستر البشرة ومن الطعام بما يذهب النهمة فمزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الايام لم تتغير أشكالها ولم تتبدل أصنافها نعم قد زادت حاصلاتها نظراً للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري ولكن هذا النمو لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي يلم بتجارة أبناء البلاد فقد كان يوجد قبل ورود الغريب اليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع اصناف المزروعات وغيرها من الاقمشة والمأكولات ويربحون من ذلك أجراً عظيما أما بعد ذلك فلا ترى بينهم الا يتضورون جوعاً ويئنون تحت أحمال المشقات لبوار التجارة وكسادها واختصاصها بيد النزيل ويتبع ذلك سقوط صنعة النجارة والحدادة والحياكة وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الامم المتمدنين وربما ينتهي بهم الامر لو استمروا على الجهالة والسفه الى خلو أيديهم من الزراعة ايضاً لوجود من يحسنها سواهم ولا عجب بعد هذا اذا رأينا هؤلاء السفهة واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال يئنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع ما في حوزتهم من الاملاك وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء في قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد فيلاقون منه شمالا تقدر على تحمله النفوس ولا تستطيعه الطباع وربما كان الدائن من سفلة قومه والمدين من اعيان بلاده ولا تغني عنه يومئذ قصوره العالية

ولا ثيابه المزركشة ولا أثاثاته الخزية والحريرية وهذا فضلاً عما يعتريه من البلبال وكثرة الوسائل والافكار. يبيت ليله ينقلب على الفراش ولا تقلبه على جمر الغضا يقدر محصولات زراعته قبل بذرها وينسبها لمقدار المطلوب في إبان الحصاد فاذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان ذاهلا عما عساه يحدث من الغرق او الشرق او الاندية المتساقطة من الجو حتى اذا حل الاجل ولم يجد لدينه ما يفي بالمطلوب لأصابة الزرع باحد الاسباب التي ذكرناها ضرب كفا على كف واسود وجهه وساءت حالته وتسول الناس ليكفلوه عند عميله اذا لم يف ما عنده بالرهن فلا يجد مجيباً ولا نصيرا. لعمر الحق ان المفترش للحصى المتوسد لحجر الصخر المستكن في منازل الحيوانات المتكفف في معيشته خير من هؤلاء الناس الذين لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال (ومما يسوءنا أن نراهم أكثر من الكثير في بلادنا) أهذا ما حسبوه تمدناً وزعموه نعيما مقيما بل انه هو الشقاء الابدي الجالب للفقر المدقع والعذاب الأليم

هذه مشار بهم في الاحوال المعاشية تحزن المحب وتفرح قلب الرقيب ولعلمنا بان تلك الحالة لا يرضاها الشرع ولا القانون لم نقصر في النصح فيما مضى ولم نقصر في البيان الآن وسنأتي بعد على هذا الموضوع كما أتينا عليه سابقاً مبينين علة الميل الى الانهماك في السرف الذي نعده تمدناً ونتبعه ان شاء الله بشرح بعض ما ألفناه من العادات المستهجنة في الافراح والمياتم والموالد والضيافات وبيان ما نتحادث به في منتدياتنا مما هو عقبات في طريق تقدمنا ونمو ثروتنا مفردين في البيان كل موضوع على حدته انذارا من سوء عاقبته لعلنا نعتاض بما هو خير منه فنستبشر بانتهاجنا صراطاً قويماً وطريقاً مستقيماً وما ذلك على الله بعزيز

(يقول جامع الكتاب) قد كان ينبغي أن توضع هذه المقالة بين مقالة (ما أكثر القول وما أقل العمل) ومقالة (منتدياتنا العمومية وأحاديثها) وهذا ما علمناه من مقالات الاستاذ في جريدة الوقائع المصرية الرسمية . وله ما فيها كتابة أخرى في ضروب من الاصلاح كان يكتبها بمناسبة الاخبار والحوادث تجد الكلام عليها في الجزء الاول من هذا الكتاب

٤

مقالات العروة الوثقى

الاصلاحية

أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) فالآراء والافكار فيها كانت مشتركة بين هذين الحكيمين والمحرر لجميع مقالاتها هو الثاني وقد كتب في فاتحة العدد الاول منها ما نصه

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير . هذا ما تعده العناية الآلهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، في نجاح العمل ،

خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الانفس ثم التوت ، أوغل الاقوياء من الامم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية .

ذهب أقوام الى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه أن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت سوادفي أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الازمان امحاء امة أوملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة وان بلغت القوة اقصى ما يمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم

علم تاريخه الى اليوم أن الامم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة ، او غفلة عن عاقبة لا تحمد، أو ركون الى راحة لا تدوم ، او افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ازعجتها ونبهتها بعض التنبه فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ولم تجد بدا من طلب النجاة من اي سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتئام أفرادها، والتحام آحادها ، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ترشدها الي ان لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها .

ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها واستأسد ذئبها وتنمر ثعلبها والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشادا .

ربما تخطىء مرة فتكون عليها الدائرة لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التي تبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها لا يكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذلك القيم واهلاك ذلك المدبر فان العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة نعم يمكن تخفيف الأثر او ازالته بازالة علته ورفع اسبابه .

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعادات والمشارب وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها فكيف بها اذا حملها ما لا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره، وان كانت تستكبره، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبا تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس

والمذهب وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق اشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة . أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام . كل يطلب خلاصاً و يبتغي نجاة و ينتحل لذلك من الوسائل والاسباب مايصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن وأن العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمي عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في ابنائه بل ما يجري به القضاء الالهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون الخ ،

الجنسية والديانة الاسلامية

﴿ من العدد الثاني الذي صدر في ٢٢ جمادى الثانيه سنه ١٣٠١ ﴾

ان استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الاغلب منهم وان المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه و يغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية الا أنه يبعد ظنهم مانراه فى حال طفل ولد في أمة من الأمم ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربي فيها الى ان عقل ولم يذكر له مولده فانا لانرى في طبعه ميلا اليه بل يكون خالي الذهن من قبله و يكون مع سائر الاقطار سواء بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه والطبيعي لايتغير . ولهذا لانذهب الى أنه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات فان الانسان في أي أرض له حاجات جمة وفي أفراده ميل الى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار يطبعها على العدوان

فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالا الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا الى الأجناس فتوزعوا أمماً كالهندي والانجليزي والرومي والتركاني ونحوذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرا على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علما بأنه لا بد أن يكون جائرا اذا حكم ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلا تحس به النفس وينفعل له القلب فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها فى الحدوث بلا ريب. وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدر وتخضع لسلطته النفوس بالطبع وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام وهو مبدأ الكل وقهار السموات والارض ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين فاذا أذعنت الانفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة واستغنت عن عصبية الجنس لعدم لحاجة إليها فمحي أثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير

هذا هو السر في إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبيتهم الاسلامية فان المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه و يلتفت عن الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد و بيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعاً لها ولن

ينالها بوراثة ولا امتياز فى جنس أو قبيلة أو قوة بدنية أو ثروة مالية وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الامة . فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية التي لا تميز بين جنس وجنس واجتماع آراء الأمة وليس للوازع أدنى امتياز عنهم الا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل فخار تكسبه الانساب وكل امتياز تفيده الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والاموال والاعراض بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم والمتعصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية» والاحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى (اتباع الشريعة) « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الأجيال من لا شرف في جنسه ولا امتياز له فى قبيلة ولا ورث الملك عن آبائه ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه وما رفعه الى منصة الحكم الا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه

وان بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها اليهم على حسب امتثالهم للاحكام الالهية واهتدائهم بهديها وتجردهم من الاعتلاء الشخصي وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد رجعت الأجناس الى تعصبها ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدّون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسى يقبل سيادة العربي والهندي يذعن لرياسة الافغاني ولا اشمئزاز عند احد منهم ولا انقباض . وان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الى

قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها . نعم اذا نبا في سيره عنها وجار في حكمه عما نصت عليه وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب وانحرفت عن محبته الانفس وأصبح وان كان وطنياً فيهم أشنع حالا من الاجنبي عنهم

ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ولو أن حاكما صغيرا بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية وثابر على رعايتها وأخذ الدهماء بحدودها وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها وتجافي عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة فى السلطان وان ينال الغاية من رفعة الشان في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ولا يحتاج الى بذل النفقات ولا تكثير الجيوش ولا مظاهرة الدول العظيمة ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . . ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة . أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الاديان الى الآخرة فقط ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم وما يكسبهم السعادة فى الدنيا والتنعم في الآخرة وهو المعبر عنه فى الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين وجاء بالمساواة فى أحكامه بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية فيلجأون للدخول تحت سلطة أجنبية على أن الندم يأخذ بارواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالالم رجع واسترجع . وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم

عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الاقدمين فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الا وقد آتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين وفقنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها

نشرت في العدد الثالث من العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هي بحيث كل واحد منها كون بديع النظام قوي الاركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل نمت فيها افنان العزة بعد ماثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا سعادة الا في انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل

وبعد هذا كله وهي بناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الاهواء وانشقت العصا وتبدد ما كان مجتمعاً وانحل ما كان منعقدا وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو في غيبة عن ان ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدي المتحمين معه بلحمة الامة وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده والى

توفير خيرهم من تنمية رزقه وكانه بهـذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحوا وذبول يظنه المغرور زهوا وأخذ القنوط بآمال اولئك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة البهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر للحق في خيال احدهم او استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفا او يعيد لها مجدا عده هوسا وهذيانا اصيب به من ضعف في المزاج او خلل في البنية اوحسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال واورده موارد الهلكة او لصار من اقرب الاسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعي ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما اتى اسلافه من قبله وتجمد قريحته عن فهم ماقام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لاعقابهم ويبلغ هذا المرض من الامة حدا يشرف بها على الهلاك ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيرا من الامم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وأسفا ما أصعب الداء وما اعز الدواء وما اقل العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق الا لأن كلا عكف على شأنه ... استغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن اخيه وهو أشد اعضائه اتصالا به ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه نعم ربما التفت كل الى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدري من أي وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها . كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت الا بعد ماسكنت زمانا غير قصير الى ماليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد ان الفوز في سلوك سواه خصوصا بعد مااستدبر المقصد وفي كل خطوة يظن انه على مقربة من الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه المبتهج بأحلامه وفي اذنه وقر في ملامسه خدر؟ هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقه من أمة عظيمة

تتباعد انحاؤها وتتناءى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل وران غين وخيل للعقول ان كل قريب بعيد وكل سهل وعر؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير. هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه؟ ان كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل ان يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ والا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لا تظهر الا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

كلا انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليها وان كان المتشبهون بهم كثيرين. وكما ان المتطبب القاصر في الامراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة بل ربما يفضي بالمريض الى الموت كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الاولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فان أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء. فمن له حظ من الكمال الانساني ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي لا يجرأ على القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علما أو عملا. نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاب العيش في ظل وظائف ليسو من حقوقها في شيء.

ظن أقوام في هـذه الازمان ان أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد وأنهـا تكفل انهاض الهمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق . كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون الا انجاح الامم مع التنزه عن الاغراض فبعد ماعم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون لا تجد لها قارئا ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم والفاهم قد يحمل مايجده على غير مايراد منه لضيق في التصور أو ميـل مع الهوى فلا يكون منه الا سوء التأثير فيشبه غذاء لايلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافا . على ان الهمة اذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمـها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع مافيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث ان هـذا وحقك لعزيز.

و يظن أقوام آخرون ان الامة المنبثة في أقطار واسعة من الارض مع تفرق أهوائها واخـلادها الى مادون رتبتها بدرجات لاتحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسـها ولا مشربها بل لمن كان خاضعا لسيادتها راضخا لاحكامها مع هذا كله يتم شفاها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوربا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة . وما أبعد مايظنون فان هـذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوي قاهر يحمل الامة على ماتكره ازمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضوع كلامنا في الضعف ودواته فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تغني ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين . فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات واقتصار على الامكان لولا مايـكون من طمع الاقوياء حتى لايدعون لهم سبيلا لان يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر . . على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الامـة مدة من الزمان

تكفي لبث تلك العلوم في بعض الافراد والاستزادة منها شيأ فشيأ فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وان مايصيبه البعض منها يبوئه للكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء امته . واعجبا كيف يكون هذا وان الامة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت وبأي ماء سقيت وبأي تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهرا من القول لانبأ عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الافراد بها وسوقها الى اذهانهم المشحونة بغيرها يقوم من أفكارهم ويعدل من اخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد في افادة اخوانهم . لعل الاقرب ان ناقلي تلك العلوم وهم من امة هذا شأنها مع ماينعكس اليهم من الاوهام المألوفة فيها وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الامة التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الا فسادا .

ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ماتعطيه حالهم يؤدون ماتعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه يظنونه على مابلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح فيرومون من الصغير مالا يرام الا من الكبير وبالعكس غير ناظرين الا الى صور ماتعلموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان محمد أو يزيدها على مابها أضعافا وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحملة . فهؤلاء الصادقون الا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه فيسرع اليه المرض وينتهي به الى التلف فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع ويبددون أخرياب الالتئام ان كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط

فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا الا خيرا ان كانوا مخلصين ويوسعون بذلك الخصاص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود أبوابا ويباعدون ما بين الصفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان الصالحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير .

شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم مايحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل مايسمونه تمدناً وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم ازمان غير قصيرة . هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد . هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم . هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور هل نالوا بها من المنعة مايدفع عنهم غارة الأعداء عليهم . هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم . هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا وان بادت في سبيلها خلفها وراث على شاكلتها كما كان في كثير من الامم

نعم ربما يوجد بينهم افراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئآت المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهاة فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم ان يقوموا بكل ماتستدعيه تلك العلوم

الجديدة والكماليات الجديدة لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا الا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها ...

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين اطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤماً على أبناء أمتهم يذلونهم ويحقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وان جلت وان بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم أو نزوع الى معالي الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحي أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير اولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطانهم ذلك أنهم لايعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون ان قوة تغالب قواهم .

أقول ولا أخشى لوما لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ماتغلب على بعض أراضيها الانكليز لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم ولهذا لو طرق الاجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم .

فما الحيلة وما الوسيلة والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أي جهوري من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الافكار الخامدة ؟ أي نفخة تبعث هذه

الأرواح في أجسادها ، وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها ؟ الاقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي ، الرؤوس مطرقة الى ماتحت القدم أو منغضة الى مافوق السماء . ليس للابصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال ولا للأسماع إصغاء ولا للنفوس رغبات وللاهواء تحكم وللوساوس سلطان .... ما ذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والاخطار محدقة بهم ؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنايا على أبوابهم ؟

لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكني أستلفت نظرك الى سبب يجمع الاسباب ووسيلة تحيط بالوسائل . أرسل طرفك الى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة وضعفت بعد القوة واسترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض همم آحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها انما هو دين قويم الأصول محكم القواعد شامل لانواع الحكم باعث على الألفة داع الى المحبة مزك للنفوس مطهر للقلوب من أدران الخسائس منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل مايحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه الى جميع فروع المدنية . فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها انما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً وحدوث بدع ليست منها في شيء اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله وما أعدته الحكمة الإلهية له حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الامة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحياناً بين جوانحها .... فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران

الغيرة وجمع الكلمة و بيع الارواح لشرف الامة ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة الا الى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الارواح لأقرب وقت فاذا قاموا لشؤنهم ووضعوا اقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني .... ومن طلب اصلاح أمة شأنها ماذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الامة الا نحساً ولا يكسبها الا تعساً.

هل تعجب أيها القارئ من قولي ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد و ائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الى أقصى غاية في المدنية ؟ ان عجبت فان عجبي من عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدنايا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف و بعد ان كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة أقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وارسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها ....

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على الأمصار وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنايا و بعد الغايات وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم وقومت أفكارهم وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها ثم بعد مامضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا

مستقلا في عدد آخر ان شاء الله وهو الموفق للصواب

النصرانية والاسلام واهلهما

مقابلة بينهما في طلب العزة والسيادة من العدد الرابع نشرت بالعنوان الآتي

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

خلق الله الانسان عالما صناعياً ويسر له سبيل العمل لنفسه وهداه للابداع والاختراع وقدر له الرزق من صنع يديه بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة وخشونة ورفاهة وتبدٍ وحضارة صنيعة أعماله - أقواته من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية وسرابيله ومايقيه الحر أو البرد والوجي من عمل يديه نسجا أو خصفا واكنانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره وجميع مايتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه انما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسطا أكفه للطبيعة ليستخدمها نفسا من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم وهو فى صنعه وإبداعه محتاج الى استاذ يثقفه وهاد برشده فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر على ان يعمل فصنعته ايضا من صنعه فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد من آثارها حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه

دعه في هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى أحواله النفسية من الادراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضا عالما صناعياً شجاعته وجبنه، جزعه وصبره، كرمه وبخله، شهامته ونذالته، قسوته ولينه، عفته وشرهه، وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى وما يودع فى نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم، مرامي أفكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه الى الأسرار الالهية أو ركونه الى

البحث في الخواص الطبيعية وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عند بادي الرأي فيه وكل مايرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات والاقوام والعشائر والمخالطون أما هواء المولد والمربي ونوع المزاج وشكل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر لها في الاعراض النفسية، والصفات الروحانية، الا مايكون في الاستعداد والقابلية، على ضعف في ذلك الاثرفان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع. نعم ان أفكارا تتجدد، ومعقولات من اخرى تتولد، وصفات تسمو، وهمما تعلو، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين و يظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ولكن الحق فيه أن ثمرة ماغرس ونتيجة ماكسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا ان الاعمال البدنية، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية، وان الروح هي السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير لأنه مما لا يعزب عن الاذهان انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن منكرا يجحدها،

ان الدين وضع الٓهي ومعلمه والداعي اليه البشر تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الامم أول مايمتزج بالقلوب و يرسخ في الافئدة وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات وتتمرن الابدان على ماينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها الى ماتدبر به بدنها وكانما الانسان في نشأته لوح صقيل واول مايخط فيه رسم الدين ثم ينبعث الى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال

و بعد هذا الموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية وهو بحث

طويل الذيل وانما نأتي به على اجمال ينبئك عن تفصيل. ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية ومن وصايا الانجيل: من ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر: ومن أخباره ان الملوك انما ولايتهم على الاجساد وهي فانية والولاية الحقيقية الباقية على الارواح وهي لله وحده. فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ماقلنا من ان الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار مع ملاحظة ان لكل خيال أثرا فى الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين فى عقائدهم اليه فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ويسارعون الى افتتاح الممالك والتغلب على الاقطار الشاسعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة ويستعملها بعضهم في بعض ويصولون بها على غيرهم ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ويصرفون عقولهم فى احكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لايكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لاريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد ان يكونوا أول ملة حربية فى العالم وان يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها ومن تأمل في آية «وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة» أيقن ان من صبغ

بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ومن لاحظ ان الشرع الاسلامي حرم المراهنة الا في السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون في طلب لوازمها وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع الآلات حتى فاقتهم الامم سواهم فيما كان أول واجب عليهم واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرها بأيدي أبناء الديانة الأولى قبل الثانية وكيف وجدت بندقية مرتين في ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب

لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسياً ، لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من اجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين أو ألقي شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم عند ما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح أو وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال أو انفلتت الافكار من سلطة الدين أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات .

أينسب هـذا الى اختلاف الاجناس وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحـدة وينقاربون في الانساب الدانية ؟ أينسب هـذا الى اختلاف الاقطار وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ويتجاورون في مواقع الامكنة ؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الالباب؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها . كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية اشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها . ذكر ملكام سرجم (انكليزي) في تاريخ فارس ان محموداً الغزنوي كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انجزامهم بين يديه سنة (٤٠٠) من الهجرة وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها . فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها الى مالم يكن في قواعد دينها وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم . مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن ان لابد لهـذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولـكن نجمل على ماشرطنا :

ان الدين المسيحي انما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الاوربية من ابناء الرومانيين وهم على عقائد وآداب وملـكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة وعلومهم وشرائعهم الاولى وجاء الدين المسيحي اليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ماورثوه عن اسلافهم ومع هـذا فان صحف الانجيل الداعية للسلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الـكافة من الناس بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليها دعوة الدين التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينيـة وجرت منها مجرى الاصول ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحيين فى أوربا وافترقوا شيعاً وذهبوا مـذاهب تنازع الدين فى سلطته وعادا وميض ماأودعه أجـدادهم في جراثيم وجودهم

ضراماً وتوسعوا في فنون كثيرة وانفسح لهم مجال الفكر فيها وكانت براعتهم في الفن العسكري واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون

أما المسلمون فبعد ان نالوا في نشأة دينهم ما نالوا وأخذوا من كل كمال حربي حظا وضربوا في كل فخار عسكري بسهم بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه وخلطوا بأصوله ماليس منها فانتشرت بينهم قواعد الجبر وضربت في الأذهان حتى اخترقتها وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم وفتوراً في العزائم . وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة خصوصا بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة فى دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم بل الموجب لتقهقرهم وهو الذي نعاني من عنائه اليوم مما نسأل الله السلامة منه

الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وان كان حجابها كثيفاً لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج وحيث ان الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلا بد يوما ان يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الاغيان وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وامامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجها ولا

بخصص لها طريقا فإننا لانرتاب في عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ماسلب منهم فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع والى الله تصير الامور.

انحطاط المسلمين وسكونهم (*

وسبب ذلك

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

ان للمسلمين شدة فى دينهم وقوة في إيمانهم وثباتا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل وان في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض ومما رسخ في نفوسهم ان فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين و يشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم حتى لوسمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الارض عالما كان أو جاهلا ان واحدا ممن وسم بسمة الاسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل اليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع و يعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمه من الغليان و يستفزه الغضب و يدفعه لحكاية مارأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل في ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم و بعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ومن فروضهم في

*) نشرت فى العدد الخامس من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سبيل الحماية وحفظ الولاية ببذل الاموال والارواح وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطب ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم و بالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه — وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان.

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الايمان وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له بعضهم فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكليز فى أفغانستان على مواقع انظارهم ولايجيش لهم جاش ولاتكون لهم نعرة على اخوانهم والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز في بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون . . . .

. . . .

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب و يدعو الى الحيرة و يسبق الى بيان السبب فنخذ مجملا منه: ان الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وان كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير مايعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التي تلائمها

نعم ان الانسان انسان بفكره وعقائده الا أن ماينعكس الي مرايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير فكل شهود يحدث فكرا وكل فكر يكون له أثر في داعية وعن كل داعية ينشأ عمل ثم يعود من العمل الى الفكر ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار مادامت الارواح في الاجساد وكل قبيل هو للآخر عماد .

ان للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات وتلجيء اليه الحاجات عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع وتضافرهم على دفع المضار وبعد كرور الايام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه في آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية كالاحساس بالجوع والعطش والري والشبع بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيا. فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الاوقات الى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها أو وجد صاحب النسب من يظاهره في غير نسبه أو ألجأته ضرورة الى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الامر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكري ملجئ الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من اشكالها فلن يكون منشأ لآثاره وانما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الاصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم والعلة في تباطؤهم عن نصرة اخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب الا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضا هجرا غير جميل فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلا عمن يبعد عنهم والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين افراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة

بين أحدهم وآخر أمامي هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم بل لا أنساب بينهم وكل ينظر الي نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في المشرق ؟ هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد و بلد الا طفيف من الاحساس بان بعض الشعوب على دينهم و يعتقدون مثل اعتقادهم وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة اذا التقى بعض ببعض في موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعي الى الاسف وانقباض الصدر اذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبي عن ملته لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته . كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدا هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الاديان ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس . تفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك فسقطت هيبتها من النفوس وخرج طلاب الملك والسلطان يداُبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

و زاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وايقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم

فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً وانفرد كل بشأنه وانصرف الى ما يليه فتبدد الجمع الى آحاد وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا اما الى ملك أو مذهب فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة وصار ما في العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ولم يبق من آثارها الا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عند ما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان وما هو الا نوع من الحزن على الفائت كما يكون على الاموات من الاقارب لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع ان ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة اذا اهتز أحد اطرافها اضطرب لرزته الطرف الآخر ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع انحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الاثر ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة واشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع فان إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل . الا أنا نأسف غاية الاسف إذ لم تتوجه

خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهي أقرب الوسائل وإن التفت اليها في هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم فقد دارستهم التجارب ببيان لامزيد عليه وماهو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ويصافحوا بالاكف من هو على مقربة منهم ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أوما يخشى أن يمسها بضرر ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة والرمق باق والآمال مقبلة والى الله المصير

اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (*

التعصب

لفظ شغل مناطق الناس خصوصا في البلاد المشرقية تلوكه الالسن وترمي به الافواه في المحافل والمجامع حتى صار تكأة للمتكلمين يلجأ اليه العيي في تهتهته والذملقاني في تفيهقه (١) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة الا وهو فاتحتها اوحشوها اوخاتمتها يعدون مسماه علة لكل بلاء ومنبعا لكل عناء ويزعمونه حجابا كثيفا وسدامنيعا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل ، والمتسربلون بسرابيل الافرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لايميزون بين حق و باطل هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤس و يعبثون باللحى ويبرمون السبال واذا رموا به شخصا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فناتيك) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصبا وهمزوابه وغمزوا ولمزوا ، واذا رأوه عبسوا و بسروا ، وشمخوا بانوفهم كبرا

---

*) نشرت في العدد السادس من جريدة العروة الوثقى

(١) التكأة كهمزة العصا والعيي الذي لا يبين والتهتهة ضرب من اللكنة ورجل ذملقاني سريع الكلام والتفيهق في المنطق التوسع والتنطع فيه

وولوه دبرا ، ونادوا عليه بالويل والثبور . ما ذا سبق الى افهامهم من هذا اللفظ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة ومصدرا لكل نقيصة وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته ؟

التعصب قيام بالعصبية والعصبية من المصادر النسبية نسبة الى العصبة وهي قوم الرجل الذين يعزون قوته و يدفعون عنه الضيم والعداء . فالتعصب وصف للنفس الانسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه ووجوه الاتصال تابعة لاحكام النفس في معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب وأقام بناء الامم وهو عقد الربط في كل أمة بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد و ينشئها بتقدير الله خلقا واحدا كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبره روح واحدة فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الاشخاص . وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة وقبيل وقبيل ومباهاة كل من الامتين المتغالبتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة وسمو المقام ونفاذ الكلمة . والتنافس بين الامم كالتنافس بين الاشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة

التعصب روح كلي مهبطه هيئة الامة وصورتها . وسائر أرواح الافراد حواسه ومشاعره فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي وجاشت طبيعته لدفعه فهو لهذا مثار الحمية العامة ومسعر النعرة الجنسية . هذا هو الذى يرفع نفوس آحاد الامة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الامة بضرر او يؤل بها الى سوء عاقبة ، وان استقامة الطبع ورسوخ الفضيلة في امة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود وانما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن و بقائه وكلما ضعفت قوة الربط بين افراد الامة بضعف التعصب فيهم استرخت

الاعصاب ورثت الاطناب ورقت الاوتار وتداعى بناء الامـة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء . بعد هذا يموت الروح الكلي وتبطل هيئة الامة وان بقيت آحادها فما هي الا كالاجزاء المتناثرة اما ان تتصل بابدان اخرى بحكم ضرورة الكون واما ان تبقى في قبضة الموت الى ان ينفخ فيها روح النشأة الاخرى . سنة الله في خلقه ، اذا ضعفت العصبية في قـوم رماهم الله بالفشل وغفل بعضـهم عن بعض وأعقب الغفلة تقطع في الروابط وتبعـه تقاطع وتدابر فيتسع للاجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ولن تقـوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب في نشأة ثانية

نعم ان التعصب وصف كسائر الاوصاف له حد اعتدال وطرفا إفراط وتفريط واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء فالمفرط فى تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة وينظر الى الاجنبي عنه كما ينظر الى الهمل لا يعترف له بحق ولا يرعى له ذمـة فيخرج بذلك عن جادة العدل فتنقلب منفعة التعصب الى مضرة و يذهب بهاء بل الامة يتقوض مجدها فان العدل قوام الاجتماع الانساني وبه حياة الامم وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال . وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في قوله (ليس منا من دعا الى عصبية)

التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحد كذلك توسع أهل العرف فيه فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً والمتنطعون من مقلدة الافرنج يخصون هـذا النوع منه بالمقت و يرمونه بالتعس ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة تندفع عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني وليس يوجـد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة

القريب عن قريبه ومعاونته على حاجات معيشته وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب . فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض اذا وقف عند الاعتدال ولم يدفع الى جور في المعاملة ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية وأوفرها نفعا وأجزلها فائدة بل هو أقدس رابطة وأعلاها اذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد خصوصا ان كانوا من قبيل قوي فيهم سلطان الدين واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية . ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والاعمال كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر بل الاجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات بل المتباعدة في الصور والاشكال ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد وهو تأصيل المجد وتأييد الشرف وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم . هذا الاثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد اليه العقل الصحيح . وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه

ثفنغ جماعة من متزندقة هذه الاوقات في بيان مفاسد التعصب الديني وزعموا ان حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذي يصدهم عن السير الى كمال المدنية ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ويرمي بهم في ظلمات الجهل ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم ومن رأي أولئك المتفيقهين ان لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها وتخليص العقول من سلطة العقائد وكثيرا ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون ان الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للانفس الى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف وأرحم مؤدب وأبصر مروض يطبع

الارواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة ويقيمها على جادة العدل ويتبه فيها حاسة الشفقة والرحمة خصوصا دين الاسلام . فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الامم في التوحش والقسوة والخشونة وسما بها الى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة وهي الامة العربية

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والافراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم وجور بل ربما يؤدي الى قيام أهل الدين لابادة مخالفيهم ومحو وجودهم كما قامت الامم الغربية واندفعت على بلاد الشرق لمحض الفتك والابادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الهائلة المعروفة بحرب الصليب . وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمي الاندلس وكما وقع قبل هذا وذلك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ان صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم الا ان هذا العارض لمخالفته لاصول الدين قلما تمتد له مدة ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل

أما أهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفيهم في دينهم وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ولنا الدليل الاقوم على ما نقول وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف . نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم الا انهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ويرعون حق الذمة ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ويدفعون عنه غائلة العدوان ومن العقائد الراسخة في نفوسهم (ان من رضي بذمتنا فله مالنا وعليه ما علينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) اللهم الا مالا تخلو عنه الطباع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحـدا من مخالفيهم عن التقدم الى مايستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة واقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ولم يزل الامر على ما كان وفي الظن ان الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم(فسحقاالقوم يظنون ان المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم)

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم مسلك الالزام بدينهم والاجبارعلى قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغلغلهم في افتتاح الاقطار واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة وانما كانت لهم دعوة يبلغونها فان قبلت والا استبدلوابهارسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقة الاسلامي . هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين ايام شوكتهم الاولى فانهم ما كانوا يطأون أرضا الا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم والتطوق بدين أولئك المسلطين وهو الدين المسيحي كما فعلوافي مصروسور يا بل وفي البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر وتذكرة لمن يتذكر ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده —هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله ان يعد الاعتدال من التعصب الديني نقصيةوهل يوجد فرق بينه و بين التعصب الجنسي الابمايكون به التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة . لانخال عاقلا يرتاب في صحة ماقررناه فما لأولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟أي أصل من أصول العقل يستندون اليه فى المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟ وأي قاعدة من قواعدالعمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقصية يجب الترفع عنها ؟

نعم ان الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة الدينيةوأدركوا أن قوتهم لاتكون إلا بالعصبية الاعتقادية ولأولئك الافرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين

أرباب الديانة الاسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً فانهم علموا كما علمنا وعلم العقلاء اجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية الا في دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليدا فساعدوهم على التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حمقا منهم وسفاهة فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل ان يهيء لنفسه مسكنا سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضا لفواعل الجو وما تصول به على حياته . ...

....

هذا أسلوب من السياسة الاوربية أجادت الدول اختباره وجنت ثماره فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ولم تعدم صيدا من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام ان يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكنا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويلهجون في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ولا يعلم أولئك المسلمون انهم بهذا يشقون عصاهم ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بايديهم وأيدي المارقين . يطلبون محو التعصب المعتدل وفي محوه محو الملة ودفعها الى أيدي الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضا والسماء سماء . والله ما عجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تشنيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة الافرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم

على نجاح أعمالهم واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحا وعويلا وهيعات ونبآت تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية وينادي جميعهم: الا قد ألمت ملمة وحدثت حادثة مهمة فأجمعوا الأمر وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية: وتراهم على اختلافهم في الاجناس وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وان كان في أقصى قاصية من الارض ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الارض وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ولا يتنبه لهم احساس بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية كانما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية وليسوا من نوع الانسان الذي يزعم الأوربيون أنهم حماته وانصاره . وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ولا يألون جهدا في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ولكن كثيرا ما تجاوزوه . اما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلادستون واضرابه ثم لا تجد كلمة تصدر عنه الا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب بل لا نرى روحه الا نسخة من روحه (انظر الى كتب غلادستون وخطبه السابقة)

فيا أيتها الامة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ودماؤكم فلا تريقوها وأرواحكم فلا تزهقوها وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هي روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات ولا تدهشنكم زخارف الباطل ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة

اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وان تناءت دياره وتقاصت أقطاره

هذه صلة من امتن الصلات ساقها الله اليكم وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل فالعدل أساس الكون وبه قوامه ولانجاح لقوم يزدرون العدل بينهم وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لاربابها وحسن المعاملة وإحكام الالفة في المنافع الوطنية بينكم وبين ابناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان المختلفة فان مصالحكم لاتقوم الا بمصالحهم كما لاتقوم مصالحهم الا بمصالحكم وعليكم أن لاتجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان وذريعة لانتهاك الحقوق فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه باشد العقاب . هذا ولاتجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض بل تضافروا بها على مباراة الامم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية . اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

القضاء والقدر (*)

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا فى بعض الاعداد الماضية ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ثم تظهر على البدن باعمال تلائم أثرها في النفس،ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس فى تعليم أوتبليغ

(*) نشرت في العدد السابع من جريدة العروة الوثقى

شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شئ مما تصادفه وفي كلا الحالين يتغير وجهها و يختلف أثرها وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم أو على خبث الاستعداد فتنشأ عنها أعمال غير صالحة وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ولا كيف يصرفه اعتقاده والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك القاعدة ومن مثل هـذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالبا بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب وكثيرا ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك و بئس المصير وهذا ما يحمل بعض من لاخبرة لهم على الطعن في دين من الاديان أو عقيدة من العقائد الحقة استنادا الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة ٠

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الاسلامية الحقة ٠ كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون و زعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة وحكمت فيهم الضعف والضعة ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطوارا ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا ان المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر في القوي الحربية والسياسية عن سائر الامم وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون و ينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ولكن متى أمكن لاحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم يسرحون في مرعاهم ثم يعودون إلى مأواهم الامراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات وعليهم فروض وواجبات تستغرق فى أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيأ ٠ يصرفون

أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيرا . نفقاتهم واسعة ولكن لايدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون و ينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة كل منهما يخذل صاحبه ويستعدي عليه جاره فيجد الاجنبي فيهما قوة فانيـة وضعفا قاتلا فينال من بلاد هماما لا يكلفه عددا ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور يفزعون من الهمس، ويألمون من اللمس . قعـدوا عن الحركة الى مايلحقون به الامم في العزة والشوكة وخالفوا في ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم و يباهونهم بما يكسبون وإذا أصاب قوما من إخوانهم مصيبة أوعدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم ولاينبعثون لمناصرتهم ولاتوجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجهرية ولاسرية يكون من مقاصدها إحياء الغيرة وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسلط الغرباء . هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار وزعموا أن لامنشأ لها الا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية وحكموا بأن المسلمين لوداموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزا ولن يعيدوا مجدا ولا يأخـذون بحق ولا يدفعون تعديا ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ولايزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ويركس من طباعهم حتى يؤدي بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفني بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الاجانب .

واعتقد أولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر و بين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ومتى رسخ فى نفوس قوم انه لااختيار لهم في قول ولاعمل ولاحركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدوا ثمرة ماوهبهم الله من المدارك والقوى وتمحي من خواطرهم داعية السعي والكسب وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الي عالم العدم . هكذا ظنت

طائفة من الأفرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق ولست أخشى أن أقول كذب الظان وأخطأ الواهم وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا . لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سني وشيعي واسماعيلي وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختياريا في أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهي الربانية الداعية الى كل خير الهادية الى كل فلاح وان هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة وسهل على من له فكر أن يلتفت الى أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا أثرا من آثار الادراك والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره ابله فضلا عن عاقل وان مبدأ هذه الاسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة انما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزء له خصوصا فى العالم الانساني .

ولو فرضنا أن جاهلا ضـل عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم فليس في امكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية فهل يستطيع انسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه . هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين وان بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء وأطالوا البيان في اثباتها ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بارائهم .

إن التاريخ علما فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والاخلاق والافكار بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم وتكون الدول أو فناء بعضها واندراس أثره .

هذا الفن الذى عدوه من أجل الفنون الادبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه علي الاعتقاد بالقضاء والقدر والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الاسود وتنشق منها مرائر النمور . هـذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ويحليها بحلي الجود والسخاء ويدعوها الي الخروج من كل مايعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نضرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الاجل محدود والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أو ملته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الاوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم). اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا الدول وقهروا الامم وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين مع قلة عددهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الاهوية المختلفة وطبائع الاقطار المتنوعة أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والاكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات

دمروا بلادا ودككوا أطوادا ورفعوا فوق الارض أرضا ثانية من القسطل وطبقة أخرى من النقع وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤس النابذين لسلطانهم وارجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع مايملكون من رزق في سبيل اعلاء كلمتهم لا يخشون فقرا ولا يخافون فاقة .

هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كانما يسيرون الى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفرق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ولا تأخذ النساء رهبة ولا تغشى الأولاد مهابة . هذا الاعتقاد

هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب و يبدد أفلاذ الاكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم . (بكائي على السالفين، ونحيبي على السابقين، أين أنتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة، أين أنتم يا أعلام المروة، وشوامخ القوة، أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة، أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الامجاد الأنجاد القوامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الأمة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم !! انحرفوا عن سنتكم، وجاروا عن طريقكم، فضلوا عن سبيلكم وتفرقوا فرقا وأشياعا حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا، وتحترق الاكباد حزنا ، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية لايستطيعون ذودا عن حوضهم، ولا دفاعا عن حوزتهم، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، و يوقظ النائم، و يهدي الضال الى سواء السبيل . انا لله وانا اليه راجعون .)

أقول و ربما لا أخشى واهما ينازعني فيما أقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ماوجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في أوسط الطبقات ثم رقي بهمته في أعلى الدرجات، فذللت له الصعاب، وخضعت الرقاب، و بلغ من بسطة الملك مايدعو الي العجب، و يبعث الفكر لطلب السبب، الا كان معتقدا بالقضاء والقدر . سبحان الله !! الانسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر و ركون قلبه الى أن المقدر كائن ولا أثر لهول المظاهر . أثبتت لنا التواريخ ان كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الاقدمين ماتسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة إلا لأنه كان معتقدا بالقضاء والقدر فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة . وان الاسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة وجنكيزخان التتري صاحب

الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد بل كان نابليون الاول بونابرت الفرنساوي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة فيتهيأ له الظفر وينال بغيته من النصر ٠

فنعم الاعتقاد الذى يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت ٠ نعم اننا لاننكر أن هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر وربما كان هذا سبباً في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها في الاعصر الأخيرة ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم فى تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ماأثبته أئمتنا رضي الله عنه كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون الى القضاء إنما طلبه الشرع منا فى العمل لافى البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ماأوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم ولايرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة فى هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم وترد اليهم عزتهم وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول الادعوة خير من علمائهم وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم ٠

أما مازعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولا غيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه بل أشبه مايكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار ٠

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيزخان وأحفاده وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوربية بأسرها على ديارهم وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة ٠

وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الأمر فيهم الى غير أهله وولي

على أمورهم من لايحسن سياستها فكان حكامهم وأمراؤهم من جرائيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التى لاتتجاوز لذته الآنية وأخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب لالعلة صحيحة ولاداع قوي وجعلوا هذا ثمرة الحياة فآل الامر بهم الى الضعف والقنوط وأدى الى ماصاروا اليه .

ولكني أقول وحق ما أقول ان هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ورسومها تلوح في أذهانهم وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم وكلما عرض عليهم من الامراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بدأن تدفعه قوة العقائد الحقة ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقالهم ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم وارهاب الأمم الطامعة فيهم وايقافها عند حدها وماذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الي ارجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ودوخوا البلاد وأرغموا أنوف الملوك ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر .

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ماتوعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب . حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقا وغربا وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعي بغاية الجهد لبث أفكارها وجمع الكلمة المفترقة وضم الاشتات المتبددة وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض مايضمره الاجانب لهم وانا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوما بعد يوم نسأل الله تعالى نجاح أعمالها وتأييد مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما وللمسلمين خصوصا .

الفضائل والرذائل وأثرهما (*

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

قالوا للانسان كمال مفروض عليه ان يسعى اليه، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ،وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل ،فما هي الفضائل وما هي الرذائل ؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها كالسخاء والعفة والحياء ونحوها فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان في التعامل فان من سجية كل منهما البذل في الحق والمنع اذا اقتضاه الحق فكل يعرف حده فيقف عنده فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الاعمال المالية والأعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات فان من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة وفي طبيعته الايثار بالرغائب وهكذا اذا استقريت جميع ماعده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الأثر الناشيء عن تلك الفضيلة فاذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما الى الاتحاد والالتئام في جميع الاعمال والمقاصد أو جلها ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيهما وعلى هذا النحو يكون الامر في الاشخاص الكثيرة فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد تميل بكل منها الى الآخر وتجذب الآخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم يتحرك بارادة واحدة ويطلب في حركته غاية واحدة .

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده في عمله لا يتجاوزه بما يمس حقاً للآخر فيه يكون التكافؤ والتوازر .

لكل شخص من أفراد الانسان وجود خاص به وأودعت فيه العناية الالهية

*) نشرت في العدد الثامن من جريدة العروة الوثقى بعنوان الآية الكريمة

من القوى ما به يحفظ وجوده وما به التناسل لبقاء النوع وهو في هذا يساوي سائر أفراد الحيوان لكن قضت حكمة الله ان يكون الانسان ممتازا عن بقية الأنواع الحيوانية بكون آخر ووجود أرقى وأعلى وهو كون الاجتماع حتى يتألف من افراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد والافراد فيها كاعضاء تختلف في الوظائف والاشكال وانما كل يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي كما أودع الله في أعضاء أبداننا و بنيتنا الشخصية. والفضائل في المجتمع الانساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو مايقدره على اداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الابصار والعين بها الابصار وتمييز الاشكال والالوان وليس من وظائفها البطش والكل حي بحياة واحدة وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات و بالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها . كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الاجل المحدود و يثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله .

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع، والحارس والوازع، والجالب والدافع، وجميع من يدبر أمورها و يسوسها في شؤونها اماهم افراد منها من هاماتها أو من لهازمها (من الاعلياء أو الأوساط بل سائر الاطراف) ويكون كل واحد منها قائما بحق الكل ولا يختار مقصدا يعكس مقصد الكل ولا يسعى الى غاية تميل به عن غاية الكل ولا يهمل عملا يتعلق بالأمة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولا تدكه الزلازل و بقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة تحفظ بها موقعها وتدفع بها عن شرفها ومجدها وترد غارة الاغيار عليها فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل واستعلت فيها مكارم الاخلاق .

ان أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها الا للتآلف ولا يتغايرون الا للاتحاد

فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثالهم في تغاير مآخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ففي جذب أحدهما لصاحبه ابعاد لنفسه عنه من وجه وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر فلا يفترقان ولا يتباينان ولا تفنى منفعة احدهما في منفعة الآخر أما ان مسالك الافراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية وانهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

يرى كل واحد منهم ان ماتبتهج به النفوس البشرية وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة انما يمكن نيله اذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الأمة أقصى مايؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها فضلا عن هيئتها العامة والا فقد خان نفسه لأنه أبطل آلة من آلات عمله وقطع سببا من أسباب غايته ولا يحتقر واحداً من الآحاد ولا يزدري بعمله ويحسب الشخص من الأمة وان كان صغيرا بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لوسقط منها تعطلت الآلة بسقوطه .

عليك ان تنظر في حقائق هذه الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي بيناه — التعقل والتروي وانطلاق الفكر من قيود الاوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة (لين الجانب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والايثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والامانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة — أترى لو عمت هذه الصفات الجليلة أمة من الامم أوغلبت في افرادها يكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام هل يوجد مثار للتنافر والخلاف بين عاقلين حرين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين . أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه

الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحيتها أو قفرا لأنبتها أو جدبا لأمطرتها من غيث الرحمة مايسبغ نعمة الله عليها ولأقامت لها من الوحدة سياجا لايخرق وحرزا منيعا لايهتك وان أولى الامم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيهم « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » . الفضيلة حياة الامم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

وأما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على الأعراض بما لاتقتضيه الحشمة والأدب من الكلام) والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق فأي صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لايبقى أمل في الوفاق فان طبيعة كل واحدة منها اما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق واما السقوط الى مالا يمكن معه للشخص اداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملية أو القبيلة أو العشيرة أو بأي نوع من أنواع التعامل والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها وان شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين (كل يمنع الآخر حقه) شرهين حاقدين حاسدين متكبرين (كل لايستحسن الا فعل نفسه) لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هل يمكن ان يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بانتباذ كل من صاحبه وان لم تكن داعية وكفى بخلقه وصفته باعثا قويا للتنابذ .

هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها وبددتها شذر مذر واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع وهو لايمكن مع هذه الأوصاف ولا بد من قوة خارجية تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة . هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم

بينهم شديدا تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للأجنبي عنهم، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم، و يفتخرون بالانتماء اليهم، يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم، و يمكنون مخالب المغتالين من احشائهم، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا، وكل جليل منهم حقيرا، اذا نطق أجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم، واذا غاص أحدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع، وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم ليس فى الامكان ان يكون منا عارف، ومن المحال ان يوجد بيننا خبير. ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب ويتنافسون في سفاسف الأمور ودنياتها، يرتابون في نصح الناصحين، وان قامت على صدقهم أقطع البراهين، يسخرون بالواعظين، وان كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شأنهم وجمع كلمتهم، و يقعدون له بكل سبيل يقيمون في طريقة العقبات ويهيئون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم، وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج لا تنتظم لأعضائه حركة ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم فتنفلت أعمالهم عن حد الضبط، وتخرج عن قواعد الربط. فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعا للشر ومبعثا للضر، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب أول مايبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي، بل كالمبتلى بجنون مطبق أول مايفتك بمربيه ومهذبه، ثم يثني بطبيبه ومعالج دائه، تكون الآحاد منهم كالامراض الآكلة من نحو الجذام والآكلة يمزقون الأمة قطعا وجذاذات بعد مايشوهون وجهها ويشوشون هيئتها. أولئك قوم يسامون في مراعي الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم فينتفخون على أبناء جلدتهم و يذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم لمن دونهم و يطبعونها على الخضوع للغرباء، بل الاعداء الألداء، من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفنى فى أمة أو ملة أخرى، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية .

بقيت لنا لمحة نظر الى مابه تقتنى الفضائل، وتمحص النفوس من الرذائل، حتى تستعد الجمعيات البشرية بالاتحاد وتصون به أكوانها من الفساد : كل مولود يولد على الفطرة مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه ؟ انى يكون لهم حظ منها وقد كانوا ناشئين على مثل مانشأ عليه وليدهم يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها انما يكون بالدين ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظا وافرا مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية الا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها وتنبيه الغافلين عن رعايتها وتذكير الساهين عن هديها . أما اذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين فى النفوس وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية وتسلطت الحاجات المعاشية ومال ميزان الاختيار مع الهوى فحشدت الى الانفس أوفاد الرذائل فيحق على الناس كلمة العذاب و يحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقا .

هذه علل الخراب في كل أمة ولقد ظهر أثرها في أمم لاتحصى عددا من بداية كون الانسان الى الآن ولم يزل بقايا بعضها يشهد على مافتكت به الرذائل فيهم بعد ما بدلوا وغيروا كما في طائفة الدهير و(مك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوربيين بطائفة (يار يا) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) . فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض وسلبهم تيجان عزهم وألقاها على هامات قوم آخرين واليوم ينازع طوائف أخرى ولانخاله يتغلب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف ولا يكون ناشئا الا عن شيء من الاهمال في اتباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيه بحكم قول الله فى كتابه (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك وربما لاينكر الآن

ان كثيرا من عامة المسلمين وان صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد الا أنهم لاينهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء وهذا مما يحدث ضعفا في قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ٠)

الا ان المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن اسلافهم ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم وكتاب الله متلو على ألسنتهم وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم فليس ماطرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضا لايبقى وحالاً لايدوم ٠

انظر نظرة انصاف الى ماأودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله تجد من نفسك حكماً باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالحض الالهي المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة لرأيت الامة الاسلامية ناشطة من عقالها متضافرة على اعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف وبيضة دينها من الصدع كل ذلك في أقرب وقت وان تكون الا صيحة واحدة فاذا هم قيام ينظرون ٠

ولا ريب ان الراسخين في العلم من أهل الدين الاسلامي يعلمون أن ما أصيب به المسلمون في هذه الازمان الاخيرة انما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض مافرطوا وليس للناس على الله حجة فالرجاء في هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية ان يوجهوا العناية الى رتق الفتق قبل اتساعه ومداواة العلة قبل استحكامها

فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ويحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ويقنعوهم بأنه لا ييأس من لطف الله الا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ويوحد وجهتهم ويقوي فيهم اباءة الضيم والنفرة من الذل ويحرك فيهم روح الانفة حتى لا تسمح نفس أحدهم ان يأتي الدنية في دينه ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق في قوله : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

الوحدة الاسلامية (*

وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الارض الا قليلا . ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصيهم متلاقية ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) واخيافهم (الاراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات حالية بأصناف الاشجار صنع أيدي المسلمين ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها بشموس الفضل وبدور العلم ونجوم الهداية من رجال كان لهم المكان الاعلى في العلوم والآداب . كان في نقطة الشرق من حكمائهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومما ثلوهم وما بين

---

*) نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى في بيان مفاسد أمراء المسلمين وفي دعوتهم الى الوحدة

ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة . كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا . ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان وفى الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الأبيض والاحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البلاد الى زمن غير بعيد . كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم . والمسلمون اليوم هم هم يملؤن تلك الاقطار التي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن مئتي مليون (*) وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالاوهام ويدعو الى الفضائل وعقائل الصفات وأودع فى أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهنا وأشد استعدادا لنيل الكمالات الانسانية وأقرب الي الاستقامة فى الاخلاق وبما يرون لانفسهم من الاختصاص بالشرف وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون لا يرغبون بسلطة لغيرهم عليهم ولا يحوم بفكر واحد منهم ان يخضع لذي سطوة من سواهم وان بلغت من الشدة واللين ما بلغت . ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه . ذلك احساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليا . وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم اليها دينهم ونالوا

(*) هذا بحسب الاحصاء لذلك العهد وقد تبين أخيرا انهم ٣٠٠ مليون أو يزيدن

منها النصيب الاعلى في عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل ذلك شأنهم الاول وهذا وصفهم للآن ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد ان كانوا فيها أساتذة العالم وأخذت ممالكهم تنتقص من أطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا السلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته (١) هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون ؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لاعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لالا . ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة في اراداتهم وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم . نعم يوجد للتقصير في إنماء العلوم للضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم لأنا بينا ان لاجنسية للمسلمين الا في دينهم فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلاطين في جنس واحد مع تباين الاغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم خصمه وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع فضلا عن التقصير في طلب مالم ينالوا منها والإغسار دون الترقي في عواليها ونشأ من هذا مانراه من الفاقة والاحتياج وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من أمراء المسلمين مع مافيه من الضرر الفادح عند ما كانوا

(١) جامع الكتاب : كل أمة وكل دولة تتمنى لو يكون العالم كله تابعاً لها في جنسيتها ودينها ولكن الاوربيين ينقمون علينا هذا الاعتقاد الذي لا نعمل بمقتضاه وهم يعملون ويسمونه تعصبا وما التعصب المذموم الاهضم حقوق المخالف في الدين وايذاؤه لأنه مخالف أو إكراهه على ترك دينه وكل هذا يحظره الاسلام ويذمه

منفردين في ميادين الوغى لايجاريهم فيهاسواهم من الملل ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى وضلت عنهم غايات المجد المؤثل وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منـه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل .

هذا الذى أباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية ودهورتها أمانيهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن قبح ماصنعوا و بئس ما كانوا يعملون . أولئك اللاهون بلذاتهم العاكفون على شهواتهم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها وأوقفوا مسير العلوم فيها وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيها . ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ماأشد ضررهما وماأسوأ أثرهما: نبذوا كلام الله خلف ظهورهم وجحدوا فرضا من أعظم فروضه فاختلفوا والعدوّ على أبوابهم وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم . ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة وشقاء أبديا بعد الممات وسوء ذكر لاتمحوه الأيام . اما وعزة الحق وسر العـدل لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أوملك ولو على قرية لاأمر فيها ولا نهي . هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عمـا ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم حتى تنا كرت الوجوه وتباينت الرغائب . الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الإسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين لايحتاجون

فيه الى أستاذ يعلم ولا كتاب يثبت ولا رسائل تنشر ٠

ان رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الأمراء ذوي المطامع في السلطة بينهم لاجتمع شرقيهم بغربيهم وشماليهم بجنوبيهم ولبىّ جميعهم نداء واحدا ٠ ان المسلمين لا يحتاجون في صيانة حقوقهم الا الى تنبه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشيء عن احساس بما يطرأ على الملة من الاخطار ٠ ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الاصول الثلاثة ٠ هي أمة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا وليس في ممالكها ينابيع للثروة ولئن كانت فليس هناك ما يستفيضها من الاعمال الصناعية فهي مصابة بالحاجة والإعواز غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسي أوربا ٠ لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ما عليه جيرانها الا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الامم الأخرى لتعليم عساكرها حتى صار لجيشها صولة تخيف وحملة تخشاها دول أوربا

فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا في ما هو أيسر الأشياء علينا ونحن أشد الناس ميلا اليه من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ؟ ما رد الافكار عن الحركة وما أقعد الهمم عن النهوض الا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ولين في المضجع وتطاول في البنيان وتفاخر بالخدم والخول ولا يراعون في حرصهم ما بعد يومهم ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع يقنعون منه بالاحتفال لهم في الموسم والاعياد وهز الرؤس وثني الاعطاف تعظيما وتبجيلا ثم تذييل الاوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات ٠ هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنيئة هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم ما لا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل

وأغلالا يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب لا حول ولا قوة الا بالله .

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الابطال ، ويا نسل الاقيال، هل ولى بكم الزمان؟ هل مضى وقت التدارك هل آن أو ان اليأس؟ لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . ان من أدرنه الى بيشاور دولا إسلاميـة متصلة الاراضي متحدة العقيدة يجمعهم القرآن لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا وهم ممتازون بين أجيال النـاس بالشجاعة والبسالة أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الامم ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم فالاتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله « إنمـا المؤمنون اخوة » فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هـذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب . لا ألتمس بقولي هـذا ان يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحدا فان هذا ربما كان عسـيرا ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهـده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه . الا ان هذا بعد كونه أساساً لدينهـم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الاوقات . هذا آن الاتفاق . هذا آن الاتفاق . الا ان الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . ان البكاء لا يحيي الميت . ان الاسف لا يرد الفائت . ان الحزن لا يدفع المصيبة . ان العمل مفتاح النجاح . ان الصدق والاخلاص سلم الفلاح . ان الوجل يقرب الأجل . ان اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف . « وقل اعملوا فسـيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ألا لا تكونوا ممن كره انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . احذروا ان تقعوا تحت قول الله « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهـم فهم لا يفقهون » ان القرآن حي لا يموت ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ومن أصيب بسهم من مقته فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه وحكموه في أحوالكم وطباعكم (وما الله

بغافل عما تعملون) ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين وهموا بتلافاة أمرهم قبل أن يقضى عليهم بما رزئ به المفرطون من قبلهم ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث الى الوحدة وتوقظ من الرقدة تصدر عن اعلاهم مرتبة وأقواهم شوكة ولا نرتاب في ان العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هـذا العمل الشريف والله يهدي من يشاء ولله الامر من قبل ومن بعد

الوحدة والغلب (*)

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة و يهدي اليهما الدين تارة أخرى وقد تفيدهما التربية وممارسـة الآداب وكل منهما يطلب الاخر و يستصحبه بل يستلزمه وبهما نمو الامم وعظمها ورفعتها واعتلاؤها وهما الميـل الى وحـدة تجمع والـكلف بسيادة لاتوضع . واذا أراد الله بشعب ان يوجد و يلقي بوانيه (يثبت و يقيم) الى أجل مسمى أودع في ضئاضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين فانشأه خلقا سو يا ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله .

كل أمة لا عمـد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منهـا بالغلب ما تنمو به بنيتها و يشتد به بناؤها فلا بد يوما ان تنقض وتنهضم وتضمحل و يمحى أثرها من بسيط الأرض . ان التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية فاذا أهمل البـدن من الغـذاء وقفت حركة النمو ثم ارتدت الى الذبول والنحول ثم أفضت الى الموت والهلاك . وليس من الممكن لأمة ان تحفظ قوامها وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لبقائها الا ان تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج اليـه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم . اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقر ينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات

(*) نشرت في العدد العاشر من جريدة العروة الوثقى بعنوان الحديث الآتي

البشرية:حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب. وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند لهوهم بما في أيديهم وقناعتهم بما تسنى لهم ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء وما أهلك الله قبيلا الا بعد ماررزئوا بالافتراق وابتلوا بالشقاق فأورثهم ذلا طويلا وعذابا وبيلا ثم فناء سرمديا

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من افراد الأمة بمنافعها ومضارها وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم وبما تفقده من ذلك فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته فيجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة ثم لا يكون نظرا عقيما حائرا بين جدران المخيلة دائرا على اطراف الألسنة بل يكون استبصارا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر والدرجة الأولى من الاعتبار والشؤون الخاصة فى المنزلة الثانية منها. ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ويخترطون سيوفا من الهمة ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونوادّ من المكنة، و يستخرجوا دفائن من الثروة، ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها كما يسعى الحازم جهده لتوفير مايلزم لمعيشته وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب بل يزيد عليه مافيه الكفاية لأبنائه من بعده. وان الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية و بدء الكمال فيما يليه فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة.

اذا بلغ الأحساس من مشاعر افراد الأمة الى الحد الذي بيناه رأيت

في الدهماء منهم والخاصة هما تعلو ، وشيما تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل يطلب السيادة والغلب فتتلاقى هممهم وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم كما تندفع السيول على الوهاد ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقا من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية الا فى إعداد وسائل الفوز والظفر . هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية وفرضان محتومان على من يستمسك بهما ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزي فى الدنيا والعذاب في الآخرة . جاء في قول صاحب الشرع ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وان المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مسّ أحدها ألم تأثر له الآخر وجاء في نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » . وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ونهاهم عن التفرق والتغابن وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا اعداء ونطق الكتاب الإلهي بإنما المومنون إخوة وطلب من المخاطبين بآياته ان يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف ثم شدد فى وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغي فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) وانما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم فحكم بان من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرا .

وفي أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى ولا برّ أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق واعلاء منار الامة وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم ان يد الله مع الجماعة وكفى بالقدرة الإلهية عونا اذا صح الاجماع وصدقت الألفة

وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين وعد جحوده مروقاً من الدين وانسلاخاً عن الايمان ومن عناية الشارع بامر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت » (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم وسمي حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعو عند احد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم الا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه . هـذا اجمال الادلة على وجوب الاتفاق وخطر المنابذة والمغاينة بين المسلمين بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه *

وأما السعيُ لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف الا وهي داعية اليه جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه حاظرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عدها هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتيهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب الا به فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا . هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هـذين الركنين وأيسر شيء علينا اقامتهما وعديدنا مئنا مليون أو يزيد ؟ هـل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التي حطت باقطارنا ووضعت من أقدارنا ما كان قاذفنا

ببلائها ورامينا بسهامها الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه .
لو أدينا حقوقا تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بها ألسنتنا وتطمئن قلوبنا بذكرها وهي كلمة الله العليا هـل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا وهل كنا نشيم نيران الاعداء الا وأقدامنا في صياصيهم ، وأيدينا على نواصيهم ، ؟ ان لأبناء الملة الاسلامية يقينا بما جاء به شرعهم لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب الا الصدق في العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يحترم شريعتنا ولا يرقب فينا الا ولا ذمة بل أكبر همه أن يسوق علينـا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته . لا . لا . ان المخلصين فى ايمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم والحق داع والله حاكم والضرورة قاضيـة فاين المفر . المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه الا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعـلامنا منكسة وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة ولا نجتمع على كلمة وندعي مع هـذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمـد ؟ واخجلتاه لو خطر هـذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام

ان الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه في

أعداد ماضية فألهاهم عما يوحي به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم فسهوا وما غووا وزلوا وما ضلوا ولكنهم دهشوا وتاهوا فمثلهم مثل جوّاب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة كل يطلب عونا وهو معه ولكن لايهتدي اليه. وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال أصوات بعض المسلمين الى مسامع بعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من بقاع الارض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هي الا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الارض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فاذ أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الاجانب وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي ذهبت الى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ويهيئ لهم فوزا ونجاحا بعون الله الذي ماخاب قاصده وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب

الأمل وطلب المجد (*

إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

تلك آيات الكتاب الحكيم، تنبئ عن سر عظيم ، اختص الله به الانسان ، ورفعه به على سائر الاكوان ، ليبلغ به المقام المحمود ، ويحوز ماأعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد في وجدانك ميلا قويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها تجد مثل ذلك في كليتها كما هو

---

*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

في آحادها تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها . ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعا : ليس من السهل على طالب المجد أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقي في الوصول اليه وعرا في السبل ، وعقبات تصد عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله . يقطع شعابا ، و يعاني صعابا ، حتى يرقى ذروة المجد ، و يتسنم شاهق العزة ، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ و يتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء . لو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر ونسب كل عمل الى غاية العامل منه رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الامر والنهي كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم و يأنف من ضعته فيهم و يحرص على ما يحله في قلوبهم محل الاعتبار حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ونافس أهلها في الجاه ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر في بسيط الارض . ذلك لان الكمال الانساني ليس له حد ولا تحده نهاية وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية . سبحان الله ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان وماذا ملكت من أهوائه . يعده ثمرة حياته وغاية وجوده حتى انه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه ، أو عند مسه والخوف من سلبه . أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة تهينه أو قذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت وان القذف أو الاهانة ما نقصت من طعامه ولا شرابه ولا خشنت مضجعه في مبيته . آلاف مؤلفة من الناس في الاجيال المختلفة والاجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك وماتوا دفاعا عن الشرف أو طلبا للكرامة والمجد . جل شأن الله لا يهنأ للانسان طعام ولا شراب ولا يلين له مضجع الا أن يلحظ فيه ان ما نال منه أعلى مما نال سواه مع وقوف بعض من الناس

على ذلك ليعترفوا له بالاعلوية فيه كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة فما ظنك بسائر اللذائذ . كم يعاني الانسان من التعب البدني وكم يقاسي من مشاق الاسفار وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات وكم يحتمل في الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخارا أو ليحفظ ما آتاه الله منه . ماأجل عناية الله بالانسان لايعيش الا ليشرف فيشرف به العالم وكل لذة له دون الشرف فهي وسيلة اليه بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها الحي الى مايستطيع من المجدوفي نهاية الاجل يفارقها قرير العين بما قارب منه، آسف الفؤاد على ماقصرعنه.

ماهو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالالهام الالهي ويخوض الاخطارفي طلبه ويقارع الخطوب في تحصيله؟هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤددوتذعن له بالاعتلاء وتلقي اليه قياد الطاعة يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته فتنفذ كلمته وكلمة المتصلين به والمتحمين معه في شؤون من سواهم وهوأعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الاوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الاولى . فما كان يحسبه طالب المجد عائدا الى نفسه بالمنفعة يبارك فيه مدبر الكون فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واها! تلك حكمة بالغة اذا نال الواحد من الامة مطلبه من المجد نالت الأمة حظها من السؤدد نعم وهل نال ما نال الا بمعونة سائر الآحاد منها« ذلك تقدير العزيز العليم» . ماذا يستطيع الجاهد وحده وماذا يكسبه من سعيه ان لم يكن له أعضاء من بني قبيله فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ويرقى الى ذروة السيادة فعليه أن يهيئ نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل مايعد في العالم فضيلة وكمالا . ماأصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والإلهام الالهي وماأشد ماتحتمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ماتميل اليه من هذا الامر الرفيع . ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الارواح كل صعب ويقرب كل بعيد ويصغر كل عظيم ويلين كل خشن ويسليها عن جميع الآلام ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة فضلا عن بذل كل نفيس والسماح بكل عزيز؟

هذا الباعث الجليل وهذا الموجب الفعال هو الامل .

الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب ، ومرشد حاذق في بهماء الكروب ، وعلم هاد في مجاهيل المشكلات ، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها فترة ، ومستفز للهمم ان عرض لهاسكون ، ليس الامل هو الامنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى و يعبر عنهما بليت لي كذا من الملك وكذا من الفضل مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش واللهو بما يبعد عن المرغوب كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة فيسوق اليه مايهجس بخاطره بدون أن يصيب تعبا أو يلاقي مشقة . انما الأمل رجاء يتبعه عمل و يصحبه حمل النفس على المكاره ، وعرك لها في المشاق والمتاعب ، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة حتى يرسخ في مداركها ان الحياة لغو اذا لم تغذ بنيل الارب فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد فضلا عن المال الذي لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون . وكما كان الميل للرفعة أمرا فطريا كذلك كان الامل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة . غير ان ثبوتهما في فطرة عموم البشر كان داعيا للمزاحمات والممانعات فان كل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر فكل طالب مطلوب ولم يبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعين لكل فرد من الافراد عملا تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة حتى يكون جميعهم انجادا شرفاء بما يأتون من أعمالهم ولكنهم تزاحموا في الأعمال كما تزاحموا في الآمال والاهواء ومسالكهم ضيقة ومشارعهم ضنكة فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا و يعلم الصابرين .

فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف وأصابها انحطاط وحصل الفساد في هذين الخلتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الاخلاق الفاضلة بسوء التربية ور بما يؤل الضعف الى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منهما)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم؟ يحكمون على أنفسهم بالحطة، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ولا ينفرون من الاهانة والتحقير بل يوطنون أنفسهم على قبول ماوجه اليهم من ذلك ايًّا كان فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام فيرضون بما ترضى به البهائم فلا يهتمون الا بحاجات قبقبهم وذبذبهم ثم يالبتهم يكونون همـلا وسوائب يرعون النبات ويتبعون مواقع الغيث ولكنهم وان تركوا العمل لأنفسهم فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم فيكونون كالنمال الحمالة لاتستفيد ممـا تحمل شيئاً وظيفتها ان تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح فيما لجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسـه ثم لاينالون مما يعملون شيئاً. ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم (هذا الذى يتجشمه الذليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منـه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عنـد من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة فإن السائدين يشعرون بحكم البـداهة أن هؤلاء أسقطوا انفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقها بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وايداعهم ما اودع في أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بمـا لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ولنا على ذلك شاهد العيـان فى الامم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب ....

ونظن أن يوجد أقوام أخر سامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لاتسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا.

عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل والامل وحب الكرامة طبيعيان في الانسان. بعـد إمعان النظر نجـد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله انما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وان قوته هي سلطان أعماله

وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أوتصده بالقهر فاذا صادفته الموانع مرة بعد اخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الي قدرته فوجدها فانية، وقوته فرآها واهنة، فيعترف بوهنه، و يسكن الى عجزه ، فييأس و يقنط ،ويذل و يسفل، اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ومتي كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي . أما لو أيقن بان لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس وتغتال آماله غائلة القنوط فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها فى أعماله ولا يجد اليأس الى نفسه طريقا فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا في مدافعتها معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب فلا يمل ولا يكل ولا تدركه السآمة لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلقي قيادهم الى الاذلاء وان يدك الجبال ويشق البحار ويمكن الضعفاء من نواصي الاقوياء وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة فى الاولى والاخرة وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته ان يقنط وييأس ولهذا اخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين «انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون» وبما حكى من قول نبيه ابراهيم «ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون» فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ومن اين يطرق اليأس قلبا عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة . لهذا نقول ان المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ان يقنطوا من رحمة ربهم في اعادة مجدهم مع كثرة عددهم ولا يسوغ لهم ايمانهم أن يرضخوا للذل ويرضوا بالضيم و يتقاعدوا عن اعلاء كلمتهم وهم الى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الامم فان

لهم ملوكا عظاما ولا يزال في ايديهم ملك عظيم على بسيط الارض وان من الحق ان نقول ان ابواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وان روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى ان يستنشقوها ، والفرص دائما تمد ايديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول الا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم وذلك أيسر ما يكون عليهم بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم فاي موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين ايديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغي فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا ؟ ماذا يبتغون من الحياة ان كانت في ذل واهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ يطمئنون وهم بين اجنبي حاكم وبغيض شامت ومقبح غبي ومشنع دني ومعير خسيس يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمة في عداد الامم ؟ اذا لم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات أينسون انهم كانوا الاعين في الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ، ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض ؟ ان كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ؟ لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح ما فسد من ذات بينهم ؟ لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على ارواحهم . بلى ان قوما شرح الله صدورهم للايمان قاموا بهذا الامر في مواقع مختلفة من الارض بجمع التواصل بينها عقدة واحدة الا ان أملنا في بقية المسلمين ان يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم ليتمكن الجميع من نصر الله « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

رجال الدولة و بطانة الملك

﴿ كيف يجب ان يكونوا (*) ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

قالوا اتصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والأهب الوافرة والاسلحة الجيدة قلنا نعم هي أحراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلاصيانة بها ولا حراسة الا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة واولو رأي وحكمة يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة يوطئون طرق الامن و يبسطون بساط الراحة و يرفعون بناء الملك على قواعد العدل و يوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الاجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة الى أسمى مكانة تمكن لها ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجرا عما لا يليق بهم وغضاضة وألما موجعا عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر و يوجس عليها من خطر ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي و يصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة . يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب

*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى بعنوان الآية

ويجمع الجنود بوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين اشرنا اليهم عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم . لا بد ان يتبع في هذا الامر الخطير قانون الفطرة ويراعى ناموس الطبيعة فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق وقلما يخطئ في رايه أو يتأود في عمله من أخذ به دليلا وجعل له من هديه مرشدا . واذا نظر العاقل في انواع الخطأ التي وقعت فى العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية انما تكون لمن له في الامة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها هذه فطرة فطر الله الناس عليها ان المتحم مع الامة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيرا حتى بين العامة عندما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر او دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه خصوصا ان كان بيده هامات امورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذي يلحق الامة أكبر فيكون اهتمامه بشؤون الامة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة .

فعلى ولي الامر في مملكة أن لا يكل شيئا من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين

الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه ·

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الاجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الاجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الامة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم بداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه بل لا يجد باعثا على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه · هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم و راءتهم من أغراض أخر فما ظنك بالاجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فرارا من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلبا للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لاممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الإسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الامم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها و بسطتها ما كانت مصونة الا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولاسقطت في هوة الانحطاط الا عند دخول العنصر الاجنبي فيها وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في أعمالها فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار

خصوصا اذا كان بين الغرباء و بين الدولة التي يتداولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة . نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينتقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك اذا كان ولي الامر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الامة ويضرب فيها الفساد ولكن مايكون من ضره أخف وأقرب الى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الاجانب لهامات الأمور في البلاد لأن صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا ان ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى وان ماشد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها و يميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم و وكلوا أعمالهم من كتابة وادارة وحماية للأجانب عنهم بل زادوا فى موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعد ما رأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من أجيال بعيدة و بعد ما علمتهم التجارب انهم اذا ائتمنوا خانوا، واذا عززوا أهانوا، يقابلون الاحسان بالاساءة، والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران، و يجازون على اللقمة باللطمة، والركون اليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة. اما آن لامراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقض؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا الى حسهم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بايديهم وأيدي أعدائهم . ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم « إن تمسسكم

حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها» سارعوا الى أبناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير. اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم ومانهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين، ألم تروا ألم تعلموا ألم تحسوا ألم تجربوا الى متى الى متى انا لله وإنا اليه راجعون .

كم حكمة لله في حب المحمدة الحقة (*

العالم الانساني كتاب المعتبر، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أوجملة، ولنا في كل ماخطه القلم الالهي عبرة،

أول مايفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب فى أطوارها المختلفة وأدوارها المتبدلة فنرى امماً علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ولم يبق لها أثر الا فى الروايات والأحاديث ومنها أجيال كانت فى ثني العدم ثم اكتست حلية الوجود وأخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأخنت عليها أمهات قشعم. ومنها مانراه الى اليوم يسحب مطارف العزة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهق القوة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشؤون وتلك الأطوار كما تعرض عليه الصور والتماثيل ينبسط لبعضها اذا أعجبه وينقبض للآخر اذا أنكره وهو فى غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها . فان سئل عن السبب قال : سبحان الله هكذا كان وهكذا يكون وماهو الا بخت يسعد فيسعد به السعداء وينحس فيتعس به الاشقياء

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التي تتبعها أحوال الامم في صعودها وهبوطها ويعلم أن ماسبق من الخير لأمة انما كان بأيدي آحاد من أماثلها جدوا وجاهدوا وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا

---

*) نشرت في العدد الثاني عشر من جريدة العروة الوثقى

بتأصيل المجد لشعوبهم و بني جنسهم ويرى لأولئك الأعلام ذكرا يرفع ومكانة من القلوب تحمد وتميزا عند الخلف بالكرامة وهم لم يخالفوا الناس في جسومهم ودمائهم وانما تقدموهم بهممهم وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة فى اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر فاذا أخذ مأخذهم واستقام على طريقتهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره حتى تتعثر أقدامه في أياد مقطعة ورؤوس مجذوذة وأشلاء مبددة وشعور منثورة وصدور مدقوقة و يشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين في منهاجه ولامحيص له عن سلوكها وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير الآسادوزمجرة الضراغم ولا بد له من اختراقها

هكذا تتكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة المخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة يخور عزمه ، و يضعف همه ، فينكص على عقبيه ، و يرتد الى أسوإ حاليه ، و يرتع في مراتع أمثاله حتى يروح الى عطنه الاولى به وهوالعدم ، وتارة يوحي اليه الالهام الالهي أن الشخص في خاصته والامم في هيئاتها ونوع الانسان في مجموعه تطالبها صورة الابداع بأعمال شريفة دونها اجهاد الانفس في السعي وحملها على مالا تهوى ومغالبة الاهوال والغوائل وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية والخواص السامية أكبر مساعد على ماتندفع اليه الهمة وتنبعث له العزيمة .

ان من أحياه الله بالحياة الانسانية كلما هاجمته المصاعب لايزداد الا حرصا على قهرها كما ان صاحب الشمم لا يزيده الخصام الا حدة في الجدال واصرارا على اقناع المخاصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هذه بروح حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الانسان فى ابراز مزايا الانسان . ان صاعد الجبل ربما يجد شيئا من التعب ويخشى مفترسة الكواسر ولكن قد ينجو منها ويستريح على القمة ويعتصم بمكانة من الرفعة وتقصر عنه يد المتناول . أما من أخلد الى السفل فحظه من الحياة خوف لا ينقطع واشفاق لا يزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل ،

مات من الناس كثير في طلب العلا ولم ينالوا، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما أملوا، ولكن هلاك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رغبوا الخمول ورضوا بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين الى أشرف المقاصد فاما وصل واما مات كما يموت الكرام

لم تنل أمة من الامم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر سواء في العلوم والمعارف أو الآداب والفضائل أو القوانين والنواميس العادلة أو العسكرية وقوة الحماية حتى خرج آحاد منها الى ما تخشاه النفوس وتهابه القلوب وسلكوا تلك المسالك الوعرة فبلغوا بأممهم، أقصى ما بلغت بهم هممهم، مع الاعتماد على العناية الالهية في جميع سيرهم

ماذا يريد العاملون في خدمة الامم أو النوع الانساني والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركهم في النوع! أليس قد جعل الله لكل شيء سببا؟ أليس من سنة الله في عباده أن لا تتجه الارادة البشرية الى حركة تصدر عن المريد الا بعد تصور غاية تعود الى ذاته وبعد اليقين أو راجح الظن بانه يستفيد الغاية من العمل؟ فان كان الاجل يذهب في مساورة الآلام الروحية، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية، فماذا يقصدون من أعمالهم؟ ان كان يوجد في أبناء جلدتهم، وذوي ملتهم، من يساعد حوادث الكون على ايلامهم، ويمانعهم في مقاصدهم، وصدهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع والشماتة والتشنيع، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة فما الذي يبتغون من جدهم وكدهم؟ لا لذة تجتنى، ولا ألم يتقى، فما هذا الباعث القوي الذي غلب الاهواء ولم يضعفه جهد البلاء؟

نعم أودع الله في الانسان ميلا أقوى من كل ميل وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الانواع وهو حب المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق — أقول هذا تفاديا من حب المحمدة من أي وجه حقا كان أو باطلا

وطلب الثناء بالزور والغش والرياء والظهور بمظاهر الاخيار ، مع تبطن سرائر الاشرار ، فان هذا من أسوإ الخلال وانما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة . المحمدة هي الغذاء الروحاني ، والمقوم النفساني ، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات وازدرى اللذائذ الحسية وقوي فيه الميل الى المحمدة الباقية وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الاعمال * تأمل * ان الفاضل يرى له في هـذا العالم أجلين أقصاهما الاجل المحدود من يوم ولادته الى نهاية العمر المقدر والآخر أبعد من هذا نهاية وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانساني وغاية هذا الاجل عند ما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ . فللروح الفاضلة وجودان وجود في بدنها الخاص ووجود في جميع الابدان وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل ولا ريب أن هذا الاجل الطويل وهذا الوجود العريض خير من ذلك الاجل القصير والوجود الكز (١) وحقيق بالانسان أن يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير

يطول بي الكلام فأقصر : ان الله الذي وهب كل نوع مابه كماله وضع في جبلة البشر ميلا الى الحمد وألهمهم تأدية حقه لمستحقه . ألم تر انطلاق الالسن في كل أمة بالثناء على من كان سببا لها في مجد ورفعة أو نهوض من سقطة أو توحيد كلمة أو تجديد قوة أو كمال في فضيلة أو تقدم في علم أو صنعة ويرسمونه في الالواح ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ويرفعون له الهياكل والتماثيل ويحفظون له ذكرا حميدا يتناقله الابناء عن الآباء حتى ينقرضوا أو ينقرض العالم . اذا جحدت الامة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ضعفت الهمم وقل السعي في المصالح العامة وانقبضت الايدي عن تعاطيها فهبطت شؤون الامة فافترقت وماتت

ان الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب فاذا استوى لدى الامة الحسن والقبيح والطيب والخبيث والفضيلة والرذيلة والمصلحة والمفسدة وفقد منها التمييز ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ولم تعرف معروفا ولم تنكر منكرا سلبت

(١) الكزّ اليابس والمنقبض . وكزّ اليدين بخيل والمراد هنا ما الاخير فيه

آحادها الميل الى المعالي والكمالات وكان هذا أشد نكاية بها من جور الظالمين، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم وسطوة الغالب لا تثبت اذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف والفضل بالحمد فانه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وانقاذها . أما فقد هذا الاحساس الشريف فهو أشبه علة بالهرم لاعقبى له الا الموت والهلاك .

كيف لاتكون المحمدة الحقة نعمة على النفوس الانسانية يسعى لها الأعلون من بني الانسان وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك)

وكيف لا تكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بذم الاعمال الصالحات كما سوغ ذلك لنبيه فى قوله « وأما بنعمة ربك فحدث »

قلب طرفك في تواريخ الامم أقصاها وأدناها تجد برهانا قاطعا على ان الأمة متى بخست قيم الاعمال العالية وازدري فيها بشأن الفضيلة فقدت ما به قوامها وانهدم بناؤها وذهبت كما ذهب أمس ولا جرم أن الكفران مقرون بزوال النعم .

يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة التي أقدمت في هذه الاوقات النحسة ووقفت على شفير الخطر وكتبت على نفسها السعي في توحيد المسلمين ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها انه نعم المولى ونعم النصير

الشرف (*)

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس الان أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون . فئة ترى الشرف في تشييد القصور والتعالي في البنيان وزخرفة الحوائط والجدران ووفرة الخدم والحشم واقتناء الجياد وركوب العربات وفئة أخرى

(*) نشرت فى العدد الثالث عشر من جريدة العروة الوثقى بتوقيع محمد نجيب الاسكندري الحسيني وقد سألت الاستاذ الامام رحمه الله عن محمد نجيب هذا فقال انه اسم مستعار فالمقالة من انشائه رحمه الله تعالى

تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب والتزين بألوان الألبسة وأنواعها والتحلي بحلي الجواهر الثمينة مرصعة بالاحجار الكريمة كالماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا أوفي الوسامات المعروفة بالنياشين وعلو أسمائها كالاول من الصنف الفلاني والثاني من الدرجة الفلانية . حتى انك ترى الرجل يسلب مال أخيه وينهب ثروة أقاربه وذويه أو بني ملته ومواطنيه ليشيد بما يصيب من السحت قصرا ويرفع ويزخرف بيتا ويقيم له حراسا من المماليك وخفرا من الغلمان ويظن بذلك انه نال مجدا أبديا وفخارا سرمديا وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الاول ليكتسي برفيع الثياب ويتزين بأجمل الحلي أو ليكون له من ذلك مايفاخر به أمثاله ويتخيل انه بلغ به درجة من الرفعة لايدانى فيها ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ويتوهم انه وصل الحقيقة من معناه . ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقبا من تلك الألقاب أو يحصل بها وساما أو يستفيد وشاحا وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها وان أفضت الى خراب بلاده أو تذليل أمته أو تمزيق ملته وعنده انه رقي الذروة من معنى الشرف . نحن نري هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ولكن لانظنها طمست عين الحق فيهم حتى عموا عن إدراك خطئهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم . ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره، وولدانه وحوره، ألا يحس من نفسه انه وان حاز منها أعلى مايتصوره العقل فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيأ من الكمال وان جميع ماحصله فهو أجنبي عنه وليس له نسبة اليه الانسبة العناء في تحصيله الايرى أن كثيرا ممن بلغ مبلغه أوفاقه سلبتهم صروف الدهر مابأيديهم فاصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم فأن لم تكن على جانب من الكمال الإنساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة .

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه اذا تجرد منه وخلي بنفسه ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء ؟ أولا يجد

من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور في ميدان واحد؟ ماذا يتصور الزاهي برتبته المعجب بوسامه ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته على حال تجمل أوكمال يجمل . أليس يشعر انه لو سلب الوسام أونزع عنه الوشاح يعود الى منزلته من الاحتقار فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به ؟ الا تكون هذه الكرامة عارضا سريع الزوال بل رسما ظاهرا لا يمس بواطن القلوب ؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه وكان اللقب دليلا عليه أومشيرا اليه كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشري وكان الوسام واللقب عنوانا على ما اقترف كاسبه وعلامة على ما اجترم . انظر وتدبر ولا تخطي فما أنت من الصواب ببعيد ان عثمان الغازي الذي لقبه أعداؤه بأسد بلاونه نال رتبة ومنح لقبا وحظي بمكانة رفيعة بين الطبقة العليا من العظماء في دولته بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته وجاهد في اعلاء كلمة دينه بما شهد له به الأعداء والأصدقاء وان بعض الامراء في ديار اسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانكليز جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم لافتتاح بلادهم حتى مكنوا الانكليز من ديارهم وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في ايجاد الوسائل لخروجهم منها ٭ أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدور أولئك المخدوعين أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه . ماذا غر أولئك الواهمين على اختلافهم ألا يعلمون أن الثياب المعلمة بالدم الموشاة بالنجيع الملونة بالمهج هي التي حفظت للابسيها ذكرا حسنا لا ينقطع وأثرا مجيدا لا يمحى . ان الذين ضرجوا بدمائهم في طلب المجد لملتهم هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب ، ألم يصل اليهم أن الذين قضوا نحبهم في غيابات الجب وانتهت حياتهم في ظلمات السجن لطلب حق مسلوب ، أوحفظ مجد موجود ، هم الذين سما ذكرهم الى شرف الشمس الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء . أظن ان الذين كانوا في الغرفات

العالية ينظرون الى جنائهم وحدائقهم و يشرفون على الناس من شرفات قصورهم وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا لم يبق لهم ذكر ولم يكن لهم في حياتهم شأن الا ماهو محصور في دوائر بيوتهم ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفه ويكتسون حلل الخز والديباج ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم وارتدوا من حيث أتوا لايعلم متى جاؤا الى الدنيا ومتى انكشفوا عنها ٭ هل سمعنا أن أحدا يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا نعم يقولون علم وعمل و بذل ورفع ووضع وجاهد وكافح وأباد وأبقى وما يشا كل ذلك من الأعمال التي لها أثر ثابت . اذا ذكر الاسكندر الأكبر هل يخطر بالبال ان كان له قصر أولا . أي أبله يطلب سيرة نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه أوفي خرق ثياب كان يلبسها؟وهل بلغ عظماء العالم مابلغوا من مقامات الشرف بعد ماشيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا أوكان جميع ماينالون من ذلك بعد أن يسودوا و يفتحوا ويغلبوا و يأخذوا بالنواصي ٭ خدع قوم بالأحلام ، وغرتهم الأوهام ، ففرطوا في شؤون بلادهم و باعوا مجدها الشامخ بتلك الأسماء التي لامسمى لها وزعموا وان لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا مكانة من الشرف وان كان خاصا بهم بعد ماعلموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدها ونالها غير أهلها فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم وتعنفهم به خواطر أفئدتهم ورمقوا بأبصارهم مايحيط بهم لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه .

٭ لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم وما لصق من الذل والعار بذر اريهم لطرحوا الوشاحات ونبذوا الوسامات ولبسوا أثواب الحداد ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقي .

٭ الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع وحددتها عقول الكاملين من البشر وليس لذي شاكلة انسانية أن يرتاب في فهمها الا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

٭ الشرف بهاء للشخص يحوم عليه بالانظار ، ويوجه اليه الخواطر والأفكار ،

وجمال يروق حسنه في البصائر والابصار *

ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته أوفي النوع الانساني عامة كانقاذ من تهلكة، أو كشف لجهالة، أوتنبيه لطلب حق سلب، أوتذكير بمجد سبق، أوسد سلق، أوانهاض من عثرة، أو ايقاظ من غفلة، وارشاد لخير يعم، أوتحذير من شر يغم، أو تهذيب أخلاق، أوتثقيف عقول، أوجمع كلمة وتجديد رابطة، أواعادة قوة، وانتشال من ضعف، أوايقاد حمية أوحضو لغيرة *

من أتى عملا من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وان كان يسكن الخصاص والأكواخ، ويلبس الدلوق والأسمال، ويقتات بنبات البر، ويبيت على تراب القفر، ويتوسد نشز الأرض، ويضرب في كل واد، ويتردد بين الربا والوهاد. هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله، وبهاء من كماله، وضياء من جده يهدي اليه ضالة الألباب وتائهة الافئدة تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره، وتكتنفه ذرات القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصل عنه * له من روحه قصور شاهقة، وغرفات شائقة ومناظر رائقة، وجمال باهر، ونور زاهر، لايكاد يخفى حتى يظهر، ولا يكاد يستر حتى يبصر، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه الى أعلي عليين * حياة طيبة في القلوب وعزة مشرقة في جبهة الزمان وفي ذلك فليتنافس المتنافسون *

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه فيسلقونه بالألسنة ويرشقونه بسهام اللوم ولا تروق في انظارهم ازهار أعماله ولا أنوار مزاهره لبعدها عن فهمهم وغرابتها على حواسهم لما ألفوه من الانكباب علي تلك السفاسف الساقطة التى عدوها شرفا وحسبوها مجدا وقد بيناها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء وانما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد ويألف روائح القذر * لايبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لاخلاق لهم أو يقصده بالاضرار من لاذمة له ولكنهم بأنفسهم يهزءون، و بمصالحهم يضرون. ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى بل لايلبثون اذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ويطعموا من جناها ولا يسعهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة، وحافظ الثمرة، وان كان دونهم في تلك الزخارف التي لاقيمة لها في نظر العاقل. ثم يكون عقابهم علي

ما فرط منهم ندم على الخطيئة وأسف على السيئة وألم في قلوبهم يهيجه ذكرى ماقدموا من سوء عملهم وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم · هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حيا فاذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات و بدور ومنيرات · نعم انه يموت و يتواري خلف حجاب العدم بجسمه ولكنه قائم في الافئدة شاهد على الألسنة حيّ يرزق عند ربه ونعمت الحياة حياته ولمثل هذا فليعمل العاملون·

دعوة الفرس الى الاتحاد مع الافغان (*

اذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها الى اللسان العذب الفارسي مما نظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين واستلفاتا لعقولهم الى ما فيه خيرهم فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر خصوصا جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة طهران· وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الاسلامية فان جميعها بعد بلاد العرب وان اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم الا أنهم ينطقون باللغة الفارسية فهي في الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة وأذهانهم الصافية وترشدهم اليه عقولهم العالية خصوصاً فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين لاسيما في الاتفاق بين الايرانيين والافغانيين.
هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم وقد زادهما ارتباطا اجتماعهما في الديانة الحقة الاسلامية ولا يوجد بينهما الا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو الى شق العصا وتمزيق نسيج الاتحاد وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف

---

*) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

سببا في تخالف شديد. ليس ببعيد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية وتقوية الصلات الدينية كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة.

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم أراضي ايران. أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران. أبو حامد الغزالي حجة الاسلام وابو اسحاق الاسفرايني والبيضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار المسلمين. الفيلسوف الشهير أبو علي ابن سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس. ان أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله وتأسيس فنونه منهم سيبويه وأبو علي الفارسي والرضي ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان اعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية وصاحب صحاح الجوهري من احدى قراهم ومجد الدين الفيروزابادي من احدى بلدانهم الزمخشري والسكاكي وأبو الفرج الاصفهاني وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس. الطبري أول المؤرخين والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس. الشبلي كان من نهاوند وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي كان من هراة وكلها بلاد ايران. هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي والآمدي والمرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والأبيوردي وكلهم من أبناء فارس. من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ومير فندرسكي وغيرهم؟ كانوا من بلاد فارس(١) أي فضل كان

---

(١) ان كثيرا من هؤلاء العلماء كانوا من العرب فنسبتهم الى بلاد الفرس نسبة بلد لا جنس. اه جامع الكتاب

ولم يكن لهم فيه اليد الطولى أي مزية منّ الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من فارس »

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم وانظروا الى آثاركم في الاسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية ، .

أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم في فترة الاسلام أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم . أظن أنه لايخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الاوقات لندائكم بالوحدة مع الافغانيين والتحالف معهم على مقاومة العادين ، لتكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين ، .

أظنكم لم تنسوا ان استيلاء الانكليز على الممالك الهندية انما تم بوقوع الخلاف بينكم و بين الافغانيين .....

هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره الى طرف بنجاب ينتظر قدومكم اذا اتحدتم مع اخوانكم الافغانيين .

حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة . هذا آن التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق ، أحاط الاعداء بلادكم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم . فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لاتصادفوها في غيره . الانكليز فى ارتباك شديد في المسئلة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكستها لمقاصدهم

الامير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على مانعهده من أول شبوبيته أشد الناس عداوة للانكليز و بينه و بينهم حزازات لا تزول بل نقول ان عداوة الانكليز سارية فى عروق الافغانيين عموما ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق

الآن بين سلطنة الشاه و بين امارة الافغان لوجدت قوة اسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة وتتجدد لهم آمال جليلة وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت تنبهت فيه أفكار الافغانيين الى أعمال جيرانهم فى المسئلة المصرية وتحركت فيهم السواكن وهي أعظم فرصة لاهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم

هذا عمل من أجل الاعمال وأجزلها فائدة وان من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين وان لذلك لأثرا عظيما في النفوس خصوصا ان كانت من أقلام العلماء الاعلام والمجتهدين الكرام

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فاحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الاثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم وازالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا وكتبوا ونشروا مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية كان فضل الله كافلا لهم النجاح .

أي فرق بين الافغانيين واخوانهم الايرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ولا نشك أن شاه ايران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة اليه والسعي فيه . ان البادئ بالعمل في هذا المقصد الاسمى هو صاحب الفضل الاعظم بين المسلمين خصوصاً و بين العالم عموما ويجني ثمرته في وقت قريب . كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية وكثرت عليها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة في سياسة أوربا وعند ما رجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة أرجع اليهم من القوة والشوكة ماصاروا به حكام أوربا و بيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الأصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الأيرانية أن يوجهوا أفكارهم الى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحا في جرائدهم وينشروها في بلادهم وبلاد الافغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين وماهي الا أيام ثم نرى علائم النجاح ان شاء الله رب العالمين .

امتحان الله للمؤمنين (*

الٓمٓ. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ • وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

من الناس بل أغلب الناس يقول: آمنا : وللايمان آثار. ثم يحسبون ان الله يتركهم وما يقولون، ويدعهم وما يتوهمون، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل ان يبتليهم أيهم أحسن عملا حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأماني وأنهم تائهون في أوهامهم يحسبون أنهم على كل شيء وهم خلو من كل شيء ولما يدخل الايمان في قلوبهم . الا أنهم في حسبانهم لمخطئون فلن يدع الله المغرور في غيه حتى يبتليه في دعوى الايمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين ولئلا تكون للناس على الله حجة . حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد وبشر وأنذر وقوله الصدق ووعده الحق أن يجازي من بني عقيدته على خيال ليس له أثر وظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدي . ان المغتر بزعمه الحائر في ظلمات أوهامه الذي لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب المخلد . الايمان يغلب كل هوى ويقهر كل أمنية ويدفع بالنفس الى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه .

---

*) نشرت في العدد الخامس عشر من جريدة العروة الوثقى

يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين ٭ انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ٭) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الايمان . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون

صدق الله وصدقت كتبه ورسله ان للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال وتأثيراً في الأفكار والارادات لا يمكن للمعتقدين ان يزحزحوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هكذا الايمان في جميع شؤونه وأطواره له خواص لا تفارقه ونزعات لا تزايله ، وصفات جليلة لا تنفك عنه ، وخلائق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كان يجحدون عقيدتهم

نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر ايمانهم ذهباً ابريزاً صافياً من كل غش وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقيماً ٭ ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . نعم ان دون ابتلاء الله خلع العادات وتحمل الصعوبات وبذل الأموال وبيع الأرواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها الا في الايمان فكل تهلكة فيه فهي نجاة وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه ايمانه ولا يخشى الفقر وان كان الشيطان يعده الفقر . ليس في النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل ما في أيدي المؤمنين . ان للمؤمن حياة وراء هذه الحياة وان له لذة وراء لذتها وان له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعاداتها ٭ هكذا يرى المؤمن ان كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله ٭ ان الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي . ان الفرار من صدمة جيش الضلال وان بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدي . لا سعادة الا بالدين ودون حفظ الدين تطاير الأعناق . ان للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء الا على الذين امتحن الله قلوبهم

للتقوى . ان القيام بفرائض الايمان محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكاره كيف لا وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه . لن يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه . أول احساس يلم بنفس المؤمن انه في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعي الايمان ولا داعي أرفع صوتا وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعلة مادامت الرجل تمشي والعين تنظر واليد تعمل . ان امتحان الله للمؤمن سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن الى ان تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد فان يطيعوا يؤتهم الله أجرا حسنا وان يتولوا يعذبهم عذابا أليما . فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة وهنالك الجزاء الأوفى. فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان القانعون منه برسم يلوح في مخيلاتهم ان عدل الله يتركهم ومايظنون كلا انهم في كل عام يفتنون فلينظر المفرطون في دينهم ضنا بأموالهم أوصونا لأرواحهم ماذا يكون موقعهم من علم الله هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين . أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم و بصرهم بعاقبة أمرهم .

أسباب حفظ الملك (*

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

أهلك الله تعالى شعوبا وأباد قبائل ودمر بلادا ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين . حكيم سبقت رحمته غضبه جعل لكل عمل جزاء وعين بحكمته لكل حادث سببا «ولا يظلم ربك أحدا» وليست أفعاله جزافا ولا يصدر عنه شيء عبثا . أمر الله عباده بالسير في الأرض ا قل سيروا

*) نشرت في العدد السادس عشر من جريدة العروة الوثقى

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف فيطيعوا أوامره و يقفوا عند حدود شرائعه و يفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة ٭ من كان له قلب يعقل وعين تبصر وعقل يفقه ،وتتبع حوادث العالم وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية واعتبر بما قص الله علينا في كتابه المنزل بحكم حكما لايخالطه ريب بأنه ماحاق السوء بأمة وما نزلت لها نازلة البلاء ومامسها الضر في شيء الا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله وانتهكت حرماته ونبذت أوامره العادلة وانحرفت عن شرائعه الحقة وحرفت الكلم عن مواضعه وأولت من كلامه تعالى على حسب الاهواء والشهوات

كما ان للأغذية واختلاف الفصول والأهوية أثرا ظاهرا في الأمزجة بتقدير العزيز العليم كذلك اقتضت حكمة الله ان يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر فى الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر و يتميز النفع من الضر فأرسل الرسل وأنزل الكتب فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة .

ان تأثير الفواعل الكونية في أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر أما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجتماعهم فيسهل الوقوف على سره لكل ذي ادراك ان لم تكن عين بصيرته عمياء

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سببا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا والتمكن من الوصول لخير الابد في الآخرة . وجعل التنازع والتغابن علة للضعف وداعيا للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ومهيئا لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم . فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ولم يكن مصابا بمرض القلب وعمى البصيرة أدرك سر أمر الله في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) وسر نهيه في قوله (ولا تفرقوا — وقوله — ولا تنازعوا

فتفشلوا وتذهب ريحكم) أي جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم

ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه والثقة بمن لا تنبغي الثقة به سببا في اختلال الامن وفساد الحال فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ولا تصله به رابطة صحيحة وليس في طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته أو كتم سره ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته ودفع المضار عنه فلا ريب يفسد حاله ويسوء مآله وان كان ملكا ضاع ملكه أو أميرا بطل أمره والحوادث شاهدة وأحوال المغرورين ناطقة فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى في قوله « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » وقوله « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة الى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقته من أمته عمل مفروض عليه وواجب يلزمه القيام به ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ويعد لها مآلا صالحا في الآخرة . وهو انسان له قلب واحد لو جعل معظم همه في شيء فاته سائر الاشياء فلو توغل في الشهوات وبالغ في الترف وبطر فيما أنعم الله عليه فقد أغفل فرائضه وأضر بنفسه وحرم من منافعه وحل به من عقاب الله أشد الوبال وخسر الدنيا والآخرة معا وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته أو يواطنه في مدينته . وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يجم الا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى الا على بصيرة كمهاء ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ٭ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذاهم يجأرون ٭ لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون ٭ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) . ما أوتي الانسان

من العلم الا قليلا . لا يمكن الانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها . خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (جعلكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة والقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لاريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء وهو أشد افتقارا الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وارشادا فقال (وشاورهم في الامر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أي بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم . وأي بصيرة لا تهتدي الى هذا المنهج القويم (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة الى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لاطماع الطامعين وان الحرص المودع في طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه و يستعبدوا أهله ويستأثروا بمنافع أرضهم وثمار كدهم و يمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله والحكام النائبين عنه في إيالاته وقواد جيشه وعلى كل أرباب الرأي ومن بهم قوام الملك أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان ورفع نوازل الغارات الاجنبية . فلو فرطوا في اعداد لوازم الدفاع أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطماع أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ويقوي شوكتهم بأي وجه كان ومن أي نوع كان فقد عرضوا ملكهم للهلاك وألقوا بأنفسهم في مهاوي الاخطار . هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة على حسب ما يقتضيه الزمان وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبه الغافل، ويذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم

لا يكادون يفقهون حديثاً)

اعطاء كل ذي حق حقه ووضع الاشياء فى مواضعها وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان ويشيد بناء السلطة ويحكم دعائم السطوة ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من العلل ، هذا مما تحكم به بداهة العقل وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض وثبت نظام كل موجود وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله كذلك الجور في الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الاوامر الالهية على العدل وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب . العدل هو الحكمة التي امتن الله بها على عباده وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) . هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

من سار في الارض وتتبع تواريخ الامم وكان بصير القلب علم أنه ما انهدم بناء ملك ولا انقلب عرش مجد الا لشقاق واختلاف أو ثقة بمن لا يوثق به وتخلل العنصر الاجنبي أو استبداد في الرأي واستنكاف عن المشورة واهمال في اعداد القوة والدفاع عن الحوزة أو تفويض الاعمال لمن لا يحسن أداءها ووضع الاشياء في غير مواضعها فيكون جور في الحكم واختلال فى النظام وفي كل ذلك حيد عن سنن الله فيحل غضبه بالخاطئين وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان (ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة وقواد الملة المحمدية أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين

ويعلموا الجاهل ويزعجوا نفس الذاهل ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ويستلفتوهم الي ما أعد الله لهم لو استقاموا ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع الى ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) ورفض كل بدعة والخروج عن كل عادة سيئة لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ويقصوا عليهم أحوال الامم الماضية وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه ونبذت أوامره فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون). على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق في قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) هذه وظيفة العلماء الراسخين وما هم بقليل بين المسلمين ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله اليهم ووكل الى ذمتهم وهم أمناء الدين وحملة الشرع ورافعو لواء الاسلام وأوصياء الله على المؤمنين أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بإرشادهم

سنن الله في الامم

وتطبيقها على المسلمين (*

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدي الى الحق والى طريق مستقيم، ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد؟ هل كذب الله رسله؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟ نعوذ بالله!! هل أنزل الآيات البينات لغوا وعبثا؟ هل افترت

---

*) نشرت في العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي

عليه رسله كذبا؟ هل اختلقوا عليه افكا؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها واشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون؟ نستغفر الله! أليس قد أنزل القرآن عربيا غير ذي عوج وفصل فيه كل أمر وأودعه تبيانا لكل شيء؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ٥ هو الصادق في وعده ووعيده ما اتخذ رسولا كذابا ولا أتى شيئا عبثا وما هدانا الا سبيل الرشاد ولا تبديل لآياته تزول السموات والارض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون – و يقول – ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين – وقال – وكان حقا علينا نصر المؤمنين – وقال – ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ٥) هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا ولا ينال هذه الآيات بالتأويل الا من ضل عن السبيل ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده الى تلك الامة المرحومة ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة ، وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة وما جعل الله لمجدها أمدا ولا لعزتها حدا .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ورفع شأنها الى ذروة العلى حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالي الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب . هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير فى سببه كل عقل، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر معوزة من الاسلحة وعدد القتال فاخترقت صفوف الامم واختطت ديارها ولا دفعتها أبراج الجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك ولا أثر فى همتها اختلاف الاهوية ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ولا راعها جلالة ملوكهم وقدم بيوتهم ولا تنوع صنائعهم ولا سعة دائرة فنونهم ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ولا تقلب غيرها من الامم فى فنون السياسة . كانت

تطرق ديار القوم فيحقرون أمرها ويستهينون بها وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الامم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها وتخضعها لاوامرها وعاداتها وشرائعها لكن كان كل ذلك ونالت تلك الامة المرحومة على ضعفها مالم تنله أمة سواها . نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدا في الدنيا وسعادة في الآخرة

هذه الامة يبلغ عددها اليوم زهاء مئتي مليون من النفوس وأراضيها آخذة من المحيط الاتلانتيكي الى أحشاء بلاد الصين — تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة ، تتغلب الاجانب على شعوب هذه الامة شعبا شعبا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى ان الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمة، ويمسون في كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم . هذه هي الامة التي كان الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات استبقاء لحياتهن وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف الى تلك الدول الأجنبية . يالمصيبة ويا للرزية !! أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل، ماسبب هذا الهبوط وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالعهود الالهية؟ معاذ الله! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما أكده لنا ؟ حاشاه سبحانه لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلينا أن ننظر لانفسنا ولا لوم لنا الا عليها ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الامم سننا متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى أن الامم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود الا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة

الفكر واشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله في الامم السابقة والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة . حادوا عن الاستقامة في الرأي والصدق في القول والسلامة في الصدر والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام بنصره والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على اعلاء كلمته، واتبعوا الاهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات ، خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين . هكذا جعل الله بقاء الامم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا اليها وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها سنة ثابتة لاتختلف باختلاف الامم ولا تتبدل بتبدل الاجيال كسنته تعالى في الخلق والايجاد وتقدير الارزاق وتحديد الآجال

علينا أن نرجع الى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونسبر أخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح هل غيّر الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا وخالف فينا حكمه وبدل في أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون بل صدقنا الله وعده حتى اذا فشلنا وتنازعنا في الامر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً فبدل عزنا بالذل وسمونا بالانحطاط وغنانا بالفقر وسيادتنا بالعبودية . نبذنا أوامر الله ظهريا وتخاذلنا عن نصره فجازانا بسوء أعمالنا ولم يبق لنا سبيل الى النجاة والانابة اليه . كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الاجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلنا ويسفكون دماء الابرياء من اخواننا ولا نرى في أحد منا حراكا .

هذا العدد الوافر والسواد الاعظم من هذه الملة لايبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كل واحد منهم يود لو يعيش الف سنة وان كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة مسكنه الهوان . تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً وكاد ينقطع ما بيننا لا يحن أخ

لاخيه ولا يهتم جار بشأن جاره ولا يرقب أحدنا في الآخر الاً ولا ذمة ولانحترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الالسنة ولا يمس سواد القلوب هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف فان أصابهم خير اطمأنوا به وان أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا أن لا يبتلي الله ما في صدورهم ولا يمحص ما في قلوبهم ؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون في سبيله بمال ولا يشحون بنفس؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان لا بماله ولا بروحه؟ انما المؤمنون هم الذين اذا قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايماناً وثباتاً ويقولون في اقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ممتع بالسعادة الابدية في نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله والله يقول فلا (تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) .

فلينظر كل الى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين وما جعله الله من خصائص الايمان فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ان هذه أمتنا أمة واحدة والعمل في صيانتها من الاعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز واجماع الأمة سلفاً وخلفاً فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والمتسمون بسمة الايمان آهلون لكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعرة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية ٥ ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي وتتخذوه اماماً لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة

الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح . ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه : (فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت في وصف من لا ايمان لهم . هل يسر مؤمنا أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة أو غر كثيرين من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

أقول ولا أخشى نكيرا : لا يمس الايمان قلب شخص الا و يكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان . لا يراعي في ذلك عذرا ولا تعلة وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله

مع هذا كله نقول ان الخير في هذه الامة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضا يزول ولو قام العلماء الاتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين وأحيوا روح القرآن وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة واستلفتوهم إلى عهد الله الذي لا يخلف لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نورا يبهر الابصار ، وأعمالا تحار فيها الافكار ، وان الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الاقطار هذه الايام تبشرنا بان الله تعالى قد أعد النفوس لصيحة حق تجمع بها كلمة المسلمين ، و يوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريبا فان فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم صحت لهم الأوبة وصحت منهم التوبة وعفا الله عنهم والله ذو فضل على المؤمنين فعلى العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير وهو الخير كله جمع كلمة المسلمين والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)

الجبن (*)

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ — قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض افراد الانسان من اعمال تحير الالباب، وتدهش الأفكار، ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات، وان لم تكن في أزمنة النبوات، ويحسبونها خوارق عادات، وان لم تكن من تحدي الرسالات، وقد ينسبها العقل لى حركات الافلاك وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع . ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق عجزا عن درك الاسباب وفهم الصواب * اما من آتاه الله الحكمة ومنحه الهداية فيعلم ان الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته اناط كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدرة روحانية يكون بهما مظهرا لعجائب الأمور و بهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب، أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب .

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك وأرشده الفكر السليم الى ان فضل الله قد اعد كل انسان للكمال ومنحه ما يكون به مصدرا لفضائل الأعمال على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق * هنا وقفه الحيرة — استعداد فطري للكمال في خلقة الانسان . ميل كلي في كل فرد لأن يتفرد بالفخار و يمتاز بجلائل الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى لا يخيب طالبا ولا يرد سائلا اذا صدق القاصد في قصده وأخلص السالك فى جده . فما العلة فى اخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيات

---

*) نشرت في العدد الثامن عشر من جريدة العروة الوثقى

المنازل وقصورهم عن الوصول الى ماأعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزي خصوصاً ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات، وتعترف بيوم العرض الأكبر — يوم تجزى كل نفس بما كسبت (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٭ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ٭) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ؟ ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل ؟ اذا اردت المسببات الى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة هي أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل ، — الجبن ٭

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناها ، هو الذي قطع روابط الامم فحل نظامها، هو الذي وهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن انظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ، يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب اثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة علية . يرى الجبان وعر المذلات سهلا، وشظف العيش في المسكنات رفها ونعيما .

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له الاعين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحباء، ونفس لا يصعد الا بالصعداء، واحساس لا يلم به الا ألم الادواء . هـذه حياته . اضاع كل شيء في القناعة بلا شيء وهو يظن انه أدرك البغية وحصل المنية .

ما هو الجبن ؟ انخذال فى النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها وهو مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت . الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح .

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة ولا يعلمه الا مقدرُ الآجال جل شأنه (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله .
نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ماجعله واقيا للحياة وهو الشجاعة والاقدام سببا في الفناء . يحسب الجاهل ان في كل خطوة حتفا ويتوهم ان في كل خطرة خطرا مع ان نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ومانال طلاب المعالي من الفوز بآمالهم وما ذللوا من المصاعب في سيرهم تكشف له ان تلك المخاوف انما هي أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين، غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدته، ومن كل خير حرمته .

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام ، لتغتال به نفوس الانسان، وتلتهم به الامم والشعوب، هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة، لاشقاء الا وهو مبدؤه، ولا فساد الا وهو جرثومته، ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه، ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ومنكس الاعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانه . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الادنياء لدنيئة الارتشاء أليس هو الجبن ؟ ربما تتوهم بعد المثال فتأمل فأن الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان ◦ الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ويؤملون أن ينالوا جزاء لاعمالهم أجرا حسنا ومقاما كريما .

ينبغي أن يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن أداء مايرضي الله وانهم لا ينتفعون

الا رضاه . يعلم قراء القرآن ان الله قد جعل حب الموت علامة الايمان وامتحن الله به قلوب المعاندين ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب) الخ الآيات الاقدام فى سبيل الحق وبذل الاموال والأرواح في اعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الالهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدي وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى اعلاء كلمة الحق والعدل الالهي بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده. لا يظن ظان انه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي وبين الجبن فى قلب واحد . كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وان عماده الأخلاص لله والتخلي عن جميع ماسواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن ان الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التباطو عن أداء الفروض زيادة في الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه . المؤمن من لا ينتظر بنفسه الا احدى الحسنيين اما أن يعيش سيدا عزيزا واما أن يموت مقربا سعيداً وتصعد روحه الى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين .

من يتوهم انه يجمع بين الجبن والايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان فى شئ . كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . لهذا نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الامر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهي عن التباطئ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك وفى الظن ان العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذاك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمنا قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف واحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثرا في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر فالمؤمنون بما ورثوا عن

اسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لايحتاجون الا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقودا ويحفظو، موجود، وينالوا عند الله مقاما محمودا .

الامة وسلطة الحاكم المستبد (١)

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

ان الامة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لارادتها في منافعها العمومية وانما هي خاضعة لحاكم واحد ارادته قانون ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير فتعتورها السعادة والشقاء، ويتداولها العلم والجهل، ويتبادل عليها الغنى والفقر، ويتناوبها العز والذل، وكل ما يعرض عليها من هذه الاحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم . فان كان حاكمها عالما حازما أصيل الرأي عليّ الهمة رفيع المقصد قويم الطبع ساس الامة بسياسة العدل ورفع فيها منار العلم ومهد لها طرق اليسار والثروة وفتح لها أبوابا للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة والشهامة وإباء الضيم والانفة من الذل ورفعهم الى مكانة عليا من العزة ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير .

وان كان حاكمها جاهلا سيء الطبع سافل الهمة شرها مغتلما جبانا ضعيف الرأي أحمق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة أسقط الامة بتصرفه الى مهاوي الخسران وضرب على نواظرها غشاوات الجهل وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر وجار في سلطته عن جادة العدل وفتح أبوابا للعدوان فيتغلب

---

(١) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى بالعنوان الآتي وأخرناها لاختصارها

القوي على حقوق الضعيف ويختل النظام وتفسد الاخلاق وتخفض الكلمة ويغلب اليأس فتمتد اليها أنظار الطامعين وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الامة عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة و بقيت فيها بقية منها وأراد الله بها خيرا اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها وينقطع الامل من العلاج و بادروا الى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه وغرسوا لهم شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الامة عن هذه الدرجة وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء فانذرها بمضض العبودية وعناء الذلة ووصمة العار بين الأمم جزاء على ما فرطوا في أمورهم وما ربك بظلام للعبيد

الوهم

وكتب في فاتحة مقالة سياسية نشرت في العدد السابع عشر

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طورا يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطورا يكون ممثلا للمسرات ، حاكيا للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة وحكم على العزيمة فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا والقريب بعيدا والمأمن مخافة والموئل مهلكا الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، و يصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما والمعدوم موجودا الواهم في كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل : اذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام وتسلطت على الارادات فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة فيخبطون فى مجاهل لا يهتدون الى سبيل ولا يستقيمون على طريق اهم المراد منه

٥

مقالات جريدة ثمرات الفنون

لما كان الاستاذ الامام في بيروت كتب مقالات كثيرة في جريدة ثمرات الفنون ظفرنا منها بالمقالة الآتية وكنا نشرناها في المجلد الرابع من المنار

الانتقاد

﴿ ما وعظك مثل لائم * وما قومك مثل مقاوم ﴾

الانتقاد نفثة من الروح الالهيّ في صدور البشر تظهر في مناطقهم سوقاً للناقص الى الكمال وتنبيها يزعج الكامل عن موقفه الى طلب الغاية مما يليق به الانتقاد قاصف من اللائمة تتنفس عنه القلوب ، وتنفتق به الالسنة، لتقريع الناقصين في اعمالهم، ودفع طلاب الكمال الى منتهى ما يمكن لهم

جعل الله للحياة قواما   وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقليّ سلطان وجوده العقل فان صلح السلطان ونفذ حكمه صلح ذلك الكون، وتم امره . ان الله لم يهمل العقل من ناصر بن عزيز بن حاذقين أحدها له والثاني له وعليه أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما ألزمه الصانع من الانقباض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعجه الى الهرب ، وكل منازل العقل صعود الا أدناها فعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الادنى دنوٌّ من الكمال ، غير أن ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل منتجع الكمال الى مقام الا ويرمي بطرفه الى أبعد منه ومساقط العجز وبيئة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها أفاعي الهموم، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل كلما التفت اليه راعه هول منظرها، فتحفز

عنها ، الى منجاه منها ، ولا يزال يزجيه الخوف وتطير به الرغبة حتى يدنو من رفرف السعادة الاعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر ختارة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدري أن بها هلكتها ، وفيها منيتها ، فمثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنثور، ويغبى عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع في يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ولا يشعر بما أعد له صائده فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، وأعجله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسيبا لا يهمل ، وكالئا لا ينام، يزعج الواقف ، ويحثحث المتريث ، ويمسك الواجف ، ما سكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : إن ماتطلب أمامك . ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه ، ولا أوضع موضع الى مايضره ، الا صاح به : تعست الجدود ، وأضرعت الخدود ، فخفض من سيرك ، وقوم من سيرك ، والا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ، ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ينبث في الفؤاد ، ثم يتجلى في البيان ، على أسلة اللسان، فيقفيه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، « فطرة الله التي فطر الناس عليها » أودع فى كل ناطق بصرا بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان أبصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ، وجعل الله الناقدين أقساما فمنهم ناظر الى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة ، ويغض عن المثلبة ، ومن هذا القسم المفرطون في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيوب يروون المساآت ، ويسكتون عن الحسنات ، وفيهم الحساد ، وأهل الاحقاد ، ومنهم ناظرون بالعينين ، عارفون بالوجهين ، يذكرون للكمال نبله ، ويلزمون النقص ويله ، وهؤلاء في أعلى المنازل وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله . ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون ، ويعرفون

بما لا يعلمون ، وهم في أخس المنازل ، وليس في الناس الا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه . وما جعل الله بشرا يسلم منها ويحرم من بعضها فكأنها التي قال فيها « وان منكم الا واردها » وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى ينادي الكاملين أن يستزيدوا ، والناقصين أن يستجيدوا ،

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أي وجه كان حسابه ؟ أو لجاهل ينكر حكمة الله في تقييضه لنا ؟ أو لواهم أن يذهب الى أنه ليس من نظام الفطرة ؟ واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك وأنت غربي مثلا أن ملك الصين غدر بأحد أوليائه أو استصفى أموال رعيته أو كلفهم مالا يطيقون احتماله أو أهمل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها أو جبن عن حادث ألم به وكان يستطيع دفعه ألا ترى من قلبك امتعاضا عليه ،ومن نفسك ازدراء بعمله، وفي لسانك لهجة بلومه،وهو منك على بعد المشرقين ؛ ولئن وصلت اليك روايات عدله ورعايته حقوق بلاده وحفظه لذمامه وجدت اليه من فؤادك ميلا ، ومن رأيك لعمله استحسانا ، ومن لسانك عليه ثناء

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب ميلك عند ما تنظر في تاريخ لمن سبقك فان مثل لك النظر فضلا في سيرة ، أو خزية في جريرة ، ألست تجد من نفسك انبساطا الى فواضل الغرر ، وانقباضا عن مخازي العرر ، ثم انطلاقا الى نشر ما وجدت ثم رأيت عضدا منك لاحدهما كأنه قائم يستنصر فانت تنصره ،وتغيظا على الآخر كأنما يدعوك لعونه فانت تخذله

لاجرم أن النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين وكل نقد لحشوه لوم حتى ما كان منه قاصرا عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة فان حمد الكامل عذل للناقص على التقصير وازعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة الاعياء فكأني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا . ويا أيها المبرزون اركضوا . واحذروا الوقفة فانها بداية القهقرى : تلك أقلام الحق ، في ألسنة الخلق ، لا يصم عن نداءها الا أصم ، ولا يعمى عن انذارها ألا أبهم

علي ذلك قام النظام الانساني فلولا الانتقاد ماشب علم عن نشأته ، ولا

امتد ملك عن منبته ، أترى لو أغفل العلماء نقد الآراء وأهملوا البحث في وجوه المزاعم أكانت تتسع دائرة العلم ، وتنجلي الحقائق للفهم ، ويعلم المحق من المبطل ؟ أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقامع النقد، أكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، أو تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلا ، والنظام خللا ، تلك سنة الله في الاولين . وهي كذلك في الآخرين

فالمغبوط في حاله من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك الحازمون أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم ، بما ينبههم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نفائس الارشاد هذه عندالاولياء ، توجد عند الاعداء، بل هي عندهؤلاء أجود فانهم يرفعون للمعايب أعلاما بينة حتى لا تعود فيها شبهة لناظر وأحجي بالعقل أن لا يمج من الانتقاد شيئا حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها الحقيقة . فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح تقام في الثغور زمن السلم حذرا مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها واقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا : فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتا كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقا ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق في ثلب غيره فقد أفسد نفسه لصلاح عدوه ولله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير فلولاهم مانزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس ، :هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد فظنوا صنع الله فيه عبثا « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابعهم في صماليخهم (١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وأمره ، وضربوا

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها

بينهم وبين أهل النقد حجبا ، وأقاموا دونهم أستارا . وخيل لهم الجهل أن صممهم عنه ، يقيهم منه ، وان قبوعهم في أهب الغفلة (١) يدرأ عنهم سهام اللوائم كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأي الصائد غمس رأسه فى الماء ظنا منه أنه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم نجدهم في عمى عن شؤونهم وتخبط في أعمالهم قد لزموا خطة من الهون لو أبصر عقلهم بعض أطرافها لماتوا جزعا من هول مافيها كل ذلك وأسلات الالسن واسنة الاقلام لا تألو في تقريعهم بل وصوت الحق الصريح يناديهم من عمائق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لانفسكم لو كنتم تعلمون. وليهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم فى غفلة عن هذا بل لا يشعرون

أولئك الذين ختم الله على سمعهم وطبع على قلوبهم فمرقوا من ناموس الفطرة الالهية فهم أموات الارواح . مضطربو الاشباح . ولا تنشق عنهم قبور الخمول حتى ينشرهم الله في حياة أخرى يخضعون فيها للاحكام الكونية . ويعملون على السنن الالهية . فلينتظروا انا معهم من المنتظرين

(١) الاهب بضمتين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ أو أعم

٦

لوائح الاصلاح والتعليم الديني

اللائحة الأولى

كتبها في منفاه ببيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى سماحة شيخ الاسلام بالاستانة وذلك في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ ومنها يعلم أنه لم يأل جهداً في النصح للدولة وانها لو عملت بارشاده وصدقت أمله ورجاءه الحسن فيها لأحيت الاسلام وجددت مجده وكانت بذلك ذات سيادة اسلامية حقيقية . وهذا نص ما كتبه رضي الله عنه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لااله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوة وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه * وبعد فقد رأينا وسررنا كما سر المسلمون كافة بما نشر في جريدة الطريق من أنه صدرت الارادة السنية الى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الاسلام بأن تؤلف تحت رئاسته العلمية لجنة أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة نوري أفندي أمين الفتوى وحسني أفندي رئيس مجلس المعارف وصاحب العطوفة عبد النافع أفندي وصاحب الفضيلة خوجه اسحاق أفندي وان يناط بهذه اللجنة اصلاح جداول الدروس في المكاتب الاسلامية (١) وتقويمها حتى تكون كافلة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب . وان حضرة مولانا شيخ الاسلام وحضرات أعضاء اللجنة الكرام وان كانوا فى غنى بآرائهم القويمة ومعارفهم الواسعة عن أن يتقدم اليهم أمثالنا بالمشورة ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط ما يلوح بخواطرنا الى أولياء أمورنا مع الاعتراف بالعجز والاقرار

(١) لفظ المكتب يطلق فى البلاد العثمانية على المدرسة وان كانت عالية

بالقصور عملا بقول سيدنا علي كرم الله وجهه : « من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم ، وليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته ، يفوق أن يعان على ماحمله الله من حقه ، ولا امرؤ وان صغرته النفوس، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه »

إن من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى ان المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وانا والحمد لله على هذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت

إن للخلافة الاسلامية حصونا وأسوارا وان أحكم أسوارها مااستحكم في في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولامعقد للثقة ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين الا ما أتاهم من قبل الدين ومن ظن ان اسم الوطن ومصلحة البلادوما شا كل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم وسوقها الى الغايات المطلوبة منها فقدضل سواء السبيل

المسلمون قد نحيف الدهر نفوسهم ، وأنحت الأيام على معاقد ايمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الاخلاق ، وانتكاس في الطبائع ، وانحطاط في الانفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرتع غاية همهم أن يعيشوا الى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتنافسون في اللذات البهيمية وسواء عليهم بعد ذلك أ كانت العزة لله ورسوله وخليفته أوكانت العزة لسائد عليهم من غيرهم . وهؤلاء الهنديون وسكان ماوراء النهر وقبائل التركمان واشباهم يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ولكن عمت بها البلية حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسها هذا المرض الخبيث لولا أن تدركها قوة مولانا أمير المؤمنين خلد الله ظله

هذا الضعف الديني قدنهج لشياطين الأجانب سبل الدخول الى قلوب كثير من المسلمين واستمالة أهوائهم الى الاخذ بدسائسهم والاصاخة الى وساوسهم

فخلبوا عقول عدد غير قليل ثم انبثت دعاتهم في أطراف البلاد الاسلامية حتى العثمانية لتضليل المسلمين فلا ترى بقعة من البقاع الا فيها مدرسة للامريكانيين أو اليسوعيين أو العزارية أو الفرير أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الاوربية والمسلمون لا يستنكفون من ارسال أولادهم الى تلك المدارس طمعا في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم أو تحصيلهم بعض اللغات الاوربية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم. ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامة والجهال بل تعدى الى المعروفين بالتعصب في دينهم بل لبعض ذوي المناصب الدينية الاسلامية. وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون الي تلك المدارس الاجنبية فى سن السذاجة وغرارة الصبا والحداثة ولا يسمعون الا ما يناقض عقائد الدين الاسلامي ولا يرون الا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي بل لا يطرق أسماعهم الا مايزري على دينهم وعقائد آبائهم ويعيب عليهم التمسك بعرى الطاعة لأوليائهم ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول لانه من أساتذتهم القوام على تربيتهم باذن آبائهم ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة، فذلك أمر أعرف من أن يبين. فلا تنقضي سنو تعليمهم الا وقد خوت قلوبهم من كل عقد اسلامي وأصبحوا كفارا تحت حجاب اسم الاسلام ولا يقف الامر عند ذلك بل تعقد قلوبهم على محبة الاجانب وتجذب أهواؤهم الى مجاراتهم ويكونون طوعا لهم فيما يريدونه منهم ثم ينفثون ماتدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل فيصيرون بذلك ويلا على الامة، ورزية على الدولة، نعوذ بالله. ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم مايجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين فى العقيدة، عثمانيين في النزعة، هذا ما جلبه الجهل على الامة الاسلامية وان غائلته لمن أشد الغوائل وقد كنا نخاف أن تحل بوائقها لو لم تدفعها عزيمة مولانا أمير المؤمنين

أما المكاتب والمدارس الاسلامية فقد كانت إما خالية من التعليم الديني جملة واما مشتملة على شيء قليل منه لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات مع الجهل بالمدلولات ولهذا رأينا كثيرا

ممن قرؤا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهالا بعقائده منكبين على الشهوات وسفساف الملذات لايخشون الله فى سر ولاجهر ولا يراعون له حكما في خير ولا شر وانحط بهم ذلك الى الكاب في الكسب والانصباب على طلب التوسعة في العيش لا يلاحظون فيه حلالا أو حراما ولا طيبا أو خبيثا فاذا دعوا الى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا الى الراحة ومالوا الى الخيانة وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

وبالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم الا من عصم الله وهم قليلون ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية ويطلبون للتخلص منها أية حيلة وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم ونرى غيرهم من الامم يتسابقون الى الانتظام فى سلك جنديتهم مع أنها غير معروفة فى دينهم بل مضادة لصريح نصوصه ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم اذا دعت الاحوال الى مساعدة الدولة والانفاق على مصالح الامة ولا يبخلون بذلك على شهواتهم بعكس مانرى في سائر الامم . هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ولا يهتدون الى جامعة يلجأون اليها وتقطع ما بينهم (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولاحول ولاقوة الا بالله

هذه أحوال نذكر منها القليل والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير نذكرها مقرونة بأنفاس الاسف وصعداء الحزن لما نعلم أن الاجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم وأغلبهم شاذة ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادة ومسارعة الفساد فيهم مشهورة يحس بازديادها كل سنة عما قبلها وان عواقب ذلك لتخشى ولا حول ولاقوة الا بالله

واذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لانجد الا سببا واحدا وهو القصور فى التعليم الديني إما باهماله جملة كما هو في بعض البلاد واما بالسلوك اليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر أما الذين أُهمل فيهم التعليم الديني فجمهور العامة في كل ناحية لم يبق عندهم من الدين الا أسماء يذكرونها ولا يعتبرونها فان كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة من

نحو أنه لا اختيار للعبد في ما يفعله وانما هو مجبور في ما يصدر منه جبرا محضاً فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ولا اجترام السيئات ومثل أن رحمة الله لا تدع ذنباً حتى تشمله بالغفران قطعاً لا احتمال معه للعقاب فليفعل الانسان ما يفعل من الموبقات وليهمل ما يهمل من المفروضات فلا عقاب عليه وما شا كل ذلك مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم واستل الحمية من قلوبهم ولا منشأ له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم وغفلتهم عما أودع فى كتاب الله وسنة رسوله وأما الذين أصابو شيئاً من العلم الديني فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة وفرائض الصلاة والصيام وظنوا أن الدين منحصر في ذلك ومتى أدوا هاتين العبادتين على ما نص في كتب الفقه فقد أقاموا الدين وان هدموا كل ركن سواهما و يشتركون مع الاولين في تلك العقائد الفاسدة . ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب من المعاملات متخذا ذلك آلة للكسب وصنعة من الصنائع العادية وأولئك الاغلب من طلاب الإفتاء والقضاء ووظائف التدريس وماشا كل ذلك لا ينظرون من الدين الا من وجه ما يجلب اليهم المعيشة فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا وهؤلاء لا تختص مفاسد أعمالهم بذواتهم ولكنها تتعدى الى أخلاق العامة وأطوارهم فهذا القسم أعظم الاقسام خطرا وأشدها ضررا في العامة والخاصة وما أفراده بقليل

نعم لا ينكر أن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ماحد الكتاب واستمسكوا فى الدين بالعروة الوثقى وأضرم الدين في قلوبهم نا ر الحمية،واستفز اليقين هممهم للنصرة الملية، الا أنهم قليل والموجود منهم قد يكون خامل الذكر ،أوقاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة فى ارشاد الأمة، و بالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافيا في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ولولا مالطف الله بهذه الأمة بسر توجه مولانا الخليفة الأعظم لعجل لها من الو بال مااستحقته لسوء أعمالها ونبذها أحكام الله وراء ظهرها وانحراف قلوبها عن مقاصد ولاة أمورها الصادقين . وقد نظر مولانا أعزه الله ونصره الى عظم هذا الأمر وهول عواقبه فأصدر ارادته السامية بالنظر في وجوه تداركه . فيا للنعمة العظمى

و بالمرحمة الكبرى ، هشت لها قلوب المؤمنين ، و بشت لورود بشراها وجوه الصادقين ، وارتفعت أصوات التضرع الى الله بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين ، وتأييد دولته ، واعلاء كلمته ،

وانه بعد التأمل في الأحوال المتقدمة وهي ظاهرة مشهورة والوقوف على سببها الذي أشرنا اليه وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الاسلام وأعضاء اللجنة الكرام نعلم أن أمير المؤمنين لم يرد من اصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الاسلامية بعضها الكتب الفقهية مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء فان العلوم العملية اذا لم تبن على عقائد صحيحة وايمان صادق لاتلبث أن تضمحل ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية عن النيات وخاوية من سر الاخلاص فتكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه فلا بد أن يكون مولانا الخليفة أعز الله نصره قد أراد أن يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة و يستحكم سلطانها على العقول ثم الى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن فيكون التذكار مستحفظا لما يصل اليها منه ثم الى فن الفقه الباطني وهو ماتعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك منها كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل والمنجي كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة وسائر الفضائل و يضم الي ذلك باقي علم الحلال والحرام على ماهو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الاسلامية . ثم الى تربية تحفظ ذلك وتروض النفس على العمل بما تعلم منه . ثم يكون التعليم فى هذه الفنون المذكورة والتربية على وفق قواعدها مستندين الى الشرع الشريف بحيث تذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة وماصح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله فالمقصد بالذات علمان وهما أصلان ومجموعها ركن من الاصلاح والركن الآخر التربية بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تعمل ثم يتبعهما فن آخر يقوى على الغرض منهما وهو فن التاريخ الديني خصوصا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين

هذا اجمال ما اليه الحاجة منه العلوم الدينية الا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية وكل منها غذاء لطبقة من الناس لاقوام لحياتها الدينية والسياسية الا به

فلهذا نقسم طبقات الناس الى ثلاث ونعين لكل واحدة منها حدا من هذه الفنون

فالطبقة الأولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم · والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة فى تدبير أمر الرعية وحمايتها من ضباط العسكرية وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم · والطبقة الثالثة طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربية ولا نريد بهذا التقسيم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ثم ان الله لا يضيع أجر العاملين

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

﴿الطبقة الأولى﴾ هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادىء الكتابة والقراءة وشيء من الحساب يعلمون ذلك الى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم ثم ينصرفون الى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية والمكاتب الخيرية الاهلية فهولاء يهم الدولة منهم أن يكونوا في قياد الطاعة ان جاذبتهم أرواحهم سلموها وان استقرضتهم أموالهم بذلوها محتسبين ذلك في سبيل الله غير ساخطين ولا متكرهين ثم لا يكون لوسوسة أجنبي منفذ الى قلوبهم فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدايات تعليمهم مواقد الحمية ومعاصم الانفة الملية كما كان ذلك فى نشأة الاسلام وبداءة الخلافة العثمانية وكما هو معروف الآن عند الامم الاوروباوية مما تعلموه من أسلافنا ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا الا بعقيدة صادقة واستقامة ثابتة ومحبة خالصة ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي

أولا — كتاب مختصر في العقائد الاسلامية المتفق عليها عند أهل السنة بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الاسلامية مطلقاً مع الاستدلال عليها بالادلة الاقناعية القريبة المنال والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة ومع

الإلمام بشيء من الخلاف بيننا و بين النصارى و بيان شبههم في معتقداتهم لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يرد عليها من وساوس دعاة الانجيل المنبثين في كل قطر

ثانيا — كتاب مختصر في الحلال والحرام من الاعمال و بيان الاخلاق الخبيثة والصفات الطيبة والتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها ولا في السنة أثرها وظهر في العامة ضررها مستدلا فيه بآيات الكتاب واحاديث السنة مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الامة ولا بد أن يكون مدار الكتاب تقرير ان الانسان انما خلق ليكون عبدالله فكل شيء دون الله ورسوله مبذول

ثالثا — كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالاخلاق الكريمة والاعمال العظيمة وفداء الدين بالارواح والاموال مع الالمام بالسبب فى تسلط الاسلام على الامم في وقت قصير مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم وإثبات ان ذلك بسر الصدق في المكافحة والاتحاد في المجاهدة ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عربية ومن الترك تركية ومن غيرهم بلسانهم ان وجدوا وما يذكر فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعة فيها

التعليم الديني الوسط للطبقة المرشحة للوظائف

﴿ الطبقة الثانية ﴾ هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلوها والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها حفاظا لما استحفظوا عليه من شؤونها — الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت ، والمحكم منهم بفصل المخاصمات قابض على ميزان العدالة ناظر الى كفف النظام برجح مارجح فيه و يسقط ماسقط منه فهو يتحرى الحق و يحكم به أو يموت ، والمولى منهم آمراً فى ادارة أمور الرعية آخذ لمنظار الحذق والدراية ليستبين ما يخفى من مصالح وما يدق من مسالك أهوائها ليضبط الاعمال و يلزم الحدود و يوفر وسائل العمران فهو يقيم للدولة ما قامت به مصالح رعاياها الا أن يحول دون ذلك الموت فيموت . فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة

في مبدأ التعليم الديني يزاد لها بعد ما تقدم كتب أعلى من تلك الفنون نفسها فتوضع لهم في المدارس العالية والاعدادية على الوجه الآتي

أولا — كتاب يكون مقدمة للعلوم يحتوي على المهم في فن المنطق وأصول النظر وشيء من آداب الجدل

ثانيا — كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي مع التزام التوسط واتيان الطريق الاقرب ومجانبة الخلاف بين المذاهب الاسلامية أيضا الا أن يتوسع فيما بيننا و بين النصارى لايضاح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح وتفصيل شيء من فوائد العقائد الاسلامية فى تقويم المعيشة المدنية فضلا عن غاية السعادة الأخروية

ثالثا — كتاب يفصل فيه الحلال والحرام وأبواب الفضائل والرذائل ببيان أكمل مما في البداية وتوضيح لاسباب الاخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل وتطمئن به النفس ثم بيان الحكم لبعض الاحكام الدينية وفوائدها في الحياة البشرية مع الاستناد في هذا وفي سابقه الى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم ويكون مدار الكلام في الكتابين على ما يضرم الحمية في القلوب ويرفع النفوس الى مقام لا تطلب فيه الا معالي الأمور

رابعا — كتاب تاريخ ديني يحتوي على تفصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والفتوحات الاسلامية العظيمة في القرون المختلفة وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك والاتيان على كل هذا من وجه ديني محض فان ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط اليه سيادة الاسلام من أقطار الارض ويودع فيه من العبارات ما يحرك القلوب الى طلب المفقود فضلا عن حفظ الموجود ثم تبسط فيه أسباب التقدم الاسلامي بأدق مما كان في السابق

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من اخوانهم يكفيهم أن يتعلموا هذه الكتب بألسنة آبائهم وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ولا يلزم لغير يتهم الدينية أن يتعلموا اللسان العربي الا ما يفرض عليهم في العبادات وما

يتلونه من ذلك فلا بد من ايقافهم على حقيقة معناه بالتفسير حتى يكون كل قائل عارفاً بمدلول ما ينطق به ليترك الذكر أثرا في الفكر كما هو مطلوب الشارع وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية اذا وجدت فيهم الاوصاف التي تؤهلهم لذلك من الحمية والدقة ومحبة الدولة والوقوف عند أحكام الشرع الشريف مع التبصر في الممنوعات والمطلوبات وتمييز ما هو من الدين عما ليس منه وإن خالف أوهام العامة

التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل حتى يكونوا عرفاء الامة وهداة الملة فيناط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والاعدادية بل والابتدائية اذا كثر عددهم وبهم يناط التعليم لاهل طبقتهم فهؤلاء لا يكفي لابلاغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية بل يجب أن يزاد لهم على ما تقدم كتب كثيرة يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم ويستوسعون بها القدرة في البيان لافادة غيرهم فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد ما يكفي المسترشد ولأجل هذا نقتصر في بيان ما يحتاجون اليه على ذكر الفنون دون التعرض لاعيان الكتب الا قليلا فلتكن الفنون على الوجه الآتي ان شاء الله

أولا — فن تفسير القرآن وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الأسرار والحكمة فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم الا إرجاعهم اليه ومالم تقرع صيحته أعماق قلوبهم وتزلزل هزته رواسي طباعهم فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه فإن احتيج الى وسيلة أخرى فأولاها مطالعة كتب التفسير

الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمي النيسابوري ومن أخذ طريقهما

ثانياً – فنون اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث

ثالثاً – فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن مبيناً له مع اطراح ما يخالف نصه من الأحاديث الضعيفة والاجتهاد لإرجاع الأحاديث الصحيحة اليه ان كان ظاهرها يوهم المخالفة

رابعاً – فن الأخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ما سلك الإمام الغزلي في الإحياء مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الاصول المشهورة

خامساً – فن أصول الفقه من وجه ما يمكن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية ويوقف على كليات الشريعة ليستأنس بها في فهم الاحكام ونرى أفضل كتاب يفيد لهذا المقصد كتاب الموافقات للشيخ الشاطبي المطبوع في تونس

سادساً – فن التاريخ القديم والحديث ويدخل في ذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بالتفصيل وسير أصحابه وتاريخ الانقلابات التى عرضت في الممالك الاسلامية الاولى وتاريخ الدولة العثمانية وما كان منها في انهاض الاسلام من كبوته التى كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية مع التوفيق في أسباب ماوصلت اليه الملة في هذه الايام ليتبين أنه لا سبب لذلك الا الجهل بالدين والانحراف عن أحكامه وانشقاق عصا الامة بالخلاف الذي لا طائل له

سابعاً – فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل لغرض التمكن من تقرير المعاني في الأذهان وتثبيت العقائد في النفوس وإلزامها الأخذ بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفساف الأمور

ثامناً – فن الكلام والنظر في العقائد واختلاف المذاهب والبحث في أدلة كل لا لتحصيل العقيدة ولكن لزيادة البسطة في الفكر والسعة في الرأي ولا باس بقراءة بعض الكتب الحكمية الاسلامية لتكميل الاحاطة بوجوه المسائل العقلية

فهذا جملة ما يلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيلتي العلم والعمل ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي اذ يضطر اليه كل ساكن في الممالك العثمانية ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه أما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعيات والنظامات وكل ماحددته نظارة المعارف العثمانية فهي على رسمها كل مدرسة تتبع قانونها لا يضر شيء منها بالدين بل الدين يقويها كما أنها تقويه

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الاسلام خاصة وتكون ادارتها تحت عنايته في سلك مخصوص . ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس ادراكا وأذكاهم أخلاقا ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان . ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها وتأهله للتدريس الا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل

التدريس في جميع تلك الدرجات انما يقصد منه اشراب القلوب حب الدين وتوقيره وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين وتأييد حافظه الاعظم المدافع عن بيضته حضرة مولانا أمير المؤمنين فتكون الملة ملة مهيبة يخشى بأسها ويخاف بوائق غضبها ويؤول بالدولة الى علو الكلمة في سياستها الخارجية بعدما عادت بركاته على المسلمين في راحتهم الدخلية وبالجملة فالقصد من اصلاح الجداول انما هو الى احياء الملة وقد كانت كادت تموت والعياذ بالله

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة خصوصاً في الاخلاق والآداب أشبه شيء بالخطابة ترسل في المعاني الى القلوب لتهزها وتستفزها من مقار الخمول والغفلة الى مقامات التنبه والبصيرة ثم يتبع الدرس رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم ومؤاخذة لهم اذا خالفوا حكما من أحكام ماتعلموه ، أوتصروا

في عمل من لوازم ما اعتقدوه، وتذكيرهم في ذلك يؤثر في قلوبهم ويحرك الساكن من خواطرهم. ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم على أكمل الصفات العقلية وأفضل الاعمال النفسية يراعى فيهم ذلك بقدر الامكان

وإن ثقتنا بوعد الله في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ان الله مع الذين اتقوا) وقوله (ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون) واعتبارنا بقوله (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وخبرتنا بأحوال الامم الاوربية والاسباب التي وصلت بهم الى ما نراهم عليه في القوة والدراية كل ذلك يوجب لنا اليقين القطعي بأن اصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت الى توحيد كلمة الأسلام وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية العثمانية رغماً عن أنف كل مخاصم ومنه رأي هؤلاء العاجزين ان لا حافظ للدولة ولا واقي للملة سواه وأن جميع ما صرف في سبيله من المتاعب والنفقات فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي فانه لا سياسة الا بالقوة ولا قوة الا بالنجدة ولا نجدة الا بالوحدة ولا وحدة الا بالطاعة ولا حقيقة للطاعة الا بالعقيدة الحسنة ولا عقيدة الا بحياة الدين ولا حياة للدين الا بالتعليم حتى يجري على أحكام التجربة وليس ذلك الا ما عرضناه وان جمهور المسلمين ممن يعرف أفكارهم في الاقطار العثمانية بل وفي غيرها لا يرون دواء لدائهم الا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم وان يكونوا يجهلون الوسائل الى ذلك فالحمد لله الذي وفق الدولة حرسها الله لتقريب مرغوبهم وتحقيق أمانيهم

هذا ما نرفعه الى مقام شيخ الاسلام فان صادف قبولا فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون وان كانت الأخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ونسأل الله ان يوفق مولانا أمير المومنين وأركان دولته الى تقرير ما هو أعلى من أفكارنا وأنجح منها في اصلاحنا وإنا في جميع الاحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الاعظم وتأييده وبقائه ظلا لله ورحمة لعبيده آمين

كلام في الدعاة والمرشدين

وبقي في موضوع الإصلاح الديني كلام هو كالتتمة له فنتقدم لعرضه وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية ان لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العثمانيين فالداخل اليها قليل بالنسبة الى عدد الأهالي فان الجمهور الأعظم من سكان القرى والاعراب المتنقلين في أكناف المملكة وأشباههم لا يرون ضرورة لتعليم أولادهم ولا يقدرون التربية الحسنة حق قدرها فاصلاح جداول التعليم في المدارس لا تصيبهم فائدته بل يحرمون منها كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة ولهم وظائف من الأعمال يطالبون بأدائها والحال فيهم من الجهل ماوصفنا والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا فمن الواجب الالتفات اليهم بإصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم

وذلك لا يكون الا بترتيب دعوة تنبههم الى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم وتحملهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم ثم تخدعهم عن أطباعهم وتلين من قساوة قلوبهم ثم أنهم لو رغبوا في التعليم وكلفت الدولة بإنشاء مكاتب لتربية أبنائهم والانفاق عليها لزادت عليها النفقات مع كثرة ما يلزمها من المصاريف في ادارة شؤون المملكة فلا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والاغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ماينفق على انشاء المكاتب وعمل التعليم فيها ويؤلفوا لذلك لجانا وجماعات في كل بلد وبقعة لتدبيره والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام في المساجد والمجامع ليذكروا الناس مانسوا من دينهم ويعرفوهم ماجهلوا منه ويشربوا قلوبهم حب الدولة ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم وعلى ذلك يجب ان يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبثون بين العامة ليفقهوهم على أمور دينهم ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علما وعملا وبالجملة فلا بد أن يكونوا من أطول الناس باعا في الفنون الأدبية الشرعية وأوسعهم علما بعلل الأخلاق وأمراض النفوس وأقدرهم على

التماس منافذ القلوب للدخول اليها بما يصلحها ثم يكونوا أقوم الناس سيرة لا يخالف عملهم قولهم فيكونون مثالا للناس يحتذونه وقدوة لهم يتبعونها ثم لا بد أن يكون في كل قوم بلغتهم بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع

ومن هذا تلزم المبادرة الى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة وتوليتها قوما يحسنونها و يدرجون فيها ما يمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة و يبينون لهم مضار الفساد ويهدونهم الى سبل الرشاد كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة وهذا باب عظيم من الاصلاح اذا وجهت العناية اليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير ·

فإن سأل سائل أين الكتب التي توضع للطبقة الأولى والثانية من المتعلمين ؟ وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها ؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في ارشاد العامة وتبثهم دعاة ؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال ثم كيف شرطت فى أهل الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم مع الاتقان فيها والوصول الى حقائقها وذلك يستدعي زمناً طويلا

فالجواب: أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة الله عز وجل فى أقرب وقت يمكن متى صدر الأمر بذلك تحت نظر مولانا شيخ الاسلام · وأما الرجال الذين يعلمون في الطبقتين الأوليين وفي الثالثة أيضا والذين يليقون لوظيفة الارشاد فهم أن تعسر وجودهم فى بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي الى الكفاية منهم لبداية المشروع متى صدقت النية وخلصت الوجهة لله وللحق في البحث والاختيار وأمثال أولئك الرجال أهل الدين والاستقامة قلما يقفون بأبواب الأمراء أو يتطلبون المناصب الا اذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم فهؤلاء لا يعرفون الا بعد التفتيش عليهم ثم اذا حسنت البداية وتبعها الاجتهاد مع الاخلاص في العمل وصل الامر بتوفيق الله الى الكمال المطلوب

وأما طول الزمان فى التعليم على أهل الطبقة الثالثة فقد علمنا أن الروساء

الروحانيين من الطائفة النصرانية يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة بل وعشرين زيادة على الزمن الذى صرفوه في سائر العلوم ومن المقرر عندنا أن مايشتغلون به هو الباطل فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول على طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه حتى يتمكنوا من نصره وتأييده

وأما المصاريف فانه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين (وهم موجودون فى زوايا الخفاء يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ماأكد ثقة الناس بهم فلا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من أيدى المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل وأقل تجربة تحقق هذا الذى نقوله متى فوض الأمر لأهله فاننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب الا عن خبرة بأحوال اخواننا المسلمين وطول ممارسة لأخلاقهم والصادقون في خدمة الدين لايدركهم اليأس من اصلاحه فانه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

هذا مجمل ماحضر لخواطر العاجزين وفي التفاصيل مايطول به القول أضعافا مضاعفة فان دعينا اليه لم نتأخر عن بثه والله الهادي الى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

جمادى الثانية سنة ١٣٠٤

يقول جامع الكتاب : هذه نصيحة الرجل الذي كان يشي به أهل الفساد فى مصر للسلطان بأنه يبغض الدولة فليأتنا أحد بمثل نصحه للدولة في هذه اللائحة وفي اللائحة التالية لها .

اللائحة الثانية

في اصلاح القطر السوري قدمها الى دولة والي بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي

ارفع الى مقام دولتكم السامي ان للدولة العلية أدام الله سلطانها وعزز مكانها حقوقا ثابتة على ذمم المسلمين تتقاضاها العقيدة بعد ان قضت بها طبيعة الحياة الملية ولا هوادة بين الله و بين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة و يقوي أركانها وأقصدها بذل مايستطاع من السعي لدفع مالا يلتئم مع مصلحتها واعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم

وانني على ضعفي — والحمد لله — مسلم العقيدة عثماني المشرب وإن كنت عربي اللسان لاأجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضا أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته والخضوع لجلاله وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل مااستطعت الى ذلك سبيلا وعندي ان لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عندالله بايماني فإنما الخلافةحفاظ الاسلام ودعامة الايمان فخاذلها محادّ لله ورسوله ومن حادّ الله و رسوله فأولئك هم الظالمون فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريباً عن أهلها مفكرا في مجاري أعمالهم ومآخذ مشاربهم وضروب مذاهبهم من وجه مايتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثني على أن أعرض ماألممت به من ذلك على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علما وأرجحهم حلما وأقومهم سيرة وأشدهم حرصا على تعزيز عرش الخلافة وأصدقهم إخلاصا في خدمة أمير المؤمنين أعز الله نصره وأرفع الى عليّ نظركم مالو ألقي بين يدي سواكم لخشيت إغفاله وتوجست إهماله ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة فان كان مارجوت فذلك فضل الله وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم وإن كانت الأخرى فماهو

الا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز وقصور الفكر وكلال النظر

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام وموقعها من سائر البلاد العثمانية لا يخفى على نظر دولتكم وقد توهم بعض من تولاها من خدمة الدولة ان فى نفوس أهاليها ميلا للاستقلال وطموحا للانفساخ عن دوحة الخلافة نعوذ بالله فهذا وهم لا أساس له ولا يمس جانب الحقيقة فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل أحوالها ما يؤهلها لأقل شأن يلم بهذه الغاية وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلهم ولا هم لهم الا في استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ولو فرض أن خيالا باليا مثل هذا لاح بذهن أحد مما له صلة بالاجانب منهم فليس بخارج عن حد الاماني المستحيلة وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من تجتمع عليه الكلمة أو تنعقد على التسليم له العزائم ثم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعد الطغام السذج الذين لا مقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة لتسامحه فيها وعدم مبالاته بها وهي تدفقات لا يمكن القصد منها وطائشات كلم لا شمة للرأي فيها وهي بما يصدر عن الاطفال أشبه منها بما يكون عن الرجال ولهذا لم يكن أثرها فى أنفس العامة فوق وصول ألفاظها الى أسماعهم ثم ترد على قائليها ويحثى بها التراب في وجوههم ولكن مما يوجب الاسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه وجاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخذ أفكارهم وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الاسلامية على قيام أمثالها فى سائر الطوائف

على انه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضررا من هذا الوهم على فرض ثبوته فليس بأقل غائلة منه وذلك أن سكان هذه البلاد ينقسمون أولا الى قسمين الاول سكان جبل لبنان والثاني سكان ولايتي بيروت وسورية

حالة أهالي جبل لبنان

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عددا وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويليها طائفة الدروز ويوجد نزر يسير من أهل السنة وعدد

قليل من الشيعة وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهواهم للدولة الفرنساوية وصفاهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم والواقية لحقوقهم وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل والحكومة الفرنساوية لاتني في تمكين هذه العقيدة بتأييد الجمعيات الفرنساوية ومساعدتها على انشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنساوية واشراب المتعلمين فيها مذهب الميل الى فرنسا واخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وابعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته الا ما يعلمه بعض السياحين وطرّاق البلاد من الأجانب ثم بعد استتمام دروسهم لا يرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أوعالية في احدى دوائر الاجانب إما ترجماناً لقنصل أو كاتباً في شركة أو ماشا كل ذلك ورؤساء هذه الطائفة لامفزع لهم يلجؤن اليه الا قنصل الدولة الفرنساوية وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لابلاغ هذا الفساد حده

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند ما صار النظام قاضيا بأن متصرفه يكون كاثوليكيا وأغلب رجال حكومته من المسيحيين وأصبحت قوة البأس لا توصلهم الى المناصب كما كانت في سابق العهد واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض مابقي لهم أو ينالوا شيئا مما يخولهم النظام نيله فانحطت بذلك أحوالهم وقد كانوا ولا يزالون فئتين جنبلاطية و يزبكية فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترا وأخص علائقهم مع قنصل الانكليز واليزبكيون وهم أقرب الفئتين الى الدولة مالوا الى المشرب الفرنساوي وكرعوا منه حتى عموا غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهدا في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولا و بالذات وتربية

غيرهم ثانيا وبالتبع

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرة سذّج كأنهم في بدايات البداوة ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم الى مذهب آخر وانما يخاف على أبنائهم من ذلك وعلى كبارهم من الانقياد السياسي الى دولة الانكليز

أما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم وانما هواهم هوى جيرانهم فالمخالطون للموارنة طوع لهم والمخالطون للدروز تبع لهم وقلما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسا وانكلترا وليس بخاف ماتأتي به هذه المسابقة السياسية بعد ما ظهرت آثار مثلها في بلاد أخر والدولة أعزها الله مع ان البلاد بلادها ليس لها من بروج سياستها ويؤيد كلمتها وأمرها يتبع ميل المتصرف ان صدق في خدمتها كان لها والا صار الى غيرها والمتصرف شخص يعزل ويولى وأهل البلاد هم القوة الراسخة وبهم توزر السلطة فيهم

ولكن كل هذه المساعي الأجنبية على مايحفها من عناية المتذرعين بها تخشى عواقبها وترعد بوائقها اذا جاء المستقبل على أثر الماضي لا يعارض فيه السعي بمثله ولا تقطع الطريق على السالكين فيها أما اذا توجهت من الدولة لمحة نظر الى استقباء قلوب رعاياها اللبنانيين لها وتطهيرها من تلك الأغبان الطارئة عليها فما أيسر أن يتم لها قصدها وتذهب تلك المساعي هباء منثورا ولا سبيل الى ذلك الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم فلا بد من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثماني ولئن دعيت الى تفصيلها بذلت مافي الوسع للفكر فيها

حالة أهالي ولايتي بيروت وسورية

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيهما القرويون وأهل الحضر أما القرويون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة وهم الجمهور الأغلب ومنهم الدروز في حوران ومنهم الشيعة سكان الشقيف وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ومنهم النصيرية في لواء اللاذقية ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك ملكيين وروم ارثوذكس وبروتستانت

الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهبا واحدا في تربية أبنائها

وتهيئتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنجي غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنساوي وهؤلاء هم الموارنة والروم الملكيون يدفعون بأولادهم في المدارس الأجنبية الفرنساوية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشؤا كما ينشأ الموارنة في جبل لبنان واذا أسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت والملكيون في المدرسة البطركية بها ومنشآت أخر في أطراف البلاد فلا يضعونها الا على قواعد فرنساوية واللسان الأول فيها الفرنساوي والهوى والميل فرنساوي ومنتهى أمرهم في التحصيل على ما يدنا في الموارنة ودروس تلك المدارس التى يدعونها وطنية انما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الافرنج مما يمتنع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة وهكذا يعلمون أبناء البلاد الى أن ينتسبوا الى غير أبيهم الحقيقي وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساوي ومذهب من مذاهب الفرنساويين السياسية وما من مكتب من هذه المكاتب الا ولفرنسا مساعدة مادية وأدبية له

ومنهم البروتستانت ومشربهم انكليزي ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالهم فينشؤن فرنساويين وتارة الى مدارس أخر منهم ينشؤن على المشرب الذي نموا عليه وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير انها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك عارا عليها في أعين اخواتها من بقية الطوائف فاختارت ما يوافقها في المذهب الديني فانتسبت الى دولة الروس غير ان الروس لم يوجد لهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي (١)

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثماني على قواعد توافق حال أهل البلاد وقام بادارته رجال متبصرون حذاق في إصابة الاغراض والرمي

(١) بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا تنشىء المدارس في سورية والقدس ولبنان

اليها لبزت تربيته جميع تلك التدابير واجتثت أصول تلك المفاسد وانما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السعي استعنت بالله على بيانه

(النصيرية) قوم أجلاف أشداء يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة ولهذا كثيرا ما انتقض أولئك القوم على الحكام وشقوا عصا الطاعة وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الاجانب وبث الوساوس من المرسلين البروتستانت بما أنشأوا بينهم من المكاتب حتى انه من نحو ثلاثين سنة اشتد أمرهم في الشقاق وكان راشد باشا واليا على سورية فذهب بنفسه لإخضاعهم وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين فالتمس من الباب العالي تقرير ستين ألف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة وصدر الامر بذلك الا انه لم يجر العمل به حتى الآن ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة وهم في اللاذقية ولا مكاتب ولا تعليم . وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت الى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة بل لو اعتني بإخراجهم من مذهبهم الى الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك اذا أحكم أساس التربية فيهم وبني على قواعد الحكمة والدربة وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية والاستقامة النفسية

(الشيعة) لا يقرون بالخلافة الا للقائم المنتظر ولهذا وجد الاجانب سبيلا للدخول على قلوبهم لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفي الاسلام ولهذا لا يلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ولكن وكلاء الاجانب وشياطينهم يصورون لهم عمال الدولة في صورة مشوهة وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق مزاعم أولئك المفسدين وكثيراً ما يخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى وليس من البعيد أن تميل أفكارهم الى خلاف ما يرغبه الصادقون في محبة الدولة ولا تؤمن غائلة ذلك واستعمال الشدة في مراقبتهم لا

يزيدهم الا نفوراً ولكن ما أسهل سد تلك المنافذ على أولئك الاجانب بإنشاء معهد للتربية العثمانية بل ما أسهل تذليل شدتهم المذهبية واستصفائهم للدولة بإقامة مهذبين من أهل الافكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصلاح أخلاقهم لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائمهم لا ريب انهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول

(الدروز في حوران) لم يخف حالهم على رجال الدولة غير انه زاد في سوئها عناية الانكليز بارسال رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم حتى انهم عينوا أسقفا في القدس بمعاش ألف وخمسمائة ليرا في كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة . ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها

(المسلمون من أهل السنة) هم عماد الدولة وركنها الشديد وهم قومها الحقيقيون وفيهم عصبتها الثابتة . ومن البين ان قوائم الدولة العلية ثبتها الله مستقرة على أديم الدين لأنها دولة خلافة فعمادها في القلوب سلطان الدين فكلما قوي الدين في الافئدة ظهرت آثاره في الاعمال فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ولكل وسيلة خلف منها أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية أيدها الله

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق وهي علاقة من أمتن العلائق في طبيعتها ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ويستدعي دقة النظر وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعدما أهمل التعليم الاسلامي الصحيح وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل في اللائحة المعروضة لدولة شيخ الاسلام وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال محمد في نظر المسلم فقد تسابقوا ركبانا ورجالا متطوعين الى الجهاد المقدس في حرب سباستبول المشهورة ثم كانت حالهم أيام الحرب الاخيرة من التقاعد مالا يسر وفي هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل ما لديه للفرار من الخدمة العسكرية وان جاءت لاقدار الله حرب ذهبوا اليها كارهين بعد ان كانوا يذهبون راغبين كل هذا والجهاد من فرائض دينهم

يفيض به كتاب الله في أغلب سوره وما كان خمود الحمية في نفوسهم الا اضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين واهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر (جي دبليولتيز) مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جريدة الدالي تلغراف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين « لا بد أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان فكما أن كل دولة تخمد الافكار الدينية من نفوس رعاياها يسرع اليها العدم ويقضي عليها الزوال بحكمه ويستحيل عليها أن تدوم كذلك كل دولة لا تسند عقائد رعاياها ولا تعينهم على التمسك بها لا يتسنى لها الى النجاح سبيل » اه فهذا انكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتثبت محبتهم فما أجدرنا بالعناية بذلك والملة ملتنا والقوم قومنا

انتبه المسلمون في هذه لسوء حالهم من نيف وعشر سنين وضارعوا سائر الطوائف فشكلت منهم جمعيات خيرية كجمعية المقاصد الخيرية لتربية أبناء المسلمين واحياء العقائد الدينية في قلوبهم ووقايتهم من سطوة الاجانب على أفكارهم وجدّ أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير فساء ذلك الطوائف المسيحية فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الاسلام ولا يعرفونه فكانت العاقبة الغاء هذه الجمعيات وتحويلها الى مجالس رسمية ثم محي أثرها بالمرة والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ولم أر شيئا كان أشد على نفوس المسلمين من الغاء تلك الجمعيات فخمدت أفكارهم وتقطعت آمالهم ورجعوا الى جاهلية اما لا رغبة لهم في العلم أصلا أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الاجنبية وبعض مبادىء علوم لا تفيد في اصلاح الانفس شيئا ولكن تؤثر في افسادها

فالزاعمون انهم من رغبَة العلوم يبعثون بأبنائهم الى تلك المكاتب المسيحية فرنساوية أو ألمانية أو انكليزية أو وطنية بالاسم أجنبية بالحقيقة ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين : تحويل

العقائد الى المسيحية وإمالة المشارب الى الدول المنسوبة اليها فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها اما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد مسلمين بالاسم أو دهريين لاعقيدة لهم . ولو دعيت الى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لأوضحتها كما هي عندهم

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها حتى لا يذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم ولا ينحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه

وأول ما يلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت من صنف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم يكون التعليم بالتركية بعد ذلك ولا بد أن يجعل اللسان الفرنساوي مما يقصد تعليمه في بادىء الامر حتى يقبل الناس عليه وأن يكون في درجة لاتنقص عن مكاتب الأجانب في شيء . وثالث شروطه أن يكون أساسه على احياء الدين وحب الدولة ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص ورابع شروطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس ينحصر همه في اخذ راتبه الشهري وأن يكون حكيماً في تصرفه وفي حال يجلب ثقة الناس به والله بعد ذلك كفيل بان يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضامن لنجاح الدولة في مقصدها منه

ثم تنشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الاساس لا فرق الا بالدنو والعلو . والتربية في جميع الاحوال لا بد أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة كما هو جار في ممالك أوربا وكما كان عليه أسلافنا وان تكون الغاية منها طبع هذا الخلق في النفس حتى لا يحوله محول من فقر أو غنى أو ايثار أو حرمان أو ظلم أو عدالة وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة واصطفي له رجال من أهله وما هم بالمعدومين ولكنهم ربما يكونون غير معروفين والبحث يظهرهم

وأما أهل البداوة من الاعراب المتنقلة فى أطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ولكن مايؤسف عليه أنهم كلٌّ عليها ضررهم أكثر من نفعهم ولبعض رجال الاجانب علاقات خبيثة معهم حتى انني رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لندرا رسائل من بعض مشايخهم توددا وما ذلك الا من اهمالهم وعدم العناية بتربيتهم واذا دعيت الى وضع لائحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لا تنقص عن التركمان بالنسبة الى الروسيا بل تزيد عليها أضعافاً مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك

وربما يقال ان هذا الامر وما قبله يحتاج إلى نفقات لا فضل لها في خزينة الدولة فأجيب أن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على الفقراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولا تحتاج خزينة الدولة بعد سنين الى أن تصرف شيئاً في هذا السبيل وطريق الصواب واضح لاهله متى ثبتت العزيمة ولا أطيل القول في هذه العجالة فانما الغرض سوق ما تنبه اليه الفكر اجمالا الى ساحة الفضل والكرم والمرجو شمولي بالعفو عن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الاعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف آمين

اللائحة الثالثة

يظهر انه كتبها لاجل اقناع أولي الامر في مصر بالعناية بالتربية الدينية بعد عودته من سوريا وعفو الامير عنه وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتتحة به وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

﴿ هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر ﴾

« ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به »

اذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم فما حاجة الحاكم الى صلاحهم بأخف من حاجتهم الى صلاحه فان السلطة سلطتان جيدة ورديئة فالجيدة ما كانت على المحكومين للمحكومين والرديئة ما أخذها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت

اما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي وهو مجموع الروح والبدن فكل يستفيد من الآخر مابه بقاؤه ونماؤه . وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والجمود والجهل ونحو ذلك تحتاج الروح الى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وماشابه ذلك وماذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه

وأما السلطة الثانية فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته فصاحب السلطة صانع والمحكوم آلته في الصنع فهو كاتب مثلا والمحكومون قلمه أوهو حارث والمحكوم محراثه وكما أن الآلة لا تعمل الا بالعامل ولا يظهر أثرها الافي يده كذلك العامل لا يمكن له العمل الا بآلته . وكما يجب أن تكون اليد العاملة قادرة على ادارة الآلة يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل فان فقد أحد الأمرين امتنع العمل أونقصت ثمرته — فكل من السلطتين فى حاجة إلى صلاح المحكوم فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه كذلك يطلب

صاحب السلطة في أيّ منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث ينقاد الى كل مايحكم به وعلى الصفات التي تنساق به الى الغاية التي يذهب اليها حاكمه

اما مارسخ فى خيال بعض الشرقيين ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الاوربيين من ان صاحب السلطة قوته علوية والمحكوم طبيعته سفلية ولا نسبة بينهما الا أن الأول قاهر والثاني مقهور وأن الثاني في حاجة الى صلاح الأول ليكون به رؤفا رحيما وأن الأول لاحاجة به الى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال فذلك منشأه الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الانسانية ونظامها الفطري. ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لاتدوم لهم دولة ولايثبت لهم سلطان لتخبطهم فى سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميهم وتصرفهم فيهم على خلاف مايجب أن يصرفوهم فيه وتغافلهم عن استطلاح طباعهم بما يؤهلهم للعمل على مايريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته. فقد يكون ذلك حقاً لكنها آلة ذات شعور وارادة وماله شعور وارادة فجميع أعماله انما تكون عن شعوره وارادته فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والارادة وتفسد بفسادهما فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل الا اذا كان الشعور والارادة صالحين له، وصلاحهما بأن يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضارّ وبين النظام والاختلال ليكون مايقرره الحاكم من القوانين وأصول الادارة معروفا عند أغلب الرعية وأن تكون الارادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام. فاذا كان الشعور مختلا والارادة فاسدة كانت الاحلام طائشة والاهواء متحكمة ومداخل السوء كثيرة فويل لذي السلطة من تلك الرعية وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار وكل مايتخيله اصلاحا لهم أوله فيودعه في أصول حكومته فهو كالنقش على الماء أوالرسم فى الهواء

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لاتزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من أطرافها بالصحاري الجدبة والمياه

المالحة وليس فيها من الغابات مايعوذ به الوحشي من الحيوان فضلا عن الانسان ولذلك نرى كثيرا من أنواع الوحوش التى كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في أطرافها وتمهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولا يمكن أن يتصوروا ذلك مادام في أرضهم نبات ينبت فاذا أمحلت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين وكل قادم اليهم امتزج بهم وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم وانتسب نسبتهم فصار مصريا واحرز جميع خواص المصريين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم ان طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سريعو التقليد أذكياء الاذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم فى ديارهم من أي الوجوه فلا يبيدون من حاجة فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم

لحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آلته فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمي اليه أنظار الدول السامية المقام فى المدنية

أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض وهو ممر أهل المشرق الى المغرب وأهل المغرب الى المشرق وهو في خلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الأمم فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل هذه البلاد

الأمم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضا على التمكن في أرض مصر اوالفوز باحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لاتنقطع نفثاتها من

أولئك الأحزاب يبثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم . وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) أن يقال ان صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى اليهم كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم فلكل كلمة من هذا القبيل مكان من نفوسهم ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحيانا، غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن ثم لا يلبث أن يعود الى حاله فالله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى اليهم

يقال أن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ انه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم وأثبتهم قدما في المواطن ولا يعلم متى يوجد القائد ومن أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجد سبيلا للاندفاع ثم هم لا يقدرون النظام قدره مهما كان بالغا من الصلاح ولا يبالون به بل يعتقدون ان كل نظام حبر على ورق فلا يستطيع حاكمهم ان يثبت سلطته عليهم على أمر مكين بل هم دائما في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة الا اذا أخذوا بتربية صحيحة فهناك تنضبط أحوالهم وينشأ النظام احترامه في قلوبهم ويهتدي صاحب السلطة الى طرق تصريفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس اذا لم يكن مبعثهما الحق ينشآن عند المصريين من أمرين الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح والثاني حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصر في العواقب ومرجع الأمرين الى سوء العقيدة وظن ما ليس بواجب واجبا وظن الواجب غير واجب فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة فلا يصلحون بدنا للرأس ولا آلة لعامل لاختلال المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر وتنفذ بصيرته الى هذه الحقيقة فلهذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنا يعتد به وكل اصلاح نظامي نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء فالسلطة التي تسعى في أن تجعلهم رعية صالحة

تكون قد فتحت في نفوسهم فتحا جديدا وظفرت ببغيتها منهم ظفرا مبينا وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

اهل مصر قوم أذكياء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية للتأثر لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي ان البذرة لا تنبت في أرض الا اذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ويتنفس بهوائها والا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ولا على البذرة وصحتها وانما ألقيت على الباذر

أنفس المصريين أشربت الانقياد الى الدين حتى صار طبعا فيها فكل من طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربية التي أودعه فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ويخفق سعيه وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي الى اليوم فان المأخوذين بها لم يزدادوا الا فسادا – وان قيل ان لهم شيئا من المعلومات – فلم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لا اتكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام في مصر فان غير المسلمين فيها العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وان اختلف عنهم في الدين ، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وارشاده الى مظان الفوائد والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الاخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لان تكون بدنا لرأس أو آلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة الى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظرا في الأمور وأطهر قلبا من التعصب الجاهلي وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة وأسبق الناس الى ترقية المعاملة بين البشر وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لا يختلفون عنهم الا في بعض أحكام قليلة ولكن عرض على

الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا مربيا يأخذهم بدينهم فحرموا خيره ولم يبق عندهم الا مافيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين وليس بدين . على أنه ليس فيهم من ينكر ان القرآن كلام الله وانه ينبوع الدين ولكن ليس لهم من معاهد التربية الا جهتان المدارس الأميرية ومدرسة الازهر الدينية وليس في الجهتين مايهديهم لما يجعلهم رعية صالحة وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول مايصلحهم

من يتوجه من ذوي السلطان الى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ولا أغلب الخاصة وفي مصر فرصة لا توجد فى غيرها لمن أراد ذلك فان بلادا غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد . أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لا غير فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها في المدارس ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ولا يتعرضون لما زادعنها الا بالنفي ولا بالاثبات ويندبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على الاذهان عما وقر فيها وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ولا يجدون معارضاً لهم من أهل الدين لأنهم لايهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة وما دامت الأصول محفوظة فأنظارهم عن غيرها منصرفة وأكبر دليل على ما نقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس على ما فيه من مباينة الدين والانتهاء الى خلعه بالمرة

﴿ المدارس الاميرية ﴾

المدارس الأميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة . هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا بإشارة بعض الفرنسويين لتعليم بعض أولاد الأرنؤط والاتراك والمورلية ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج اليها في نظام الحكومة التي أسسها وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة اما

غيرها من العلوم فما كان الا وسيلة اليها ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما .
أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على بال ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف ادخل في تلك المدارس بعض المصريين جبرا وما كان يدخل مجبورا الا الذين لاقوة لهم من الفقراء وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصريين

ثم جاء خلف محمد علي من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرة حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها وزاد فيها من المعارف ماله دخل في الادارة والقضاء وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير ان جميع ماأتاه من ذلك كان صوريا ليقال ان له في حكومته مثل مالأوربا في حكوماتها ولم يكن القصد منه تربية العقول ولا تهذيب النفوس ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ولكن من الاعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة يحتاج في الوصول اليها الى بعض الفنون ومن الفقراء الذين لايجدون مايقتات به أبناؤهم فيرسلونهم الى المدارس ليستريحوا من نفقتهم ولم يكن القصد من جميع تلك الاحوال الا أن يتعلم التلميذ مايؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيا من كراسي أقلام الدواوين . اما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحاً في نفسه يحسن القيام بالعمل الذي يفوض اليه في الحكومة أوفي غيره فذلك لم يخالط عقول المعلمين ولا من ولاهم أمر التعليم فسرى ذلك من السابقين الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون مايجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته ان كان ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقي اليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح

أو فاسد ، ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار ، وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لاغير ولهذا لايكون تلامذتها في آخر الأمر الا صناعا أوناطقين ببعض الألسنة ولا ثقة فى الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم الا من كانت له فطرة سليمة وله موهبة طبيعية فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال . فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه فلايؤول ذلك بالمصريين الى أن يكونوا رعية صالحة لان تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع

﴿ المدارس الأجنبية ﴾

وأما المدارس الاجنبية على تنوعها فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين فى الاغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها ومن أرسل ولده اليها داوم نصيحته بعدم الالتفات الى ما يقوله المعلمون فيها حفظاً لاعتقاده ثم ذلك يحدث من الاضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الاخلاق ما يكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم ان لتلك المدارس الاجنبية أثراً سياسياً أو أدبياً في مصر بل قد أحدثت بعض النفرة فى قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم ولذلك تاريخ في البلاد معروف فهي ضارة بالألفة ، مبعدة للمحبة ، رغماً عما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك فلا يصح الاكتفاء بها فى التربية عن المدارس الاهلية على اختلافها .

﴿ الجامع الازهر ﴾

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة واما طمعاً فى بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ولا يزال بعضها الى اليوم ولكن مما يؤسف عليه انه لا نظام لها فى دروسها ولا يسئل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من استاذه تعود عليه بالاصلاح فى دنياه أو دينه وانما

يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ويطبق على الذهن غفلته ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع اذا كان موافقا لمبدأ التعصب الجاهلي فأغلب الاوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لافائدة فيها ولا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها

ثم ان المعروفين بالعلماء وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ويوذن لهم بالتدريس فيها هم قدوة الناس وأئمتهم مع انهم أقرب للتأثر بالأوهام والانقياد الى الوساوس من العامة وأسرع الى مشايعتها منهم وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الردي والتربية المختلفة التي لاترجع الى أصل صحيح فبقاؤهم فيماهم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها .

إصلاح مدرسة الأزهر لابد ان يكون بالتدريج في تغيير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها بحيث يقرر فيها ان كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس والا حرم الامتياز وكل استاذ يسئل عن طلبته ثم يجعل ماينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالكتب وتغيير بروغرام الدروس ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الاساتذة والتلامذة في ذلك ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لاتستلفت الأذهان الى شي خلاف المصلحة وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .

ولا بأس ان يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطا بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية ان إصلاح الأزهر لا يمكن لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أثرهم فهذا ظن فاسد لا يؤيده

دليل ولم تقض به تجربة الا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشر بن سنة عند ما أراد ادخال بعض العلوم الصناعية فيه فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء فيئس بن الاصلاح وترك الأمر الى اليوم فقد كان ذلك قبل ان تنقلب الحوادث على مصر ولم يكن بالتدريج اللائق اما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الاصلاح بمجرد التوجه اليه وما يعجز عنه من ذلك فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا فوض ذلك اليه على أن العناء فى ذلك لا يطول اذا صلحت المدارس الأميرية فان الناس لا يختارون الأزهر الا لسوء ظنهم بالمدارس أو لاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم و يصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتاتيب الأهلية

المدارس الأميرية يتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ولا يتم لها احسان النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولا الى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن فانها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الاميرية وللأزهر فان كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فسادا . وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ولكن من الوجه التعليمي واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لا من الوجه التهذيبي والثاني هو أهم مطلوب دون الأول وانما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالمعلمون فى تلك الكتاتيب يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظاً بغير معنى . واذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو الا الزائد الضارّ دون الاصل النافع وقد عرفوا بأنهم أفسد حالا من العامة . على ان الكتاتيب يرد عليها أبناء الاهالي جميعاً الا القليل ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آباؤهم فهي منابت للعامة ولكنها لا تنبت الآن الا جهلا

ولا يمكن اصلاح تلك الكتاتيب الا باصلاحهم (أي الفقهاء) واصلاحهم مرة واحدة أو إبدالهم بخير منهم متعسر ولكن اذا وجهت العناية اليهم أمكن

اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالتدريج في بضع سنين ثم ان ذلك الاصلاح يستدعي عملا يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث ان أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب فلا بد أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقدر الامكان وهو يقتضي سعياً حثيثاً وتدقيقاً شديدا وسيرا في أرض مصر أجمعها ونظرا فى كل قرية من قراها وهو ليس بعسير على الشخص الواحد فضلا عن أشخاص كثيرين متى وجهت العناية بذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التى لا يستغني عنها مصري مما يزاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعرا بأنه فى أي جمعية محكومة بأي طريقة فاذا دخل المدرسة أو الأزهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة وتعيين مايدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الخديوي وغير ذلك. وتحدد الطريقة التى يتعلم بها الفقهاء هذه الأمور القريبة من الاذهان والمكان الذي يتعلمون فيه والوقت الذي يخصص لذلك والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء و بين ادارة الاوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لا يزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة سواء نالوا ماقصدوا أم لا الا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعدّ لذلك فيرجع الولد الى أبيه أومن يقوم مقامه بعد نهاية المكتب عارفاً ببعض مبادىء العلوم التي لا يجد لها موضعاً تستعمل فيه فلا يلبث أن ينساها فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ثم انه يعود بأخلاق أشد فسادا من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ويجد في نفسه نفرة وعجزا عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله فيقضي عمره في البطالة أوما يقرب منها فتزداد أخلاقه فسادا وأفكاره اختلالا ويقف نفسه على عبادة الأوهام وخدمة الدسائس التي تنبه الى طلب

مايغير الحالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضوا نافعاً لها

وأول ما يجب لاصلاح هذه المكاتب ووضعها على أساس يفيد العامة ان يراعى في البروجرام إدخال مبادىء العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على المعاملات الجارية في البلاد فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف في المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الاموال في الاوراق والدفاتر وطرق التحصيل لاموال الحكومة ونحو ذلك ويدخل فيها فن الاوزان والمكاييل وان كانت مبادىء هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد أو على أفضل منها وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية والمشارطات المتداولة بين الاهالي حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه

ثم يضم الى ذلك تعويده على بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفلاء التلامذة ان للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة وأنهم اذا لم ينالوا الخدمة فأن لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة ثم يضاف الى البروجرام مبادىء العقائد الدينية على الاصل الصالح وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الالفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة وشيء من تاريخ البلاد وما كانت تعانيه في سابق زمنها وما صارت اليه من الراحة في هذه الاوقات وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ليعلم التلميذ انه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مستند فيما يصدر منه ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب وتشديد المراقبة عليهم في ذلك وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها البروغرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض اليه مراقبة أخلاق التلامذة وملاحظة أعمالهم فاذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعليم رجع اليه بشيء نافع ونبت فيه

الاخلاق الصالحة والافكار الحسنة وانطبع قلبه على الخير والسلامة وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ونبت في قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم في بروغرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لإقامة تلك المدارس وانما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر وغرس مبدأ الصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ما تعلموا

قلنا فيما سبق ان التربية مفقودة في تلك المدارس لا يخطر ببال أحد ان يعتني بها عناية حقيقية وانما الموجود فيها صور ورسوم تغر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح — تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة — إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية — تعليمهم الاجادة في الكتابة كلٌّ في فنه الذي يريد الوصول الى غاية التعليم فيه — تعليمهم أصول النظام العام ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدبير النيل وهو شيء غير الهندسة — وعلى هذا القياس

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم ان القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين وان فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الادلة على ذلك وهي كثيرة لا تعد حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به والائتمان على عمل يفوض اليه وكانت الأنفس مطمئنة من جهته لعلمه ان للنظام علاقة بحياته الروحانية كما له علاقة بحياته الجسدانية فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلا آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط باعمال وطنه فيكون بذلك عضوا صالحاً ويقوم بينه وبين الدسائس حجاب منيع

من الاستقامة الفكرية والخلقية حتى لو أن التلميذ بعد ذلك حمله الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة

﴿ المعلمون والمربون ، ومدرسة دار العلوم ﴾

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها ، ولم يدقق البحث في مصلحتها ، اما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر مايتصورونها كما أن كثيراً مثلي لايرون ذلك

اما أولا فلأن بلادا واسعة مثل مصر لاتعدم افرادا متفرقين في أنحائها يعرفون من الدين حقيقته، وللزمان مايلزمه، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب. وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الاطراف ليعرف الصالحين لتوليها على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل فان لم يكن الموجود بالغاً الغاية في المقصود فلا أقل من أن يكون قريباً منها — واما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي على ان في الرسم نقصاً يجب تتميمه وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر وان يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروسا لجميع ما كانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتمموه على وجه أجلى وأنفع وأضاف الى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ وقدر غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتم لدروسه فيها صالحاً لأن يكون أستاذا في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي كانت تنبغي لها ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام

فيها ولهـذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليـه تلامذة غيرها من الأخلاق والافكار لا يمتازون عنهم الا قليلا وان كانت مع ذلك أنشأت أفرادا من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة ولكنهم أقل عددا ممـا كان ينتظر

ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسـة مع انه لم يكن الغرض منها الا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لا يقيمون عليها من النظار الا جاهلا بالدين واللغـة العربية بل غير معتقد بالدين بالكلية كما فعلوا سابقاً ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية الا من يقصد تعيشهم بمرتباتهم وفيهم من لا يجوز معاشرة التلامذة له فضلا عن أخذهم العلم عنه وفيهم من لا يحسن أداء ما كلف به وليس فيهم أهل لوظيفته الا شخصان فقط والكل لا عناية له بأمر التربية ولا يهمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها ، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها ، وتعليمهم الدين على ما هو المعروف في الازهر لا يغيرون منه فاسدا ، ولا يزيدون عليه صالحا ، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلا من الكتب لا يبينون للتلامذة الغاية من تعلمها .
وليس العيب في ذلك راجعاً اليهم ولكن الى من لم يضع أصلا لسيرهم فى تعليمهم ولم يؤسس قاعدة ترجع اليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين ولم يقم على تلك القاعدة خبيرا بالبناء عليها ، عارفاً بالغاية التي توجـه المدرسة اليها ، حكيما في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتى يقيم للتربية بناء معنوياً حقيقياً يأوي اليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري ، والديني والخلقي ، ويمكن أن ينتهي أمرها الى أن تحل محل الأزهر وعند ذلك يتم توحيد التربية فى مصر ولكن يلزم لذلك أمور

(الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة فى الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينيـة وفن أصول

النظام مع تعلقه بالدين

(الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية

(الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل الى الغاية المطلوبة للمدرسة

(الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قدملأ قلبه وغمر فكره الميل الى المقصد الذي وصفت له المدرسة عالماً بالدين ولغته موثوقاً به عند العامة

(الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر

(السادس) توسيعها الى مايسع مئة تلميذ

(السابع) أن يزاد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة

(الثامن) وهو أهم مايجب — أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون

(التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم

(العاشر) أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب

(الحادي عشر) أن يكون للموظف منها في مدرسة ماسلطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطباعهم وأرقاهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيساً لمن دونه

(الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف

ثم انه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديدا ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء

﴿ نفقات الاصلاح ﴾

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ولكن اذادبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج الى زيادة على انه لواحتيج اليها لا يثقل احتمالها بعد اليقين بأن هذا الاصلاح يؤول الى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس أوآلة لعامل وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل — وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية — أفضل منه في جميع السبل فان كانوا يصرفون آلافاً

من الجنيهات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار فان التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب ان يقفوا عندها بالنسبة الى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الاصلاح في مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان في الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

شبهة من يعارض المشروع ومكانته في نفسه

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون ان هذه الطريق بعيدة النهاية لا توصل الى الغاية — كما قالوا ذلك من قبل - فنقول لهم ان الطرق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي الى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر فان لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة

ان من يزعم العجز انما يلجأ اليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه فان كانت له أدلة فليوردها ولا نعدم لها من الحقيقة دافعاً فان أبى الا العجز فربما يوجد من لو وكل اليه الأمر قام به ولم يعجز عنه والتجربة مشرق الحقيقة ان شاء الله تعالى . على انه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع وأكفل ان يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر

واني لا أزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة وأن فوائده ربما نقلت الى اقطار أخر فعادت بجزيل الخير على من نماه وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا باصلاحه على قاعدة المحبة والالفة ، لا على طائشة الاخافة والرهبة ، ويكون بذلك قد كوّن لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة ، وينصره في الفتنة ، ويعضده في ساعة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية ، وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى

سلطته وعرض نفسه لغير الزمان وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر وبيده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اه

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾

نقلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة ولا معروضة للنشر كما سبقت الاشارة بل كتبت لأجل أن تترجم وهي مع ذلك آية في البلاغة وحسن العبارة . ومن كان حديد الفهم بعيد الغوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست سماء الاعجاز أو كادت على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول ، ذلك أنه لا يرى لعقله مذهباً آخر أرجى من مذهب الامام فيها لاقناع السلطة في مثل هذه البلاد بالتربية الاسلامية التي كانت قصده في أمته مع الصدق في القول والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللائحتين قبلها تجلى له معنى « لكل مقام مقال » فغرض إمامنا في الاصلاح الديني واحد ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد بأقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة وهو ما يجعله موافقاً لمصلحتها وتلك هي الحكمة البالغة والبلاغة السابغة

ناهيك بما تومئ اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ في علوم العمران كطبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فياليت الاستاذ الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، أكثر مما كان يريد أن يعمله في حياته ، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته

٧

﴿ ما كتبه فى الصحف المصرية ؛ بعد عودته من سورية ﴾

(الرد على هانوتو)

هو الرد الذي سارت به الركبان ، وانتشر ذكره في كل مكان ، وعده له المؤبنون الغربيون والشرقيون ، وأطنب في مدحه عليه الشعراء الراثون ، وسببه ان موسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا من قبل كتب في جريدة الجرنال الباريسية مقالا في الاسلام والمسألة الاسلامية ترجمته جريدة المؤيد ونشرته بالعربية ، وكان من عادة الاستاذ الامام عليه الرضوان أن يتصفح الجرائد في الوابور بين القاهرة وعين شمس التي فيها داره غدوا ورواحاً فلما كان رائحا بعد العشاء من الأزهر وقد قرأ درس المساء فيه نظر فى المؤيد فاذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه فى الوابور والانفعال يساوره فما عتم بعد وصوله الى الدار أن شرع فى الرد على ما قرأ في فرصة تهيئة طعام العشاء وأتم المقالة الأولى بعد تناول الطعام وأرسلها الى المؤيد صباحاً فنشرت فيه . وانا ننشر مقال هانوتو قبل الرد عليه وهو

﴿ ترجمة مقال هانوتو ﴾

قد أصبحنا اليوم أزاء الاسلام والمسألة الاسلامية

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لاتجارى حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها لى آسيا بل أقرب في الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهي المدنية الآرية المسيحية ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذي اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى افريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقاباً متعاقبة ولكن كان لايزال الهلال ينتهي طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن أخرى ببلدة (فاس) فى الغرب الاقصي معانقاً بذلك الغرب كله

فى تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسوية

لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي الى أسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال في مصر وتونس وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية وعاود هذا الخاطر (نابوليون الاول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسويون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التي كانت لاتني في متابعة الغارات على القارة الأوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً

قد وصلت طلائع قواتنا الآن الى أصقاع من الصحراء تنتهي اليها كثبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لانهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً في الفيافي وبطن الجبوت وظنهم أنهم صاروا في أمنع موئل شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى (باقل) (وباماكوا) (وسيجو سيكورو) وتوغلوا في جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت فى أيديهم منذ أعوام وأكدلهم هذه الأخبار أيضاً رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانغا) و (نجاوندره) قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصمدون الانهار لتنظيم البلاد وترقية شؤونها وأن وابوراتهم في (الاصل بابور على التحريف الشائع عند الامم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الاسود المسترسل خلفها عندئذ كان يطرق الآذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رؤسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدرا مقدورا)

إذا فقد صارت (فرنسا) بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه

مقام رؤسائه الاولين وهي تدير اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارجاء التي أنشأتها في باطن القارة الافريقية هي الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من (قرطاجيين)(ورومانيين) (وعرب) من آثار المدنية التى كانت القارة الافريقية منبتاً لثمارها اليانعة

ان شعباً جمهوري المبادىء يبلغ عدد نفوسه أربعين مليونا لا مرشد له الا نفسه لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد وهو ذلك الشعب المنتشر في الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات غير التي نعنو لها ونحترمها هو الشعب الاسلامي السامي الاصل الذي يحمل اليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح وروح المدنيـة نعم ان ظروف وشروط هـذه المعضـلة نادرة ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضاً قريب منا فى (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد في الغموض والاشتباه— قريب منا في (طرابلس الغرب) التي تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام في البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسلامية في باطن القارة الافريقية — قريب منا في (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها في الأقطار الهندية وهو موجود وشائع في (آسيا) حيث لا يزال قائما في (بيت المقـدس) وناشرا أعلامه على مهد الانسانيـة ويحسب أنصاره وأشياعه فى قارات الارض القديمة بالملايين وقد انبعثت شـعبة منه في بلاد (الصين) فانتشر فيه انتشاراً هائلا حتى ذهب البعض الى القول بأن العشرين مليوناً مسلماً الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاة لله مقام الدعاة (لسا كياموني) وليس هذا بالامر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً فى الآفاق فهو الدين الوحيد

الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجاً وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ففي البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادىء السلوك في هذه الدنيا كما أن أمثالهم في القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الالوان قواعد الدين الاسلامي ثم هو أي هذا الدين قائم الدعائم ثابت الاركان في أوروبا عينها أعني في الاستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين

فى باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لا يحركون من مقاعدهم ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجيء دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين من مقيم في (الاستانة) أوفي (مراكش) في أرجاء آسيا أو اصقاع أفريقية من بدو كانوا أو حضر واقفين في أماكنهم أو سارين مع القوافل بركون مع الراكعين اذا حانت الصلاة يتوضؤن أو يتيممون بالتراب مولين وجوههم جميعاً شطر الكعبة وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رؤسهم والذين يضعون السيف واليطقان في نطاقهم أو يتلقون العلوم في مدرسة برلين الجامعة أو يدرسون علوم السياسة فى باريس فانهم يولون وجوههم شطر مكان واحد، هي الارض المقدسة، هي الارض التي تكنفها الصحراء ، هي الارض التي عاش فيها محمد، هي الارض التي تتضمن جسمه المبارك في قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هي الارض التي جاء منها الآباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة ، هي الحج الأبدي الى بيت الله الحرام . وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ولا يجدون لذة في الحياة إلا بأمل

العودة اليه ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة .
وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة بها يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يبتغونها وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه بل هي القطب الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذي يقولون عنه انه سرة العالم وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً وتقدمهم الامام مستفتحاً العبادة بقوله « باسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين فى تلك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة

ولا تظنوا ان هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به لأنه وان كانت البلاد التى تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة « بدار سلام » وانما هي « دار حرب » فانها لا تزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها

ترى في قرانا وبلادنا درويشاً فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية راويا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام انما يبذر في القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا . ان العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لا اعداد لها ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى

الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا وغاية الامر ان العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالرحاب ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم حتى إن الفقير منهم لايرى في إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة هذا عدا مايجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان أومن المرتبات المالية السنوية التي يبلغ مايدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام وهذا ما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار مانجبيه من الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لايتجاوز ضعف هذا المبلغ

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن مايرام . وما ذلك الا لان الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ولان الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قدأخذت نصيبها منهم ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما لأنها مؤسسة على مبدإ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . وقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر مذهبا خطيرا له اشياع وأنصار ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائما بها هيكل البرجيس آمون وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد في رعاية القواعد الدينية وقد لبثوا زمنا مديدا لايرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ولكن يظهر ان اخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية غير ان هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ولم يكن الامر قاصرا على وسط القارة الافريقية فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ونخشى أنها تفترسنا اذا اغمضنا الطرف

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينقادون لأوامر

سرية تناقلوها بالافواه وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح وطي أفكار المقهورين الذين اتبعتهم النكبات التي حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يدبرون هذه المقاومة ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة ففي مسألة علائقنا مع الاسلام نجد المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض وهذا مايجعل حلها صعباً ومتعذرا كما سنبينه

المسائل الاساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي في النفس الاعتقاد بوعورة المسلك في تفهمها مع أنها من الامور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة اخرى الواسطة في وقوف المخلوق بين يدي الخالق . اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى إرادته السرمدية بحيث لايحيد عما تأمره به هذه الارادة أم للانسان متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لايستمد من اختيار أسمى منه؟ وهل للانسان الذي خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق في ذاته أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التي لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل مع أن البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامي لم يكن بالامر الحديث اذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلا وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين

وغاية ماعرف منذ الاعصر السالفة الى الآن انه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المبهمة فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية في

العظمة والعلو وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن و يذهب الثاني الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة و بما أتاه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه و بث القنوط في فؤاده وتثبيط همته وايهان عزيمته بينا تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني الى ميدان الجلاد والعمل وتلقي به في غمرات التنافس الحيوي ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضي عليهم بالتجرد اذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان في الذات الالهية وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الآله بالانسان في أوصافه المادية يقضي عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو «البطل» يمكنه أن يصير فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احداهما ربانية والثانية بشرية تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف في التناقض . أما الاولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وان كانت مشتقة منه وغصناً من دوحته ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الآلهية على حين أن الديانة الثانية وهي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى أسفل الدرك وترفع الآله عنه في علاء لانهاية له»

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا في الاعتقاد الاساسي لكلتا الديانتين وهو أصل الالوهية أما المسيحي فيذهب في هذا الاصل الى الثالوث أي أن الآله الاب أوجد الآله الابن واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً و بشراً — هذا الثالوث السري المشتقة أصوله من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري و يفديه من الخطيئة التي اقترفها يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب و يتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة اذ هو يحملهم على اتيان الأعمال التي تقربهم الى الله حيث الوسائط بينهم و بين ذاته العلية موصولة في حين أن المسلمين تحملهم ديانتهم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لايتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله »

نرى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما اذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب فهما اذا متداخلتان في بعضهما من وجوه عدة ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين للذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق مباحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والاسلامي فرأى في الاسلام العدو الالد والخصم الأشد قال المسيو كيمون في كتابه (باتولوجيا الاسلام) ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاذريعاً بل هي مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء و يدمن على معاقرة الخمور ويجمح في القبائح وماقبر محمد في مكة الا عمود كهربائي يبث الجنون في رؤس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة الله الى مالانهاية والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحاني والميمانيا أو الماليخوليا وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وان الواجب ابادة خمسهم (كما يقول

أيضاً) والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر (وهذا أيضاً قوله) .... وهو حل بسيط وفيه مصلحة الجنس البشري .. أليس كذلك ؟ . ولكن قد برح عن خاطر الكاتب انه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلماً وان من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الرأي الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقي مبدأ وأسمى كعباً من الدين المسيحي قال المسيو لوازون (القس باسنت سابقاً) معترفاً ومقرا بأن الاسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحورا ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين في ذلك على مادونه أحد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كردينالا حيث قال « ان الاسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية فليس الواجب والحالة هذه قاصرا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسعى في توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ولكنهما وان افترقا متصل بعضهما ببعض وموجودان في حيز واحد وقد لوحظ كثيرا أن كل فرد من افراد موظفينا أو وكلائنا أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدئين وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لاميالة نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد باحدهما المتطرفون و بالآخر المتعصبون ولاوسط بينهما

وتلك الاميال المتماسكة التي برزت من مكامن الاعتقاد الى مجالي الفعل والتنفيذ هي التي أحدثت التناقض في اعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية

وأدت الى الشكوك والريب ونقض ما أبرم وابرم ما نقض الى غير ذلك مماجرت عليه حكومتنا ولاسيما فى البلاد الافريقية من عدم السير على وتيرة واحدة. هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا و يتضاعف خطره كل يوم اذا فكر الانسان فى انه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم اربعة أو خمسة ملايين فقط بل يسري على نصف قارة باكلها عديدة السكان وسيزداد و يتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الاهالي وابطال التجارة في الرقيق

فالمسئلة اذا خطيرة جدا ولا بد من الاعتماد على امر واحد في حلها إذ لا يكفي للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات ولذلك خيرت ان أعرضها على محك الرأي العام مبينا أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب للوصول الى نتيجة فعلية وموردا شيئا واحداهو من ألزم الاشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدها ارتباطا به

قد سبق لي وقتما تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما ان سألت — ولا زلت أكرر هذا السؤال — الحكومة أن تبحث بحثا علنيا في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلي هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

ان الراغب في الاستعمار من ابناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال فيجد نفسه في اتصال مع العربي أو بعبارة أعم مع المسلم إذ منه يشتري الارض التي يريد استنباتها ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شؤونه المعيشية فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه اكثر خطرا اذا كانت العلاقة بين الاهالي و بين الموظف أو الحاكم أو القاضي أو الضابط أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل في خصوماتهم والقيام على شؤونهم وتنفيذ قوانيننا بينهم وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيرا، ربما لا يوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر في خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع ان الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسؤلية على عواتقنا ونلنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونمعن النظر في طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومبادئ علاقاتنا مع العالم الاسلامي . ان فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون في اتصال بالمسلم وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبؤننا بما نجهله من يقين أخبارهم فهم اذا سئلوا أجابوا واذ أجابوا أفاضوا وقد كثرت الابحاث فى كل موضوع حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد في الامر الذي نحن بصدده وهو من أكثرها غموضا والتباسا فلماذا لا نستعين بالوسيلة التي تفيض علينا أنوار الحقيقة ونطرح من هذه الانوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم حتى اذا ماتم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الالسنة وتتداولها أيدي الموظفين والمستعمرين وتنشر بين الطلاب في المدارس فتمحي بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة وتزول العقبات القائمة وتقال الاقدام من العثرات وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجري على نهجها كل عامل فيعم نفعه وتجتنى ثماره وربما كان سببا في أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء في الندم والحسرة من عواقب هفوة هفوها أو زلة سقطوا فيها وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم

ولست أظن أحدا يرتاب في نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات اخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من أقوم طرقها . أشرت سابقا الى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامي ، والمسلمون في الاحوال الراهنة شاعرون شعورا قويا بايمانهم العام غير أن ادراكهم مبهم من حيث الجامعة السياسية وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية إذ ينحصر

الوطن عندهم في الاسلام . وهم يقولون ان السلطة مستمدة من الالوهية فلايجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم ولم تدخل في رؤسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التي تمكنت من أفئدتهم وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ فكان ذلك سبباً في حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على أنه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس والمحافظة على مركز الباي وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الاهلون ولم تنخدش له احساساتهم إذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها وتركت ازمة الاحكام بأيدي القواد والقضاة ولم يغير شيء من القوانين الاهلية الارضى وتصديق من الاهالي وربما كان يطلب منهم وقام باعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين وجملة القول ان انقلابا عظيما حصل بدون ان يجر وراءه ألماً أوتوجعا أوشكوى بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير ان يلحق بالدين مساس وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون ان يتألم منها الايمان المحمدي واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر

اذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه و بين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض، اذاً توجد أرض تتفلت شيأ فشيأ من مكة ومن الماضي الاسيوي . أرض نشأت فيها نشأة جديدة انبتت في قضائها وادارتها وعاداتها واخلاقها أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه

ونموذجا ينسج على منواله ألا وهي البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجة وروميه و بيزنطية والعرب وسانلويس وشارلكان فأصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان حتى تأكدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الاحقاد من الصدور رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الاراضي الخصبة والسماء الصافية الاديم التي ينزل منها على القلوب برد وسلام بلطفها ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ماتعاقب في الاقطار التونسية من المدنيات القديمة لم تندثر تماما ولم ينمح أثرها كي تهتز لاستقبالنا و يوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات سلسلة الدهر الماضي والزمن الغابر

ان مسجد القيروان الجامع شيدت عقوده على الاعمدة القديمة وبنيت كنيسة الكردينال لافيجرى الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التي عبدت فيها تانيت . وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب في هذه الارض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش فى خلال الجيل الذي نطرق الآن أبوابه للرتوع فى واسع رحابه اه

رد الاستاذ الامام

١

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدتكم نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق

بحثه السابق وشيء من تتمته انما هو دافق من غيرته على شؤون دولته يريد أن يدعو قومه الى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم أو يجاورونهم فى ممالكهم وذلك لايتم على مذهبه الا بالبحث فى طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين و به يفضل المسلمون سلطة إسلامية على سلطة فرنساوية . فان أمكن تلقيح ماعليه المسلمون بالولاء الفرنساوي وسهل الجمع بين ماوقر فى نفوسهم و بين الخضوع الاعمى لسلطان فرنسا وطاب الجوار في قلوب

الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنساوي في طبقته صح للدولة الفرنساوية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الارض والاوجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم الى قارة أخرى

ولهذا جره البحث الى النظر في أصول دين المسلمين والمضاهاة بينه و بين الدين المسيحي بل بينه و بين أديان كثيرة أشار اليها في كلامه ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما في نفوس معتقديه

اما غايته من البحث وتناوله بيده محضاء يحرك به نيران العداوة في قلوب الفرنساويين لتثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون مسيو هانوتو للأمة الفرنساوية اليوم مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة فذلك أمر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية ونلفت اليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية ويتجملون بآداب الامة الفرنساوية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنساوية

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن في أصل من أصول الدين ماحركت قلمي لذكر اسمه وكان حظي من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار — حظ الناظر في أحوال الامم وأعمال رجالها — حظ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم و يفهم ليعلم ويحكم. ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب

أما ماجاء به في التحكك بأصول الدين فهو الذي أغراه بما أكتب اليوم يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لاول وهلة أنه مقلد في التاريخ كما هو مقلد فى العقائد وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها الى ذهنه ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنساويين وهو جمهورهم

أكثر من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي والتفريق بينهما وان أحدهما قهر الآخر وان التمدن الآري هو الذي ظفر بقرنه التمدن السامي وما يشبه ذلك

ان مهد التمدن الآري ومنبت غراسه (الهند) لايزال الى اليوم على الوثنية التي يحبها مسيو هانوتو في أغلب انحائه. ولكن أهلها الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها مادامت الارض

أرضاً . ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة ولا يباح له أن يرتقي الى طبقة مافوقه الى انقضاء العالم وهو الجمهور الاغلب منهم . وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لاهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم وانه لايليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبني عقائدهم

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامي وهو لم يعرفهم الا في آخر الزمان . ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم كما لايخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذي وصل اليه الاوربيون حمل الى أوربا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية ؟

ألم يخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها وانما جاءها بمخالطة الأمم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الاقدمين وهم أساتذة الاوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو

ماهذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون؟

هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء واشهار الحرب بين الدين والعلم وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل؟ نعم !!! هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا وماهي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والاوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الامم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصعاً يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون

اني أكيل لمسيو هانوتو إجمالا باجمال والتفصيل لايجهله قومه وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت

من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الاندلس على ماجاورها وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت في أرضهم بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة

يحار القارئ لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التي جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته هو الذي قصر به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الامة الفرنساوية التي تنقاد بذكائها الى الاذكياء والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها وانما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم

ان الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان ذلك ما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنيـة الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الاديان بما يشاهد في أحوال أهلها وقت الحكم جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة فان الانجيل بين أيدينا نقرأه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصاً أن يعطوه الرداء أيضاً ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الايسر، وأن يفنوا بكليتهم في الاب ، ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني ملكوت السموات وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التي تليق برسول الهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هـذا العالم الفاني ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل مالله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل وهل رأى مثالا لذلك في المدنية الآرية التي تآخت مع الدين المسيحي؟!!

العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية انما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم والليرا عند قوم آخرين ولادخل للانجيل في شيء من ذلك

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الاميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لاول هبوطه على المنارة المشهورة وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة؛ فان كانت هذه هي المدنية الآرية التي صارعها الدين الاسلامي فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم في الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين وما كان الغربيون لينكروا فضلهم في ذلك . ومبادئ الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية في سلم الانسانية واحدة وانما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الامم يأخذ بعضها عن بعض في المدنية لا فرق عندهم بين آرى وسامي متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورة الحياة أو استكمال شأن من شؤونها وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل ،عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد والدين الآري يعنى به ما يقابله

واني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهي أن

دين التوحيد ليس ديناً سامياً بل هو دين عبراني فقط عرف به ابراهيم عليه السلام و بنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب وفينقيين وآراميين وغيرهم من الامم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعدائهم الآريين وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته اليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الانساني وسنأتي على الكلام فيها وهي المقصد من مقالتنا غداً ان شاء الله تعالى

وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله على رأيه اني ان صغرت شأن هانوتو في معارفه التاريخية فذلك لانه صغير فيها حقيقة وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير في العلم الا العلم والسلام.

٢

تحرش مسيو هانوتو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين — القدر والتوحيد أو التنزيه. و بعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديماً وانهم انقسموا إلى فريقين قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لا عمل لارادته في فعله وذاهب الى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال ان الرأي الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف والثاني يرفعه الى ذروة القوة ثم وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الازلي والثاني بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الآلهة بالانسان في أوصافه المادية وان الاول قعد بأهله والثاني ارتفع بمعتقديه الى مراتب الكمالات الانسانية !! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين أي مذهبي الناس في القدر وأن الأولى ربانية ورثت ما ترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون، وان الأولى ترقي بالانسان الى المقام الالهي ،والاخرى تنزل به الى أسفل درك حيواني، ويظهر ميل كل من الدينين ظهورا بيناً في الاصل الذي بني عليه كل منهما فأصل الأول هو إيجاد الاله

الاب للاله الابن حتى كان الهاً بشرا واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل في المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب؟ أدع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الامم وآرائهم

لم يختص الكلام في القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ولا دخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف في المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة في رأي مسيو هانوتو وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الايام ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما — أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشياع (لو يولا) وهم قدرية اختيارية ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا) أنه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب؟ لكن سمعنا بذلك فى الاديار وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا في زمن من الازمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادئ الفلسفة — ذلك المذهب الذي يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله وهو مذهب القائلين ان الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن في وجوده الى سبب . أليس هذا أدخل في باب الجبرية من اسناد كل

أم الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري الى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف وهو الكتاب المنزل بالاسلام يعيب على أهل الجبر رأيهم و ينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شيء » بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » وأثبت الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية. وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه مايخالف ذلك فانما جاء في تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسئلة اختيار العبد في أفعاله و بين اثر القدرة الالهية في أخلاق الأمم أوفي تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد في أفعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره إلا من جهل نفسه لكن ماعليه الامم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لاحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك فكان العامل الذي لايكل ، والدائب الذي لايمل ، والساهر الذي لاينام ، والجاد الذي لم يبلغ شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوما على وسادته وا كتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته قائلا : الذي كفل لي النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الاولين وكانوا أكمل الناس إيماناً باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتي العقل والاختيار وكانوا أسوة في السعي ومثلا في الدأب والكسب حتى كان من آثارهم في نشر الاسلام مايتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله

هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتفعت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الارض لم يتلمظوا بشيء من نعيم

الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالامم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها وكشفوا ما كان مستوراً عندها واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

ولكن وا أسفاه نتأت رؤوس بين المسلمين، كأنها رؤوس الشياطين، واحتملت غثاء من قش الآريين، وقذفت به في الارض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره ،

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد وخالفوا الله ورسوله في النهي عن الخوض في القدر وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً والله يقول لنبيه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التومبين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان وأخذه عن المسلمين في أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسوية » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح فنشأ الكسل بين المسلمين بفشو الجهل بأصول دينهم وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الاولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطغام

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم، واستنبتوا أرضهم، واستغزروا من الثروة، وأعدوا لفرنسا مااستطاعوا من قوة، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر، وأيقنوا في صولتهم علماً أن ليس من الموت مفر، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها، ونال ماينال القوي من الضعيف، والعزيز من الذليل، ولا نقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا، وتحول هذيانهم حكمة وعلماً،

هذا مايتعلق برأيه الضئيل في مسئلة القدر عند المسلمين أما التنزيه والتشبيه فانا نوفيه حقه في تتمة لهذا المقال ونشفق على القارىء اليوم من الاملال. والسلام »

٣

اليوم آتي على آخر القول لكسر شرة هانوتو في توثبه على الاسلام ومانعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ بالكلام في الثاني ونختم بالحديث عن الاول

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً في أحوال الأمم ونشأة العقائد وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت ولا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط تبتدىء من وثني أفريقيا وتنتهي الى بوذيي الصين وبرهمن الهند

كلما ارتقى الانسان في العلم، ولطف وجدانه بالفهم، ونفذ عقله في أسرار الكون، تمزقت دون روحه حجب المادة وانجلى له الوجود الاعلى على تفاوت كذلك في درجات الظهور والانجلاء تنتهي الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه مسيو هانوتو وأمثاله لان مالاحد له محال أن تحيط بوجوده الحدود

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم نشؤا وثنيين

ولازالت الوثنية ترق وترث بارتقائهم في العلوم وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع في محو ماغشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الاولى ومن قرأ جمهورية أفلاطون التي نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التي كانت تحول بين الامة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها

و بعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه الى الجهل بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متعددة وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الاولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد باهلها الى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره فيرونه عظيمه وحقيره سواء في النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة — الفاضل والمفضول ، والفروع والاصول، وماظهر للابصار وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة، فأي مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه في فهمه، وما أجمل في كليات علمه، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو رب العالمين وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافي الايجاد ولا في الامداد بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الالهي أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وان يستمد منها المعونة في كل شؤونه

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين أحدهما من يعتقد الالوهية في بعض الموجودات المشهودة و يقف عند ما يعتقد منها والآخر يعتقد بأن باريء الكون يظهر في بعضها

أما الاولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الأكوان فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم، وأنهم اليه يرجعون في جميع أمورهم، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ماشاؤا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ولا يزالون حيارى في شؤن حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لانها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس و يقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم، يسارعون في ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم ومن ذلك كانت ترتكب القبائح في هيا كل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل في محاريبها وتقدس الذبائح الانسانية بين يدي التماثيل الحجرية وأي درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا وأمر ذلك معروف في التاريخ ولاتزال مشاهده الى اليوم معروفة

أما الآخرون فهم أرقى درجة من اولئك فى الادراك ولكن ماذا أصابهم و يصيبهم من ذلك الاعتقاد؟ كانوا اذا فاقهم انسان في عقل أو شجاعة أو صدر منه مالا يألفون من الاعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهي فدانوا لسلطانه، واستكانوا لقهره، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم، وحق عليهم الصغار ما داموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا في استعبادهم. وكم قاست الامم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة

و يقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط. ماقدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا أنه في ملكوته، كملك في جبروته، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه، و يستصنع عمالا للتصرف فى شؤون عباده، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله، أو صدر منه مايظنونه دليلا على انه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة —منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون فاتخذوه شفيعاً لديه يلجؤن اليه في مهمات اعمالهم و يستجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه. واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا اليه زلفى »

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم في جميع شؤونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهموا انها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق و الغرب الى اليوم

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها لا ينكرها مطلع على مبادئ العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشؤا في جوها الفاسد

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالافراد في سلم الفضائل طمعا في نيل مرتبة الألوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيا أعلم . ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم انهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الالوهية ولان الالوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . أما السعي الى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

أما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين أنفسهم . ولكني أقول ان المسيحية بذلت وسعها في بداية امرها لتطهير الارض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدها وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين وانبث رجالها من الوثنيين يدعونهم الى الاله لواحد وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ولم تظهر آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها وتاريخ الامبراطور قسطنطين معروف عند اهل التاريخ وغيرهم لاحاجة الى تفصيل ما كان منه

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ظهرت المظالم وعظمت المغارم واختفى العلم وخسئ العقل وتهدمت أركان النظام واستشرى الفساد في الامم النصرانية حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما سبقه واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم وقد اشرنا الى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الها بشرا كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثرا لاحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة لهم في أن يحتذيها ، وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقا بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والاب على الرب الرحيم * وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لهم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم

اني أرفع أدبا من أن أطعن فى عقائد المسيحية في جريدة وقد أمرت أن اجادل بالتي هي أحسن . ولكني أرجع الى الكلام في الآثار التي عني هانوتو باتخاذها دليلا

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ولم ينكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصا أهل تنزيه وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الاسلام وكانت أكثر عددا وأوفر عددا وأعظم قوة وأشد بأسا فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة من هذه الملل فأعتقت الهمم وافتكت العزائم من أسرها وأخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من

شرفات الايمان على أسرار الوجود ومزقوا تلك الحجب والاوهام واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلو صداه وأبرزوه للانظار

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون فى علوم السموات والارض وصححوا الاغاليط ونقحوا القواعد وحرروا الاصول وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ومسحوا الارض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لاهل العلم في ديارنا وديار موسيو هانوتو

اني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الامم الغربية اليوم: أقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين: ومع هذا لا يعد ذلك طعنا في أصول الديانة المسيحية وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له

يظن هانوتو ان الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم في ذلك فان الاسلام افضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه — قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقي اليهما — مقام الالوهية التي تفرد بها ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان وينالها استعداده لا يحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله أو قصوره في نظره

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ولن تستطيع الى التقدم سبيلا هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ فى فهمه مسيو هانوتو فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام فى درك من الحيوانية وفي هجرة عن التوسل بالاسباب الى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه كما يجب عليه ان يطلب آثاره والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون ولو استشم مسيو (كميون) الذي استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه، ولاحاجة إلى الكلام فيه، فسخافة رأيه وقلة ادبه تكفيه

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه، وممن تعلموا الافتراس وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوهم الاوهام حتى انجروا الى مطارحهم، و باؤا بما كان لهم وما عليهم

حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم مااستفرغه (كميون)

أما لورجع المسلمون الى كتابهم، واسترجعوا باتباعه مافقدوه من آدابهم، لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ماهداهم الله اليه في تنزيله وعلى لسان نبيه ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة، وكان مايلقاه هانوتو وكميون من دين صحيح، شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى كميون أن يخلي وجه الارض من الاسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين و بئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهرا ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما

أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما ان الاسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل اسحق طيلر وهو قس شهير ورئيس في كنيسة :

« انه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والاقدام من أنصاره، »

و يأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار

دعوة المبشرين بينهم . وقال «انه يختار اسلاماً لاسكر فيه على مسيحية فيها سكر »

ثم هو لايزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته، وتنثني به الملمات الى ما كان عليه لاول نشأته، وتدرك عند ذلك الامم منه خير ما ترجو ان شاء الله

لو أسلمت الامة الفرنساوية بأسرها وفي مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها الغير الفرنساويين على مانشهده في الجزائر ومدغسكر هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها وأن لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها . كلا فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد في اهلاكهم والدأب في إفنائهم

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنساويين لايعرفون شيئاً من هذه الاركان الثلاثة ولايزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون فلينتظروا انا معهم من المنتظرين اهـ

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾

لما نشر هذا المقال انبرت جريدة الاهرام للمناقشة فيه والرد على كاتبه زاعمة انه مبني على تحريف في ترجمة مقال هانوتو ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية ان الترجمة صحيحة ومنهم صاحب جريدة اللواء . ولما اطلع موسيو جبرائيل هانوتو على ما كتب في الاهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى في جريدة (الجرنال) موضوعها الاسلام أيضا وترجمتها جريدة المؤيد في عددها (٣٠٦٦) الصادر في ٢٣ المحرم ١٣١٨ (٢١ مايو ١٩٠٠) قال فيها انه لم يرض فيما كتبه أولا النصارى لأنهم عدوه متحيزاً الى المسلمين ولا المسلمين لان أحد أئمتهم رد عليه ناسباً اليه أقوال كيمون التي احتاط في نقلها ولم يقرها ثم قال ما ترجمته « ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع باباً مفتوحاً من ذاته سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسوي أو وقف عليه من الترجمة إما انه لم يفهم مرادي وإما أن الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الامانة لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالي وكلها احترام واعتدال ومسالمة وتوفيق »

بسمارك والدين

﴿ نبذة نشرت فى العدد ٤٤ من السنة الاولى من المنار وكانت جريدة ﴾

رأيت في وقائع بسمارك التي نشرت بعد موته بقلم كاتم أسراره موسيو بوش كلاماً جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه يتعلق بالدين فاستحسنت ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شباننا الذين يعدون النسبة الى دينهم سبة والظهور بالمحافظة عليه معرَّة وليعلموا أن الايمان بالله وبالوحي الآلهي الى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر ولا ضلة عن صحيح العلم ولا عيباً في الرياسة ولا ضعفاً في السياسة

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لاصحابه « كما تنتشر هذه البقعة فى النسيج شيأ فشيأ كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في اعماق قلوب الشعب ولو لم يكن هناك أمل فى الاجر والمكافأة . ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الايمان . ذلك لما يشعر به كل أحد من ان واحدا مهيمناً يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت وان لم يكن قائده يراه ، فقال بعض المرتابين : أتظن سعادتكم أن العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس :

«ليس هذا من قبيل الملاحظات وانما هو شعور ووجدان . هو بوادر تسبق الفكر . هو ميل فى النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها . ولو أنهم لا حظوا لفقدوا ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون انني لا أفهم كيف يعيش قوم وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي واعتقاد بآله يحب الخير وحاكم ينتهي اليه الفصل في الاعمال في حياة بعد هذه الحياة » ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال

« لو نقضت عقيدتي بديني لم أخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان . اذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الارض قاطبة . لكن انظروا

اليَّ تجدوني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني وارتقيت من المناصب مالا مطمع بعده فلماذا اشتغل؟ ولِمَ أجهد نفسي في العمل؟ ولِمَ أعرضها للهموم والآلام ؟؟ لا يبعثني على شيء من هذا الا شعوري بأنني في جميع ذلك أعمل عملي لوجه الله. لو لم يكن لي ايمان بالعناية الآلهية التي قضت بأن يكون لهذه الامة الالمانية شأن كبير وأثر في الخير عظيم لطرحت لساعتي ما حملته من أثقال وظائف الحكومة. ماذا أقول؟ بل لولا ذلك الايمان لما قبلت شيأ من هذه الوظائف لان الرتب والالقاب لا بهاء لها في نظري . لولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية . لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهوريا . نعم أنا جمهوري بالفطرة يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين . من هذا يظهر أن ايماني قد بلغ من القوة أعلاها حتى حملني بقوته على ان أكون ملكيا . أسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني اعلموا انني لو لم أكن مسيحيا مخلصا لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الالماني . لو لم أكن مخلصا في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية ولو وجدتم لي في الغد خلفا يكون أخلص مني في يقينه لا نفلت من المنصب في الحال. ما أعظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون . اني أحب المعيشة في القرى والحقول أحب الآجام ومناظر الخليقة . انزعوا مني هذه الرابطة التي تصلني بالله تجدوني من الغد رجلا يأخذ أهبته للسفر الى (وارزين) ليشتغل بحراثة أرضه وتنمية غرسه . ان لم أكن خاضعا لامر آلهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه العائلة المالكية مع انها تتصل بأصل ليس بالاعلى ولا بالانبل من الاصل الذي تتصل به عشيرتي »

هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد ان عظائم أعماله انما كانت من مظاهر ايمانه وان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما الى مالم يدركه فيه مفاخر ولم يكثره مكاثر

آثار محمد علي في مصر

﴿ نشرت في الجزء الخامس من مجلد المنار الخامس ﴾

لغط الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الآثار في مصر وأهلها وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك والله أعلم ماذا بعث المادح على الاطراء، وماذا حمل القادح على الهجاء، غير انه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي . اذكر الآن شيئاً في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ماربما يندفع،

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنساوي فيها أنواع من الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الامراء يملك كل أمير منهم قسما يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد فهو حاكمهم السياسي والاداري والقضائي وسيدهم المالك لرقابهم . ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على مافي يد جاره من الامراء . فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لاينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته، وما يدفع به عن حوزته، وان يكون الجميع دائماً في استعداد إما للوثوب وإما للدفاع . ولكن الامراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

حاجة الامراء الى المال كانت تسوقهم الى ظلم رعاياهم وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم، ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة فاضطر الامراء أن يخففوا من ظلمهم وان يتخذوا لهم من الأهلين

أنصاراً يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم و بين خصومهم . أحس الأهلون بحاجة الامراء اليهم فزادوا فى الدالة على الامراء واضطروهم الى قبول مطالبهم فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الامر ان قيدوا الامراء والملوك معاً ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية وكانت البلاد متوزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها و يتصرف فيه كما يهوى وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ اعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوماً . ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه فاتخذوا بيوتاً منها أنصاراً لهم عند الحاجة وعرف هؤلاء حاجة الامراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الامر مثل مالهم أوما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى فى البلاد المصرية بيوتاً كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم

ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الامراء أن يصرف زمنه في التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما فى يده والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه فى ذلك خوفاً من تعدي أعوان خصمه عليهم فوقعت القسمة بين الأهالي ولا تزال أسماء الاقسام معروفة الى اليوم — سعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شمماً وفي العزائم قوة و يكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كونه و يعرف العالم بمكانته

جاء الجيش الفرنساوي والبلاد فى هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق وعظمت حوله القلاقل ، أخذت القوى الحيوية الكامنة فى البلاد

تظهر فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانكليزي وخرجت عساكر الفرنساويين من مصر ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر

ما الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر ان يشرق نور مدنيّة يضيء لرؤساء الاحزاب طرقهم فى سيرهم لبلوغ آمالهم وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم و بين ذلك الا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية و يرتفع الحجاب الذي أسدله الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتي أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض و يؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها و يأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها حتى ترتقي بحكم التدريج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى

ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع ان يحيي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش و بمن يستميله من الاحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش و بحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى اذا سحقت الاحزاب القوية وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الامن سبيلا لجمع السلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الاهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الاسافل و يعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يبق في البلاد الا آلات له يستعملها في جباية الاموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصير البلاد المصرية جميعها أقطاعاً واحداً له ولأولاده على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل . وصغرت نفوس الاهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها وانقلب الوطنيُّ غريبا في داره ، غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان — ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذل سامهم الاجنبي اياه ليصل الى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : أنه اطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم عني بالطب لاجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الاحيان عند ما يراد ايقاع الظلم بمتهم . وبالهندسة لأجل الريّ حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغلّ أقطاعه الكبير ،

هل تفكر يوماً في اصلاح اللغة عربية أو تركية أو أرنؤدية ؟ هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الادب ؟ هل خطر في باله أن يجعل للاهالي رأيا في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع و يستقر العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك بل كان رجال الحكومة اما من الارنؤد أو الجراكسة أو الأرمن المورلية أو ماأشبه هذه الاوشاب وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء وكانوا يحكمون بما يهوون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون وإنما يبتغون مرضاة الامير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة . أين البيوت المصرية التى كانت لهـا القدم السابقة في ادارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندهامع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة العماد، الثابتة الاوتاد ؟!.!

أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا ؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل . ووجـد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير ، والسبب فى ذلك ان محمـد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج فظهر أثر استقلال الارادة فى الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هي وأين الذين نبغوا من طلابها ؟ فان وجد أحد نابغ فهل هو من المصريين؟ عدوا إن شئتم أحياء أو أمواتاً

وجد كثير من الكتب المترجمة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والادب ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الابواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منهـا ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهـذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجـد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (الأفناء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش فهل هذا مما يحبب القوم فى العلم ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس ؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من

ملك الاطيان كما جرب غيرهم من الهواء الاصفر والموت الاحمر وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ولكن هل حبب الى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم . وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا بل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بثمرته فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التي جاءت بهم اليه .

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ أسطولاً ضخماً تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الامصار ، فهل علم المصريين حبَّ التجنّد وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب وحبب اليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها ؟ لا بل علمهم الهروب منها وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون الى الموت بعد ان كانوا يتقاطرون في أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرّر مصر لا يخرج منها الا بالموت . هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه فهي قوة خصمه . كذلك كان يعدها كل عثمانيّ في مصر او في غير مصر . ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية الى رتبة البكباشي على الاقل ؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين الا أسوأ الأثر — أثر كله شر في شر لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر الأثر العظيم عند ما جاء الانكليز لاخماد ثورة عرابي . دخل الانكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامرٌ (١) على قوم ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة

(١) الدامر هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان

في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين الى مصر وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الاولى والموت الاخير وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه

لا يستحيي بعض الأحداث من ان يقول ان محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين . أي دين كان دعامة لسلطان محمد علي ؟ دين التحصيل دين الكرباج دين من لا دين له الا ما يهواه ويريده . والا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامي الجليل؟ الا يذكرون الا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم ان الوهابية غلوا في بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وانما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني وكان معه ما كان مما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى « فائض رزنامة » لا يساوي جزءاً من الالف من ايرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الازهر مالو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد لينفي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته ان هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً باسلاً ، ومستبداً ماهراً ، لكنه كان لمصر قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره متعنا الله بخيره وحمانا من شره والسلام

بلرم — صقلية

(نشر هذا الفصل في اجزاء مجلدي المنار السادس والسابع)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

قضت المقادير أن أغير خطة سفري عن طريق مرسيليا الى طريق ايطاليا وكان لي في ذلك خطان من السير أحدهما يمر ببالرم ثم يصل الى نابولي ثم تكون الاقامة في نابولي نحو أربعة أيام و يعدو المركب بنا الى ماسينا ومنها يذهب الى الاسكندرية والآخر ينتهي عند بلرم أو « باليرم » وتكون الاقامة خمسة أيام نذهب بعدها الى ماسينا كذلك وكان بودي لو ذهبت مع الخط الاول فكنت رأيت بلدانا كثيرة وآثارا عظيمة تزيد في علمي كثيرا مما لم أعلم الى اليوم غير أن بعض أصحابي قال لي ان بلرم هي عاصمة صقلية ويوجد فيها من الآثار العربية مايهم العربي ان يراه وفيها داران للكتب لاتخلو كل منهما من كتب عربية قديمة ربما يستغرق الاطلاع عليها زمنا مثل الزمن الذي تقضي الضرورة بصرفه الى يوم السفر الى مسينا : ففضلت النزول الى بلرم ولا أذكر الآن شيئا مما لاقيت من الحمالين وغيرهم من مستقبلي المسافرين ولكن أعود اليه

بعد ان أخذت مكانا في نزل سنترال بشارع رومه خرجت لايصال بعض رسائل التوصية الى من أرسلت اليهم فلاقيت منهم ماسرني وكان أحدهم موصى بأن يسهل لي طريق زيارة المكتبة العمومية ودار المحفوظات الرسمية والتمكن من رؤية مايكون فيها فوعدني المجيء في الغد لمرافقتي الى المكتبة . ثم بعد ذلك بدأت بزيارة قصر الملك ولاحاجة بي الى وصفه فان ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب اظهار البراعة في حسن الوصف وسعة العبارة . وغاية ماأقول انه قصر أو (سراي) واسع كبير البيوت باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوروبا أو في غيرها من البلاد الشرقية والغربية مما تنفق فيه الاموال بحساب وبغير حساب ولاشيء منها من كد الملك أو الامير وانما هي من أموال الرعية وكسب

الحفاة العراة الذين لايجدون مايه يستترون ويشتهون لوأنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما انفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها - ما أنا بذاكر شيئاً من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر ولكن أذكر مارأيت فيه مما يحب الشرقي أن يطلع عليه اما لعبرة واما لفكاهة. ذهب بي حارس القصر أولا الى حيث توجد كنيسة الملك ولا حاجة الى وصفها كذلك - الا لو كان الله يحب أن تزين له معابده، وتنقش لمجده مساجده، كما يحب ذلك ملوك الارض - فوجدت في الممر الموصل اليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجرا قد كتبت عليه هذه العبارة :

« خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلية أبد الله أيامها وأيد أعلامها بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة » ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة. والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير) النرمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني. أما ميله في البناء والزينة فكان الى الرسم اليوناني. ولهذا الملك آثار كثيرة فى بلرم ويوجد كثير من المحررات العربية والصكوك مما كتب في أيامه . ويقال ان العرب كانوا في زمن النرمنديين ممتعين بحرية تامة في اقامة شعائر دينهم وتصرفهم في شؤونهم وان كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدتها الجميلة الى الكنائس التي رأى تجديدها في المدينة ويظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا النرمندي كان عند مادخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب في المدينة ولم يحتقر ماوجد من آثار العلم فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية ويساعد القائمين بعملها

رأيت في خزينة الجواهر من قصر الملك صندوقا عربيا فى طول نحو ثلثي ذراع وارتفاع ثلاثة أرباع الذراع صنع من نحو ثمان مئة سنة على مايقول الحارس وهو مغشى بالنقوش الذهبية من أجمل ماتراه عين الآن وقيمته عند الدولة خمس مئة ألف فرنك ورأيت فى أحد بيوت القصر بابا من الحديد مطليا بطلاء أصفر جميل

من أجمل مايصنع من الابواب وهو من صنع أيدي العرب أيام دولتهم.

رأيت بيتاً من بيوت القصر فيه صور نواب الملك فى عهد البربون بعد النرمنديين ومع كل نائب منهم كردينال كما كان للملوك كرادلة يصحبونهم ويشركونهم فى كثير من شؤون الملك . لذلك كان النائب عن الملك يصحبه كردينال يرجع اليه في أمور دينه وفي أعماله السياسية أيام كانت الاحكام المدنية والسياسية مما يدخل فيه رجال الدين كما نقول عندنا « المفتي أوشيخ الاسلام » في عهد الملوك الذين لاتسمح لهم أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون الى من يرجعون اليه من علماء الدين. غير أن المفتي وشيخ الاسلام انما يجيب عما يسئل عنه أو يؤدي ما كلف به. اما الكردينال فكان يبتدي المشورة ويقترح المطلب ويقيم نائب الملك على المذهب ، ويكف يده عن العمل الذي لايرضاه ، ويحمله على بسطها فيما يتوخاه ، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية فى نظام واحد لافصل فيه بين السلطتين وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل الباباوات وعمالهم من رجال الكثلكة على ارجاعه لانه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم وان كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لايدين بدينهم

كان مما قيده بعض أصدقائي في جريدة الامكنة التي يرغب فى رؤيتها محل يسمى بالدوم أي القبب فذهبت اليه واذا هو الكنيسة الكبرى التي تسمى كاتيدرال رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس في المدينة أوالولاية وهي من عظمة البناء وبهجة الزينة على ما يطول شرحه وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ما هوعليه حتى بابه الخشبي الجميل ،غاية ما في الامر انه زيدت فيه الصور والتماثيل ، وضروب أخرى من الزينة الكنيسية ويمكن للناظر ان يتفرس ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر لان رسم البناء على الطريقة العربية في عامة المساجد

زرت بعد ذلك ديرا يسمى دير سانت جواني وهو مما كان قد كتب فى جريدة الاماكن ولم أر فيه شيئا سوى أن أسفل الدير كان مسجدا فلما جاء النرمنديون حولوه الى كنيسة بناها راجار ونقل اليها هذه الاعمدة من المساجد التي خربها لما أعجبه من أعمدتها ، ثم أخذني السادن بعد ذلك الى قبة قريبة من

الكنيسة وقال لي انها على شكل عربي ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها في أماكن العبادة النصرانية سألته في ذلك فاخبرني ان الاسبانيين عند ماغلبوا على سيسيليا سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الموزاييك (زينة من أجمل ماتزين به الاماكن والادوات تصنع من قطع دقيقة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصور بها جميع ما يمكن تصويره من الرسوم والصور) وحملوا ذلك الى بلادهم وقال انهم لم يقتصروا على ذلك بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه ان يفسد شيئا من عمل من سبقه فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه :

عرفت قسيسا حلبيا معلما للعربية بمدرسة دير الكبوشيين في بلرم — وسنأتي على ذكره — فما أرشدني اليه رؤية بقية من قصر يسمى العزيزة وهو اسمه في الطليانية فذهبت معه اليه وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء بنيت على نمط ما كنا نسميه عندنا (القاعات الحرمية) حيطانها مزينة بالموزاييك من أجمل ما تحب عين أن تراه ولم يبق من القصر مكان ينظر اليه السائحون الا تلك القاعة . اما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة وقد دخل بتمامه في ملك بعض الاغنياء . والقصر من بناء الملك راجار النرمندي بناه لابنته عزيزة . وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس انها مسجد عربي فأخذنا نحوها فاذا هي في بستان كبير قد أغلق بابه وقيل لنا ان خادم البستان فيه ، وذهب ذاهب ليناديه ، وطال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف او زحوف ، جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبتها الجبة ، وكلما طردنا فوجا أقبل فوج ، أونجونا من موج علا علينا موج ، الى ان جاء رجل قيل انه هو حارس البستان وبعد قيل وقال في فتح الباب ، واحتياجه الى اذن من صاحب البستان ، رضي بالفتح ، طمعا في النفح ، فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة في فتح القبة فذللناها . القبة من قباب المشايخ التي يقيمها المسلمون على قبور الاولياء أوالامراء على خلاف ما يأمر به الدين وأظن أنها على قبر من هذه القبور وليس فيها من أثر عربي سوي شكلها هذا

كنيسة موريالي ، وتساهل العرب ، وأين هم اليوم

مما رأيته فى بلرم (صقلية) كنيسة مور يالي وجميع سقفها والاغلب من جدارنها مغشى بالموزاييك ألوانا واشكالا من ابهى ما يبهج الناظر وأجمل مايسرح فيه الخاطر وفي ناحية منها قبة تعرف بمعبد الصليب فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنه الوصف . وأهم ما يذكر فى شأنها أنها مبنية في القرن السادس من التاريخ المسيحي فيكون لها نحو الف وثلاث مئة سنة والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد لم يجرأ السوس على قرض شيء منها ببركة العناية والاهتمام بالتنظيف ،وأما ما يقول به بعض الحذاق في معرفة طبائع هذه الهوام الدقيقة من انها تعرف الصليب وماخصص له من الادوات وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التي صورت في تلك الاخشاب وانها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية فلا يباح لهـا قرض الخشب المسيحي ، ثم ان اعتقادها بحرمة القرض ، حملها على العمل فخالفت شهوة الاكل قياما بالفرض ، : فلا أظنه في غاية الصحة بل ولافي أولها كذلك . ويقال ان الكنيسة من بناء الملك كيليولمو الثاني وقبره فيها صندوق من حجر فيه جثته

ومن ذلك تعرف ان العرب رحمهم الله لم يمسوا هـذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم وامتداد ملكهم فى سيسيليا ، وتلمح من هـذا أن العرب ـ وان فسق كثير منهم عن أمر ربهم ـ فروح الدين الاسلامي كانت تنوس في كثير من أعمالهم ، نهى الدين عن هدم الكنائس اذا لم تكن مربضاً لشر يخشى خطره على الدولة فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم ولم يصنعوا بها ما صنع غيرهم ممن جاء بعدهم ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويخرب معابدهم فحيا الله أيامهم . لاجرم ان الاسلام عربي وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده بعد فهم حقيقته هم العرب فأين هم ؟ يمكن ان يقول قائل : أنهم في جزيرة العرب أوفي الشام أوفي العراق أوفي مصر أوفي تونس والجزائر أوفي المغرب الاقصى أفلم يكفك كل هذا العدد، في أكثر من الف بلد، حتى تقول أين هم ؟ ولكني أقول له انمـا يكون القوم أولئك القوم اذا بقيت لهم أخلاقهم وحيـاة

أرواحهم فان كان لم يبق الا الأشباح تشبه أشباحهم فليسوا بهم فلي الحق ان أقول عن العرب فأين هم ؟

﴿ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم ﴾

(وفيه بحث الدعوة الى الدين واحياء اللغة)

للكبوشيين دير في بلرم فيه معبد ومدرسة ومقبرتان . أما المعبد فهو المعبد لا يحتاج الى الكلام عليه ولا يختلف عن غيره من المعابد واما المدرسة فهي لتعليم اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج اليها المرسلون الذين يكلفون بالدعوة الى الدين المسيحي والتبشير بالانجيل ونشر ما تقتضي الغيرة الدينية نشره في الاقطار النائية كبلاد العرب والترك والفرس وغيرها . ومما يعلم فيها اللغة العربية واستاذها الراهب جبرائيل ماريا الكبوشي وهو من حلب وتعلم العربية في بيروت واخبرني أن من أساتذته صديقنا الشيخ سعيد الشرتوني صاحب (أقرب الموارد) في اللغة . لاقيت ذلك الراهب وحادثته في شأنه والزمن الذي قضاه في أيطاليا والداعي الى الاقامة فيها فتبين لي انه جاء اليها ليخدم دينه هذه الخدمة – تعليم اللغة العربية لنشر الدين في بلاد العرب مثلا وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الامكان فحمدت منه ذلك . كأنه اعتقد انه أنما تعلم العربية لينتفع بها في منطقه وان كان في بلاد ايطاليا وعمل بما اعتقد وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالحلبية كما يكلمني البيروتي بالبيروتية والتونسي بالتونسية ولا يبالي أ كنت أفهم أم لا أفهم كما لا يبالي الكثير ممن ذكرناهم .

وفي هذه المدرسة تعلم العلوم اللاهوتيه كذلك للغاية التي ذكرناها ولا حاجة الى ذكر ما فيها من العلوم فان ما نحتاج اليه للبراعة في نشر الدين والدعوة اليه معروف عند من يعرف ما هو الدين و يتصور معنى الدعوة اليه . أما من لا يعرف ذلك فلا نكتب له حرفا واحدا من هذا الكلام فان قال قائل : فلمن تكتب ما تكتب ؟ قلت ان فقد الفاهم فانني احفظه لنفسي والسلام . هل خطر ببالنا – وكل منا يدعي الغيرة على دينه و يرى انه الحق الذي يجب على الناس كافة أن يخلصوا أرواحهم باعتقاده والاخذ باصوله – أن ننشيء فرعا من فروع التعليم لنشر الدين

وتقويم أصوله بين أهله فضلا عن نشره بين من ليسوا من أهله ؟ أريد من أهله أولئك الذين لبسوا رداءه واعترفوا ان الدين دينهم سواء عرفوه حق معرفته وهم في غنى عن الدعوة اليه أوجهلوه وانحرفوا عن طريقه وهم أحوج الناس الى الارشاد وأشدهم افتقارا الى من يحول اليه نظرهم ويعطف عليه اختيارهم ؟ هل مر ببالنا ان نهيء لهـذا الفرع من التعليم ما يلزم له من فنون وأساتذة لتلك الفنون كما يهيء هؤلاء ما يبيثون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم الى دينهم ؟ ما كان أحوجنا الى انشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف بارشاد من يسيء الى الدين باسم الدين ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه الى الدين ؟

ألا يحق لنا أن نطلب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية الى أسمى المنازل ان يفكروا في هذا الامر ويقوموا بما يجب عليهم منه ان لم يكن لمصلحة الدين فلمصلحة أنفسهم فان في تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم وفي تبصير العامة بشؤون الدين تمكينا لحرمتهم في نفوس الدهماء وتسجيلا لسيادتهم عليها؟ أليس لنا على ضعفنا أن نذكرهم بالامر الالهي القارع للقلوب المزعج للهمم في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخ فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب ولا يخشوا ان يكون التصامّ عنه بمنزلة الخروج من مدلول كاف الخطاب ومشعرا بأنهم ليسوا من أولئك الذين خوطبوا به ؟ ؟ لنا بل علينا أن نطالبهم بذلك وأن نزيد عليه مطالبتهم بالنظر في انشاء فرع لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الامم ان كانوا يعتقدون ان دينهم هو الحق فان السكوت عن الدعوة الى الحق رضاء بالباطل . أولئك الملوك والامراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم واخضاع رعاياهم لسلطانهم مثل فضل الدين، لم لا يقتطعون شيأ من مالهم وقطعا من زمانهم ينفقونها في الاشتغال باحياء روح الدين ، ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها أو جلها لا يعرفه الدين ، ؟ أفلا يجب عليهم ان يسعوا في زيادة تمكين قوتهم ، وتعزيز سلطتهم ، ؟ اللهم الا اذا ظن هؤلاء وأولئك ان الدين حيوان يمشي على رجلين يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة اليه ، ويغدو الى مرعاه من النفوس متى

اشتد الجوع عليه ، فاذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات فانما اثمه على نفسه لا عليهم ،

ربما يقول قائل : ولم تستبعد هذا الظن منهم فتعبر في جانبه بكلمة « الوهم » وهم قد يزعمون انهم من أهل السنة وربما طلبوا الدخول في أبواب حماة السنة بهذا الظن الذي تستبعده وما عليهم في ذلك الا ان يقولوا نحن سنيون لا نقول باستحالة شيء ، ولخرنا أن نجوز المحال ونذهب الى جواز تجسم المعاني ونعتقد ان الاعمال والعقائد وهي معان نفسية وحركات بدنية يمكن ان تنقلب اشخاصا حيوانات تمشي، وأناسي تتكلم، أليست هذه العقيدة هي مطيتنا الى الجنة ؟ فليكن الدين رجلا عاقلا أوميكروبا متنقلا مفيدا لا قاتلا ، يفعل لنفسه ما كان فاعلا ، ويدعنا نتمتع بالنسبة اليه، وان لم يكن لنا عطف عليه : فنجيب القائل بانهم مغرورون وان السنة بريئة مما يزعمون، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون

خرج بنا الكلام عما نحن بصدده . هذا الراهب استاذ العربية في الدير وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية من الصرف والنحو للايطاليين - يضع القاعدة العربية ثم يفسرها باللغة الايطالية بأسلوب يسهل معه تناولها بقدر الامكان وقد رأيت من تلامذة الراهب من يحسن قراءة العربية وان كان لا يحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق وما أحوج كل عربي الى تعلم ما يحتاج اليه من لغته : لكن ما اشق العمل وما أوعر الطريق وما أكثر العقبات في طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه !! يفني عمره وهو لا يزال يضرب برجليه في أول الطريق أفلا نشعر بالحاجة الى تقريب المطاب وتيسير المذهب في تحصيل ما تدعو اليه الحاجة من لغتنا حتى نستطيع فهم ما أودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد في أنفسنا ونحب ان نسوقه الى بني لغتنا على وجه صحيح ؟ وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟

أما المقبرتان فاحداهما في بناء متسع الارجاء تحت الارض ينزل اليه بسلم وفيه نوافذ يأتي اليه منها الضياء وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتى فمن الجثث

ماهو في صناديق مقفلة من الخشب أو الحجر أو البرنز ومن ذلك جثة موسيو كرسبي رئيس الوزارة الايطاليـة السابق فانه في ذلك المحل في صـندوق مغلق ومنها ما وضع في صناديق من البلور بحيث تظهر الجثة للرائي من داخل الصندوق على الهيأة التي كانت عليها عند الموت · وقد يوجد في الصـندوق الواحد عدة أشخاص بادية هيا كلهم، ظاهرة وجوههم ، على أتم مايحزن له قلب وتعتبر به نفس وهذان القسمان من الاموات انما ينالون حظوة الاستيداع في هذا المكان اذا كانوا من الاغنياء الذين يتمكنون ان يدفعوا الى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة · وهناك قسم آخر وهو جثث محنطة قائمة في جوانب المـكان عليها ثيابها في الحالة التي كانت عليها عند موتها وهي جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون ان يودعوا في هذا المـكان ليسعدوا ببركته ولهم هيئات تنقبض لها النفس ويضيق بها الصدر ولاحاجة بنا الى تعداد ذلك ويكفي القارىء ان يتصور ميتا في أشد ماتكره النفس مما يصوره الموت في البدن

واما المقبرة الاخرى فهي كسائر المقابر على ظهر الارض وان كان الاموات في بطنها وهي من أجمل الاماكن وأنظفها والقبور فيها نظيفة البناء بهجة الظاهر · وقد غرس في المقبرة أشجار السرو بنظام بديع وقيـل لنا ان الذين يدفنون فيها هم الامراء والاغنياء اما الفقراء فلهم مقبرة تليق بفقرهم في مكان آخر · وكأنه قضي عليهم بأن لا يساووا الاغنياء حتى في الموت مع أن الموت قـد سوى بين الاغنياء وبين أدنى طبقة من الاحياء بل جعلهم طعمة لا قذر الديدان ، كما جعل ذلك حظ أمثالهم من سائر الحيوان ،

قيل ان الحكومة بعد ان استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الاولى على تلك الطريقة وأمرت أن لا يدفن الميت الا في المقابر المعتادة كهذه المقبرة الثانية ونحوها وانما حفظت الحق في الاستيداع في المعابد للبابا والملك دون سائر الناس فهما وحدهما توضع جثتهما في صندوق وتودع في الكنيسة وقـد أحسنت الحـكومة في ذلك فان من كان محجبا بعظمته عن الناس في حياته ،يجب ان يكون عبرة لعامتهم بعد ممـاته

﴿ المكتبة العمومية، ودار المحفوظات ﴾

أما المكتبة العمومية فقد جاءني من أوصي بصحبتي — و بثقل عليّ ذكر اسمه لطوله — فذهبت معه الى تلك المكتبة وهو أخو مديرها وله احترام في نفوس خدمتها وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية فسألته أن يطلب لي فهرس الكتب العربية إن كانت فطلب ذلك فبدت حركة شديدة في الخدمة وكثر الداخل والخارج، والذاهب والآئب، ولغطت الألسن، وارتفعت الأيدي بالإشارات، وطال الزمن نحو ربع ساعة، كل ذلك وأنا لا أفهم أسباب هذا الاضطراب. وآخر الامر جيء إلي بدفتر صغير جداً يحتوي على نحو خمسين صفحة وكانت تلك الضوضاء البحث عنه وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذي يعرف مقره والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته . ولم يرعني عند تصفحه الا كثرة مافيه من كتب الأدعية والصلوات كأنه فهرس خزانة لشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية ، أو مكتبة السادات البكرية ، قدس الله أرواحهم جميعاً وانما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه وكتاباً في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الا أنه لا يمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة لان خطوطاً قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الاصلية وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه فعجبت لذلك وسألت عن السبب فقيل لي ان قسيساً من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة و يطلب الكتاب بحجة انه يريد قراءته وكان يعرف العربيـة حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة ما فيه وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف وزور كتباً كثيرة أفسدها . وقـد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين فى رواية ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخرى . أما القطعة من شرح ابن رشـد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم

والكتاب الفرد الكامل الذى رأيتـه في المكتبة هو كتاب النخل لابي حاتم السجستاني وهو صـغير في نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح .

قرأت منه عدة صفحات ونقلت منــه عدة فقرات في تفسير قوله تعالى «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين باذن ربها» الخ . ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله : ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل وليس في بلاد الشرك منه شيء : فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعــده عن صحة الحكم في طبائع العمران وان كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة . والكتاب مفيــد في اللغة وهو بخط مشرقي تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٤ وقد بلغنا أنه طبع في المانيا وكان الاجدر به أن يطبع في مصر ولعل ذلك يكون ان شاء الله متى ساوى المصريون أهل ألمانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها .

***

ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدفترخانة) عندنا الا أنها لم تبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فعل بالدفترخانة المصرية بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون لا يفرط في ورقة واحــدة منها . وقد طبعت الدولة مافي الاوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغيره من الالسن الشرقية حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب فى تلك الاوراق ويتيسر له بعد ذلك قراءتها فى أصولها خصوصاً اذا كان غير متعود على قراءة الخطوط العربية المختلفة فاذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك فى الخطوط المكتوبة على أوراق البردي وغيرها مما كتب بالكوفية أو النسخ القديم أو ماعفى بعضه القــدم لتتم فائدة حفظ هذه الاوراق والانتفاع بها ان شاء الله

من العادة في المكاتب وديار حفظ الاوراق ان يجعل لها دفاتر يكتب فيها الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة وهي عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المكتبة العمومية في بلرم فلم يحفلوا بهذه العادة واكتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع امضائي عليها كما

فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا لكن عمال دار محفوظات الدولة راموا ان نجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدفتر فلم يجدوه فجدوا فى البحث والتنقيب وأخذت الاصوات تتقاذف ، والاشارات تنمو وتتزايد ، على نحو ما فعل عمال المكتبة العمومية ، في اكتشاف فهرس الكتب العربية ، وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر فحبست مدة حتى يسر الله ووجد الدفتر ووضعت إمضائي فيه . وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب فى العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين: إما قلة الزائرين لهذه الاماكن العلمية من الاجانب وطلاب النظر فى الآثار العربية وقلة الدارسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها واما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار وقد يتيسر لك الجمع بين الامرين ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ما وقع في مكتبتي بلرم

(حاجة السائح الى معرفة اللغات وأيها أنفع)

ومن الامور التي لا أجد بداً من نقدها أن موظفي هاته المكاتب لا يعرفون من اللغات الا الايطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه ان يؤدي بها مراده وكان رفيقي يترجم بيني و بينهم عند ما كان معي في المكتبة العمومية لكني بعد انصرافه وقعت في وحشة يزيدها لزم الصمت وعدم الفائدة في الكلام وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ولا يوجد السبيل اليه الا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك ان الاشارة انما تصلح للافادة والاستفادة من الاخرس اذا كنت والدة له على ما في المثل « أم الاخرس أعرف بلغته » فلا بد من التعود على ضرب من الاشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام . ولهذا لم يمكني ان أستفيد شيئاً فيما ينبغي ان يصنع لاستنساخ شيء من الكتب العربية كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلا . و بعد طول الكلام بفرنسية لا يفهمونها وإيطالية لا أفهمها انصرفت وأنا من الجهل على مثل ما دخلت به لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقاة من أمكنه فهم ما أقول وأمكنني فهم ما يقول من أهل المدينة

يناسب في هذا المحل ذكر ما يقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية يسهل عليه السفر في جميع بلاد أوربا و يتيسر له الفهم والافهام لانها لغة عامة لاتجد نزلا ولا مكانا يرغب في زيارته الا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد. وقد رأيت ان هذا القول اضمحلت صحته في مكانب بلرم ولم ألق مايقوي صحته فى مكتبة مسينا والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الاجنبية ولا ينبغي ان تخلو منهم لمسيس الحاجة اليهم · وقد بت ليلة في لوندرا ونزلت في أكبر نزل فيها يسمى (كبرافنور اوتيل) فيه مايزيد على ست مئة بيت للنوم ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية الا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام · أما خدمة أماكن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحـدة والحاجة اليهم أشد فان المطالب الخاصة جميعها منوطة بهـم أو بهن · اذا طلبت ماء أو لبنا أو قهوة أو تهيئة حمام أو نقل متاع من مكان الى مكان أو تصحيح منكسر أو كسر صحيح لم تجد من تطالبه الا أولئك الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية ، غير أنهم لتعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرس صاروا أو صرن كوالدة الاخرس يسهل عليهم أو عليهن فهم الاشارات بدون إتعاب شديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالاشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية) لكن لا يخفى عليك ان من المطالب مالا تعبر عنه الاشارة فماذا تصنع اذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية وعرض لك مثل هذا الطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغـة الانكليزية ؟ لا يسعك الا الاقرار بأن ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لا تصلح ان تكون مقدمة من مقدمات البرهان المعدودة في فن المنطق

أزيدك شيئا في هـذا وهو انك اذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم يجدنك طعمة أو هبة من الله سيقت اليهم فهم يكلفونك من النفقات ما يشاؤن ولا يجدون في أنفسهم داعيا من الرأفة بك ، أو الرحمة لغربتك ، ولا يمكنك ان تبحث مع ناهبك في موضوع نهبك ، لأنه لا يفهم ما تقول ، وأنت لاتفهم مايقول ، فينتهي أمرك بدفع مارقم لك رغم أنفك ، وغاية ما يمكنك فعله ان

تنفس الصعداء وتهز رأسك وتلوي عنقك علامة على غضبك ولكن هذا كله لا يوفر عليك ماتنقصه منك الجهل باللسان

وفي ظني ان من أراد ان يسافر الى بلد لا يعرف لسانه فأولى له ان يتعلم من لسان ذلك البلد ما يكفيه للتعامل ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك وأجرة الاستاذ المعلم لا تصل الى نصف مايخسره ببركة الجهل باللسان

أستغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر الى صقلية (سيسيليا) من بلاد ايطاليا فعليه ان يجدّ لمعرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم والا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه أوما يؤخذ منه أجرة على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية يجتمع عليه الحمالون والمرشدون المضلون و يتجاذبون متاعه وثيابه كل يأخذ قطعة فان كان لا يعرف اللسان ، كان ما كان مما لا يسعه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع ، أو أصابه من ذلك مالم يفد فيه الدفاع ، وجد أمامه جيشاً من الطالبين كل واحد يطالبه بقيمة عمله ، وما هو ذلك العمل ؟ هو حمل قطعة من المتاع وكلمة قيلت غير مفهومة فى هدايته الى المحل الذي وصل اليه ، مع انه وصل برجليه ، ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس انهم يجاذبونك أعضاءك حتى ان جميع أجزائك لفي خطر من مجاذبتهم اذا لم تكن حريصاً عليها . فاذا كنت في حاجة الى السفر الى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بجمال المناظر خصوصاً أيام الربيع فعليك ان تصرف سنتين في تعلم اللغة الايطالية وما تنفقه في التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت ان الذي يعرف الانكليزية أسعد حظاً في فرنسا ممن يعرف الفرنسية في انكلترا فانك لا تجد نزلا في البلاد الفرنسية الا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي ان أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد الانكليز . أما الانكليز والامريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها ، ويدهشون بالذهب صغارها ورجالها ، فاضطر الفرنسي الى ترويج

الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين ، وليستكثر من الناثرين ،

ويل لك اذا أقمت يوما أو يومين في نزل بسينا من أكبر مايقصده السائحون . رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها ان يفهمك أن أجرة محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفر الراحة وان كان لا يعمل من ذلك بما فهم منك وانما العمل على ما فهمت أنت منه

تنام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليك نصف ساعة الا وقد أطار نومك صياح وجلبة ودوي حركات تذهب وتجيء خارج منامك فيضيق صدرك وتطلب الفرج ولا تجده فتفتح الباب وتقول كلاما كثيرا يفهم منه انك في شدة الضيق مما تسمع ولا سبيل الى النوم فيقال لك ما تفهم منه ان هؤلاء مسافرون جاؤا الى المحل من جديد وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلا آخر للنوم ويأخذون فراشك من محلك الأول الى محلك الثاني فتحمد الله على الهدو وإقبال الراحة ثم تلقي جسمك على الفراش ويقبل النوم على عينيك بثقله ثم لا يمضي نصف ساعة الا وقد أخذت يداك تحك وجهك وعنقك واليسرى تحك اليمنى واليمنى تحك اليسرى ولا يزال الحك يزيد والمحكوك يتألم حتى تتنبه أعصاب الدماغ والعين ويصبح ذلك النوم الثقيل ، أخف من نفس الجميل ، فيطير عنك الى حيث تبحث عنه ولا تجده ولا يبقى لك الا الحك والحكة : وما هذا كله ؟ هذا هو البق الذي تروعك حمرته ، وتقلقك عضته بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته ، فتطلب الخلاص وماذا تصنع ، مضت مدة من الليل نام فيها الصاخبون فتعود الى محلك الاول وقد نام الخادم فتعود الى غير فراش أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فاذا أصبحت حوسبت على شمعتين في مكانين لم تصرف منهما شيئا وعلى شيئين آخرين ، وكدت تحاسب على اجرة مخدعين ،

أظرف ماوقع لي مع خادم هذا النزل : طلبت منه ماء باردا فلم يفهم فاشرت الى فمي ومثلت بيدي صورة اناء الماء فاذا هو يفتح الباب وينظر الي كأنه فهم اني أشرت بيدي الى أن الباب مغلق وبفمي الى فتحه لانه فتحة من فتحات

بدني ، وبعد تعب أعضائي من الاشارة ولساني من التكلم بالفرنسية قمت وبحثت عن كوب وأشرت به اليه ففهم اني اريد ماء لكن لم يفهم أني أريده باردا وما اشد التعب في تصوير الجليد له ! فرغ ماء الغسل فطلبت منه تجديده فرفع في وجهي كرسيا طويلا اشتريته لاجلس عليه في المركب ففزعت لذلك وظننت انه يريد رميي به ظنا منه اني شتمته غير ان ذلك سرّي عني عند مارأيته ينظر اليّ نظر الاحترام ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي ، فاستلقيت من الضحك وذهبت الى موضع الغسل وأشرت اليه ان يجدد الماء ففعل ، أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر الى سيسيليا وان لا تصدق ما يقال لك من ان معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد اوروبا ؟

﴿ مسينا ومقبرتها ﴾

نسيت ان أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة وانك اذا قلت لصقلي: اني ذاهب الى مسينا: يقول لك في الحال: لا بد ان ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والاعيان مبنية على أجمل نظام وأقربه الى السذاجة وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم . وطريقة الدفن في تلك الاماكن تختلف فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الارض وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا يمكن سرقته على ظهر الارض ، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر العريضة وهكذا . والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى انه شيء من كبار الطرفاء لكنها نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع النبات لارادتها فتوجهه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيها على غاية مايرام من النظافة والانتظام ، وهي انظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الاحياء (مسينا) ثم أنها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمل ماتنظر عيناك من اللألاء والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، وبدائع الاعمال الصناعية ،

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلمي فى وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها — أعوذ بالله — يوجد فى هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن فى أرض غير معتدلة تقصر وتطول وعلى رأس كل قبر صليب أسود يخيل للرائي من بعيد أنها أجنحة الغربان الجاثمة على بقايا الجثمان . لاازال في وصف المقبرة كما لايزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة ، عن الادب والكياسة

ماذاأقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينةجميلة المناظر، بديعة المداخل ، بعيدة المخارج ، الداخل فيها أكثر من الخارج منها ،قد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الاشجار لانه في خضرة دائمة وحياة مستمرة كأن ارواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الاجساد فهو لايزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والخريف والربيع، مدينة زينها الاحياء فى حياتهم،ليعدوها لاقامتهم — فيما يزعمون — بعد مماتهم ، وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هيأ تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيهاأنواع النعيم ليطيب له المقام،ولا يقلق به المكان،لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقرا لجثتك وأنت لاندري هل تشعر هناك بما زينت، أو تؤخذ عنه اذامت ،فهل زينت دارا لروحك بالطيبات ،كمازينت دارالجثتك بالزهر والنبات ؟ أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لاترى في مقبرتك ولافى الطريق الموصلة اليها الامايخيفك من الموت وينغصك فيه غمر من الغبار وتلول من التراب تتذكر بها انك من التراب والى التراب

اذا بنيت فيها مسكنا فلست تبنيه لنفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الاموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الايام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض أيام من بقيه الشهور تأكل وتشرب وتنام ولاتشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ولاتستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لايأكلون ، وتضحك وهم ربما يبكون ، وتلعب وهم لايلعبون ، تلهو بالقيل والقال ، وملاعبة النساء والاطفال ، وربما أقمت في المقبرة ماتسميه بالموالد

وجلبت بذلك اليها من المغنين ،والمطربين والعازفين ، ونصبت فيها الخيام ، وصنعت من لذيذ الطعام ، ماتدعو الى تناوله العلماء الاعلام ، والاتقياء الكرام ، فيلبوا دعوتك زرافات ووحدانا ، مشاة وركبانا ، ويخوضون في غمار اللاهين الى ان يصلوا الى حيث نصبت خيامك ،وهيأت طعامك، على ظهور الاموات ، وبجوار تلك الرفات ، وتبيت ليلتك تلهو وتلعب ، وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك ، وكره جوارك ، وفر من بين يديك ، مشمئزا مما يري لديك ، اما مقبرة مسينا فلا ترى فيها آكلا ولا شاربا وانما ترى الزائرين في سكينة ووقار لا يتكلمون الاهمسا ، تماشيهم ولا تكاد تسمع لهم جرسا (١)

صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم

أهل مسينا من اهالي سيسيليا وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحو مئتي سنة وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين اليه كما كان في العراق والشام والاندلس . وقد ترك العرب آثارا في البلاد منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر ومنها كلمات في لسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية وكالقبة والطامة والشر ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة الى أصلها والى البلاد التي حملت منها . ولا أظن ان الصياح والصخب الذي اختص به اهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله فان اصوات السيسيليين أشد قرعا ، وآلم في الاذن وقعا ، واني لاأشك في ان حناجرهم أشد تمرنا على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس (٢) أو سكان عرب يسار أما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد ، ويسكتون عند الرجوع الى البلاد ،ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك في الحرب كما يفعل بحرية يافا وبيروت من ثغور سوريا أما الاهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

---

(١) الجرس بفتح الجيم وسكون السين هو الصوت الخفي

(٢) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

و يل لك اذا عرفت بأنك غريب فانه يتبعك السائلون الملحفون، والمكندون المجدون، و يلزمونك حتى تعطي شيئاً من النقد ولا فرق في حالك بين ان تجلس في قهوة أو تكون في زيارة معبد أوفي تفقد مكتبة أو دار آثار تجد من ذلك مالا تجده عند المتبولي ولا عندضريح الاستاذ البيومي (رضي الله عنه) ثم تجد الناس في الساحات وقوفا أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون وانما يتقرب الى الغرباء من يظن القدرة في نفسه على أن يفترس منهم فريسة لكن يمكنك ان كان عندك صبر أيوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصريين أو السوريين ان لا تعطي شيئاً أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئاً من الكسل في حكاية ما وقع في فهرس الكتب العربية في المكتبة العمومية ودفتر الاسماء في دار المحفوظات وأزيدك انك اذا ذهبت عند شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام كما يقول بعض أكابرنا (١) فان التشديد يجعل الكلمة موضعا للملح الذي يوضع على الطعام و يتناول أحيانا للاسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة لخفة مراكبها في السفر على البحر المالح وأظن اللفظ يرجع أيضا الى رفيقه فان في البحر ملحا أيضا لكنه ليس يكثر كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلا تجد العامل يحرك يده ببطء . كأن بعض أجزائه ينازع بعضا فاذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه القتال أسرع بمد يده اليك لطلب المبلغ فاذا دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك كادت يده تشلّ بجانبه وأنت تنظر اليه وتنتظر أن تتناول مالك وتنصرف وهو ينظر اليك كأنه يتمنى ان تنسى مالك عنده أو تمل الانتظار و يأخذك الوقت فتتركه له وهذا ضرب من الكسل في أداء الحق ونوع من البطء في العمل لا تجده حتى في مصر حرسها الله فان العمال عندنا حتى في زمن الصيف لا يسمحون لاعضائهم ان تتعود هذه العادة الرديئة

---

(١) هو أحد أعضاء مجلس شورى القوانين كان يتكلم في المجلس عن حرية الملاحة و يضبطها هكذا

﴿ رثاثة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين ﴾

اما رثاثة الملبس عند الفقراء ودنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشؤون فذلك مما نجدله مثالا في كثير من الاحياء عندنا . واني أقص عليك فكاهتين وقعتا في النزل الكبير الذي نزلت فيه - رفع الله عماده - كنت أطالع في جريدة خطابا ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس لمناسبة رفع تمثال الكاتب المؤرخ الفرنسي رنان القاه في بلدة رنان التي ولد فيها وكنت مستغرقا فيما يقول الخطيب عن القسيسين وتعاليمهم وعن الاحرار اطال الله في ألسنتهم وما يرونه في فلسفتهم واذا بخادم النزل دخل علي وتحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريبا وقد علا الوسخ وجه الصبي وهجم القذر على عينيه يريد أ كلهما وانفه وفمه يسيلان ذاك بما نعرف وهذا بما لا يخفى عليك و بيده عنقود عنب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شدقيه اذا رأيته امكنك ان تحلف بشيء من الطلاق أو العتاق ان أمكن ان هذا من ذرية (الشيخ الدعكي) رحمه الله من أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره الطيف واذا كنت واحداً من بعض الاعيان أو بعض من يزج بنفسه في العلماء الذين نعهدهم أقسمت في الحال انه ولي من الاولياء مجذوب من المجاذيب . فاذا ذكرك مذكر أنه ايطالي قلت لا يبعد على الله ان يكون قد ملأ قلبه جذبا ووطاورزقه من ذلك في صغره مالم ينله الدعكي في كبره والا فكيف تسيل سعابيبه الى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على ان تذهب الى المحمل الذي تعرفه وتستخرج من بحر الانساب مايصل نسبه بمن لا يصح لاحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بعيشك الى هذا الطباق والتقابل بين ما كنت مستغرقا فيه وبين ما فاجأني من هذا المنظر الكريه هل يمكنك ان تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة دفعت فرنكا واحدا رميته على الارض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الارز وكر راجعا لا يبالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان أتبعه لاخذ الفرنك منه . لا اظن أني أبالغ في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

اما الفكاهة الثانية فقد كنت على مائدة الطعام في محل نومي من ذلك النزل لقلة السياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج الى الملح تنبهت الى الملاحة (هذه المرة بتشديد اللام لان فيها ملحاً) كما سترى . نظرت الى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر من نزغات الشيطان ، في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات ، في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحة وأنشأت أنكت ما فيها من النقط السوداء نكتة نكتة وأصعد نظري فى وجه الخادم وأقطب وأظهر التقزز ولا زلت كذلك حتى فهم ان هذا شئ من الوسخ لا أستطيع تناوله فعند ذلك تناول مني الملاحة بغاية الكسل ثم ذهب وأطال الغيبة وبعد ما كدت أغضب مع سعة حلمي في السفر جاء بملاحة أخرى أوسع من الأولى وأطهر منها ملحاً فكأنه يفهم ان الوساخة مما لا يليق لكن لا يتم له هذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر ان النظافة خير منها وان الوسخ شئ تتقزز منه النفس ، وينفر منه الحس ، اما مثال هذه الواقعة الثانية فما يكثر في خدمنا بل فى بعض ساداتنا رفه الله حياتهم فانهم ينظرون بأعينهم الى الخبيث والخبائث وربما حكموا فيه بوصفه لكنهم لا ينزهون المكان عنه بل ربما لا ينزهون أنفسهم عن التلوث به الا اذا أمرهم بذلك آمر فعند ذلك يمتثلون الامر بغيرة المختار ، وعزيمة الجبار ، ثم يحدثك أحدهم بحسن ما يصنع مما أمر به كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الامر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به وقبحه هو النهي عنه وانه لا حسن ولا قبح للشيء في ذاته فاني على يقين أنهم لا يعنون به ما يجده أولئك الآلات في أنفسهم . وما عليك الا أن تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه أو نفيه فاني الآن لا أكتب كتاباً في علم الكلام ، ولا أكتب أسطري هذه للافاضل من أهل الفن فانهم أعلى من ان يستفيدوا من قراءة أمثال هذه القصص أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهالي بلرم ومسينا معاً وما ذلك على الله بعزيز

الذي يخطر ببالي من أسباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الامم التي طال فيها زمن الاستبداد وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع ما يطرأ على تلك الارادة الواحـدة من الاختلال وفساد المزاج فتأمر بالشيء اليوم لانه من هواها ، وتنهى عنه غدا لانه لم يبق من مشتهاها ، وأمرها واجب الاطاعة ، وفي مخالفته إضاعة أي اضاعة ، فتتعود الانفس على تعاطي الاعمال لا لأنها مما تختاره ، بل لانها مما تؤمر به ، ويخفى عليها وجه الحسن والقبح لأن التعود على العمل مهما كان قبيحاً يزينه للنفس أو يسهل عليها مفارقته . وسهولة المفارقة انما تنشأ عن عـدم الاحساس برائحة القبح ولو بقي نتنه في شامة النفس لعافته ولما أمكننا تعاطيه وكذلك يخفى وجه الحسن في الشيء متى خفي وجه القبح في ضـده كما لا يخفى عليك ان كنت من المدققين خصوصا في عـلم أصول الفقه الحنفي وقرأت ما كتبه العلامة الغزي والمحقق الحفيد وغيرهما على التلويح للعلامة الثاني سعد الدين التفتازاني حاشية التوضيح على مختصر البزدوي . اذا سألتني عن العلامة الاول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أتذكره الآن وان صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن الافضل لك أن تسأل شخصا اخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلمين ، وتحديد الفرق بين العلامتين — وربما قال لك ان الاول هو القطب الشيرازي لان سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلاسته تمنعهم من جعله العلامة الاول — وان شئت ان لا تشغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الافضل ويكون أفعل التفضيل الاول على غير بابه والسلام . وانما المهم فيما نحن بصدده ان الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة ، يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ وتعتني بتقديم النظيف الى الضيف من أول الامر ، بدون احتياج الى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الاملاح كالنحو ملح العلم والعلماء ملح العالم وهكذا كل ما يحتاج اليه في اصلاح الاغذية بدنية كانت أو روحية دنيوية كانت أو دينية . اما اذا كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

دور الآثار وبساتين النبات

لا تبخس أهل سيسليا (صقلية) حقهم فانهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها وأظنهم عرفوا ذلك من أخوانهم أهل شمالي ايطاليا و بقية الاوربيين وهي المحافظة على الآثار القديمة والجديدة أما القديمة فتحفظ بذواتها وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها . بنوا ملعبا في بلرم فصنعوا له مثالا من الخشب ووضعوه في دار الآثار . مدينة بلرم لها مثال مجسم رسمت فيه البساتين والجبال والكنائس مجسمة مصغرة بألوانها الطبيعية وألوان الارض نفسها وذلك المثال في دار الآثار . حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمي صقلية وهو زي يشبه الأزياء الاوربية مع ساتر للوجه يدل على أن ستر الوجه كان عاماً حتى في صقلية أيضاً وان كان ذلك قد يغضب قاسم بيك أمين فانه يجد له اضداداً في مسلمي أوروبا فضلا عن مسلمي آسيا وأفريقيا

يحفظ القوم في متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ولا يدخرون جهدا في حفظ ذلك حتى اذا وجدت اسم شيء في كتاب تاريخ مثلا أو عرض لك اسم في علم من العلوم كان يدل على معنى في الزمن السابق أمكنك أن تعرف المدلول بالعيان والمشاهدة وتتحقق صحة الوصف والتعريف فما استعمله الاقدمون من آلات وأدوات وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك تجد شيئاً منه في متحف من المتاحف أو في قصر من القصور أو في كنيسة من الكنائس أو في داهية من الدواهي التي هناك . وهذا مما يفيد في تحقيق المعاني التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها الا من يسمع اسم اللأمة والدلاص والدرع والخوذة والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الالفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعها في القاموس أو غيره من كتب المعجمات وبعد ذلك لا تستقر في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الالفاظ وقد يتخيل صورة لا مناسبة بينها و بين الحقيقة وهو جهل باللغة فاضح وكثيرمنا يأكلون اللوز والجوز ويطلقون باسمه في البيت وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منه وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميزون بينها و بين شجرة الجميز أو الفلفل أما الجماعة فعندهم

في بساتين النبات جميع هذه الانواع من الاشجار، ومالا تناسبه درجة الحرارة في الهواء يحدثون له جواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش فى جو مثل جوه. ولكل من يريد معرفة شيء ان يذهب و يعرفه بعينه، ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم ويتيسر للحاذق ان يعرف هذه الاشياء بصورها المرسومة في تلك الكتب أما اذا قال لك صاحب القاموس: الجوز شجر م: أي معروف فماذا تستفيد من هذا وأنت في مصر وليس في قرب الازهر شيء من شجر الجوز بل ولا فى الازبكية نفسها فكيف يصير هذا عندك معروفا وكيف يمكنك ان تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أوشاعراً أوطبيباً أوعالماً أو أديبا

الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ويوجد في دار الآثار عند الامم الكبرى مالا يوجد عند الامم الصغرى كالصقليين مثلا، يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ولهم تنافس في اقتنائها ذلك غريب حتى ان القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلا ربما تساوي مئين من الآلاف في بعض المتاحف ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق وانما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهذه النقوش وعد ما أتقن منها من أفضل ماترك المتقدم للمتأخر، وكذلك الحال في التماثيل وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة وكان القوم عليه أشد حرصاً، هل تدري لماذا ؟

اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك الشعر وضبطه فى دواوينه والمبالغة في تحريره خصوصا شعر الجاهلية وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ماتستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الالفاظ متقاربة لا يسهل عليك

تميز بعضها من بعض ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا يصورونه مثلا في حالة الجزع والفزع والخوف والخشية والجزع والفزع مختلفان في المعنى ولم أجمعها ههنا طمعا في جمع عينين في سطر واحد بل لأنهما مختلفان حقيقة ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . أما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . اذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة في قولك :رأيت أسدا : تريد رجلا شجاعا فانظر الى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئا فذلك بغيتي أما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهيمك بأطول من هذا وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين ليوضح لك ماغمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي ماحكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ماذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الاذهان فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما ان ترفع سؤالا الى المفتي وهو يجيبك مشافهة فاذا أوردت عليه حديث: ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون : أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين والاول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الاسلام لمحوه والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في

المصنوعات وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع ان الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع أما فائدة الصور فما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر (١) وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور طمعا في أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الاقل لا يدخل محلا فيه صور كما ورد فاياك ان تظن ان ذلك ينجيك من احصاء ما تفعل فان الله رقيب عليك، وناظر اليك، حتى في البيت الذي فيه صور ولا أظن ان الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعمدت دخول البيت لان فيه صورا . ولا يمكنك ان تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن انه يقول لك ان لسانك أيضا مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز ان يصدق كما يجوز أن يكذب

وبالجملة انه يغلب على ظني ان الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم بالأولياء وهم ممن لا نعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة وما يعرضون عليها من الاموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد . ويطلبون منها ما يخشون ان لا يجيبهم الله

(١) ان الذين رسموا الصالحين والأنبياء انما أرادوا التبرك بصورهم وتعظيمها اكراما لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والتماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة وكذلك النصارى كانوا يصرحون بأن تعظيم الايقونات ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصرين عليه يسمي تعظيمها اكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة ، هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها وايقاد السرج عليها وقد فعل المسلمون هذا مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائده مع انتفاء علة النهي عنه افنؤمن بظاهر بعض الدين ونكفر بحقيقة بعض ؟

فيه و يظنون أنها أسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى . لاشك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية ،

هل سمعت أننا حفظنا شيئا حتى غير الصور والرسوم مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند اسلافنا ؟ لوحفظنا الدراهم والدنانير التي كان يقدر بها نصاب الزكاة ولا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال الاول موجودا بين أيدينا ؟ ولو حفظ الصاع والمد وغيرهما من المكاييل أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة مايصرف في زكاة الفطر وما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل وما كان علينا الا ان نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف . أظنك توافقني على أنه لو حفظ درهم كل زمان وديناره ومده وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء يتوارثونه سلفا عن خلف كل منهم يقدر المكيال والميزان بمالا يقدر به الآخر حتى جاء في آخر الزمان أحمد بك الحسيني يخطيء بعضهم ويوفق بين أقوال البعض الآخر بدون ان يكون بين يديه صاع ولا مد من تلك الآصع والامداد ، وما أصعب التخطئة والتوفيق ، اذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق ،

لو نظرت الى ما كان يوجب الدين علينا ان نحافظ عليه لوجدته كثيرا لا يحصى عده ولم نحفظ منه شيئا فلنتركه كما تركه من كان قبلنا ولكن ما نقول في الكتب وودائع العلم هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضيعها !!! ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسه فاذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثر مفيد فاذهب الى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها . أما بلادنا فقلما تجد فيها الا ماترك الاوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والادبية والعلمية وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلا وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة كمبردج من البلاد الانكليزية . ولو أردت أن أسرد لك ماحفظوا وضيعنا من

دفاتر العلم لكتبت الك في ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره ونجده بعدمدة في يد أوربي في فرنسا أوغيرها من بلاد أوربا

نحن لانعني بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا ولو خطر ببال أحد منا ان يترك لمن بعده شيئاً جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفرا بتلك النعمة وأخذ في اضاعة ماعني السابق بحفظه له فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا وانما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والاحقاد تنتقل من الآباء الى الاولاد حتى تفسد العباد،وتخرب البلاد ، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد

﴿ أمير وأميرة من الاسرة الخديوية ﴾

البحر هادىء والهواء عليل وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر وانا محبوس في هذا المكان الضيق لتحرير هذه الاحرف اجابة لطلب بعض الناس وبودي لواستنشق الهواء لكن بقيت علي قصة اقصها ولو تركتها اليوم لم يعد اليها القلم في يوم

صعدت الى المركب من مسينا وجلست انتظر مسيره وبينا انا كذلك واذا بأمير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم الى السطح فنهضت للسلام عليه وتساءلنا عن مراحل أسفارنا وفهمت منه ان معه حرمه وهي من أعضاء العائلة الخديوية كذلك. فقلت أمير جليل ربي على الطريقة الاروبية وتعود السفر الى بلاد اوروبا مع حرمه وهي كذلك قد ربيت على العظمة والحرية فلا ريب ان نرى الاميرة مع الامير ولا يقدح ذلك في كرامة واحد منهما فان الاميرات المصونات قد يرين الناس من حيث لايراهن الناس لالأنهن من عالم غير عالمهم ولكن لأن الناس يغضون الطرف احتراما لهن ولاحظر عليهن في رؤية من لايراهن. لكني مكثت مع الامير الى وقت العصر ثم تركته وذهبت الى محل الاكل لاتناول شيئاً مما يتناول في هذا الوقت فكان جلوسي مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين في الاسكندرية فبدأوني بالكلام فتكلمت وامتدبي وبهم الحديث الى حالة المركب وازدحامه بالركاب وضيقه عنهم فقال قائل أوقالت قائلة : ماأسوأ ماصنعت الشركة مع البرنسيس فانها وضعتها في قمرة ضيقة لاشباك لها وهي ملازمة لها ليلها ونهارها

ولو كانت ممن يخرجن ويستنشقن الهواء لسهل الامر ولكن الاميرة لاتخرج قط من يوم ركبت المركب ومن القمرات ماهو أفضل من قمرتها واوسع : فسألت هل بها شيء تألم له لو خرجت ؟ فقيل لي : لا الظاهر انها في غاية الصحة وكمال العافية غير انها لاتحب ان تخرج والقمرة مقفلة في جميع الاوقات :

امكنني بعد ذلك ان اسأل حتى يتم سروري بما فرحت لأوله فعلمت ان الاميرة كانت في اروبا تسدل على وجهها نقابا أزرق على نحو مايسدل نساء الاستانة اوسوريا بحيث لايميز الناظر شيئاً من وجهها ومتى ركبت المركب لزمت قمرتها وأغلقتها عليها الى ان تصل الى غاية سفرها . وكل ذلك تفعله حرصا منها على كرامتها ومحافظة على المعروف من عوائدها من حيث هي أميرة مسلمة فقلت مثل صالح لابد من ذكره والثناء عليه حتى يتعلم أولئك المقلدون ان من أمرائهم وأميراتهم من هم أولى بتقليده . وان خيرا لهم ان يقلدوا أميرا مصريا من العائلة الخديوية الكريمة من أن يقلدوا جماعة من الاروبيين غير معروفين لهم ولايحسون بتقليدهم ولا يستفيدون من حذوهم حذوهم الا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أومسلمون واختفاءهم في غمرة أولئك الاروبيين لايتميزون عن عامتهم في شيء وسريان مايشكونه القوم من الفساد الى أنفسهم أوانفس نسائهم فبارك الله في الامير وفي الاميرة وأرشد الله شباننا الى التأسي بهما ان كان لابد لنسائهم ان يذهبن الى اروبا لمداواة علة ، أو ايناس في غربة

لعلك تسأل من هذا الامير ومن هذه الاميرة ؟ فاني أقول لك الامير هو الامير عباس باشا حليم والاميرة هي الاميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حلمي . ومما يسرك ان كنت مثلي تحب العفة ووضع الشيء موضعه ان الامير لاينفق في سفره ان كان وحده اكثر من ثلاث مئة وخمسين جنيها واذا كان مع الامير فلا ينفق اكثر من ستمائة جنيه في مدة شهرين ونصف وهو يعيش عيشة الامراء

تقول : لعله يقتصد ليكتنز ، ويوفر ليستكثر ، فأقول لك اني علمت انه ينفق من ماله في تربية تلامذة في مصر وفي الاستانة وفي انكلترا يتعلمون العلوم العالية في

المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة فما قولك في نفقة مثل هذه بدل النفقة في الشهوات وفوائت اللذات ؟ ألست توافقني على انه من أفضل الامراء عملا ومن انبلهم قصدا فانه يربي اناسا يقومون بشؤون بيوتهم اعرف بعضهم واجهل بعضا؟ ألا يكسب بهذا حسن الاحدوثة وتخليد الذكر خصوصا اذا استزاد من هذا الخير فانه بذلك يقوي عناصر العلم في البلاد وهو الاصل الذي نحتاج اليه لاسيما اذا انضم اليه حسن التربية كما هو مقصد الامير . ولو اقتدى به الامراء لاصبحنا في ثروة من العلم ولم نصب حضراتهم بالافلاس من المال بعد الافلاس من الكمال وفقه الله وأرشدهم والسلام اه

(يقول جامع الكتاب) كتب الاستاذ الامام هذا الفصل عن بلرم عند زيارته إياها عائداً من الجزائر وتونس وفيه من شجون الحديث وفنون الاصلاح المفرغ في قالب الفكاهة ما رأيت وأهمها رأيه في التصوير والحجاب . واخبرني انه كتب مذكرات بشأن تونس والجزائر يريد ايداعها في فصول إصلاحية بهذا النحو من الاسلوب وقضى قبل أن يجد فراغاً لذلك ولم توجد تلك المذاكرات في أوراقه الى هذا اليوم

﴿ انما ينهض بالشرق مستبد عادل (١) ﴾

مستبد يكره المتناكرين على التعارف، ويلجيء الاهل الى التراحم، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لايخطو خطوة الا ونظرته الأولى الى شعبه الذي يحكمه فان عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية فهو لهم اكثر مما هو لنفسه .

يكفي لابلاغهم غاية لايسقطون بعدها خمس عشرة سنة وهي سن مولود يبلغ الحلم يولد فيها الفكر الصالح وينمو تحت رعاية الوليّ الصالح ويشتد حتى

---

(١) نشرت في السنة الاولى من مجلة الجامعة العثمانية

يصرع من يصارعه . خمس عشرة سنة يثني فيها اعناق الكبار الى ماهو خير لهم ولأعقابهم و يعالج ما اعتل من طباعهم بانجع أنواع العلاج ومنها البتر والكي اذا اقتضت الحال و ينشيء فيها نفوس الصغار على ماوجه العزيمة نحوه و يسدد نياتهم بالتثقيف يتعهدها كما يتعهد الغارس شجره بضم اعواد مستقيمة الى سوقها لتنمو على الاستقامة . خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيماً من اعوان الاصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه، وآخرين رهبوه، فاتبعوه وغيرهم رغبوا فى فضله فجاروه

حتى اذا عرفت الافكار مجاريها بالتعريف، وانصرفت الى ماأعدت له بالتصريف ، وصح الشعور بالتعليل ، واستقامت الاهواء بالتعديل ، اباح لهم من غذاء الحرية مايستطيع ضعيف السن قضمه ، والناقه من المرض هضمه ، وأول مايكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ثم بعد سنين تأتي مجالس الادارة لاعلى ان تكون آلات تدار، بل على ان تكون مصادر للآراء والافكار ، ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية . نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد ان يشهد هذا الامر من بدايته الى نهايته ولكن الخطوة الاولى هي التي لها مابعدها و يكفي لمدها خمس عشرة سنة وما هي بكثير في تربية أمة فضلاً عن أمة .

هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله عادلاً في قومه يتمكن به العدل ان يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ؟!!



هانوتو والاسلام

ننشر هنا المقالة التي كتبها موسيو جبرائيل هانوتو بعد وصول رد الاستاذ الامام اليه بلغته . وكنا أشرنا اليها بعد نشر الرد في (ص ٤١١) ثم رأينا ان ننشرها برمتها لئلا يظن ظان ان فيها رداً لشيء مما كتبه الاستاذ الامام في حقيقة الاسلام والنصرانية ، ولنقفي عليها بمقال آخر لهانوتو حدث به صاحب الاهرام (بشاره باشا تقلا) في باريس فكتبه وأرسله الى جريدته فرد عليه الاستاذ الامام وكنا ذهلنا عن هذا الرد فاستدركناه هنا . وهذا مقال هانوتو

الاسلام أيضاً

من المسلم انه يتعذر عليّ الرد في هذه الجريدة على جميع الرسائل التي ترد الي بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ولذا أشكر جميع الذين راسلوني شكرا جزيلا وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به علي وأبانوه لي محفوظ في مخيلتي ولا يبرح عن ذا كرتي وانني أجد في تبادل الافكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع و بالرغم عما يخالجني من الميل الى عدم قصر البحث في نوع خاص من الموضوعات أرى أن لامندوحة لي من العود الى بعض المناقشات التي أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثاً في مسئلة الاسلام والحق يقال انني أصبحت بسببهما كما يقال بين نارين فالمسيحيون أنحوا عليّ بالتعنيف واللوم قائلين انني تظاهرت بالميل للاسلام واتخذني المسلمون خصما لدودا لدينهم وهو ماثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق لولم يعرف من قديم الزمان ان الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصور والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى فيه ضربات المطرقتين

ويجب قبل الدخول في الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل : كان الجهل

بلغتنا وهو في نظري أكثر تأثيرا من سوء القصد سببا في اتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها فان جريدة المؤيد التي تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الاسلام ولعل القراء يذكرون انني أوردت فيها آراء كيمون التي أبداها في كتابه (باتولوجيا الاسلام) وان ايرادي لهما كان على سبيل الحكاية والنقل اذ أشرت الى خطر شدتها وأبنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثر والانفعال ولكيلا يختلط على الذهن شيء من أقوال كيمون التي أوردتها وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (أنا أنقل) (أنا أنقل) محصورتين بين قوسين دفعاً للالتباس ومنعا للشك

بالرغم عن هذه الاحتياطات نسبت الي تلك الافكار التي عمدت الى دحضها واظهار فسادها حتى ان أحد كبار أئمة الدين الاسلامي كلف نفسه مؤونة الأجابة في جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكاري بل هي نقيض ماذهبت الى تعضيده واستحسانه في بحثي ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ماسطرته في الاصل الفرنسوي أو وقف عليه من الترجمة إما انه لم يفهم مرادي وإما ان الترجمة كانت فاسدة لم تتوفر فيها شروط الامانة لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره و يصيخون لاقواله على حقيقة فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ومسالمة وتوفيق على ان احدى الجرائد العربية التي تنشر بمصر ولها شهرة فائقة في جميع العالم الاسلامي الا وهي جريدة الاهرام قد أتت بتلك الملحوظات أحسن مما استطيع ايرادها به فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذي يدير في آن واحد جريدة البيراميد الفرنسوية قد اقتفى أثر ملحوظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحذق مجال للكلام أوشيء كثير من القول أضمه الى قوله على انني أستنتج من هذه الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت في طريق العمر وحبوت نحو الشيخوخة وهي ان منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس سوء

التفاهم والخطأ في معرفتهم مقاصد بعضهم بعضاً اذ كثيرا ما كان الغلط الناشئ من سوء تلاوة كلمة أوالقصور عن ادراك معنى جملة أوفهم مغزى رأي أو مرامي حيلة من حيل المناظرة سبباً في جر مالايحصى من المصائب بل سبباً في انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار وكانوا الى الالتئام والاتفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق

ولوأمكن محوماترا كم شيئاً فشيئاً حول مايقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التي لافائدة منها وتيسر العود الى النقطة الاولى التي كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف لاندهش الانسان من السهولة في تذليل الصعاب وتمهيد المشاكل التي جعلت الفارق عظيما ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل ان العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم ان يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء مبلغا عظيما تافهةواسبابها بسيطة الى هذا الحد حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه عما اذا كان في الامكان اصلاح ماانثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس في فهم مقاصد بعضهم بعضا على فرض ان تبادل المودة فيما بينهم لم يكن من الامور المتاحة لهم

ومن الامور التي كان لايزال خاطري منصرفا اليها ان المسائل المشكلة ولو كانت من أهم المسائل واخطرها تتضمن في ذاتها الحل الملائم لها والمطابق للانصاف والسلام وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيد في المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الافكار بانه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية وجعلا غايتهما القصوى المسالمة والاتفاق واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر وصدق اجتهادهما في التجرد عن الاهواء فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما

اعتقدت دائما ان للسياسة على الخصوص مهمة في هذا المعنى ينحصر فيها شرفها وترجع اليها كرامتها ليس بما تعلنه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط بل بحسن العمل العقلي الذي يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء في سكون قاعات أعمالهم أيضا وأما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذي هو

أخص ما يلتجىء اليه القوي فهو من آخريات الوسائل وأحطها وهو حيلة من لا حيلة له

ويظن الناس في الغالب ان الواجب التخير بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق وهو خطأ بين وغلط ظاهر اذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضا على المناقشات الفلسفية والدينية اذ للافكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال وليس التسامح من مخترعات هذا العصر بل نقيضه من مخترعاته لاننا اذا نظرنا في أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التي تعذر التوفيق بعد فيما بينها اعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصة القول ان معيشة بني الانسان مع بعضهم بعضاً بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن ارادتهم

وقد حدا بي هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوي بعض المسلمين وليس المقصود به السياسة في هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية وقد انتهت الي رسالتان غريبتان في هذا الباب احداهما من رجل مشهور الاسم في فرنسا وهو (أحمد رضا) مدير جريدة مشورت الذي جمع ملحوظاته في رسالة سماها (التسامح الاسلامي) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامي بالتعصب الديني واستشهد في خاتمتها بكلمات قالها الكردينال لافيجري وهي (أجاهر علانية بانني اعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر في دعوتهم الى الدين المسيحي أثما من الآثام وضربا من ضروب الجنون) وانه ليفيض بي الكلام على الوصف الذي وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ولكني على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التي نقصدها وان الاجتهاد في فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام

ووردت الي رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندي مدحت أكبر كتاب الترك في الوقت الحاضر واني آسف شديد الاسف من عدم إمكاني نشر مضمونها بأكمله في هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ولا ريب في ان القراء الفرنسويين كان يسرهم ان يتلذذوا بتلاوة انشاء شرقي مكتوب بلغة فرنسوية

صحيحة غير ان في المباحث الدينية ولو كانت متعلقة بالاسلام شيئاً من الاكفهرار والتجهم . على ان هذا لا يمنعني عن ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامي وها هي « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم قس نفسه فهو لا يقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا بدون واسطة حسابه عن أقواله وأعماله ولم ير النبي محمد عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى فيها لنفسه حقاً أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس في الديانة المسيحية بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين امام عدالة الحق سبحانه وتعالى وهو ما يؤخذ منه انه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام لأجاب المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف – فالديانة القرآنية لا تهوي بالانسان باقصاء الاله عنه في نهاية الفضاء – اذ جاء في القرآن الشريف : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد). هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادبية والمادية فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشري » ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعاً عن الدين الاسلامي يراه أرق وأحسن ما يدفع عنه به وأخذ يعتب على الكونت اختصرت البحث في المسئلة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسئلة السياسية

وانني اعترف بانني انصرفت أثناء سياحتي في الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها واذا كان القاريء لا يمل حديثي فانني أورد هنا بالايجاز كيفية الاسباب التي حملتني على هذه السياحة وقصر مباحثي موقتاً على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ الكردينال ريشليو وصلت الى النقطة التي أفضت الظروف به فيها الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله واستلفتت أنظاره في أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في أبان استلامه زمام الاحكام كانت ظهرت المسئلة البروتستانية وسوف أورد كيفية حله لها ولكن ما يعرفه القليل هو انه عرض عليه الحكم في المسئلة المحمدية أو بعبارة أهل ذلك الوقت في المسئلة الصليبية

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف

الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الكردينال ريشليو الذين أخذوا بناصره في خطاه الاولى ووالوه بنصائحهم وسطوتهم ومنهم الدوق دي نيفير والاب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذي انطوى معهم في أفكارهم قلباً وقالباً حتى لقد بدىء في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ويمكن القول بان حزب الملكة ماري دي متديسي الذي أجلس ريشليو على منصة الاحكام وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين .

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة مع أصدقائه رافضاً أن يكون آلة بأيديهم بل كان منه أن جذب الاب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهه عن الاسلام لمحارب — كما هو مشهور — الاسرة النمساوية والحق يقال ان الكردينال كان من أقل الناس تعصبا فانه قبل أن يأتي بما عمل به بنى عمله على أسباب تأمل لها طويلا واستخبر وقارن وان هذه الاسباب هي التي كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها وايقاف غيري عليها

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال في اسبانيا وأفريقية الى حيث تلك البقعة التي تم بها الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي أريد بها تونس، هذا هو السبب الذي استحثني مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الاصقاع باحثاً ومفكراً . شاهدت فيها اطلال قرطاجنة أي اطلالها في عهد انيبال والقديس اوغستان وفي عهد سان لويس وشارلكان فتجلى لي وأنا واقف على تلك الطلول ان الارض التي كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضاً مهبط السكينة والسلام

أما الاسباب التي حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف أبينها في يوم ما . ولكنني بالبحث في الماضي والمشاهدة العيانية في الحاضر قد توصلت الى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام في عين المكان الذي اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الاسباب فاشرت الى السلم الناشىء من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس كان لا يظن انهما يجتمعان في وئام واتفق باحترام كل منهما معتقدات الآخر ، لما لاحظت

هذه الامور كنت أود مداراة العواطف والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ولكن يظهر ان هذا صعب المرام اذ الجميع لم يفهموا مرادي ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدي ومهما يكن من الامر فان من الامور المهمة قيام الافكار في البلاد المسيحية والاسلامية قياماً اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الابعاد والتفريق

(يقول جامع الكتاب) هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ولكنه تنسم من الكلام ان الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح . وقد كان بشاره باشا تقلا يدافع عنه وينحي على المؤيد وعلى الامام ثم سافر الى باريس ولقيه وقل عنه الحديث الآتي فنشر في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الصادر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ بالعنوان الآتي ونلخص مقدمة صاحب الاهرام للحديث وهو

حديث مع المسيو هانوتو

رأيت وأنا في باريس ان أقابل المسيو هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام وعلى الغاية التي قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسي الواقف على أحوال أروبا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مرارا وتكرارا ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية توخيت ان انشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لي . قال

انتم تعرفون من تاريخ اروبا ان أممها ماتقدمت علما ومدنية واختراعا الا يوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وانا لم أكتب الا الى ابناء وطني الفرنسويين ولم استشهد بكيمون وهو يوناني الجنس الا لافند أقواله

التي لم ينفرد بها فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسويين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لان الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة وهي انه كما تقدمت أوروبا تأخر الشرق لان الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشي وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوروبا علما ومدنية فنجحت مع ان العثمانية وافغانستان ومراكش والعجم لاتزال على ما كانت عليه في السنين الغابرة وانا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ولأ فند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادي ان الاسلام لايحول دون الاصلاح والمدنية واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالي وسياستي . هذه هي روح كتابتي السابقة وانها ستكون روح اللاحقة

والذي دعاني الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لايخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان في الاعصر الخالية وما دفعهم في الايام الاخيرة الى ذلك إلا الحوادث الارمنية وغيرها ولما كنت قد وقفت نفسي لدرس حياة ريشليه السياسي الشهير وسرت في أكثر أعمالي وكتاباتي على منهاجه وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء سياسة الصليبيين وحال دونها بدهائه المعروف مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأوروبا معا فاذا كان هذا السياسي الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه في تلك الاعصر أي السياسة الصليبية فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها . لالعمري فلهذا عارضت بالامس ولهذا أعارض اليوم ولحسن الحظ ان الرأي العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم فهو لايريد حربا تشب نارها اعتداء ولا سيما الحرب الدينية فهي عدوة المدنية بل هي أفظع الاعمال

« على أن معارضتي لأمثال هؤلاء الكتاب أي نقضي لاقوالهم لايمنعني عن ان أقول لكم الحقيقة لانه يستحيل عليّ ان أقول ان شرقكم سائر على منهاج

حكومات أوربا في العدل والحرية والمدنية كما أنه يستحيل عليّ ان أقول ان في حالتكم الحاضرة ضماناً لمستقبلكم السياسي فاعلم ان أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لاعن عدم اعتقاد بل لفصلها عن السلطة المدنية فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ولكن أراد افراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا ان تكون الكلمة الاولى للسلطة المدنية في احوال الحكومات وشؤون الشعب وان يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بان يعطي ماالقيصر لقيصر ومالله لله

واعلم ان الذي أيد هذه السياسة ايضا في بلادنا فرنسا هو اعظم تلامذة رومه واحد اقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي الكردينال ريشليه فهو الذي قال بفصل السلطتين ولم تنسه واجباته الكنيسية الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطتين اشرف خدمة اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب أروبا تقدما عجيبا واعتزت السلطة الدينية ايضا وعاشت السلطتان بوفاق وسلام

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسويين في مستعمراتنا بان يكون الامر المطلق للسلطة الحاكمة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ما سرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسوية

واني لا اكلمك كمسيحي بل كمؤرخ أوككاتب حر الضمير لاشأن لغيره في معتقده الخاص ولكنني احترم ادبيات كل دين ومعتقد واقدر تلك الادبيات قدرها ولكن الماديات غير الادبيات والاولى من شؤون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحيى به وكل أمة لم تتقدم في مادياتها لابد ان تموت اذ لاحياة بلا مادة والهكم انتم الشرقيين اله أوروبا واله اميركا. اذ ان اله الجميع واحد ولا يمكن أن يكون اكثر انعطافا على الاوربي منه على الاميريكي فالشرقي بل ان الشرقيين عموما اكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين وقد علمنا ان أروبا فاقت شرقكم بمراحل ونرى اليوم اميركا تزاحم اروبا وكثيرا ما فاقتها في اختراعاتها وفنونها ولم يكن ذلك لان الله سبحانه وتعالى اميل الى الاميركي منه الى الاوربي أو الشرقي ولكن لان الاخير مستميت والاول حي هذا يشتغل مجتهدا وكلما زادت

ار باحه زاد نشاطا واقداما وذلك يقضي حياته بين القنوط واليأس مستسلما ولهذا تقدم الاوربي وتأخر الشرقي وضيق اوربا باهلها دفعها الى الاستعمار في كل صوب فصادف ابناؤها ارضا واسعة وشعوبا لاحراك بها فقبضوا على الاعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له اذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون في تونس فهل تعتقد ذلك في اهل الجزائر ولماذا لا تسأل الحكومة الفرنسوية ان ترى في احوال هؤلاء

قال اما التونسيون فلا خلاف في أنهم مسرورون بحالتهم ونحن قد دخلنا بلادهم وهي قاع صفصف مزق شملها افراد حكموها واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم واحوالهم الشخصية ولم نسألهم الا امرا واحدا أي احترام سلطتنا السياسية فادركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ولهذا كان النجاح عظيما في مدة قريبة وانت تعلم أن مذهبي في الاستعمار وضع الحماية كما هو في تونس لاضم المستعمرة الى فرنسا كما فعلنا في مدغسكر بالرغم عن معارضتي ذلك ،وقد رضيت به منقادا لاوامر اكثرية دار الندوة ولا انكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر وقد شرعنا في ذلك وسأكتب كثيرا في هذا الموضوع لاني ذهبت بنفسي الى تلك البلاد ودرست احوالها واملي أن لا يمضي طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذي طلبه غيري قبلي وشرعت حكومتنا في انفاذه

قلت اني اعرف ماسردته لي عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية في أوربا وعن احوال شعوب البلادين ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولاسيما في الحكومات الاسلامية والذين يقولون به من الاجانب ليسوا الاخصوما للمسلمين لاعتقاد هؤلاء أن في فصل السلطتين ضعفا ترومه اوربا لتنال بغيتها منهم

قال هانوتو انا لا اسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ولكن اعتقد ان اوربا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين وجعل الكلمة الاولى للسلطة الحاكمة كما اني اعتقد أن جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع ان تحسروا في

الحروب الماضية واعتقد ايضاً أن صاحب السلطتين ولاسيما في بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها و يعلم المسلمون ان جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس، وانكلترا من التهام الهند ،وروسيا من اخذ خيوى وغيرها الى حدود أفغانستان ، كما انه لم يمنع استقلال مراكش و بلاد فارس والمملكتان اسلاميتان فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيدا سياسيا يستحيل ايضاً توحيد سلطتها الدينية وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة له

وإذا كان الاسلام كما قلتم و يقول كتابكم (وأود أن أعتقد انا مثلكم أيضاً) انه لا يحول دون التقدم العصري فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون و بماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادي واعتقادكم فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أوروبا تحول دون تلك الاصلاحات. أجابوكم ان أكثر الدول كانت دائماً معكم الى سنة السبعين و بعدها فلم تأخرتم واليابان لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ماوصلت اليه اليوم فأصبحت أوروبا تقدرها قدرها في جميع مسائل الشرق الاقصى

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بان أوروباوشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة في أوروبا والقريبة من أوروبا كسوريا مثلا سألتكم هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم . أيظن رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربي ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين

وأنا أعرف ان امثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ولكن قدحان لكم ان لا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبي مادام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها كأني بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على مايأتونه من المغارم والمظالم فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين

واني أقول لك هذا بعد الذى قرأته في جرائدكم ردا على ما كتبته فقد عدوني خصما لهم ونسوا خدماتي لهم وأنا في منصة الوزارة الخارجية في أيام المسألة

الارمنية فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث في المستقبل فيستحيل على وزير أوربي ان يرتأي مثل تلك السياسة ولا أقول هذا من باب العداء بل لما نراه من تعديل أوربا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية فأن الدول ستكون واحدة في المستقبل كما ترى الآن في مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأممه فكلاهما راض عن خلله ومفضل اياها على كل سلطة أجنبية أو أوربية والذي ينفر الشرقي هو ظلم أوربا في سياستها هذه وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لانها عودتنا حماية الضعيف من القوي

فقال الوزير بعبارة صريحة: ان هذه الاقوال خيالية لا تنطبق على حالة أوربا في هذا الزمان فهي بعد ان كانت لا تهتم بغير قادتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها واعلم ان فرنسا مضطرة ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري الى الاقتداء بالدول المذكورة واني أرى كتابكم وأفراد أمتكم يجهرون في غالب الاحيان بافكار صبيانية فيستعبدون للالماني لنكاية الانكليزي و ينتصرون للفرنسوي على الالماني ولكن اما حان لهم ان يعلموا ان الاوروبيين مهما اختلفت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقهم على الشرقيين لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أوأغراض تلك الامة لاصلاح شؤونهم بل لمعارضة دولة ثانية وهي سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم وانت تعلم ان ألمانيا أكثر الدول في أوربا استقرارا وأبعدها استعمارا هي التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ في الصين وهي التي سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد مما يدلكم على ان أوربا لا تسعى إلا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك فضلة عندها أوصعب على طبعها

ثم قال لي أنت تقول لي ان الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوربا كلها أو بعضها ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لا سيما

وان أكثر الدول طامعات في املاكهم وحضرتك أكدت ذلك في كلامك الآن عن سياسة أوروبا

والمسلمون يعتقدون أيضا ان مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد ادى بهم فقدان هذه الثقة الى ان لا يأمنوا مسيحيا عثمانيا ولو اخلص لهم الخدمة وصدق معهم وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل اوروبا في أعمالهم ومن أفعال الموظفين غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء في بلاد الدولة أو في سفاراتها وأنت تقول لي ان في ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون

فهذا الذي تقوله لي اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لي بعض العثمانيين في الاستانة وباريس ولكن تفنيده أمر سهل واليك البرهان . لا يسعك والساسة المسلمين ان تنكروا ان بعض دول أوروبا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية فى أوروبا فان هذا حصل قولا وفعلا في حرب القريم فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول أوروبا عن نيل اغراضها في المسألة اليونانية وهذه الدول الثلاث خدمن سلطنتكم أجل خدمة في المسألة الارمنية بالرغم عن هياج الرأي العام الاوروبي وتصريح بعض الدول بمعارضتكم وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضا ان فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على ان ضالة أوروبا مصلحتها الاقتصادية فالسياسية ولا دخل للاعتقاد البتة فى أعمالها ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية ان تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين . وألم تحارب ايطاليا أوستريا وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكي من ان تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسي وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البرتستنتي الالماني والكاثوليكي النمسوي والايطالي وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكسوني وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها . كل هذه شواهد

قديمة العهد وحديثه تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق واذا وجب ان يلوم المسلمون سياسيا مسيحيا يخدمهم فكم يجب ان يلوم ساستهم العديدين . أفي مرا كش مسيحي موظف وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية في غير أيدي المسلمين؟ (٥ فاذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه أو ان رأيه مضر ببلاده فلما اذا أتى عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الاعظم؟ وهل قام ولا تكم وجميعهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الامة ومصلحة الوطن؟ نعم لا انكر ان تداخل أوربا أو بعضها نفركم ولكن بعض الحوادث التي حدثت في جهات عديدة من بلاد الشرق هي التي كانت سبب ذلك التداخل

واني أتساهل معك وأقول ان بعض دول أوربا يريد لكم سوءا وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوربيين ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي في أوج مجدها وشامخ عزها أن تتحد وتوحد كلمتها فهل يسهل ذلك عليها اليوم !!. واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام لان أوربا مسيحية « وهو زعم باطل » فهلا كان ماينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ويعنيها عن انفاذ ماينتهيها به المسلمون . وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم . أترضى به أوستريا ولها البوسنه والهرسك وهي طامعة في غيرهما؟ أم تقبل به فرنسا مع املاكها الافريقية الواسعة أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم !!! أم تعضده روسيا، أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة؟ كأني بهم هم الذين يريدون انفاذ مايطلبه كيمون وغيره من كتبة أوربا وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب ان يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الاوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأي العام الاوروبي اليهم

أماما كان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا في أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها

٥) الجواب في كل زمن ولا يزال أكثر سفرائها وقناصلها وموظفو نظارة الخارجية من المسيحيين

وسياستها فهو ان يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم وان يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بان يتخذوا اقدام أوربا واجتهاد ابنائها مثالا يسيرون عليه وانموذجا يعملون بموجبه أي كما فعل اليابانيون في السنين الاخيرة . وأنت تعلم ان الذي نبه اليابان هو خوفها من أوربا وهي لم تتعز عن ضعفها باحتقار الاوربي وذمه والمباهاة بمجد الآباء ولم يقل ياباني بتحقير الاجنبي لانه عنصر غريب أو لأنه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ولكن بسلاح أوربا أي بان تتشبه بها في العلم والمدنية والاقدام ولهذا فازت في مطالبها وحالت دون فتوحات الاوربي الاقتصادية أولا فالسياسية ثانيا ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القريم لما شكا مسلم من أوربا ولما شكا كاتب أوربي من حال الشرق وأهله بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم في السياسة الاوربية سواء في أوربا أو في الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية

وأراني في هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن وقد كان يجب عليهم ان يجهروا بها خدمة لامتهم ولوطنهم لاان يتجاهلوها و يكذبوها

وتقول لي ان النهضة العلمية بدأت في مصر وان بعض الافراد انشأوا المدارس وان الجناب السلطاني قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف في البلاد العثمانية وان أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة والامل وطيد بالنجاح . ولكن الطفرة محال وهذا أمر يسرني ويشرح صدري لاني أرغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم ولكن يجب ان تعلم ان العبرة ليست فقط في اقامة المدرسة بل في وضع البروغرامات المدرسية كما ان العلم وحده لا يكفي وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب فاني لا أجهل ان كثيرين من أبناء الشرق درسوا في أوربا وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا في أوربا أيضا ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ولعلنا نراها

عموما لأني اعتقد ان رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أومذهبية لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ولكن الاعتقاد وحده لايجمع الا عنصرا واحدا وأنت تعلم ان الفرنسوي يشمل الكاثوليكي والبروتستني والمسلم واليهودي والوثني وغيرهم من سائر رعايا فرنسا ولكن الكاثوليكي الفرنسوي والفرنسوي الكاثوليكي أو الكاثوليكي أو المسيحي لايشمل كل فرنسوي

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية وهي التي كانت قاعدة أوربا الاولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد اجبتك على جميع ماأردت ان تعرفه مني عن رأيي في الشرق

هذا آخر ماقاله مدير الاهرام عن هانوتو ويليه رد الاستاذ الامام عليه وهو

هانوتو والاسلام (١)

١

ألقت الي المصادفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة في القطر المصري جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة في الاسلام ولا أشك فى ان كثيرا مما جاء في هذا الحديث صادر عن رأي مسيو هانوتو لأنه لايصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا وكثير من أحوال المشرق ولهذا رأيت ان حرمانه من حظ النظر فيه وتركه يمر بلا مناقشة معه في بعض ماتضمنه يعد ظلما له وجورا عليه خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع فى اذهان الناس أثراً لايحسن السكوت عنه

وقد جاء في كلامه مايدل على انه قد أصيب بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكره حضرته فى مقال له سابق . فلا يليق بذي غيرة على

(١) نشرت في العدد ٣١٢٠ من المؤيد المؤرخ في ٢٨ ربيع الاول سنه ١٣١٨

الحق، ان لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق، وأرجوان يترجم ما أكتبه في جريدة المؤيد الفرنساوية وان يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ماغاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء ويعتبرون بقول لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هانوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم انكارها ، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها، وصرح لهم بان الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخبال، وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره، وطالب الطهر من عاره، الا ان يدركهم ويعمل عملهم، ليبلغ من الحول حولهم، فيفوقهم في القوة أو يكون مثلهم، فيتعاوض في المنافع معهم معاوضة المالك مع المالك لا أن يتسلى بالاعاليل، ويلهو بالاضاليل ، ويقنع بالأماني، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري واللفظ الطلي، وهو من روح قائله خلي، حتى اذا دهموه وهو في غفلته، وأخذوه في نومه او يقظته، بسط يده يلتمس الرحمة منهم، ويرقب ان يفيض عليه سيب العدل عنهم، فهذا عمل الجاهل الاحمق، وهو بالذلة والاستعباد أحق

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه، وكان يجب عليه من قبل ان يقبلها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به السيف بالسيف والرمح بالرمح »

ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة ،

فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين ان تتفق ، وسهل على كل منهما ان يرتفق ، والا استحال الاتفاق ، واستبد القوي بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف ان ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الاحياء ،

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى)

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد ان كانت لاتشتغل الا بما يجري فيها اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه الا قوة الامم التي تريد الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شؤونها الداخلية ، وما أعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد اذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها برهان القوة ان تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق وكان على المسلم ان يعرفه من قرون وله في كتابه المنزل خير هاد وارشد مرشد وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الاعداد وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ولاحد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له وأطلقت له القوة وهي كل مايقوى به خصم على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ماحفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة شؤونهم ،

وقد تألفت قوى الامم الاوربية من عناصر هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة لان مسيو هانوتو لاينكر ان أروبا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار وان المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لوقوعه النها وتهيئة نفوس الامم لاحتمال ماينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفي فتح المغالق التي لايستطيع السلاح وحده ان يفتحها وتمهيد السبل التي لايمكن لساعد الجندي وحده ان يمهدها . وهو من الامور المسلمة التي لايجادل فيها عارف مثل هانوتو فلا حاجة للأطالة في بيانه غير اني أذكر قصة كنت شاهدتها لابأس بذكرها في هذا المقام

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية في تلك البلاد وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم وطالع عددا من

مؤلفات كتابهم وامتلأ قلبه بحب فرنسا واستقر في ذهنه انها منبع نور العلم والحرية وانها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنساويين ومؤلفات بعض السياسيين فعظم عنده الاعتقاد بان هذه الامة الجليلة انما يهمها في سياستها ان تنشر المعارف في العالم لتهذيب العقول وتكميل النفوس لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ورأى ان من الزلفى عند الحكومة الفرنساوية ان يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنساوية وطلب منه ان يكون وسيلته في نيل ما يرغبه من معونة الحكومة فسعى الذكي سعيه ثم عاد الى صاحبه وقال له ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وان الحكومة الفرنساوية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها لكن سياستها في الخارج دينية محضة ويمكن ان تعرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملك في المساعدة قريباً والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من رحمه من أصدقائنا اذ ذاك وكان لي حظ في مساعدته كما كنت شاهداً الحدث الذي رويته

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفاً لكتابه ولقول الصديق رضي الله عنه ومستحقاً للوم مسيو هانوتو ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة

بقي علي الكلام مع هذا الوزير في أمرين الاول فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الايام وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد . والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية بل بالمسيحيين أجمع حتى وصل فقد الثقة بهم الى ان لا يأتمنوا

مسيحيا عثمانيا في عمـل من أعماله وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره · وموعدي بذلك عدد آخر اه

٢

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية

أؤكد لموسيو هانوتو ان هذه الدعوة ولم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله ان يشير الى هـذه الدعوة فضلا عن أن يبني عليها حكما وان ماعلق بالاوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ثم انعكاس ذلك في اذهان سياسيي المغرب وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ماتوهم فيها

وإني أعرض الحقيقة كما هي لا يغشاها ستار من تمويه ولا غطاء من تلبيس وأرجو ان يكون في هذا البيان مايقنع موسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حـديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم وأهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا

لا أنكر ان طائفا من الدين طاف في هـذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الارض وان نسمة من نفس الرحمن مرت بانفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم، وأثارت هممهم، الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين، وفيما صاروا اليه، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الـكلام ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك · ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالا يعلمون ويهرفون بما لا يعرفون ولا كلام لنا في هذه المقلدين وانما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا، بل انسانيا وسطا بين ذلك أخذا من كل من القبيلين بنصيب فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ولذلك سمي نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة

الاولى التي برقى فيها البرابرة على سلم المدينة . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع مالقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده في عمله . جاءهذا الدين على الوجه الذي ذكرنا فهدى ضالا ، والان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا وبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب منصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص وألفة في البيت ونظاما للملك . وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم ولم يفت العلم حظ من عنايته بل كان قائده في جميع وجوه سيره فان شاء قائل ان يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه ان ينكر انه أوجب عليهم السعي الى مايقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم ان يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لوان سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول خليفته الرابع « أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ أي خشونته » يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الاغنياء في الاحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال وتقويم الافكار وعاطفا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها وكان من أمرهم وأمره ماهو معلوم

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت مامقته؟ أيدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقد سائغا في دينه وان كان فيه ملك الارض أوملكوت السموات بعد ماشهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد؟ لاعجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الامر بنفسه

بحكم سنة الله في خلقه

وآسفا !! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه اما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانطمست في نظاره طريقته ، وحق فيه قول علي كرّم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لا أبحث اليوم في الاسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ماذكرت ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ماليس منه ، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر مالا يتصل بأصلها بل مايهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العقائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أولم يصح فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه ، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكان سواء في علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم فظن الرجل ان غاية مايفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها اما مايتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له ببال الا القليل النادر اما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع انه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم الامن أشخاص قلائل منثورين في أطراف الارض لاترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة ، اما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين

الاول من يظن انه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قل افراده في معظم البلاد الاسلامية ولم يبق منه الارسوم لايكاد لا يدركها نظر الناظر والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكي منهم وقليل ما هو ان ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذلك المعنى ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينه منه ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخبث ويزعمون ان الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ومن رأي هؤلاء ان لاشأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمروا بمعروف ولا انينهوا عن منكر وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ والكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين مالاحاجة الى عده ولايخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لايظهر له ادنى أثر في صلاح الامة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيؤه اولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أوسافل وافراد هذا الفريق ان كثروا أوقلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذي يمده له والده على ان ما يحصل اما لفظ يحفظ أوخيال يخزن والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة ومن هؤلاء من يذهبون الى اوروبا لاستكمال التربية فيها ولاغاية لهم سوى هذه الغاية فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها وحصر همه على العمل فيها ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها فاذا مل الانتظار أوتقضي زمن العمل وجدته في قهوة أوملهى يسرف في أوقاته ويفسد في أدواته والصالحون منهم وقليل ماهم لايهمهم شأن العامة شقيت أوسعدت هلكت أوقامت فاي أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الامة واستثني منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم يرجى ان ينمو عددهم وتجني الامم ثمار اعمالهم . هذا شأن الرجال مع العلم

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أودنياهن

بستار لايدرى متى يرفع ولا يخطر بالبال ان يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام وحشو اذهانهن الخرافات وملاك احاديثهن الترهات اللهم الاقليلا منهن لايستغرق الدقيقة عدهن وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعدها الجنة ويمنيها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل وقعد عن العمل ووكل الامر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن انه بذلك يرضي ربه ويوافي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من ان المسلمين خير الامم وان العزة والقوة مقرونتان بدينهم ابد الدهر فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم وان رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه فان اصابته مصيبة أوحلت به رزية تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب بدون ان يتخذ وسيلة لدفع الطاريء أو ينهض الى عمل لتلافي ما عرض من خلل ، أومدافعة الحادث الجلل ، مخالفا في ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لأولي الامر والانقياد لاوامرهم فالقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف في شؤونه ثم ادبر عنه حتى ظن ان الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون ان يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه ومن رأى حزن الآباء اذا طلب ابناؤهم لاداء الخدمة العسكرية وما يبذلونه من السعي فى تخليصهم منها حكم بان مايعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل وعرف ان ثقتهم بالحاكم قد بلغت الى حد التأليه من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من احد وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلي عنه من حيث انهم تركوه وشأنه لايساعدونه في حادث ، ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم الا اذا ارغموا على ذلك ومن ذا الذى يحسن عملا اذا ألجيء اليه بالرغم عنه ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الامور العامة جملة وضعف شعوره بحسنها وقبيحها اللهم الا مايمس شخصه منها .

اما الحكام وقد كانوا اقدر الناس على انتياش الامة مما سقطت فيه فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الاعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الابدان لاهوائهم واذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الاموال لانفاقها في ارضاء شهواتهم لا يرعون في ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة حتى افسدوا اخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة الاحل بها العذاب

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد، وطرق متخالفة في السلوك ، واراء متناقضة في الشرائع ، وتقليد أعمى في جميع ذلك، فتفرقت المشارب، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على اوباب النزعات المختلفة ، كل يجذب الى نفسه ، لا ينظر الى حق، ولا يفزع من باطل، وانما همه ان يغلب خصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له في الاسلام في معرض التشدق بالكلام

وزد على ذلك وهذا اكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم وهي بدعة اليأس من انفسهم ودينهم وظنهم ان فساد العامة لا دواء له وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له وانه لا يمر عليهم يوم الا والثاني شر منه . مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار أو خطئهم في فهم ما صح منها وتلك علة من أشد العلل فتكا بالارواح والعقول وكفى في شناعتها قوله جل شأنه «انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

تبع هذه البدع جميعها واخرى يطول ذكرها هزال في الهمم ، وضعضعة في العزائم ، وفساد في الاعمال، يبتدىء من البيت وينتهي الى الامة ويمر في كل طبقة ويجول في كل دائرة خصوصا من دوائر الحكومات وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الاعمى فانما عرض على اقوام في بعض البلاد الاسلامية تبعا لهذه البدع الضالة على انني لا اسلم انهم بلغوا فيه ادنى درجاته في الامم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم واعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله، وجهلهم بادنى أبوابه وفصوله، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها وينزل بهم من عقوبة الكفران مالاقبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم الله بلطفه وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه، ويعده حجابا بين الأمم والمدنية، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في اواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند و بلاد العرب ثم فى مصر وكل منهم بحث فى الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ولعلهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية ان شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شؤونه ويمكن ان يقال ان الغرض الذي يرمي اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد وازالة ماطرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الافراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم الى الامة فاذا سمعت داعيا يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته، وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لامندوحة عنها، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يجد من عماله أحدا ، واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ولاهله من الثقة به ماتعلمه وهو حاضر لديهم والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا المام لهم به فلم العدول عنه الى غيره!!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين سواء في مصر أو غيرها ان يثير فتنة على الاوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين غير ان بعض

المسيحيين اذا سمع قولا في الدين أعرض عن فهمه، وأنشأ لنفسه غولا من خياله، يخاف منه و يخشى غائلته بسببه باسم الدين و بعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شؤونهم، ورجعوا الى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم ، فحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر، وسالب متلصص، وسوء ظن بالمسلمين أيضا فان أهل الوطن الواحد لايستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال وغاية الامر أن ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لاينال الا بحق والاجنبي الذي كان ينفق الواحد و يربح المئة يرجع الى الاعتدال في الكسب، ويحتاج الى شيء من التعب في استيراد الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها، والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها وهي في أرفع مقام من عزتها

نعم يعرض في طريق الدعوة الى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم عصر معونة من مسلم آخر سوريا أو بالهند أو بالعجم أو بافغانستان أو بغيرهذه الأقطار لان مرض الجميع واحد وهو البدعة في الدين فاذا نجح الدواء في موضع، كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر اما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم يمر بعقل أحد منهم ولو دعا اليه داع لكان أجدر به ان يرسل الى مستشفى المجانين

يكتب بعض ارباب الاقلام من المسلمين في حكمة الحج و يقول انه صلة بين المسلمين في جميع اقطار الارض ومن افضل الوسائل للتعاون بينهم فعليهم ان يستفيدوا منه وهو كلام حق لكن لاينبغي ان يفهم على غير وجهه فان الغرض منه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أوأضل من اعمالهم وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء. وهو امر معهود عند جميع الامم التي تدين بدين واحد خصوصا عند الاوربيين

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته (*) وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له وهذا امر لا ينبغي ان يدهش أحدا فان هذه الدولة هي اكبر دول الاسلام اليوم وسلطانها افخم سلاطينهم ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم وهو أقدر الناس على اصلاح شؤونهم وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية فأي شيء في هذا يزعج أوربا حتى تعدّ على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول موسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه موسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد ان فصلت السلطه الدينية من السلطة المدنية وهو كلام صحيح ولكنه لم يدر مامعنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا على الامم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ويضع لها القوانين الالهية وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم ان أمكن وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومالهم وسمحت بأن يكون في محاكمها اعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها وكذلك حكومة مصر انشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك في الدين فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب موسيو هانوتو ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين بل كان الأمر معكوسا فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب

(*) كانت للآمال فيه بقية عند كتابة هذا المقال ولم تلبث ان زالت

المظالم والمغالاة في وضع المغارم والمبالغة فى التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

ان فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في الشرق وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت وامبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد ان يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين

لأظن ان موسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الاسلامية الفرنساوية اذا وجد فيها من يقوم بها وانا أضمن له بعد ذلك ان تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين فان المسلمين اذا تهذبت اخلاقهم بالدين سابقوا الاوربيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله

٣

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها وعدم ثقة سياسيهم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى ان لا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله موسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة ومن بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ثم أخذ يبرهن على ان سياسة أوربا اقتصادية ملكية لا دينية لاهوتية

لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانوتو ومن أبلغه اخبارهم أهم الهنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرقه

هل هم مسلمو الروسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد حتى ان الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الاورثوذكسي

هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من ان يذكر ولا ينفي اخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسية الروسية لايجهلها أحد ؟

هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل مايسمى سياسة بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعا شغل بعضهم ببعض فلا ينفكون يتقاتلون و يتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه

هل هم التونسيون وقد أثنى عليهم موسيو هانوتو بماهم أهله وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية لمجرد ماأطلقت لهم الحرية في دينهم

لعله لم يقصد الاالعثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله ان لايأتمنوا مسيحيا عثمانيا والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين و بالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الاقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ولكل من الفريقين اصدقاء وأحبة في الفريق الآخر ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم في دينهم أوفي منافعهم الخاصة بهم لالشيء سوى التعصب الاعمى ولانطلب على ذلك شاهدا اقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه موسيو هانوتو إنه بعدأن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية و بعد ان أتى ماأتى عقب الحوادث العرابية شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم كما افتخر بذلك مرارا في جريدته وان كانت له اليهم هنات لاتزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحي عثماني ؟؟ هل حرم أحد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحي عثماني؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه، أو وصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه، بل أزيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها ان يتولى تحقيق مظلمته انكليزي كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر

وهو ليس بحاكم رسمي فأي دليل على الثقة أكبر من هذا

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ومن له بينهم اصدقاء يركن اليهم ويعتمد بولائهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان

كثيرا ماأغرى الاوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الاجنبية وأحرقوا كبد والديه ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون فى مدارس الجزويت وكثير من أبناء الاعيان في مدارس الفرير فأي ائتمان يفوق هذا الائتمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا في المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ماكان بأيديهم ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ويغالون في الاستنامة اليهم ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم فماذا يطلب من الثقة فوق هذا !!

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل مايشكون من الثقة العمياء بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص أو غش من صدق او كذب من أمانة أو خيانة من قناعة أو طمع حتى آل الامر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها ايده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في اداراتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ماينال المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة مالم ينله مسلم وسفارات الدولة ومناصبها العالية لاتخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته والاحسان اليه برقيق المخاطبة لاينقطع

ذكره من الجرائد، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين أثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها فما هي الثقة ان كان هذا فقدها؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الانكليزية ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ثم انا نراها اليوم تتراجع وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم وانما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوربية

امبراطور المانيا جاء الى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به الى الحد الذي اشتهر وبهر. يجيء الامراء المسيحيون من الأوربيين الى الاستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة؟ كان يمكن السلطان ان يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها ولكن عهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا ان سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

فان قال قائل: ان حوادث الارمن لم تزل في ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الديني بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب:

أمكن ان يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ومع ذلك فان كثيرا من الارمن في خدمة الدولة الى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من ان منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية انعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بانفسنا ولو أنصف الاوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمنا بعد زمن في تلك الاقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لا في آسيا

لا يخفى علي أن أقول ان المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون ان يساووهم فيه فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا واني اعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وساسيهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب فلا ينبغي ان يعول على مثله في أحكامه وعليه ان يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه ان يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم وقوله فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه . لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها في المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر و بين سوء ما جرت اليه فيهم وهو بذلك يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين وهو ما لا يرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشؤونهم وغفلتهم عن مصلحتهم كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده لما وجد من المسلمين إلا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام

الرجل الكبير في الشرق (*

قرأت اليوم سطوراً تحت عنوان « رجال الشرق » كتبها قلم كاتبها عند ذكر موت (لي هنغ تشنغ) رجل الصين وقارن فيها بين الرجل الكبير في نفسه يظهر في بلاد الغرب ومثله في عقله وهمته يوجد في أرض الشرق وكيف يشرق النور من عقل الأول في أفق بلاده فيكون شمساً في الفائدة والشهرة وتظلم الآفاق في عين الثاني فينطمس ما فيه من نور ويخمد مايطوي به من نار ويموت غير معروف أو مشيعاً من اللعنات بألوف

ما كان لساني لينطلق بشيء في هذا الموضوع ولقد كان يبقى كل معنى فيه مقبوراً في نفسي لولا انك بما قلت وصلت شرارة بنار كامنة لم تطفأ بعد فهجت ما كنا، وأثرت كامناً، فطارت اليك هذه الكلمات القلائل لعلها تجد في بعض صفحاتك ما يحملها الى من ظننت أنهم يقرؤن كلماتك

حقاً ماقلت ؟ فهل لك في شيء من تفصيل ما أجملت ، ان الكبار من الرجال هداة في أممهم وانما يظهر أثرهم في ارشادها والسير بها في الطريق المؤدية الى الغاية التي تطلبها وليسوا بخالقين ولا ناشرين من موت وانما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره الى المطلب وعرف انه أبعد عما هو فيه فتهيأ للسفر وتحفز للرحلة وأخذ لأمره أهبته، وأعدله عدته، واستقام على أول الطريق فاذا السبل متفرقة، والاعلام كثيرة ، والصوى متعددة، فيقف المسافر، وقفة الحائر، فيأتيه البصير بالمسالك، فيدله على خيرها ، ويختار له أقربها وأبعدها عن المهالك ،فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته ولكن لانه رسم له الغاية التي يطلبها، والطريق التي يختارها لها، وبقية الطرق على جوانبها ، فرأى الدليل قويماً ،والصراط مستقيماً، فيسير والرجل الرشيد أمامه ،الى ان يمس الغاية بيده ،ويلمس الطلب بأصبعه : نعم ،الرجل الكبير موقظ من نوم ، أو منبه من غفلة ، وليس بمحيي الموتى ولا بمسمع من في القبور

(*) نشرت في العدد ٣٥٩ من المؤيد الصادر في غرة شعبان سنة ١٣١٩ و ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠١ ونسبت الى « أحد أفاضل الكتاب المجيدين » لتنكير الكاتب

فان كانت الأمة في منخفض من المنازل قد ضاق أفقها فلا تعرف جوا غير جوها ،ولا دوا غير دوها ، ولا بوا غير بوها — بوها رثيها — فان كان هواء منزلها وبيئا ،وكان مسكنها وبيلا،فهي تملل في مكانها، وتعتقد ان لا منقذ لها من هوانها ، واذا هاجها الطامعون ليستصلحوا لأنفسهم ما أفسدته ، ويستجيدوا لها ما استوبأته ،تقلصت من الاطراف ظناً منها ان لا متسع لها في الارض، وان ليس بعد طول مكانها طول ولا وراء عرضها عرض ،فاذا وجد فيها الرجل الكبير فأول مايخطر له ان يفعل هو ان يمد بصره الى ماوراء أنفها حتى يعرفها ان وراء منزلتها مذهباً لمن يريد النجاة مما هو فيه وكيف يمكن لطبيب ان يحدث في البصر امتدادا ان كان قد خلق قصيرا ،وكيف يتيسر له ان يجد له حدة ان كان قد جبل حسيرا ،

الرجل الكبير يحس و يتألم ، ويدفعه الألم الى ان يتكلم، بل تحمله شدة الالم على ان يجاهد قومه وهم أحب الناس اليه ، ويقاتلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه ، ولكن قد يبلغ بهم العمى أوقصر البصر ان يعدوه عدوا لهم وكلما دعاهم الى الحركة دعوه الى السكون ، وأخذ بهم الى الفزع جذبوه الى الركون، وهم أكثر منه عددا ، وأوفر عددا ، فلا يمضي طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح ، وينقطع نفسه من الدعوة الى الاصلاح ، وتضعف عزيمته ، وتضمحل همته ، فاذا جاءهم عدوهم، وقد خدعهم بودهم ،وأحسوا بشدة الصدمة،صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة ، تنفس الصعداء ، وحسرة تصعد الى السماء ،الكن مع القعود في المساكن ، والخلود الى أخس المنازل ، فينتهي بهم الامر إلى الاضمحلال ، وما بعد الاضمحلال الا الزوال ،

ان كان ما بالامة ليس نوما فيزول بالايقاظ ، ولا غفلة فتذهب بالتنبيه ، وانما هو خدر شلت به الاعصاب،وذبلت به العروق، فماذا يكون فعل الرجل الكبير؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء ، ويستعمل مالديه من قوة في معالجة الداء ، وهيهات ان يشعر به المريض بل هو تارة يضحك ضحك المستهزيء ، وأخرى يبكي بكاء اليائس، وثالثة يضرب الطبيب بما حضر لديه ، أو بيديه ورجليه ، حتى يقضي عليه ،

هذا اذا ذهب الطبيب نحو الامة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ، فاذا حمله اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه الى صاحب السلطة عليها، والحكم النافذ فيها ، لعله أنه يتمكن من ازعاجها عن موطنها، وسوقها الى ما ينجيها من هلكتها، وذلك قد يكون فان الملوك والرؤساء لهم في الامم ما للجهل فيها ، فكما ان للجهل فيها حكما لا معارض له ، فللسلطان عليها قول لا يرد ، فيمكن للحاكم ان يداويها بدائها والاستبداد الذي يستعمله ليسوقها الى الشر ، يمكنه ان يستعمله فيها ليقودها به الى الخير ، والرتب والمناصب التي يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى يسهل عليه ان ينوط بها ما يريد من وسائل المنفعة الثابتة والمصلحة القائمة — اذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد ؟ يجد مالا سبيل الى شرحه الآن . . (*

اذاً فما الذي يصنعه الرجل الكبير ؟ يسعى ويجد ، ويدأب ويكد ، ثم يموت محروما من ثمرة عمله ، با كيا على خيبة أمله ، ومن للرجل الكبير في أمة مثل أمم المشرق بمثل امبراطور اليابان ، أو الامير عبد الرحمن خان ، ان صح ما جاءت به الانباء ، وصدق ما روت عنه صحف الاخبار ،

ولكن هل ذلك كله يقضي على الكبير بأن يصغر ، وهل يحكم على العظيم في نفسه بأن يحقر ، كلا فهو انما يؤدي واجبا عليه ، وعلى الله ما وراء ذلك والمرجع اليه ،

اكتب اليك هذا ولا أجد من الوقت ما أبث به ما أجد فان سمح لي الحال بأوسع من دقائقي هذه فسأوافيك بأوسع من هذا في بيان أسباب ما للشرق فيه من مساواة الكبار للصغار ، في ضياع العمر وفساد الآثار ،

(يقول جامع الكتاب) اننا نكتفي بما نشرنا مما كتب رحمه الله تعالى في الجرائد المصرية من المقالات . وترى في جزء الترجمة شيئاً منه قضت الحال بنشره فيه

---

*) قد حذف المؤيد ههنا كلاماً من الاصل في وصف حكامنا هو أبلغ ما كتب فيهم

كتبه ورسائله

طائفة من كتبه الاصلاحية والدينية الى العلماء والفضلاء من أعضاء جمعية { العروة الوثقى } . ولا نذكر اسماءهم اذ لا حرية في بلادهم

١

لله الحمد على هبته من الاخلاص ومنحته من الانابة اليه ، واشكر الله اليك على ماوفر لك الحظ منها ، ما أبطأ بي عن مواصلتك غفلة عن ذكرك ، أو اهمال في الواجب عليّ لحقك ، فلي من همتك منبه لايغفل ، ولديّ من مروءتك جميل لايهمل ، لكن صرّفني القدر الالهي فيما أراد الله ، وصرفني الى حيث سبقت مشيئته ، تعاظمت حوادث الشرق خصوصاً ما مال منها نحو الجنوب فشغل الاهتمام بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فلقيتُ من الامر الجديد ان أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، لعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس ما ادخر لها العمل ، وتلحظ أبصار مادونا من الأمل ، وتنبعث عزائم لتناول ماحضر لديها ، وابراز ما كمن فيها ، فعناية الله باسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصاخونها ، وغطيط من الغفلة لايسمعونها . هذا ما اندفع بي الى بلاد استعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف على حدوده ، عسى ان يتواصل المتقاطعون ، و يتناصر المتخاذلون ، وما توفيقي الا بالله وما اعتمادي إلا عليه فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عق الشباب تمائمي وأول أرض مس جسمي ترابها

غير انه لا يراني من أهلها الا المخلصون ، ولا يعرفني فيها الا العارفون ، وان لك بينهم ذكراً يليق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، ولقد أبلغت السيد من خبر صنيعك ماوفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه ، ورجائي ان يوافيني من لدنك مايطمئن به القلب على صحتك ، وما يتروح به الفؤاد من أنباء مساعيك بين الاخيار من

قومك، أحيا الله بك موات الهمم وأقربك نواظر الفضل وسلامي عليك وعلى أنجالك وآل ودك والله يديم رعايته عليك والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٢

طال العهد من فراقك ولم يجر القلم بمراسلتك حتى خيل مكان الظنة ومثار الريب. استغفر الله، لي من شمائلك روح بروحي ومن همتك قلب بقلبي فلست أنساك حتى أكون بمعزل عن نفسي ولكن حولتني مهمات الشرق عن الغرب بما رآه المولى السيد من فرصة العمل في هذه الحوادث المتتالية فخليته عونا لنا حيث هو وتحولت الى مقربة من معاقد العروة ومكامن القوة فكانت المدة من يوم فراقك متبددة فى أسفار متلاشية فى هواجس اخطار واليوم أكتب اليك من وراء ستار فلا تهملوني من التذكار ورجائي ان يردالي من قلمكم ما يرجوه القلب من ودكم وسيدي السيد يهديكم أتم التحية والوسيلة تصل اليكم وسلام الله عليكم وعلى كل مخلص والله يحفظكم

٧ ج ١ ــ سنة ١٣٠٢

٣

فارقتك ولم يفارقني مثال من كمالك وضياء من عرفانك واني على البعد عنك لم أنس ما افادني القرب منك ولي في كل لحظة شوق اليك وفي كل بقعة حللتها ثناء عليك ورجائي ان أنال حظا من الاطمئنان على صحتك وسلامي على حضرة السيد أخيكم ومن سعد بمحبتكم والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ جمادى الاولى ــ سنة ١٣٠٢

٤

أشد ما أجد من فراقك حرماني من محاضرة آدابك والاقتباس من أنوار فضلك وتعرف الصواب من صائب رأيك وانما يخفف ألم البعد عنك ان أكون بمكان من فكرك وأصيب حظاً من مراسلتك وجدير بكرمك ان تصل واصلا وتجيب سائلا. وسلامي عليك وعلى أنجالك الصالحين والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام

٧ جمادى الاولى ــ سنة ١٣٠٢

٥

أيد الله بك الحق وأعانك على العمل بما وهبك عرفان تنير به أفئدة السذج من قومك وترد به جماح الغاوين من عشائرك ويقين في الدين ينهضك اذا قعد المرتابون ويشد عضدك اذا ضعف الواهمون ومكانة فى قلوب اشياعك تمكن الثقة بك والاستمساك برأيك وسعة فى البيان تقطع بها طريق الشيطان فوجه عزمك للنصيحة وجادل بالتي هي أحسن واذا أخذت من أحد بحبل فلا ترسله ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه وصل حبالك وحبال المهتدين بحبل الله وكن على ثقة من الفوز ويقين من النجاح ما دام هدي النبي هديك وسعي الاصحاب سعيك وان أشكل عليك أمر واشتبهت لك المنافذ فاخوانك كثيرون وهم بعونة الله فى عونك كما انه لاغنى لهم عن الاستعانة برأيك. ومقامي اليوم في بلد ما كنت أحتسب الذهاب اليه وان كان أوفر لهفي عليه ولكن مكاتيبك تصل اليّ ان شاء الله بالطريقة التي تراها صحبة هذه الاسطر وسلامي على قلبك الطاهر وشوقي للاجابة وافر والوسيلة تصل اليك والسلام ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٦

أكتب اليك والله أعلم بما أثبت فضلك في قلبي من الود وما يهيج أدبك فى فؤادي من الشوق وبودي لو ان عبارة تحمل ما في نفسي اليك ولكن حكمة الله في قصور العبارات ان يكون الفضل لثقة الكريم وفراسة الحكيم ٠

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك وحاشا ان يكون تساهلاً في الحق أو تغافلاً عن فريضة الود وانما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فمزقها وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها. من يوم فارقتك ما استقر بي مكان حتى الآن ذهبت الى باريس فاعتمدت ان تلقيت من الرأي الجديد ان أتحوجهة الشرق حيث مسيل الحادثات ومخرق الذاريات فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) عملت في جميعها على احكام العروة وتمكين عقودها ثم اصعدت بعد ذلك الى

﴿ بلد خلعت به عذار شبيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني ﴾

وأنا اليوم فيه أنعرف الوجوه وأتنكر العيون وأسأل الله نجاح العمل واقبال الامل .

ان لي في حيتك رجاء عرفه المخلصون وهم لتحققه منتظرون فادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فان فناء في الحق لهو عين البقاء وان نعيما في الباطل لهو الشقاء فاستكثر من الاخوان ونقهم من الخوان واثبت بهم على أصول الشريعة وأرجع بهم الى سيرة صاحبها عليه الصلاة وأتم التسليم . وليكن القول من مولاي الصادق تاسيساً لاتدريساً ولا تكون كلمة الا وغايتها عقد يبرم ورباط يحكم استغفر الله ان انبه يقظان أو أهدي البيان لمعدن العرفان ولكن ذلك حديث نفسي لنفسي وخطاب قلبي لقلبي ومنّ عليّ بأنبائك وما يكون من آثارك . ألهاني مشهدي منك عن طلبي لترجمة حياتك فلو تفضلت بارسالها من قلم أحد تلامذتك لتثبت في صحائفي ذخيرة لي ولخلائفي .

واذا رأيت ... فنبئه ان قوة الاتحاد في الجنوب أفزعت قوة النيران في الشمال وان نيران القلوب اذابت مدافع الكروب وما النصر الا من عند الله يؤتيه الصادقين ويوليه المخلصين « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » اما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ولكن (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) .

السيد يهديك السلام وقد أخذت في ترجمة رسالته في نقض مذهب الطبيعيين وعند تمامها أبعث اليك بها فان حسن لديك طبعها في حاضرتكم فذلك اسكم والوسيلة تصل ان شاء الله اليكم وسلامي على روحكم الزكية وعلى كل نفس صادقة ورجائي سرعة الاجابة والسلام ٧ جمادى الاولى — سنة ١٣٠٢

٧

تهيبي من جلالك يمنعني الدنوّ من كمالك وكل ما عددت من فضائلك . فهو دون الحقيقة من حالك وغاية ما أعددت لك من نفسي مقاما لم يحله سواك ومنزلة لم يسم اليها غيرك وما أنا بالمختار في ذلك وانما فضلك أنزلك حيث شئت وصرفني فيما اخترت لاأذكرك بما افترقنا عليه ووجهنا وجوهنا اليه فذلك الدين وما افترض والحق وما اقترض « ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر

لكم والله شكور حليم * قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * عسى الله أن يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » ان الزمن من يوم فراقك كان في سفر لم تسنح لي فيه فرصة لأداء حق المواصلة ورجائي في عفو هو أقرب اليك من الظنة وأجدر بك من التهمة وان كتابي هذا يصلك من خلوة يستضاء فيها بهديك وتتلى فيها آيات ذكرك وان هذا الداعي والمخلصين في السير على طريقك يؤملون ورود الخبر من جانبك وارجو ان يكون فيما تكتب اليّ شيء من حال الشيخ ... والشيخ ... ومن وصل اليه سعيك وكتبي سر لديك وسيدي الاستاذ حيث تركته يهديك أزكى السلام والله يحفظكم برعايته ٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٨

ما فتر حب اثارته صنائعك ولا خمد شوق هاجه ذكرى شمائلك ولكن تعس زمان شغل يدي وأخذ بأصغري وأكبري حتى أبطأ بي عن مواصلتك وقصر بي عن مراسلتك هذه مدة من فراقك نهبتها الاسفار وغالتها مقارفة الاخطار حولتني صروف الحوادث عن الغرب الى الشرق حيث يقصد إحكام العروة وتأييد القوة بالقوة ولي في ذكر حضرة الوالد شأن وفي تعديد أوصافه كما سمعت بيان وسيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام وأنا في انتظار لنبأ منك عن صحتك وصحة السادات اشقائك والوسيلة واصلة اليك ان شاء الله وسلامي عليك وعلى سيدي ... ... وسيدي الشريف ومن تودون والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٩

لله ما أودعت نفسي من الود لك وما ملأ قلبي من الاجلال لقدرك ذلك أثر من كمال روحك وجمال صفاتك زادك الله قربا اليه وتعويلا عليه لم أكاتبك من يوم فراقك لان المدة تقضت في سفر وانتقال وهذه أول فرصة سنحت لاداء حق المودة وفريضة الاخوة ورجائي أنه لا يزايل فكرك ما تفارقنا عليه وسبق الكلام فيه مرارا وان يرد الي من سيادتك ما يبشرني بسلامة حالك ويجمل

الحاصل من سعيك. قدم سلامي الى حضرات الاميرين الجليلين وسأكتب اليهما واليك على وجه آخر عند ورود خبر من جانبك ان شاء الله حولتني الحوادث من الغرب الى الشرق لتكون المواجهة أشد أثرا من المكاتبة وهذا ماعاقني عن مباشرة ذلك العمل المعهود في هذه الايام ولكن الحمد لله على وحدة القصد وسلامة الغاية والله يسمعني عنك أفضل ما احب لك والسلام

١٠

وكتب الى صاحب الكتاب (٢) من الكتب السابقة جوابا

لا آله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم تحية أخ يهزه الشوق اليكم وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك فشممت منه ريح الحمية، والنعرة الدينية، وأرجو ان تصل بك بدايتك الى ما يختار الله لك من حسن النهاية ولم يكن ظني في همتك دون ما تبينت من عبارتك فليكن سرورك بنفسك، على قدر شفقتك على دينك، وحركة ميلك للأخذ بيده، وتقويم اوده، فانما هو الدين المتين الذي أطلق العقل من قيده، وأخذ على الوهم في كيده وهز النفوس الى نيل الفضائل، ونكب بها عن مشايعة الرذائل، حتى ساد به الضعفاء، وذلت لسلطانه الاقوياء، وسبق وعد الله بان يظهره على الدين كله، والله منجز وعده لاهله، وانما خلقنا الله وكلفنا بصرف همومنا اليه، وتعويلنا في شؤوننا عليه، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا، الا ما نبذله في تأييد ديننا، ولا حاجة لله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب

داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي وحاذر النظر الى وجوه التفاسير الا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب الى ما يشخصك القرآن اليه، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه، وضم الى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقفا عند الصحيح المعقول، حاجزا عينيك عن الضعيف والمبذول، واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله وما ركبوا من المتاعب، وما احتملوا من المصاعب، على ما تعلم من درجة قربهم الى

الله وغفرانه لهم ماتقدم من ذنبهم وما تأخر. واجعل عيشك للآخرة واستعد لما وعد الله فان سعادة أبدية، لاتنال الا بسيرة محمدية ،ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممهد ، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، واللحظة من لحظاتك، ان صرفتها لاعزاز دينك كانت لك ، والا كانت عليك، وارجو ان يكون كل سعيك خيرا يجعله الله نورا يسعى بين يديك ان شاء الله . اما ماذكرت من مسألة الشيخ الصغير فبودي لو توجه الى الله كل مسلم واعتصم بحبله كل مؤمن فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ماذكرت، ومن علو المنزلة على مابينت، فان تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته وادخل اليه ابتداء من طريق لايعرفه وتلطف له في القول وان شئت أطلعته على شيء من مقالات العروة الوثقى فاذا انتهيت به الى مايعرف وآنست منه الميل والرضاء فاما أن يكتب الي واما ان يستعد لتلقي كتاب مني ثم سراع الي بالخبر ثم نبئني عن الشيخ ... واسأله ان يكتب الي بالعنوان الذي به تصل اليه كتبي فانني قد أذنت ان أبعث اليه ببعض المواد الاصولية التي يجب اعتبارها أساسا للبناء كما اعتبرها المتمسكون بالعروة في كل قطر ليتحد المسير والى الله المصير ثم انني الآن في بيروت وأقيم بها زمنا فاذا كتبت فليكن العنوان ... ولاحاجة لما يزيد عن ذلك فانه يصل الي بمجرد هذا العنوان و بادر للكتابة والسلام

١٥ ذي الحجة — سنة ١٣٠٢

١١

وكتب الى صاحب الكتاب (٥) من الكتب السابقة جوابا

لا اله الا الله وحده لاشريك له و به الحول والقوة

السلام عليكم وعين الله ناظرة اليكم و بعد فقد وصلني اليوم كتابك يحمد منك اخلاصا طويته واختصاصا بالله حويته و يشكر منك استعدادا لممالأة الله على أمره ومظاهرة لاقامة الحق ونصره ويثني على معرفتك ما آتاك الله من الحول وما رزقك من الطول ونزوعك لشكرك اياه على ما آتاك بالعمل فيه لآخرتك ودنياك ولم يفتك الاعتبار بقوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة» : الآية : ولا بقوله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب

ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ٭ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ولن يعجز مؤمن وان ضعف حاله وقل ماله ان يأتي واحدة مما ذكر الله فكيف بك وقد آتاك الله بسطة جاه في قومك تستطيع بها تقويم طباعهم وتهذيب عقولهم وردهم الى ما انحرفوا عنه من طريق الشرع القويم وتنبيههم لما غفلوا عن رعايته من طلب الشهادة وعدها افضل ذخائر السعادة وان لله يدا عندك بما آتاك ولست تأمن مكره في حفظ نعمته عليك لعقبك ان امنت ذلك لنفسك الا أن تؤدي حق الله فيها ولا تؤدي حقه حتى يكون معظمها منصرفا لاعزاز دينه واعلاء كلمته والجهاد للحق حتى يظهر وفي الباطل حتى يدحر فاوصيك وما أنت بمحتاج للوصية أن تجعل كتاب الله امامك وأن تأتمر له كما كان نبينا وأصحابه يأتمرون له فلم يكلفهم الله دوننا ولم يسامحنا الله دونهم وليس بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في فريضة فرضها أوسنة سنها واياك وتعلات النفوس واهاويل الاوهام فانها من مضلات العقول ومداحض الهلكة وجند الشيطان وليس بينك وبين الحق الا أن تهم وتخلص لله همك فتكون يد الله على يدك يؤيدك ويأخذ الحق بك والله لا يعين خاذله ولا يضيع عملا أخلص له .

الا أيها الشيخ الجليل ان الله قد اشترى منا حياة دنيئة لو طلبت من عاقل لجاد بها بلا عوض لقيامها على قواعد الاتعاب وقوائم الاوصاب بدايتها ضعف ونهايتها عجز وما بينهما خروج من أحدهما دخول في الآخر ما فات من لذاتها يولد الاسف على فواته وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه واللهف الدائم على تحصيل ما يؤمل منها فليس فيها حال تخلو من آلام وقد وعدنا دينا حقا أن يعوضنا عنها سعادة أبدية في حياة ابدية لا يشوب لذتها ألم ولا يمازج صفوها كدر وذلك عند ما تسلم له السلعة تامة في نهاية الاجل فان لم نقبل بيعة الله في ذلك كنا المغبونين وان لم ندفع له سلعته خالصة كنا الخاسرين حياتنا ذاهبة الى الفناء رغما عنا وليس لنا من امكان للخلود فيها فانظر الى رحمة الله في شرائها منا واجزال

العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكا لنا وفي سعتنا ان نستبد به عليه ونمنعه مراده منه جلت عظمته ووسعت رحمته الا فلنتق الله ولا نبخل عليه بما هو له ولا نغر باملائه لنا ومطاولتنا عليه . فشمر عن ساقك واحسر عن ذراعك واذهب الى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين وتأليبهم على تلبية داعي الايمان والله يتولى ارشادك في جميع الاحوال . اما حادثة الشيخ فقد مسنا منها ما مسه ولم يكن ما وجدنا منه أقل ما وجده ولم يغب عنا شيء من أطرافها وقد جهدنا فيها ما استطعنا وربما رأيتم أو سمعتم بما أطالت به جرائد باريز في المدافعة عن الشيخين وتعنيف الحكومة على ما فعلت وذلك بمحاورة من تعلمون هناك ولقد تنازعني في هذه الحادثة مسرة وحزن اما المسرة فلأن الشيخ قام على طريق الصديقين يتلقى من الاخبار الالهي ما تلقوه لينال من رضاء الله اذا احتسب ما نالوه واما الحزن فلما عسى ان يكون قد خالط قلبه من ألم المحنة والاسف على المصيبة والحمد لله على رجعة من غيبة واسأله وقايتكم جميعا من كيد الغادرين وعدوان الظالمين وأن ينزع بخواطركم اليه ويؤلف قلوبكم عليه . وبعد هذا فنبئني عن العنوان الذي به أكتب اليك واخبر الشيخ أن يكتب الي بعنوانه فقد أذنت بان أبعث اليه ببعض القواعد التي ينبغي ان يرفع البناء عليها واذا كتبتم الي فليكن بعنوان . . . وعجل بالاجابة ما استطعت والسلام ١٥ الحجة سنة ١٣٠٢

١٢

وكتب الى ش ي صاحب الكتاب (عدد ٢)

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الحق والقوة

حضرة الاخ العزيز

ورد الي كتابكم والحمد لله على صحتكم وكنت اود المبادرة باجابتكم من يوم وروده لولا ان رقيمكم صادفني على علة في عيني كانت تمنعني النظر في الكتابة والكتب ولله الحمد على ما خف منها . اشتد اسفي على فقد الشيخ الصالح اوسع الله له من رحمته ونفعنا بطيب نيته . اسفا على فقد حي لدينه مخلص في يقينه وان كان لا اسف على من يلاقي ربه بمثل مالاقي الشيخ، انتهت دنياه بغضب الشيطان

وافتتحت اخراه بِرضى الرحمن ولولا رجاؤنا في مثل ما أقبل عليه الصالحون لضاقت بنا منازل الحياة وغصصنا باهنأ لذائها وشرقنا باعذب كؤوسها اما ماذكرت عن الشيخ الصغير فقد كان كتابك السابق يشير لي رغبة منك في تعليق الامر بك على انه لولم يكن فيه مثل ذلك لما خطأت الظن فيما كلفتك ولم استسمن ذا ورم بل على المليء به سقطت وان ظني بك لفوق ما تروي عن نفسك ولكن دع عنك ما استصعبت من الامر واخبرني عن اسم الشيخ المشهور به واسم بلده والقطر الذي تغلب اقامته فيه واكتب ذلك بالحرف الفرنساوي الواضح وأستعين الله في مخابرته بنفسي بأسلة قلم أولسان رسول ولا تبطئوا علي في الافادة والسلام عليك وعلى اخوانك الابرار والله يتولى اعانتكم والسلام

٢٢ ربيع أول سنة ١٣٠٣

١٣

وكتب الى س . س صاحب الكتاب (عدد ٦)

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون

كتبتم الي بانكم اجتمعتم جملة من الصادقين وأهل الحمية للنظر في تقويم ديننا والاخذ بما يرضي إلهنا و يقر عين نبينا ثم حدثت بعد ذلك الاحداث وتلك سنة الله في الاولين والآخرين عنه بداية كل عمل صالح مقبول لديه محفوف بالعناية منه ولم يعمني حدوث ما حدث عن مخابرة من أنوب عنهم بما كان من اجتماعكم ثقة مني بهمتك وصدق عزيمتك فورد لي الاذن بتسمية مجتمعكم وارسال بعض القواعد التي يبتدأ بها العمل . واليوم ابعث بها اليكم وأملي أن تكون في حرز الصيانة وان تكون مرجع الاعمال ان شاء الله فاذا وصل اليكم ذلك فخذوا عهدكم على القسم المذكور وانتخبوا رئيسكم وعجلوا الخبر بما انتهيتم اليه وفصلوا اسماء من معكم وألقابهم ومواضع اقامتهم وسموا لنا رئيسكم وكتمان السر أول

وصيتي اليك وهو نهايتها والسلام على أهل العقد الرابع من عقود العروة الوثقى والله يتولى اعانتكم رسالة الرد على الدهريين أشرفت على نهايتها من الترجمة وستطبع في بيروت ان شاء الله ومتى تمت أرسلنا اليكم منها

١٤

وكتب الى ش صاحب الكتاب (عدد ٢)

أيها المؤمن حقا

لا أدري هل أخاطبك بالاخ الصالح أو بالابن البار ولكني اعلم انك مؤمن بلادك هيأك الله لرشادك تلقيت بيميني بميك وضممت الى يقيني يقينك بارك الله لك في عزيمتك وحاطك باليمن في نيتك ولقد اتيت في عملك هذا سنة المؤمنين من قبلك سارعت الى مغفرة من ربك ممتثلا أمر كتابك المنزل على نبيك وسابقت الى جنة من الله ورضوان .

رويت لي عن صاحبك دون ما أملت فيه ولكني أرى رأيك في استبقائه والارجاء باليأس منه فلعل بارقة من العناية الآلهية تنزع به الى ما هو خير له ان شاء الله

(ومنه) والله انا لنتصفح قلوب المؤمنين في هذا الامر تصفح الناشد مواضع الضالة لعلنا نصيب من قلب حكمة أو نستفيد من عقل بصيرة، وانا لنتبع في ذلك أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأثر أصحابه ولآخذين بسنته ألحقنا الله بهم . فما باله يرحمه الله يضن بما يراه ان كان للحق طالبا ولكن لا تحزن ان الله معنا ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

ان اخلد مغرور الى حضيض الجبن فانما رضي لنفسه درك العدم، وانحدر عن ادنى درجات الوجود، ولم يزد في حاله أن يكون كأشباه جبناء يفوقون عدد الحصباء عاشوا في اغلفة من الخمول لا يهتدي اليهم الذاكر ولا ينصرف نحوهم شكر الشاكر هذا بعد أن يكون قد أصاب حظه من المقت الالهي الكامن في قوله « رضوا بان يكونوا مع الخوالف فطبع على قلوبهم » واني لأشح بمثله عن هذه المنزلة هداه الله

ذكرت اسم الشيخ القاضي نحبه فلم تذكرناسيا ولم تنبه لاهيا زادبذلك اسفي واشتدعلى مثله لهفي وهمل دمعي وغشي على بصري وسمعي امطره الله غيوث الرحمة وتوفانا على مثل نيته فذلك كان من الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون. قم على مذهبك وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وذكر بآيات الله فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خيرلك من حمر النعم.

١٥

وكتب اليه أيضاً هذا الكتاب المطول وهو من أجل كتبه الدينية

لااله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوة

سرني مانقل الي كتابك أنك استجبت لربك فيما دعا اليه عموم خلقه بقوله « قل سيروا في الارض » وانما يستجيب اليه أهل الرغبة فيه، ولقد حمدت الله أنك لم تجعل سيرك سيرالغافلين ولم تمر على ما لاقاك مرور الذاهلين بل استعملت بصيرتك ونظرت فيما قام لك من أحوال الناس لتعلم ماذا أبقت الحوادث فيهم من الاستمداد لقبول الحق والميل للرجوع اليه، وما أظنه ذهب عليك، أيام كنت تقلب عين اعتبارك في اطوار أولئك المحجوبين ان ماهم فيه لا تختلف عن عواقب المكذبين الذين يأمرنا الله بالنظر كيف كان عاقبة أمرهم وماأحل الله بدارهم من بوار وما الحق بعمرانهم من دمار وماألصق بذكرهم من عار وشنار كيف يختلف الحال عن الحال وانما التكذيب أثر غين يغشى عين القلب فيواري عنها وجه الحقيقة فتعمه ظلمة أشبه بظلمة الخسوف تعلو وجه القمر فاذا أظلم القلب وهو مستودع السر الذي به كان الانسان انسانا فقد أظلم الانسان كله، وذهبت قواه تخبط في أفاعيلها على غير هدى وتعسر عليها ان تلزم طريق الحق والصراط المستقيم وهذه الحال كما تراها فيمن يذكر الحق بلسانه ويكذب الداعي اليه بانكار بيانه تراها بعينها في هؤلاء المخدوعين الذين يزعمون انهم آمنوا بالله وبرسوله وبكتابه ثم هم في أعمالهم وآمالهم أبعد الناس عن سَنَنه وسُنَنه وأشدهم النواء على أمره ونهيه وقد علمت أن الله لم ينظر الى قوم

يقولون بافواههم ماليس في قلوبهم وأن اليهود لم ينفعهم أن آمنوا بموسى وخلفائه من الانبياء أو بما جاؤا به من الوحي الالهي ايمانا بحتا كما يدعيه المسلمون في هذه الاوقات كان اليهود يعرفون موسى نبيا لهم والتوراة وكتب الانبياء هدايات من الله لعقولهم كما يعرف المسلمون ذلك في كتاب الله تعالى ولكن الله نعى الينا أحوالهم في مزاعمهم فقال « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين » فقد جعل تأويلهم التوراة وصرفهم لألفاظها الى غير ما أراد الله بها وحيدانهم عن العمل بما دعت اليه تكذيبا بآيات الله، وجعل تقضيهم لما حملوا من أحكامها مروقا منها حيث قال لم يحملوها وجعل تصديقهم بها على هذا الوجه بمنزلة احتمال حمار لاسفار فهو في عناء من ثقلها على بعده من فائدة ما أودع فيها. أفليس هذا النبأ بعينه يحدث عن أحوال المنتحلين اسم الاسلام في هذه الايام وأنهم حملوا القرآن ثم لم يحملوه الى آخر الآية ألم يكن في ظلم أهل هذا العنوان وجمودهم عن حدود الله ما يستحقون به تسجيل الضلالة عليهم كما سجلت على اليهود في قوله « والله لايهدي القوم الظالمين » وأشد الظلم ظلم النفس بعدولها عن سنن الحق. الا يصدق عليهم انهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون !! الا ينعى حالهم « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » الا يحكي جهلهم « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون » أي أنهم لا يعلمون منه الا أن يتلوه تلاوة بغير فهم فان طلبوا شيئا من المعنى لم يكونوا فيه على بصيرة إن يظنون الا ظنا

اني استلفتك الى أولئك الذين يتناولون مصاحف القرآن الكريم بأيديهم خصوصا في شهر رمضان ثم يطلقون بلوكه بألسنتهم، يزعمون أنهم يتقربون الى الله بترنمهم ويصعدون الى منازل القرب عنده بنغماتهم ورنين أصواتهم ويجعلون كل همهم في هز رؤسهم والتوفيق بين الهزات وتموج النغمات وما شاكل ذلك من لواحق الصور والهيئات مما قد يعجب له عرفاء الدين ويستغرب حدوثه في المسلمين أهل اليقين لبعد النسبة بينه وبين دينهم والمنافرة الثابتة بينه وبين مقتضى ايمانهم حتى اذا انصرف أولئك القارئون والتمسوا من قلوبهم عبرة مما قرأوا أو عظة مما سمعوا لم

يجدوا من ذلك قليلا ولا كثيرا بل رجع كل منهم الى هواه وأرى الى قبضة نواه وما كان قد انصرف عن وساوسه ولا انقطع عما استحكم سلطانه في نفسه من شياطين أهوائه الا في ظاهر ما يرى الناظر واذا سئل أحدهم عن شيء من معنى ماقرأ التجأ الى الجهل أو خبط في مضلة من الوهم واذا قيس عمله الى احكم مايقرأه وجدت تباينا كما بين الاسلام والكفر فبالله الا ما اجبتني هل نجد فرقا بينهم وبين اليهود فيما قص الله عنهم في قوله ومنهم اميون الخ الا نجد الوصول الى الفرق نزر الوسائل متعذر الذرائع ولو سردت من أحوال اليهود والنصارى والمشركين التي قص الله علينا تحذيراً لنا من التدنس بمثلها ووضعتها مع أحوال المسلمين في كفتي ميزان الا ترجح أحوال المسلمين سوءا على أحوال أولئك الضالين.

أصبح المسلم في هذه الأيام حجة للكافر على كفره وفتنة له يضل بهاعما أقام الحق من اعلامه فاذا قيل ان الاسلام خير الاديان بل هو دين الله الذي أخذ به الأمم السابقة فضلوا فضربهم بأنواع من عذابه في الدنيا واستحق لهم مالا نهاية له من الشقاء في الآخرة ظهر فيهم بصور مختلفة ثم جاء في أكمل صوره ببعثة خاتم الانبياء متمما لنوره مكملا لأمره لتقوم به الحجة وتتضح به المحجة وأصحب هذا القول بألف دليل كلها أوضح من الشمس وأنقى للشك من ضوء البدر لظلام الليل — رأيت علة واحدة تهدم كل ماتبني من الادلة وهي : لوكان الاسلام دينا صحيحا ماوجدنا أهله المتمسكين به (في زعمهم) على مانرى من فساد الاخلاق وسقوط الهمم وضلال العقول هكذا أيها الحبيب أصبحنا فتنة للذين كفروا والله ينبهنا على ماصرنا اليه بتعليمه ايانا كيف ندعوه اذ يقول « ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا » وما كان تعليمه الدعاء الا لنتوسل بالعمل الى مانطلب منه ثم ندعوه المعونة على ما نقصد من موافقة رضاه فلو فقه المسلم لابتعد جهده عما يجعله فتنة للكافرين وجعل ورده ليله ونهاره « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » ولكان همه في ان يكون بكماله قذى في عين اعدائه لا أن يكون حقيراً في أعينهم ضحكة لهم في محافلهم .

ولقد حدث في هذه الأيام الأخيرة ان قسيسا انكليزيا هداه البحث الى

شيء من محاسن دين الاسلام فأخذ يبث ما علم في الجرائد الانكليزية وفي المحافل الدينية في انكلترا الا انه يصعب عليه ان يعلن اسلامه و يصرح بحقيقة إيمانه لانه يخاف ان تطول اليه أيدي الاعتداء من قومه وهو يدعو الى الاسلام تحت حجاب انه لايخالف المسيحية الحقيقية بل هو متمم لها وله فيما يدعو اليه شيعة تنمو في لندرا وبيننا و بينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره وله معارضون كثير من الانكليز وغيرهم واذا تقصيت البحث في جميع حججهم لاتجد في مقدماتها الا مايكون راجعاً الى ماعليه المسلمون الآن من الاخلاق والعوائد والأفكار وكلما جاء الرجل لهم بشيء من أحكام كتاب الله أو بأثر من آثار المسلمين الاولين رأيت أولئك الجاحدين يقابلونه بأحكام يعدها المسلمون من حدود دينهم ويعولون عليها في أعمالهم وهي مقصية لهم عن الكمال ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال فكلما ردهم الى الله ورسوله ردوه الى أحوال المنتسبين الى هذا الدين القويم وهم عاره وبهم يهدم مناره وتخفى آثاره لو بقي في أيديهم أمره غير اني أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبّسوا على أنفسهم وانقلبوا فتنة لغيرهم ثم ينتقم منهم بأيدي الظالمين والصالحين « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين — وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فهنيئاً لمن أعد نفسه وسبق نعمه فشحذ همته وطهر نيته وقوّم إرادته واستجمع عزيمته للقاء ركب الله الذي سيفد عليه فيكون اماراجلا في مشاته أوفارساً من كماته أوخادماً في حاجاته أو سيداً في رياساته ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه وحاشا كتاب الله ان يشهد الالمن لبى دعوته وقبل شهادته ونصبه اماما في محراب الوجود يتبعه ببصره ويحذوه في سيره يقوم اذا قام ويقعد اذا قعد يعظم ماعظم ويحقر ماحقر ويطلق ما اطلق ويقيد ماقيد ثم أقام له من زواجره خطيباً على قلبه وواعظا يصدع بأمر ربه على منبر لبه يعلمه اذا جهل ويوقظه اذا غفل ويذكره اذا ذهل ويحثه اذا كسل ويسرع به اذا أبطأ وينهضه اذا تلكأ ويسلفته الى الصواب اذا أخطأ يهديه اذا تحير ولا

يعدو به الحبر اذا تخير يرد جماحه اذا جمح ويكف من غربه اذا طمح حتى يقيمه على الصراط السوي ويصعد به الى المقام العلي وكيف يستعمر القرآن قلبا تشغله الاهواء الباطلة وتستوكره الرغائب الزائلة . ان القرآن طاهر لا يجاور الا طاهرا وقويم يأبى ان يساكن جثرا زكي لا يأنس للارجاس علي بأنف من مقاربة الادناس فلا عجب اذا استوبل المقام في هذه القلوب المحتشية بالعيوب وتركها وشياطين الوساوس تخبط بها في مخازي الدنيا ومهالك الآخرة .

يا عجبا لمن يدعي الاسلام وهو يعرف من نفسه ان أمراً لو جاءه من أصغر الحكام عليه بلغة غير لغته لما قرت له راحة، ولا اطمأنت به نفس، حتى يقف على ترجمته ولا يكتفي بمترجم واحد حتى تكون ثقته به كثقته بنفسه والا راجع ثانيا وثالثا لدقائق المعاني حتى لا يفوته شيء مما حواه امر آمره فيقع في مخالفته الى غير هواه وكلما عظم مكان الآمر اشتد الحرص على استجلاء مراده خشية الوقوع في حداده أو ما يبعث الظن الى التحرش بعناده وقد يكون الامر مما يضره ولا ينفعه ويخفضه ولا يرفعه كل ذلك للبعد عن مساخطه والارتياح الى مراضيه هذا وهو يزعم الاعتقاد بأن القابض على ناصية أمره هو الله سبحانه وتعالى وهو المقلب لقلبه والآخذ بعنان ارادته . ثم هذا أمر سام ورد له من علي متعال رب الارباب ومخضع الرقاب قهار السموات والارض الذي لا ترد مشيئته ولا تخالف إرادته . الكتاب المجيد يتجلى به في منازل الرحمة ويستفيض منه ديم النعمة ويقيم به على السعادة اعلاما ويضع لاجتناء ثمر الكرامة احكاما ويعد المستجيبين لامره هذا وهو القادر على كل شيء ان يمكن لهم في الارض ويخدمهم أهلها ويجعلهم الاعلين فيها وان تكون عزتهم مقرونة بعزة الله ورسوله وأن لا يبيد سلطانهم ، ما ثبت إيمانهم ، ولم يشبه كفرانهم ، كما قال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

وليس في المواعيد السماوية اصرح مما وعد الله في كتابه المبين ولا أقطع للشبهة

منه ثم زادهم على ذلك نعيما أبديا واوعدهم في المخالفة خزيا دنيويا وشقاء سرمديا .
والذين يكفرون وسجل عليهم أنهم الفاسقون هم الذين تبطرهم النعم فتسترلهم عن مقامات الشكر ثم تغشاهم الغفلة فيعدلون عن سبيل الذكر الحكيم ومن فسق عن أمره أحل به غضبه وانفذ فيه عامل انتقامه وسلبه ملابس انعامه أما بشقي مثله أوولي من أهله ثم ضاعف له العذاب يوم القيامة وأخلده فيه مهانا الا ان يتوب فيغفر له ماقد سلف . و يعلم المخدوع ان صاحب هذا الامر العلي مطلع على السرائر بادية لعلمه صفحات الضمائر ومع هذا وذاك لايتفهم أحكامه ولا يتبع اعلامه وينبذه وراء ظهره كأن لاعلم له بنهيه وأمره ويمني نفسه ان ينال ما ادخر الله لاوليائه اذ قصرت همته عن نيل سعادة الدنيا ليتنعم به في الآخرة شهوة تحول دونها اعماله وأحلاما تنافي صدقها احواله وما أعجب حال من يزعم الايمان بالله ولا تفنى اهواؤه في ارادته ولا تضمحل نشزات طبعه لمهابته ولاتتضاءل عزائم نفسه لعظمته ولا يجعل القسم الاعظم من حياته للسعي في مرضاته ولا يبذل من نفسه وماله مالا يخسره في ماله

حدثتني عن اليائسين من علية ق (وذكر بلدا من قطر المخاطب) واشباههم فهؤلاء لم ييأسوا من الله حتى ساء به ظنهم وما ساء ظنهم حتى انتقض ايمانهم فحالهم حال القائلين « ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا » . ورويت لي عن أهل النفرة سكنة ص (وذكر بلداً آخر) فهؤلاء بقيت فيهم بقية لابد ان يبدوها بالعمل ولا مكمل لما بقي فيهم الا رجوعهم الى الله ورسوله ولن يرجعوا اليه حتى يكون مزاج وحدتهم وحبل اعتصامهم كتاب الله يهزون به هممهم ويلمون به شعثهم ويشهدون الله انهم نصروه في الاحوال والاعمال فينصرهم في مواطن الجلاد ومواقع الجدال .

ان كنت وثقت بشيخ الاسلام الذي ذكرته فخذ العهد عليه وسق اليه ببعض كتابي هذا أو بكله ان رأيت ذلك ملائما لحاله والا فزدني فيه بصيرة فاكتب اليه بما يلهمه الله

وافني بكتبك بما أمكن من السرعة ولا تبطيء علي بعد الآن والسلام .

١٦

وكتب اليه أيضا

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

أيها الاخ الصادق ايده الله

طال عهدنا بك لم نر منك كتابا، ولم نتلق عن لسان اخلاصك خطابا، وابطاؤك عنا، مما يقلق الخواطر منا، لا خوفا على ايمانك، ولا ريبة في درجة احسانك، (نعوذ بالله) ولكن خشية ان يكون عرض لك من العوارض الجسدانية، أو خالطك في الاحوال المعاشية، ما قبض من يدك، أوفت في عضدك، (حماك الله) فرجاؤنا ان لا تفوت فرصة تمكنك من سوق خطابك الينا حتى تنتهزها، فان لسكون القلب بالاطمئنان على سلامتك قيمة علية في نفوسنا، فقد لا يخفاك أنكم في مكان مخافة، ومحل مضيعة، تضطرب عليكم منه القلوب، وتذهب وراءكم فيه النفوس، وان صادقا مثلك لجدير ان يحرص عليه، وان تعنى الأرواح بالتطواف حواليه.

كان لكتابك المفصل وقع جميل، ولك على القيام بتحرير مثله الشكر الجزيل، فليكن العمل على ذلك المذهب، حتى يصفو المشرب، ويتضح المطلب، ان شاء الله. أما وصيتي اليك فاقتصر منها اليوم على ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا رضي الله عنه اذ قال له «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الامل (في الدنيا) وقصد العمل ولزوم الايمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح واياك أن تسب حليما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما أو تعصي اماما عادلا أو تفسد أرضا، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر وان تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية» اه

هذا جماع من مكارم الاخلاق يعم ما نحن فيه وما وراءه والخير في جمعه. فالدين بناء وهذه اعراقه ولا يتم اعلاه حتى يتم ادناه ثم لا تنس قول عائشة الصديقة رضي الله عنها: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن: فقد أبقى الله سبحانه في نبيه صلى الله عليه وسلم مظاهر من صفات البشرية تبدو لها آثار، تلحظها البصائر والابصار

ثم حددها في كتابه، وهذبها في محكم خطابه، تعليما لامته، وارشاداً لتبعة ملته، فكان في ذلك أعظم فخره صلى الله عليه وسلم حيث قال « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ولا بركة لنا في شيء من أعمالنا الا باتباع سنته، والسير على المأثور من سيرته، والتحقق باخلاقه والتماس خلاقه، واقتفاء أعلاقه، هذا صلاحنا وهو سلاحنا (ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم — قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وعلى هذا فليكن دأبك حتى يظهر الله أمره، و يعلن سره، واياك والملل، فالخطب جلل، وقضاء الله أجل، ومع هذا كتاب من الامير أوصله الى صاحبه حسب رأيك والسلام عليك وعلى كل صادق الايمان ثابت الجنان ٦ صفر سنة ١٣٠٥

١٧

وكتب الى أحد شيوخ التصوف المرشدين م . ت

بسم الله الرحمن الرحيم ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم

الحمد لله و به الهداية في البداية، وهو الغاية في النهاية، والصلاة والسلام على سر العناية، وحقيقة كنه الولاية، وآله حماة الدين، وأصحابه الهداة الراشدين

أما بعد فان من نعم الله عليّ ، والطف احسانه اليّ ، ما أودعه في فطرتي ، من الميل الى الخيرة من أهل ملتي ، فلا ازال لهم طالبا ، وفي الصلة بهم راغبا ، خصوصا من تجمعني بهم وحدة التربة ، وتضمني اليهم جامعة النسبة ، وقد بلغت الي شهرة عرفانكم، ومارفع الله في مقامات القرب من مكانكم، فألهمت ان افتح اليكم باب التعارف ، وشنشنة المؤمنين التراحم والتعاطف ، اقال صلى الله عليه وسلم « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » واما الاخوة التي عقدها الله بين المؤمنين ، وان أهملت عند كثير من الغافلين ، إلا أنها لم تزل والحمد لله تلحظها بصائر العارفين ، وتصبو للاعتصاب بها قلوب الصادقين ، فانما الاخوة مظهر سر المحبة ، والمحبة تجليّ سرّ الجذب الالهي الذي يجمع الله به أرواح الصديقين الى حضرته القدسية — هذا الى ماناط الله بها من قوة التعاون قال صلى الله عليه وسلم « من

أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ان نسي ذكره وان ذكر أعانه » وكما يكون التعاون والاماكن دانية ، يكون والاقطار نائية ، وخير المعونة ماعاد على الارواح ، بتزكية وصلاح ، ولا أعود على الروح من علم تستفيده ، أونصح تستجيده ، أوصلة بين متحابين تأنس اليها ، ووحدة بين متواصلين تعوّل عليها ، وأرجو ان يجعل الله في مكاتبتنا بركة ذلك كله ان شاء الله فسركم ظاهر ، وضياؤكم باهر ، وميلي اليكم غير معلول ، واهتمامكم بالاجابة مأمول ، واذا كتبتم الينا فليكن عنوان ظرف الكتاب . . والله ينفعنا بالتواد ، ويبلغنا به غايات المراد ، والسلام عليك وعلى من يرتبط بعهدك ورحمة الله

١٨

وكتب الى أحد العلماء جوابا عن كتاب له يقول فيه أنه فهم من قسم الحمية انها تدعو الى مذهب الظاهرية

لااله الا الله وحده لاشريك له وبيده الحول والقوة

ثم وصلني كتابكم وكتاب أخي الفاضل محمد ش وقد آسفني والله يعلم مابلغ الاسف مني خبر وفاة سيدي الشيخ والدكم الا ان ذلك مصير لابد من الانتهاء اليه ، وان عظم الاسف عليه ، وفيما عند الله سلوة الابرار . اما ما ذكرت في كتابك من اسم الظاهرية فلم يكن ليخطر على بالي توجه فكركم اليه فان المذكور فى القسم تحكيم كتاب الله فى الاخلاق والاعمال بلا تأويل ولا تعليل ومن الظاهر البين ان المراد من الأعمال عزائمها من الجهاد في الله حق جهاده وبيع النفس في مرضاته والسعي لاعزاز دينه والقيام بحفظ أوامره ونواهيه التي يكفر جاحدها ويفسق الحائد عنها ويشهد بذلك اقتران الاعمال بالاخلاق فكيف ذهب خاطر سيدي الى العقائد أو أعمال الفروع وليعلم سيدي اننا سنيون أشعريون أوماتريديون واننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب الاربعة فمنا المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي وفى المعاملات على مذهب حاكم البلاد ان وافق واحدا منها فان كان على غيرها توقينا المرافعة اليه ما أمكننا وانما ذلك القيد ليخرج الداخل معنا من حكم قوله تعالى (يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض) وليمتاز المؤمنون بالكتاب

عن الذين يزعمون الايمان به ولا يأخذون بشيء من أحكامه الا صوراً من الاعمال لا ينظر الله اليها ، وأولئك قوم عرفناهم وعرفتموهم يهونون على أنفسهم ضيم الدين لا يحزنون لذله ولا يعملون لحمايته ويتعللون باليأس ، ويحتجون بالبأس ، يفرون من الله فيما ألزمهم عمله ، ويسألونه المعونة على مانهاهم عنه ، ويركنون في ذلك الى التأويل والتفسير ولو أن شيئاً من المكروه أصابهم لرأيتهم يطيلون الأحزان ، ويحشدون الاشجان ، ولو عنّ لهم حطام من الدنيا رأيتهم يشدون المآزر، ويشمرون عن السواعد ، كأنهم للدنيا خلقوا وكأنهم فيها مخلدون

لعل في بياني هذا كفاية، ولو وسع الوقت أطول منه لأتيت بما عملك تلاوته، وأما ماذكرته في أمر المواد من أنها لا توافق بلادكم فلم أعرف له سبباً فانها مواد عمومية جرب العمل بها في أقطار مختلفة والحمد لله صادفت نجاحا . فان كان ذلك كما ذكرتم فابعثوا بها الي في أول بوسطة، وأقسم عليك بالله الآخذ بناصيتي وناصيتكم ان تنقلوا لها صورة، ولا تنسخوا من موادها مادة، لأردها من حيث جاءت، ثم ابعثوا الي بما تجدونه موافقا لكم لنطلع عليه فان رأيناه موافقا سألناكم إقراره والسلام عليكم وعلى من يتصل بكم

١٩

وكتب الى بعض أعضاء الجمعية في بعض الاقطار الخارجية

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ذلك الذي وفد اليكم من القسم الذي سماه رسول الله صلى الله المنافق العليم اللسان وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء لا يتبين منه علمكم بحاله، وتحفظوا منه كل التحفظ وإياكم ومكاشفته بشيء مما أنتم عليه، فلقد وجدته يدنو من السيد أيام إقامته بباريس ويسمع من السيد لين جانبه، وحاجته الى ترجمان في بعض شؤونه، فلما كثر اجتماعي به تبينت فساده، فأقصيته من السيد، وباعدته عنه وبعد أن كان يترجم لنا بعض الاخبار في بداية اشتغالنا بنشر آراء العروة طردته استعاذة من خبث سريرته فتعوذوا منه

تعوذكم من الشيطان حتى يفرق الله بينكم وبينه

أما قولكم في كتابكم اني كاتبت الشيخ بتوبيخ فقد راجعت له نسخة الكتاب التي كتبت من صفحة كتابي فلم أجدني الاعززت الشيخ أولا ثم كشفت له عن وجه الشبهة فيما استفهم عنه ثم قلت — واني لصادق — انه ما كان يخطر ببالي توجه فكره الى الرأي الذي يسأل عنه وما قصدت بذلك والله توبيخاً ولا لوما ولكن نبهت على ما أعلم وليس وراء ذلك غاية، وفي الحق اني لو كنت أعلم ان العبارة توهم ما استفهم عنه، لكنت وضحت المراد في كتابي الاسبق ولم أحوجه الى الاستفهام، هذا ما أردت، ولعل تطويلي في بيان المراد أوهم شيئاً مما قلتم ولست منه في شيء.

ثم انني طلبت منكم نسخة المبادي ان لم تريدوا اعتمادها وهذا ما يوجبه علي عهدي الذي أنا فيه

اما عدم ثقة الشيخ بهمة من ذكرتم فيما له الحق فيه، وهكذا أمر هذه الامة في جميع اقطارها، ولهذا احتجنا الى معاناة الاضمار، ومقاساة الاسرار، والاستخفاء بما أمر الله ان يعلن ويظهر، غير ان القليل ممن يكون على الشرط كثير وقد صرحت تلك المبادي بان الرشد والنصيحة العامة من الواجبات على القائمين بأمر الحق لتستعد النفوس وتتهيأ العقول وليس في هذا حرج على المتعاطي ولكن أهل العقد وهم بمنزلة القوة العاقلة في البدن لابد ان يكونوا على الشروط المعروفة عند أصحاب الرابطة فسلموا على الشيخ سلاماً طيبا وأكدوا له انني لم أقصد في بياني السابق شيئا مما أوهمته العبارة وانني أعيذ نفسي من توجيه اللائمة على من من دون منزلة الشيخ من أهل الايمان الصحيح وأعود الى تحذيركم من الجاسوس الجديد فلا يتقطكم بظاهره الى علم شيء من سرائركم والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٠

وكتب الى ش وهو من أجل كتبه وأحاسن مواعظه

لا إله الا الله وحده وبه الحول والقوة

تلقيت رقيمك على قلق من تباطئ أخبارك، فقر خاطري بالاطمئنان على صحتك، تأكد الثقة من خلوص ارادتك وما كنت لأرتاب في عهدك بعد ما أعطيت ميثاقي

بيمينك وأنت مؤمن قد جعلت الله عليك وكيلا . لوعرض لي لشك في وفائك لكان غمزا مني على ايمانك، وأعوذ بالله أن أغمز على مؤمن وهو مخلص في إيمانه، أماحنوي عليك، واحفائي السؤال عنك، فهو مما توجبه عليّ صلتي بك والارتباط بميثاقك بل ذلك أيسر الحقوق عندنا وأوجبها في ذمتنا وما أنا بالمتفضل في أدائه، وما أنا بمنجاة من اللوم ان قصرت في ايفائه، ستعلم الحقيقة من هذا اذا سنى الله لمصابته ان تظهر، واذن لها أن تسفر

بعد هذا هل أنت على ماأوصيتك سابقا من مداومة النظر في كتاب الله ووعده ووعيده وقصصه وعبره ؟ هل ذهبت بنفسك الى ماقبل ألف وثلاث مئة سنة ووقفت بين يدي سيد النبيين، وهو يتلو كتاب الله على خلص المؤمنين، فسمعت كاسمعوا، وفهمت على مثال مافهموا، وزججت بروحك في مجامع تلك الارواح الطاهرة التي آزرته وآوته ونصرته؟ هل خرقت حجاب المحدثات وفرقت ستائر البدع وخالطت أهل النور وصافحت قوما صدقوا ماعاهدوا الله عليه ؟ ان لم تكن فعلت فاليك ان تفعل والوسائل متوفرة لديك ـ عقل وحسن يقين وكتاب الله فيه تبيان كل شيء وفيه سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم والذين معه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ٭ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

لا يميل بك عن طريق الحق قلة السالكين فيه، فوالله اني لأرى المؤمن في جيش من يقينه، وحصن من ثقته بربه، يثبت بهما في المزالق، ويدرأ بعنهما غائلات المهالك، وانه لفرح به اذا حزن الناس، ومبتهج فيه اذا اشتد الباس، واستحكم الياس، واني لأرى المنافق في مزعجات من وساوسه، وموحشات من خسائسه،

كريشة في مهب الريح ساقطة لايستقر لها حال من القلق

وانه لسريع الهزيمة، قليل الغنيمة، وما كنت لآتي في وصفه شيئا بعدما قص الله عنه في كتابه وكتاب الله حي لا يموت شاهد على الأحياء كما شهد على الاموات وما كان المنافقون زمن نزول القرآن ليختلفوا في الحقائق والصفات، عن أشباههم

من أهل هـذه الاوقات، فتوخ من نفسك ما أثنى الله عليه ، وتنح بها عن وجه بإتلامه اليه ، وإياك والأعاليل وفاسد التأويل ، فانها حبائل الشيطان ومذهبة الايمان ، نعوذ بالله

كنت سألتني عن العمل في العقد المالي فأشرت اليك ان تبعث به الينا في بيروت ثم لم يكن له ذكر في كتبك من بعد واني أعيذك من الضن بيسير مثله في سبيل ربك ترجو ثوابه وتكتفي حسابه وأبعدك عن مرامي النداء الالهي في خطاب قوم (هاأنتم أولاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) ولكنني ألتمس لك من نفسي أعذارا تخيلها الثقة وتمثلها المحبة فلو علمت الحق فيما أبطأ بك أفهمت القوم عذرك

أما ذلك الشيخ فان نكث فانما ينكث على نفسه، غرته الحياة الدنيا وغره بالله الغرور، فقطع ما أمر الله به ان يوصل، وواد من حاد الله ورسوله، وباع نفسا شريفة بثمن بخس، وأضاع سعادة أبدية بمتاع قليل (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم في بعض الامر والله يعلم أسرارهم * فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) بشره بأن سيؤخذ من مأمنه ، ويزلزل من مسكنه ، ومن أعان ظالما سلط عليه ، ومن يخذله الله فلا ناصر له ، ولئن أمهل أياما فوالله ما أهمل، ولقد كان خيرا له لو ابتعد ولم يعد، وباعد قبل أن يعاهد، ولكنه اقبل ثم ولى، وأمسك ثم خلى، فلصق به عار الغادرين، وحقت عليه جريمة الناكثين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وما ضره لوسالم القوم بظاهره، وبقي مع الله بباطنه، فأخذ حظا من دنياه وحظا من آخرته ؟ هل ظن أنهم أشد سلطانا عليه من قهار السموات والارض ؟ أم أنهم أنفذ الى باطنه علما من عالم الغيب والشهادة، فأعطي للقوم قلبه، وأبقى لله سلبه

....

٢١

وكتب الى أحد أمراء المسلمين في بعض الاقطار عند تأسيس جمعية العروة الوثقى

لوندرا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٠١

سيدي الامير الاخطير سعادتلوا أفندم حضرتلري

السلام على نفسك الزاكية وهمتك العالية وأفكارك السامية انني عهدت فيك مالا أتوسمه في سواك لهذا وجهت اليك روحي في هذه الاسطر تندب همتك ، ماهو من أحكام ذمتك ، لا انبئك بما فرض الدين في علمك به أصدق الانباء ، ولا أنبهك لما غفلت عنه عين سواك فاني أجلّ نظرك عن الاغفاء ، لا أعرفك بما أوجب الوطن في صراحة نسبك ، وعلوّ حسبك ، ما يلهمك الاحاطة بحقوقه ، ولا أذكرك بما نسي غيرك في شهامتك أنفع الذكرى

ساق اليقين جماعة من المسلمين الى السعي في خير هذه الملة المغلوبة واعتصموا بالله وليس على الله بعزيز ان ينجح سعيهم يسعون في ارجاع الوحدة الملية وتنبيه الحاسة الدينية ليمكن للملة ان تتقي الضيم وتخلص من الذل ولهم في هذا السعي طرق عديدة منها ماندبونا اليه وقد علمت خبره ولله الحمد على ظهور ثمرته في اقطار كثيرة أفلا ترى من الواجب ان يكون لهمتك نفحة في مساعدتهم وتعضيدهم في سعيهم؟ انت تعلم ان الأعمال العظيمة في هذا الزمان وفي كل زمان تحتاج الى التضافر في الافكار والتعاون في النفقات كل بما يقدره الله عليه ولست أخشى ان أقول لك انك سيد القادرين على الامرين لا يخطر على بالي ان يمنعك من الدخول فيما دخلوا فيه بأس ، كيف وأنت مؤمن والمؤمن لا ييأس ، وقد رأيت العالم وقرأت التاريخ وشهدت مساعي الأوربيين ووقفت على حقيقة لا يكابر فيها أحد .. ان الكثير من القليل والكبير من الصغير وان النجاح مقرون بالأمل والثبات في العمل فان لم يكن يقيننا بالله كافيا في حياة آمالنا انه يكفينا النظر في شؤون أعدائنا وهم لا يمتازون عنا في شيء من خواص الخلقة وغاية ماعندهم انهم لا يحقرون عملا ولا يقطعون املا ولا يأخذ أحدهم رهبة فى أداء مايوجبه عليه دينه أو وطنه

لا أتوهم خيبة في سعيي الى همتك ، ولا تقصيرا منك في القيام بخدمة ملتك ،

بعدما رأيت مانزل بها، واستطلعت ما سيطر أعليها ، والله لا يضيع أجر العاملين، انني اليوم في لندرا دعيت اليها مرارا فتمنعت وبعد الالحاح أتيت والمأمول ان يكون في الامر خير

الرجل الذي نالت مصر في عهده مانالها يحاول الآن ان يعود اليها ولا أظن ان هذا يوافق مصلحة مصر وأحب ان أقف على رأيكم فيه فان جزءاً من عملي في لوندرا متعلق بالسؤال عنه والمخابرة تكون بالعنوان الآتي الى باريس ومنها يصل الي، سيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام وسلامي عليكم وعلى من تحبون والله يحفظكم

٢٢

وكتب من بيروت الى القس الانكليزي الذي خطب في لوندره مبينا محاسن الدين الاسلامي وكان الاستاذ الامام كلف مرزا باقر ترجمة خطابته وصححها هو ونشرت في جريدة ثمرات الفنون وقد نشر خطبته منها في مجلد المنار الرابع (راجع ص ٩٤٦ منه)

كتابي الى الملهم بالحق، الناطق بالصدق، حضرة القس المحترم اسحق طيلر أيده الله في مقصده، ووفاه المذخور من موعده

وصل الينا من خطابتك ماألقيته في المحفل الديني بمدينة لوندرا متعلقا بالدين الاسلامي فاذا الحق نور يلمع من خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة وتشيمه أعين العقول النيرة رفعتك هداية الله الى مقام الانصاف فرأيت الاسلام في طبيعته السليمة ووقفت عليه في مزاجه الصحيح فأدركت أثره في النفوس البشرية وعلمت انه أفضل مايعد الروح الانسانية الى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ودافعت عنه دفاع العارف به وجليته للغافلين في أجل صورة يمكن ان يلمحوها بأبصارهم ويتصفحوا دقائقها بأنظارهم ثم دعوت ابناء ملتك الى كلمة السواء بينهم وبين المسلمين وصدقتهم النصيحة أن لايحنقوا المسلمين بتكذيب نبيهم ولاتكفيرهم في الاعتقاد بدينهم ووعدتهم ان قبلوا نصحك بإصابة المسيحية في الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذا بعضد المسيح باعلاء كلمة دينه الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك وآيات حق ساقه الله اليك وإنا لنهنئك على

هذه البركة العظمى التي اختصك الله بها من بين قومك ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتنهزم له ظلمات الغفلة فيصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الالفة فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته وانك لتجد لك مؤيدين وان كثيرا من ذوي الألباب ليجدون في قولك مواقع الصواب وان هـذا الأمر الذي قمت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية وانك ان كنت واحـدا فكل شيء مبدؤه الواحد ثم يكثر حتى لا يحصر، وان كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه فسيؤازره السعي حتى يغلظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع، وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتبا متوافقة وصحفا متصادقة يدرسها ابناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين فيتم نور الله في أرضه ويظهر دينه الحق على الدين كله واني لا أشك في ان لك الرغبة التامة في نشر مذهبك هذا وترويجه بين الامم الشرقية والغربية وقد سعينا في ترجمة خطابك ونشره في الجرائد العربية فان كان عندك مقالات أخرى فنرجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونشرها بين أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم ولكن تمام العمل انما يكون بارسال رجال ممن وافقوك في المشرب الصحيح لينشؤا مدارس في البلاد المشرقية خصوصا بلاد سوريا وليطبعوا هذا الرسم الشريف في النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة فتنمو بركته، وتجزل ثمرته، وانني على عجزي مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب ما بين الملتين بكل ما يمكنني والسلام على من اتبع الهدى

٢٣

وكتب اليه ثانية جوابا عن كتاب ارسله اليه وفيه يدعوه الى الاسلام والى الدعوة اليه في انكلترا

عزيزي حضرة خطيب السلام القس اسحق طيلر

كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثة وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هي الدين الحق تفرعت عنها اغصان متعددة لا يضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها ما يرى في اختلاف أوراقها وفرج انشعابها ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحدة لونها وطعمها قد انحصر في الدين الاسلامي الذي يستقي من جميع عروقها وجذورها فهو فذلكتها والغاية التي قد انتهى اليها سيرها لأنه يصدق الكل ويعظم الجميع ويدعو الى التوحيد المحض والفردانية الصرفة التي اليها مرجع الخلائق وان بلغ اختلافها الى ما يفوت الحصر ويتجاوز حدود النهايات

وبعد رجوعي من بيروت رأيت من جنابكم مكتوبا بعث بواسطة صديقي جمال الدين بك ووجدتكم تذكرون أمورا كالطلاق وتعدد الزوجات والرق وتظنون انها أهم ما عليه اختلاف أهل الدينين مع ان أمثال هذه المسائل لا يعدها المسلمون من أصول الدين ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ما تحبون من ذلك بدون حاجة الى فتوى شيخ الاسلام والمسلمين فيما دوّن في كتبهم ما ليس لهم في فتوى شيخ الاسلام فهذا أمر لا مقام له في موضوع بحثنا وبحثكم

أما أصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وان محمدا رسول الله وان القرآن كلام الله فأعظم شيء تتشوق اليه نفوس المسلمين الصادقين ان يسمعوا التصريح من حضرتكم بقبول ذلك والتصديق به كما أشرتم اليه في خطابكم المتعلق بمسلمي أفريقيا وان يروا علامات التصديق في الأقوال والأفعال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وكل ما تظنه من المصاعب يذلل، وما تتصوره من الموانع يزول ، ولا أظن يوما مر او يمر على الانكليز يكون أسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد اذ يصبح العالم خادما لهم وجند الله الاعظم ناصرا لأهله منهم ويتم لهم ما أرادوا من اقرار عين العبيد وارضاء قلوب النساء وهما مما يدعو اليهما الدين الاسلامي على اتم الوجوه وأكملها . فهلم بنا يا عزيزي الى الاتفاق على الأصول ليتيسر لنا الوفاق على الفروع والاتحاد في الأب ليتسنى لنا

الاتحاد في الابن فانما تؤتى النتائج من مقدماتها ولا تؤتى المقدمات من نتائجها وقد سرني كل السرور ما بلغني من انكم استحسنتم ما وصل اليكم من صديقنا ميرزا باقر وإن شاء الله تجدون مايسركم اذا داومتم مكاتبته ان شاء الله والسلام على أهل السلام

٢٤

وكتب الى بعض العلماء جوابا عن كتاب سأله فيه عن انكاره على من قال ان لفظ الرحيم فى البسملة توكيد للفظ الرحمن وانكاره ان يكون في القرآن ألفاظ زائدة للتأكيد وفيه وصف علماء السوء

حضرة الاستاذ الفاضل

أثابك الله على صدق مودتك، ونفعني باخلاص الصادقين من أمثالك، ووفقني الله واياك للعمل فيما يفيد هذه الأمة، التي نهكتها البدع، وقتلها الزيغ عن الطريق المتبع، واني أحمد الله على هذه البقية فى المسلمين ـ بقية صالحة في نفوس مستعدة تنشد الحق وتتلمسه فاذا عثرت عليه حنت اليه أمدها الله بالسعي الدائب والغذاء الصالح حتى تنمو وتكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها، لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبه الاشراك وغرور اليأس والأمل وجراثيم التواكل والكسل ثم نشر ذلك بكل وسيلة تمكن منه، ثم بالصبر على مايقول المقلدون ويهذي به المتكبرون ممن يلقبون بالعلماء وهم لا يعلمون ففي مثلهم يقول الله (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا) ولا يكون كبر في الارض بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب وتظهر في سرابيله هذه التماثيل التي ينحلها الناس ماليس لها ويسمونها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان وما هؤلاء القوم الا أولئك السادات الذين سيقول المغترون بهم (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا) أسأل الله أن يعينك على من يليك ويوفقك لتأييد كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

أما مسألة التأكيد فالأمر فيها سهل وتعلم انني ممن يكتب ، ويقال ان لي حظاً من معرفة دقائق البلاغة ، وان كنت لا أحسب لنفسي في ذلك حساباً ، ولا أزال استعمل التوكيد في كلامي وأذوق لذته وأعرف موقعه من كلام غيري وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة اليه وهو معنى من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كلفظ ان واللام ونحوهما

ثم من الالفاظ مايكون فيه شيء من معنى الآخر فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزيد بما انفرد به كالسيف والصارم كل هذا لا أنكر شيئاً منه ولكني أنكر الذي يلجؤن اليه بدون بيان صحيح فيقال كلمة كذا توكيد بدون بيان وجه التوكيد أولفظ كذا زائد كما يقول الجلال في قوله تعالى (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ان لفظ مثل زائد، تعالى الكتاب عن ذلك، فالجلال والصبان قالا ان الرحيم توكيد لظنهما ان لا معنى فى الرحيم سوى ما فى الرحمن واني أنزه القرآن عما ظنا حتى لو قصد التوكيد فانه يكون بمنزلة الرحمن الرحمن وإنما غاير اللفظ للتحلية وهذا ما أبرىء القرآن منه . والذي صرحت به في هذا المعنى سبقني اليه ابن جرير الطبري فقد صرح بأنه لا يوجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود وهو الذي عنيته

اما احتمال التوكيد والوجه الذي ذكرته فاني لا أراه لأنه لا علاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ولو ذكر جميع الألفاظ المترادفة في هذا المعنى لم يفد شيئاً فى نفي التعدد ولم يسبق فى التاريخ أن احداً ذهب الى ان الرحمن معبود والرحيم معبود آخر حتى يرد عليه بأنهما شيء واحد ولكن الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شؤونهم باسم الآب والابن والروح القدس وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد مع أنها واحد فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان الأول ذات والآخران صفتان فلفظ الجلالة هو الذات وهو يقابل الآب عندهم والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهي التي يرجع اليها الفعل المتجدد وباعتبارها يصدر ويتجدد وهو يقابل روح القدس فانه

عنـدهم الصلة بين الآب والابن وان حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات فأراد الكتاب ان يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ولا يفوتنا المعنى الذي يحتج بقصده من الآب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وافاضة النعمة وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة والندب الى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ولكن غفل كثير من المسلمين عن مرامي اشارات الكتاب فأتوا من عند انفسهم بما ليس من معناه في شيء

لا أجد وقتا لاطالة البحث فيما ذكرت عن السعد وغيره وأظن ان فيما كتبته كفاية لذكر مثلك وارجو ان لا تنقطع عن مراسلتي والسلام

٢٥

وكتب الى من سأله عن القدر والاختيار واختلاف العقل والوجدان في ذلك

حضرة الفاضل الاديب

وصل الي رقيمك ان كنت لم اعرفك فقد عرّفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد لله على ان في المسلمين من يميل الى منهج الحق من دينه مثلك كثر الله من امثالك ووفقك الى العمل بما تعلم والدعوة الى ما تفهم

لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة القدر فان كليهما يتفقان على صحة الاختيار ونفي الاضطرار فيما هو من الاعمال البشرية المعروفة ولا يتنازعان في حكم من احكام هذا الاختيار ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بان صانع هذا الكون محيط بدقائقه علما : وهاتان العقيدتان هما ركنا الايمان بالله ورسله وشرائعه ولم يبق الا نزعة من نزعات الوهم تستفز العقل الى اكتناه حقيقة العلم الالهي وليست مما يصل اليه من طريق الفكر فاذا كبح العقل جماح الوهم وقف عند حده وذاق حلاوة الايمان الصحيح والاوقع فيما لا مخلص منه من الريب والشكوك

اما اختلاف الامم بل الاشخاص في الآراء ووجوه العلم فذلك لازم لطبيعة البشر تلك الطبيعة التي بها الانسان انسان طبيعة العلم من طريق التعلم والفكر مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان وما يستقر

منه في العقل . ولكن ذلك لا يرفع التبعة عمن كان خلافه الى باطل لمكان الاختيار والهداية الى النجدين بمقتضى تلك الفطرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن احكامها فترى الاختيار في عجز عن ترجيح جانب الخير على جانب الشر كتوارث الاخلاق السيئة وليس الوارث مختارا فيما يرث ولكنه مادام شاعرا بفعله وأنه يريد ان يفعله فاختياره هو صاحب السلطة عليه وتبعته لازمة له ولو أنه طلب الادب لتأدب والكلام يطول في تفصيل ذلك ولكن يكفي ان العقل والوجدان لا يختلفان فى الحكم بصحة الاختيار وشمول العلم الالهي ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه وفي هبة قوة الاختيار نفسها ولعل ذلك يكفيك . ولو كان عندي سعة فى الوقت لكتبت رسالة في هذه المسألة خاصة ولكن الاجمال فيها خير من التفصيل على كل حال والسلام

في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

٢٦

وكتب من بيروت الى مولوي محمد واصل أحمد علماء حيدر اباد الدكن (الهند) الذي سأل السيد جمال الدين عن النيشرية فى الهند فأجابه برسالة الرد على الدهريين

حضرة الهمام الفاضل بقية الافاضل وتذكرة الاوائل العالم الفاضل مولوي محمد واصل

لم يسبق لي شرف معرفتك ولا فضل مكاتبتك ولكن تجلت لي أوصافك العلية وفضائلك القدسية في قول اصدق الناس لسانا واثبتهم بيانا حضرة أستاذي السيد جمال الدين أيده الله بعنايته فكنت بذلك اشد الناس تعلقا بمزاياك واشوقهم لنيل الحظ من مرآك وقد كنت حفظك الله كتبت الى عارف افندي ابي تراب تسأله عن اختياري في زيارة البلاد الهندية واظنه كتب اليك بميلي الى ذلك وترقب الفرصة للمسير اليه ورجائي ان يسعدني التوفيق الالهي ببلوغ الغاية لما أرتقب ولو لم يكن لي في بلاد الهند سوى رؤية مثلك والاخذ بالنصيب من معرفتك لكان ذلك اقوى باعث على السعي اليها واحث داع للاقبال عليها

وقد يلوح بخاطري ان اهيء نفسي لذلك في الخريف الآتي من هذه السنة فمتى عقدت العزيمة بعثت اليك بالخبر ان شاء الله

ان مادعوتني اليه في كتابك لعارف افندي من كتابة رسائل في تنبيه الامة الاسلامية الى ما في امرها ومبادرتها الى جمع كلمتها صونا لنفسها عن التهلكة وحفظا لما بقي لها من غول الفناء فذلك علي ان شاء الله وقد رايت ان اتقدم اليك برسالة تبين حال العرب في الجاهلية على وجه الاجمال ثم ماساق الله اليها زمن فيض الخير ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ثم اتقدم بعد ذلك الى ذكر سيرة النبي وخلفائه الاربعة ثم اختم الكلام وبعد هذا نأخذ في نشر رسائل ندعو بها الى الالفة ونزعج بها عن الخلفة ورجاؤنا في كل ذلك نجاح اعمالنا وصلاح احوالنا ان شاء الله

ورسالة النيشرية قد نقلناها الى اللغة العربية و بدأنا في طبعها وقد ترجمنا كتابكم الى السيد وكتاب السيد اليكم وقدمناهما في صدر الرسالة ومتى تمت نبعث بها اليكم ان شاء الله

ونهج البلاغة قد تم والحمد لله طبعه وسيرسل اليكم مائة نسخة على حسب طلبكم . نبعث بها الى بومباي ثم ترسل من بومباي الى حيدر آباد وثمنها يرسل الينا مائتان وخمسون روبية ورق بنك نوط هندي حيث انه لا يتيسر الارسال بطريقة اخرى ثم ليكن في علم حضرتكم ان أثمان هذا الكتاب مخصصة للانفاق في طريق خيري والاعانة على امر عام اسلامي لانريد منها ربحا ولانطلب كسبا والله الموفق ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة بتواتر المراسلة والله يتولى رعايتكم والسلام



٢
طائفة من كتبه ورسائله الودادية

كتب وهو في سجن القاهرة متهما بالاشتراك في الحوادث العرابية الى أحد أصحابه. وهو من أصدق الآيات على علوّ أخلاقه وسلامة صدره رحمه الله

١

عزيزي

تقلدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي !! اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر فأخذت صخوره من مركز الارض الى المحيط الاعلى واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت الى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة فتبارك الله أقدر الخالقين * انتثرت نجوم الهدى وتدهورت الشموس والاقمار وتغيبت الثوابت النيرة وفر كل مضيء منهزما من عالم الظلام ودارت الافلاك دورة العكس ذاهبة بنيراتها الى عوالم غير عالمنا هـذا فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله وكانوا على ذلك قادرين * (١)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على اطرافه في ليلة داجية غطى فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف ركاما ركاما لا أرى انسانا ولا أسمع ناطقا ولا أتوهم مجيبا أسمع ذئابا تعوي وسباعا تزأر وكلابا تنبح كلها يطلب فريسة واحدة هي ذات الكاتب والتف على رجلي تنينان عظيمان وقد خويت بطون الكل وتحكم فيها سلطان الجوع ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين * تقطع حبل الامل وانفصمت

---

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر يراد به عوامل الخير والشر وأسبابها وخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين كما يقال اغتالتهم الغيلان فيمن هلكوا بأسباب مادية تجوزا مبينا على المعروف من خرافات العرب ويعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » — راجع البيضاوي وغيره

عروة الرجاء وانحلت الثقة بالأولياء وضل الاعتقاد بالاصفياء وبطل القول باجابة الدعاء وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء وحقت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين * سقطت الهمم وخربت الذمم وغض ماء الوفاء وطمست معالم الحق وحرفت الشرائع وبدلت القوانين ولم يبق الاهوى يتحكم وشهوات تقضي وغيظ يحتدم وخشونة تنفذ تلك سنة الغدر والله لايهدي كيد الخائنين * ذهب ذوو السلطة في بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب اصداف من الشبه ومقذوفات من التهم وسواقط من اللمم ليموهوها بمياه السفسطة ويغشوها باغشية من معادن القوة ليبرزوها في معرض السطوة ويغشوا بها أعين الناظرين * لايطلبون ذلك لغامض يبينونه أو لمستور يكشفونه أو لحق خفي فيظهرونه أو خرق بدا فيرقعونه أو نظام فسد فيصلحونه كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين * وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة وفاسدي الاخلاق وخبثاء الاعراق رضوا لانفسهم قول الزور وافتراء البهتان واختلاق الافك وقد تقدموا الى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الاباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين * كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ولم تحل قلبي وحشة بل انا على أتم أوصافي التي تعلمها غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء عالما بأن كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه لان الله يعلم — كما أنت تعلم — انني بريء من كل ما رموني به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبا أو كنت من الضاحكين * نعم حنقني الغم وأصمى فؤادي الهم وفارقني النوم ليلة كاملة عند ما رأيت اسمك الكريم واسم بقية الابناء والاخوان المساكين تنسب اليهم اعمال لم تكن واقوال لم تصدر عنهم قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن قلبي وسكن جاشي عند مارأيت تواريخ التقارير متقادمة ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر فرجوت أن الحكومة لم ترد ان تفتح بابا لايذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان (١) تقريرين جعلا فيها تبعات الحوادث الماضية على عنقي ولم

(١) هما ٠ ر ٠ — و — ه

يتركا شيئاً من التخريف الا قالاه . وذكرا اسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها لكن لاحرج عليهما فاني أراهما من المجانين * ولم اتعجب من هذين الشخصين اذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ويرتكبان هـذا الجرم الشنيع ولكن أخذني العجب كل العجب غاية العجب بالغ ماشئت في عجبي اذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (١) الذي أرسلت اليه السلام وأبلغته سروري عند ماسمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين * الى هذا الوقت لم يصلني التقرير ولكن سيصل الي انما فيما بلغني انه شهادة بأقبح شيء لايشهد به الا عدو مبين * هذا اللئيم الذي كنت أظن انه يألم لألمي ويأخذه الاسف لحالي ويبذل وسعه ان أمكنه في المدافعة عني فكم قدمت له نفعاً ورفعت له ذكرا وجعلت له منزلة في قلوب الحاكمين * كم سمعني اقاوم هجاء الجرائد وأوسع محرريها لوما وتقريعا واهزأ بتلك الحركات الجنونية وكان هو عليّ في بعض افكاري هذه من اللائمين * كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعا لرأي فلان واعارضه اشد المعارضة ثم لم أنقض له عهدا ولم ابخس له ودّا وحقيقة كنت مسرورا لوجوده موظفا فما باله اصبح من الناكثين *

آه ماأطيب هذا القلب الذي يملي هذه الاحرف ! ماأشد حفظه للولاء ماأغيره على حقوق الاولياء ماأثبته على الوفاء ماأرقه على الضعفاء ماأشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ما اعظم اسفه لمصائب من بينهم و بينه ادنى مودة وان كانوا فيها غير صادقين * ماأبعد هذا القلب عن الأيذاء ولو للاعداء ماأشده رعاية للود ماأشده محافظة على العهد ماأعظم حذره من كل ماتوبخ عليه الذمم الطاهرة ماأقواه اقداما على العمل الحق والقول الحق لايطلب عليه جزاء وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين * هـذا القلب الذي يؤلمونه باكاذيبهم هو الذي سر قلوبهم بالترقية وملأها فرحا بالتقدم ولطف خواطرهم بحسن المعاملة وشرح صدورهم بلطيف المجاملة ودافع عنهم ازمانا خصوصا هذا اللئيم افنشرح الصدور وهم يحرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحها وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الاسف على ماألم بالهيئة العمومية من مصائب هذه

---

(١) هو س . ب

التقلبات وما ينشأ عنها من فساد الطباع الذي يجعل العموم في قلق مستديم وما بقي من هــذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته فان تسللوا جميعا بمثل هــذه الاعمال واصبحوا من مودته خالين واتخذوه وقاية لهم من المضرة وجعلوه ترسا يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيبون به اغراضهم فينالون منها حظوظهم فقد اراحوا تلك البقية من الفكر فيهم. والله يتولى حسابهم وهو اسرع الحاسبين * آه ماأظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة وان جاروا في تصرفهم ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز اذا اتصل بذي الود وان كان خشنا فصعب ان ينفصل ولو مزقته خشونته وان هذا القلب في علاقته مع الاوداء كالضياء مع الحرارة ايما حادث يحدث وايما كيماوي يدقق لايجد التحليل بينهما سبيلا واظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين *

أي عزيزي

الآن وصلني تقرير اللئيم فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان انسانا ولكن نصادف فراغ الحبر من الدواة فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

• •

رددت على التقرير وكان كل مافيه الغش والتغرير وذكر فيه فلانا بأشنع مايؤاخذ به انسان في هذه المسئلة كما ذكره الخبيثان قبله ولكن دفعت ماقاله في جانبه أيضا وأخذت على نفسي كل مسأولية تنسب اليه أو اليكم فما عليكم ان سئلتم الا ان تكونوا منكرين * ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكاري وأقوالي التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ومن كانوا لها من الطالبين * الى هذا الحد قفوا فان سئلتم فقولوا مانحن بتأويل الاحلام بعالمين *

في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشرا ببقائكم في مركزكم فقمت ورفعت يدي ورجلي وناديت الحمد لله رب العالمين * وأخذني الأسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على

حسن حالة الباقين * ياعزيزي أعود الى ذكرما لأولئك القوم كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤسهم فغشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم فقاموا ينطقون بما لايعون و يتكلمون ولا يفهمون * ما بالهم يقذفون من افواههم اخلاطا اقذر من البلغم. وأمر من الصفراء وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت امعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم اخبث ما يحملون * مابال دنان قلوبهم تفيض من اللوم اشد من فيضان بئر برهوت تقذف بسائلات بشعة الطعم خبيثة المنظر كريهة الرائحة تضطر معانيها للفرار منها لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لايشمون ولا يذوقون ومن ظلماتها لايبصرون * هل بطل ياعزيزي ما جاء على لسان النبوات « الانسان أسير الاحسان » هل نقض ماجاء من ذلك « المعروف بذر المحبة يغرسها في اعماق القلوب » هل هدمت قاعدة « إن الحيوان يقاد بالزمام والانسان يقاد بالصنيعة ؟ » هل كان خرافا ماقرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الحبيث ؟ هل كان خرافا ماحوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟أم صح كله لكن الناس به جاهلون*

هل اتأسف ان كنت سباقا الى الخيرات؟ هل اتأسف ان كنت مقداما في المكرمات ؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟هل اتأسف ان كنت أبيا أغاران ينسب مكروه اوذل لأولي صلتي ؟ هل استحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون؟ * كلا والله لن يكون ذلك ولم ازدد في سبيل الفضيلة الا بصيرة ولم ازدد في المحافظة عليها الاثباتا ولئن عشت لأصنعن المعروف ولأغيثن الملهوف ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم ولأتجاوزن عن السيئات ولأتناسين جميع المضرات ولأبينن لقومي انهم كانوا في ظلمات يعمهون*ولأظهرن الصديق في اجمل صوره ولأجلونه للناس في ابهج حلله ولأثبتن لهم ببرهان العمل انه فكرك الثاني في روحك الواحدة وانه جسمك الآخر في حياتك المتحدة وانه صاحبك اذاطال ليل الكدر ومصباحك اذا أغسق دجى الهموم تستضيء به في حل ما انعقد وتستعين بقوته في تيسير ماعسر وتذهب به الى أوج المعالي والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

انني اليوم اعجز من المقعد عن طلوع النخل ومن المفلس عن حرية التصرف وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن فينحف الجسم ويغير اللون ويقلص الشفاه ويضعف القوى ويقعد عن الحركة ويبعد عن نيل المطلوب ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض ويسئمهم ان طال من معاناة العلاج فيصبح المريض منهم في ادنى المنازل وقد كان ربا وهم له ساجدون * يذهب عنه البهاء وينكسف من وجهه الضياء وتنكره عند الرؤية اعين العشاق وتمجه طباع ذوي الاذواق وتمحى من جبينه تلك الاسطر الجلية العبارة الصادقة النسبة الناطقة بالحق القائلة : ههنا كنز الرغبات ههنا منال الحاجات ههنا ما يروح الروح ههنا مايقضي وطرا في الانفس ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة: فينحرف عنه السالكون اليه وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن اقول لكم ان الحوادث المريعة سوف تنسى وان هذا الشرف سوف يرد ولئن ابت طبيعة هذه الارض بخستها ان يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها. ولأجذبن الى المجد احبتي ومن الى المجد ينجذبون * كل ذلك ان عشت وساعدتني صحة الجسم ولا اطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس وبعضهم له منكرون * أطلت عليك الكلام فلا تسأم واظنه آخر كتاب مني اليك في السجن الا ان يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة اخرى فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة ازكى والا كانت المراسلة أجل واعلى ولا تجزع فليس في الامر مايفزع وهو اهون مما يتوهمون * واسأل الله ان يغض عنكم ابصار الظالمين ويحفظكم من نكاية الخائنين ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين

٢

ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر الى بيروت

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول وأذل بها شوامخ المصاعب وأتصرف بها في خواطر النفوس . ومنحت من لدنك عزمة أتمتع بها

الثوات وأصدع بها شم المشاكل وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق . وكنت أظن أن قدرتي غير محدوده ومكنتي لامبتوتة ولا مقدوده فاذا انا من الايام كل يوم في شأن جديد تناولت القلم لأقدم اليك من روحي ما أنت به أعلم فلم أجد من نفسي سوى الافكل والقلب الأشل واليد المرتعشة والفرائص المرتعده والفكر الذاهب والعقل الغالب

(ومنه) اني يامولاي لا أحدثك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك فقد تكفل ببيانه أخي العزيز ابراهيم افندي اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك فقد تغلب أعوان الشر وانصار السوء بقوة جاههم وشدة بأسهم فأرغموا العقول على الاعتقاد بالمحال وألجؤها للتصديق بما لا يقال حتى انهم غيروا قلب دونلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياما معدودة ركن فيها العمل بالشدة والأخذ ببادرة الحدة لكن لم يلبث ان وصلنا اليه وجلوت الأمر عليه وكشفت له ما أغمض من الحقيقة حتى زال ما لبس المبطلون وبطل كيدهم وما كانوا يعملون ونزلت عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلماء والأمراء ورجال الحكومة وقصدت من كل أمير مصعد النفس فلا ينطق الا بما تريد حكمتك ولا يعمل الا ما تشاء ارادتك فكأنك وحقك كنت بين أظهر المصريين ساعيا فيهم الى مقاصدك العاليه طالبا بهم اوج السعادة وذروة المجد والفخار وهكذا ضممت الي كل من كان ينتسب اليك صادقا في الانتساب او كاذبا حتى اني لم أتأخر عن مساعدة أولئك الاشقياء الأدنياء . . . وأمثالهم من اللئام تحسينا للظن وايثارا لجانب العفو فأصلحت لهم القلوب وفسحت لهم من الصدور وفتحت لهم ابواب التقدم الى المنافع الغزيرة لكنهم لم يرعوا ودا ولم يحفظوا عهدا ولا حاجة الآن الى إيضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤما . . . . وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلا ليس بالقليل يجلون قدرك ويعرفون لك فضلك وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندي

ولكن هذا لم يلهني عن طلب الانتصار لك وكدت أصل الى ذلك من طريق مألوف ومذهب معروف ولكن غلبنا على الأمر قطاع طريق الخير اللابسين

ثياب الانبياء السالكين مذاهب الجبارين انتحلوا طريقتنا في الدعوة الي الحرية وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من إقناع العامة بكونهم دعاة الحق وحماة القانون وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصبا عليك وعلى تلامذتك واشتد معهم في التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم عند مارأوا بعض رجال الحكومة يميل الى أهوائهم وبعدم في بعض غيهم ولم يدم ذلك الا قليلا حتى محصنا من قلوبهم وجلونا عن بصائرهم فكادوا يشيمون ضياء الحق لولا أن أدركتهم ظلمة الغي والغرور ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ولغاية مانحب بقدر الامكان والاستطاعة الى أن غلبت عناصر الفساد وعم الاختلال فطلبنا بأولئك الثائرين ان تخلص البلاد من الشقاء وينقذ العباد من طول العناء ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الارض والسماء وكدنا ندرك به خلاصا حسنا وانتصارا شريفا لكن لسوء البخت كان احمد عرابي على ماوصف الصابي ابا تغلب بن حمدان عند ماقاتله عز الدولة بن معز الدولة وهزمه حيث قال فيه « انه لم يلق لقاء الباضع بالطاعة المعتذر من سالف التفريط والإضاعة ولا لقاء المصدق في دعواه في الاستقلال بالمقارعة المحقق لزعمه في الثبات المدافعه ولا كان في هذين الامرين بالبر التقي ولا الفاجر القوي بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره وفضيحة جبنه وخوره قد ذهب عنه الرشاد وضربت بينه وبينه الأسداد » اه

وأزيد على ذلك مع توفر الاسباب وتفتح الابواب وظهور الأمر للعيان وانجلائه لأذهان الصبيان واجتماع جميع القلوب عليه ونزوع الاهواء على اختلافها اليه فكان ما كان من العاقبة السوءى ولسيرنا في تلك الحوادث نبأطويل اذا اردت يامولاي ان اقدم اليك به تاريخا ربما يكون مفيدا فأنا رهين الاشاره ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات لالذنب جنيناه ولا جرم اقترفناه فقد قضت حكمتك القائمة منا مقام الالهام في قلوب الصديقين أن تنال الحق ولنا الحجة الباهرة ونصيب الفرض ولنا البراءة الظاهرة والذمة الطاهرة وإنما ذلك اثر الحق القديم ونتيجة الرأي العقيم ووالله ياسيدي لو فصلنا له من جلودنا ثيابا وصنعنا له من لحومنا كبابا وصببنا له من دمنا شرابا لما كان لنا مفر

من غدرته عندقدرته قاتله الله فهانحن سالكون في سننك وعلى سننك وكنا كذلك ولا نزال الى انقضاء الآجال ولولا أطفال لنا رضع ونساء لنا طوّع أبينا لهم الذل وأنفنا لهم الضيم فأتيناهم هنا الى حيث أقمنا لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس لأسعد بالاقامة في خدمتك وأفخر بذلك على العالمين

ولما أعلم من نفسي وما أتيقن من يقينك وما أبدته أعمالي وأعمالك وأقوالي وأقوالك لا أتكدر مما أشرت اليه في كتابك الى أبي تراب حيث طعنت في ثقتك بالناس أجمعين وبالغت حتى سحبت الطعن الي والى ابراهيم افندي وزدت في الطعن فأنفذت طعنتك بالداهية الزرقاء والبلية الحمراء اما اختلال ثقتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا فقد نقضوا عهدك ...

وما حكم به سيدي على المصريين من سلب الوفاء فذلك قد تتضافر عليه الادلة وتشهد لك ولنا به الحوادث غير أنا لسنا أولئك، فقد اخرجتنا عن طباعنا وحوّلتنا ابنا غريبا لايغتذي بغذاء تلك الارض ولا ينمون بهوائها وانما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره مايقوى به قوامه ويزهر زهره ويحلو ثمره وإلا ذبل ومات أواستأصلت جذوره ونفي الى خارج البلاد

واني أعلم ان كلامي لا يزيد في يقين مولاي شيئا وعدمه لاينقصه فلنعد عن هـذا ونستميح كرمه الواسع ان يمن علينا بنسخة من رسمه الفوتغرافي جديدة فقد كان عندي نسختان احداها كانت في بيتي على الوضع الذي قدمت والأخرى استجدا نيها سعد افنـدي زغلول فاما الاولى فقد أخذها أعوان الضبطية عند ما أودعت السجن وفتشوا بيتي وعد وجود صورتك عندي من سيئاتي التي ارادوا وضعها في مجلس التحقيق والأخرى تركتها عند محسوبكم سعد افندي زغلول

ثم يتفضل مولانا بأن يتابع إلينا ارسال ماينشره من الفصول السياسية والادبية في الجرائد أيًّا كانت فقد أعددنا دفاتر كثيرة لنقل مايوجد منها في أي جريدة وكتبنا مانشر في النحلة وأول مانشر في الصبر وانا نبحث بغاية الدقة عن مقالة «الشرق والشرقيون» ولم نجدها الى الآن ثم نرجو ان تمن علينا بأسطر من قلمك الشريف نحفظها حيث نحفظ سرك ونودعها حيث اودعنا محبتك والله يحفظك

ويتمم مقاصدك والسلام

٣

وكتب بعد استقراره ببيروت الى بعض الشيوخ ولعله الشيخ علي الليثي

سيدي الاستاذ الاجل

لله حالي مع الشيخ !! وجدبه مستحر وشغف بحبه مستمر وعهد هوى اليه مستقر وهو بي لايستقر شغفت من الشيخ بأخلاق زهر ومكارم غر ومروآت حدر وفضائل غزر ذلك الحسن الذي لايكسف والجلال الذي لايكشف فاذا عشقته فلست بالغالط وان لمحته بحجي فما أنا بالخابط تعلقت بها الأنفس وهو لدي الأعز الانفس ومشربي في ذاك اصفى المشارب والناس فيما يعشقون مذاهب اناآني عنك تباين الديار وادناني منك دوام التذكار كلما خلوت بنفسي تمثلت لباطن حسي فروحي اليك آنسة ومن قرب اللقا غير آيسة فان فاءت من غيبة الفكر وأفاقت من سكرة الذكر عاودتها وحشة الفراق وانتابها قلق الى التلاق فان تحفتها عنايتك وتعقتها رعايتك بكتاب تلحظه أوخطاب تحفظه كان ذلك أشفى لدائها وانجع دوائها وبعد فانا اليوم ببيروت في فضل من الله أشكره وجميل احسان اذكره ولا أنكره ومقامي عند جميعهم محفوظ ومكاني بعين التوقر ملحوظ غير انه لايسوى بقومي قوم ولا كيوم وطني يوم ذلك الوطن الذي أنبتك وغذت عناصره نبعتك لاريب انه منبت الكرم ومخيم لأطهار الشيم الموت فيه بقاء والحياة في غيره فناء ولكن كان حالي كما قال الاموي

أعز الممات وذل الحياة   وكلا أراه طعاما وبيلا
فان لم يكن غير احداهما   فسيرا الى الموت سيرا جميلا

هـذا الى ان ينجح الله سعيكم ويؤيد في أمري رأيكم فيماط الأذى ويلقي القذى وتمحص الصدور ويبرأ برقيا كم المصدور هنالك يعرف النخيل أهله ويصل الفرع أصله

٤

وكتب من بيروت أيضاً الى بعض الكبراء جواباً عن كتاب منه يذكره فيه بالصبر في تلك النكبة

ما أفضل الفضل من مبادئه وما اكرم الكرم من مناشئه وما أكبر التواضع من الكبراء وما أعلى التنازل من الأعلياء جاءت مكارم مولانا عن التقدير وفاتت فواضله حيطة التحرير توجهت عنايته الى ضعيف في وجده عارف بقدره واقف عند حده فأحسن اليه بأمر كريم من رفده يكسوه من الوصف حلة بهاؤها بسديها ويوليه كرامة سناؤها بهديها وما هي الا كمالاته تبدو مظاهرها وكرائم سجاياه تظهر على المخلصين مفاخرها والا فليس لهذا الداعي ما يستلفت نظر دولته ويستقبل وجه كرامته اللهم الا الاخلاص في ولائه والاحتساب على آلائه وما استواء مولانا على منصة تشرف به على النظر فيما يؤكد نسبتي اليه ويقوي استنادي عليه فأرجو الله أن ترتقي بي الى أعلى ما يؤمل لمثله بمثل فضله حتى يعم فضله المتعرفين الى جنابه والعاجزين عن التقرب من رحابه وقد أرشدني كرم مولانا الى الاعتصام بالصبر وانني فيما ارشدني اليه على نحو ما يقول سابقي الى مثل حالتي

تعودت من الصبر حتى ألفته فأسلمني حسن العزاء الى الصبر

فالحمد لله على توفيقي للأخذ بارشاده ووقوفي عند حد مراده فلا زال يحيي القلوب بحكمته كما يحيي نظام الأمة بعدالته والله يتولى مثوبته على احسانه كما يكفل له في العالمين اعلاء شانه ورفعة مكانه

٥

وكتب وهو في بيروت جوابا عن كتاب لصديق

لك في قلوبنا من الود ما يذكيه سناؤك ،وفي مناطقنا من الحمد ما يوحيه كمالك، وفي صدورنا من الاجلال ما يرفعه بهاؤك ، ما بيننا من المودة لا تحده مدة ، ولا تخلق له جدة ، نعيذه من حاجة التجديد ،واستدعاء المزيد ،فلا المواصلة تربيه، ولا المماهلة توهيه، نعم ان ما نحفظ لك في الانفس هو تجلي فضلك ،ومثال علائك ونبلك ،وذلك الخالد بخلود الارواح، الباقي في تفاني الأشباح

تلقيت منك كتابا يبوح بسر المحبة و ينشر طي الصداقة فيه تبيان وجدانك مما وجدنا وتأثرك على ما فقدنا فكان نبأ عما نعلم وقضاء عما نحكم ولكن شكرنا لك فضل المراسلة وأريحية المجاملة والله يتولى ايفاءك مثوبة تكافىء وفاءك

٦

وكتب من بيروت الى صديق له من رجال الدولة العظام الذين كان يرجو منهم الخير للدين والملة

وصل الله بالتقوى حبلكم ، وأعلى بصدق الايمان محلكم ، يعلم الله أني وان فارقت عطوفتكم لم يفصلني البعد الجثماني عنكم، وان بانت بي الاماكن ونبت بي الأقطار لم أبن منكم، فلقد يسمو الايمان الصادق بأهله عن مضاجعة الطبيعة فلن تصل اليهم آثارها وينفر بهم عنها فلا تخالطهم أوضارها فتأخذ الارواح حكمها وهي اذا تعارفت جواهرها تواصلت سرارها ولم تبال بالاجسام ومصايرها

لم يزل يلمع لي بارق من سر ذاتكم الطاهر و يذر آنا بعد آن شارق من مطلع يقينكم الزاهر ويتمثل لي كلما نزع في القلب اليكم مثال من مزايا سعادتكم ويبدو لي عند الوحشة مؤنس من خصائص عطوفتكم فأنا من معاني حقيقتكم في بقعة من عالم المثال ألهو بها عن هذا العالم عالم الخيال اراكم بين من رأيت من حكام الزمان كوكبا بين أجرام اكوان ان كان لها ضياء تضاءل لضيائه أو كان لها سناء تساقط دون سنائه فالله يحقق نسبتكم اليه ويمتعكم باخلاص الاقبال عليه فتلك السعادة لاتفضلها زيادة ولا أتقدم الى سعادتكم بالرجاء بشيء مثل ما ارجوكم في النظر لاصلاح قلوب الاهالي بالتربية الزكية على أصول المعارف الصافية فلابقاء للدين الابها ولاوقاية له الا بنفوس أربابها ولاسعي عند الله أفضل منزلة من السعي الى مثل هذه الغاية ولا أجل عاقبة لديه مثل الانتهاء الى مثل هذه النهاية

ثم أرجو العفو عن تقصيري في عرض عريضتي على انظار عطوفتكم في المدة الماضية فقد كنت بعد مفارقة القدس في أمراض لم أزل الى اليوم في معالجتها وأنتم اكرم من قبل العذر واستقبل بالعفو جزيل الأجر والله يعدكم بامداد توفيقه ويحفظكم على المحجة من طريقه

٧

وكتب الى من اكرم وفادته وخطب مودته

لوكان في الثناء وملازمة الدعاء وحفظ الجميل والقيام بالخدمة جهد المستطيع مايفي بشكر من يفتتح باب المحبة ويبدأ بصنائع المعروف لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ولكن أنى يكون في ذلك وفاء والمحبة سرّ نظام الأكوان والاحداث قوام عالم الامكان والقائم على كنه جميعه قيوم السموات والأرض والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه فليس لي الآن ألجأ الى الله في مكافأة فضيلتكم على ما كان منكم أيام الاقامة بينكم ثم أسلي نفسي عن عجزي بما أخيل ان كرمكم سيروي

سيكفي الكريم اخاه الكريم ويقنع بالود منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة الى المكاتبة لأني شغلت بما شغلني عن نفسي ولكن زالت العوارض والحمد لله وفاتني لهذا العذر تهنئتكم بالعيد وانما المؤمن كل يوم بربه عيد فنهنئكم برضاء الله عنكم وتقبل صالح الاعمال منكم وسلامي على نجلكم ومن ينتمي اليكم والله يحفظكم

٨

وكتب من بيروت الى بعض الكبراء في الاستانة جوابا عن كتاب منه

ان خدمت الملة في هذه فما هي أول خدمة وان وفقك الله للنجاح فيها فليست باول نعمة وان شحذت عزمك لاصابة الغرض منها فما هو ببدع منك وان طالت يدك لبلوغ المأمول فيها فما هو ببعيد عنك فالله آخذ بعضدك ومُمدّك الى مقصدك خصوصا وانت مخلص النية مشرق الطية صادق العزيمة شهم الفؤاد اليف السداد ايد الله رأيا افردك في علوه وبارك لك في عزم ميزك بسموه وحقق الرجاء فيك وبلغ الامل منك احار قلمي لا ادري بأي بيان يذكرك وعلى أي فضل يشكرك على صدق في خدمتك أو اخلاص لدولتك أو حمية لدينك أو ثبات في يقينك أو بعد في همتك أو علو في مروءتك أو تنازل لاجابة هذا الداعي فيما رجاه وتقريب أمله فيما تمناه كيف يوافي شكر ذلك بيان أو تصيب الغرض منه اسلة لسان

وافاني كتابك يفوق الغيث في بركته والربيع في نضرته كيف لا والحق في طيه والفضل في ثنيه . واين ما تربو به الاشباح مما تنعش به الارواح واين نضرة الحقول من بهاء المقول هزّني بعد السكون واظهر مني بعد السكون وفتح لي الى الامل بابا وكشف عني من الارتياب حجابا فلا زلت يقوى بك العزم ويؤمى بفضلك الكلم أما ماسبق اليه رأيك من تقديم رسالتي (١) الى حضرة علم العلماء وتاج الفضلاء صاحب الدولة ناظر العدلية الافخم فكأنما رددت غريبا الى وطنه وارجعت نازحا الى عطنه وان وقع ما عرضت موقع القبول عنده فانما ذلك تجلي فضله في مرآة علمه والافعلائم القصور ظاهرة فيما كتبت ولوائح الارتباك بادية مما حررت وانما هي نفثات رسمت في صفحات على استعجال خيفة الفوات وما دفعني اليها - والله اعلم - الا يقيني بأن نجاح هذه الامة انما يكون بحسن التربية ولاسبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها وتصحيح ملكاتها حتى تستقيم بذلك اعمالها وتصلح احوالها وان سعيي في هذا من فرائض الذمة بل مندفع مني بباعث العقيدة آتيه مجبورا في صورة مختار أومختارا في صورة مجبور

واني أحمد الله على قوة لا اجدلها مادة وهداية لا ارى لتسيير الناس فيها جادة فان وفقني الله الى مادة عمل وجادة خير بسعيك الناجح ورأيك الراجح كانت اعمالي كلها شكرا لصنيعك وكان الله من وراء ذلك خير مكافيء لك على جميل سعيك واما استشهادك بفلان وفلان فاني اعده تفضلا منك في التأكيد والا فمجرد قولك عندي هو الدليل على الواقع والله على ما اقول شهيد ، وليكن مني لك الاحترام الدائم والشكر الذي لاينقضي والله يتولى رعايتكم والسلام

٩

وكتب منها الى بعض الاصدقاء جوابا عن كتاب

سيدي العزيز

وافاني كتاب سيد الاحباب وصفوة الانجاب مبتسما عن الدرّ النظيم راويا عن الذوق السليم متهللا بسناء منشيه معجبا ببهاء مُمليه جاء بعد ماحل

(١) هي لائحة إصلاح التعليم التي سبقت في فصل اللوائح

منازل الجلال ودار دروة الاقبال ولولا رسل من شوقي اليه تزاحمت اقدامها لديه فساقته يد الاقدار وقادته قود الاوطار لطال به التسيار «و برح بي» الانتظار وصل الي بعد اثني عشر يوما من تاريخ كتابته، واني أقسم به لو زاد في غيبته وجاء زاهيا بحليته، تائها في جلالته، متقلدا حسام حجته، مستشهدا بعدول من حاشيته، على مانسبت من المطل الى مودته، لما اقنعني دليله، ولا الزمني تعليله، لقابلته بحسابه، وسكنت من ضبابه، ولحاكمته محاكمة الود، بين يدي حبي المستبد، ولجازيته جزاء نافر انعب في الطلب، وشارد اوغل في الهرب، ثم عني بحكم القلب، . أومعشوق بديع الجمال، بالغ في الدلال، حتى اعيا المختال، ثم ابتلي بغرام العشاق، فابتغى وهو البغية وصل المشتاق « ولعملت له من اشعة البصر حبالا « اوسعه بها احتبالا، فيعز عليه الخلاص، ويمتنع المناص، فلا يبرح عن ناظري « مادام ناظري، ولأبرمت له من مبارم العقل عقالا، اوثقه به اعتقالا، وأزيد في قيوده سلاسل من الفكر خفافا وثقالا، حتى لا يغيب عن الذهن انتقالا، ولا عن الخيال زوالا، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه، فيخشى من توانيه،

علمني كتابك كيف تناجي الارواح اشباحها « والجراثيم ادواحها، . أو كيف تحادث العقول افكارها، والقلوب اسرارها « تباينت اجسامنا في عالم الكون والفساد، وتباعد ماييننا في كون التضارب والعناد، وترفعت نفوسنا عن معارك الاضداد، فتعالينا في جوهر الوداد « عن الانداد، فاتحدنا وليس بعد اختلاف، وامتزجنا ولا عن افتراق، وكان واحدنا من صاحبه في مكان الشرف من الفتوة والكرم من المروة والقوة من العدل، والكرامة من الفضل والعلم من الرشاد والحكمة من السداد واستغفرالله ان أكون منك في مقام الاستاذ فتفاوت النسب نوع من الجذاذ لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك ولم يذكر ناسيا لسابق ودك ولم ينبه غافلا عن ذكرك ولكن كان نوراً على نور وفضلا من كتاب عملك المبرور وسعيك المشكور ونعمة تشتهي النفس دوامها ونغمة يلذ السمع تكرارها

سرني مادل عليه كتابك من كمال صحة والدك الماجد واخوتك الاماجد

واعضاء عائلتك الكريمة وانجالك بضمة كمالك

١٠

ووجد بين مسودات اوراقه البيروتية صورة كتاب لايعلم صاحبه ولعله كتبه عن لسان غيره اذ ليس من عادته ان يبالغ في المدح عن لسان نفسه قال

لو سلكت لمولاي الدرّ في أطواق وحملت اليه البصائر في أحداق أو وصفت له الكواكب في أطباق وطويت له روحي في اوراق لما كنت وفيا حق حمده ولو شيدت له في القلوب هياكل وأقمت له في النفوس معابد تتلى فيها آيات الثناء على جنابه الرفيع بكرة وعشيا ما كنت قاضيا واجب شكره

مولاي: نظر الله اليك بعين عنايته فقومك من الحق وأقام بك عماد العدل ورفعك حصنا منيعا بين بلادك و بين الفتن وأرسلك اليها غيثا مريعا فأخصب بيمنك الزرع ودرّ الضرع وغزرت الثروة وتمكنت القوة فكانت ذاتك الشريفة نسخة من روح خليفة رسول الله عمر بن الخطاب تفر شياطين الباطل من طريقك وتخر شوامخ المصاعب خضوعا لعزمك وتتزعزع رواسي المشاكل لحزمك وتفري أكباد المعضلات بصائب رأيك حتى أحكم الله قضاءه فكان الخير كل الخير على يديك والشر كل الشر على يد غيرك

سموت قدرا على السابقين وعلا مقامك عن مواقع انظار اللاحقين فالأولون ينظرون اليك من خلال قبورهم يغبطونك على ما أوتيت من همة جمعت اليك أشتات الكمالات وعزمة حشدت عليك أنواع المكرمات والآخرون حملوا اوزار التعب وتجرعوا صاب النصب وتزودوا من الأعوان واستكثروا من الانصار ليخطوا خطوة على أثرك فوقفوا بعد العناء دون البداية من سيرك وحجبوا عن الاهتداء بهديك مع وضوح محجتك وظهور حجتك فضربوا لانفسهم مثلا ضرب به الله لامثالهم « رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » وكان غاية ما استفادوا من سعيهم اقامة الدليل على عجزهم وأراهم بذلك وهم فيما يظهر اعداؤك يحسبون من انصارك لمضافرتهم لنا على تأييد كلمتك والاعتراف

بعلو منزلتك وانك فيما سبقت اليه واحد لايثنيك طالب لمباراتك ولا راغب في مجاراتك وان ماحللت فيه من المكانة العليا لاتسع قدما لسواك فأي بيان يحيط بعماليك وأي فكر يسمولفهم معانيك على انني وانا صنيع نعمتك لا أرى وسيلة اليك أنجع من الاعتراف بالتقصير ولا شفيعا أنجح من العجز عن التعبير

مولاي : لم يخف على علمك الشريف ما طالت به الي الايدي الطاغية وصالت علي به الجوارح الباغية افتراسا محضا لايشوبه تأويل وانتقاما صرفا لكامن الغل القديم او تمسكا بزور واش أوطوعا لتضليل غاش وما بي الآن من حاجة الى توضيح حالي فقد علم الكافة وشهد الله أنني :

ماشققت العصا وما كنت ممن شق لافي خيل ولا في رجل (١)

١١

ومن رسائله الفكاهية الهزلية ما كتبه من بيروت الى صديقه العالم الأديب الشيخ عبد المجيد الخاني في دمشق . وكان رحمه الله محببا اليه والى جميع المصريين المنفيين في بيروت . وكان له ألفاظ وسجعات كثيرا ماتدور في كلامه وكتابته هجيراه منها لفظ الدهشة وما يشتق منه فكان الاستاذ الامام وعبد الله باشا فكري وابراهيم بك اللقاني يذكرون ذلك في كتابهم اليه على سبيل الحكاية . وهذا الكتاب جواب من الاستاذ الامام عن كتاب من الشيخ عبد المجيد رحمهما الله تعالى

لك الحمد والشكر

وفد علي كتاب السيد الاستاذ والموئل الملاذ ينبي عن سعادة حاله وسعود إقباله فحمدت الله أن خطرت بباله وان لم أكن من ذوي باله ودهشت من مفاجأة هذه النعمة لقصر الهمة عن شكر يستزيدها وحمد يستعيدها وان سروري من السيد بتوجيه عنايته الى أخلص الناس فى محبته بل أثبتهم قدما على أبواب خدمته لارق من لذة الوصال لمحبوب بعيد المنال بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال والظفر بالاقبال

(١) هذا البيت من قصيدة لابراهيم بك اللقاني في شأن الحوادث العرابية

يشير الاستاذ في خطابه الى لطيف عتابه وليس سروري بما أحسن به الاستاذ من مكاتبته أوفر من سروري بما تحققته من كمال صحته أدام الله سروري بتوارد أخباره وشهود آثاره في أنصاره وشهد الله ان غيبته عن ناظري لم تحجب مثاله الشريف عن خاطري وان تسلياتي متوالية في خلواتي وجلواتي وخواتيم صلواتي لايحيط بها لحظ اللاحظ ولاحفظ الحافظ ولا يأتي على وصفها الشيخ حسين الحافظ (١) وان بلغ في الفصاحة مابلغ الجاحظ أهديها مع الرائح والغادي والحاضر والبادي وما عليّ سوى أن أقول وعلى الله الوصول

يعلم مولاي أني من تبعة القارئين وخدمة الكاتبين وأظن ان حسن الظن أني من مواقع إحسانه ومواضع امتنانه وما كنت أجحد شيئا من رعايته ولا آلو جهداً في شكر منته ومع هذا لم يتفضل علي بلامعة من درره ولا بارقة من غرره واختص السادة الفضلاء بالمراسلة وا كتفى لي بسلام المجاملة فالتمست من حضراتهم ان يحبوه أحسن تحية أو يردوها على أي كيفية ولا أدري بعد ما كان منهم رضي الله عنهم ورأيت من المخاطرة والجرءة الجائرة ان ابتدر الاستاذ بالكلام وهو الامام بن الامام فوقفت عند الحد وقمت مقام العبد ان سئل أجاب أخطأ أوأصاب أليس لمثلي العذر ان يقصر به الفكر عن مكاتبة عبد الحميد هذا العصر و بديع الزمان في النظم والنثر؟ بلى ولولا ثقتي بسمة كرمه ماتمكن قلمي من اجابة قلمه فليعف جناب السيد عما يراه فيما حرر على عجل تحت سلطان الخوف والوجل

شكرنا ولمانا سروره بما رأى في جريدة الثمرات غير ان ماذكر فيها انما هو كلمات قذفتها بعصر أغراض فانقضت واستعقبت بالاعراض على اننا اذا حسن التفاتكم الينا في آل خير من آلنا وأوطان أرحب من أوطاننا فلا غربة مع وجود الأحبة ونسأل الله تخليد بقاكم ودوام رضاكم

نوهتم بماحظي به الشيخ أسعد الا ... من كتاب الصادق الا صدق الناطق

---

(١) كان يحفظ عدة كتب من الحديث والأدب وقد يحفظ القصيدة الطويلة من مرة . وكان وصافا لا يتلعثم ولكنه لايلتزم الصدق فى الوصف

بالحق فيما دق ورق ذكر السيد ان الشيخ لم يدر عافاه الله من أين أتي وأرى له عذرا في هذه الفعلة التي ... فقد أتي من وراء حجاب واحتبل بغير احتطاب ودس عليه من غير باب فلا غرو ان غاب عنه الصواب وخرم وانخرم معه الحساب ابراهيم أفندي جفله بعد المناحطة ودلظه بلا مما كظة لكن الشيخ جواظ حجب بكماله عن فضلاء عن الجاحظ وان كان في طبعه لظلاظا وفي هداه جلماظا فتح سر الشيخ على القلم باب الظأظأة ولولا أن تداركه لطف الله لجذبه للبأبأة والفأفأة فلا تؤاخذ مجذوبا ولا تعنت مغلوبا ثم ان القصيدة حائية لاجيمية وكأن غموض معناها أعجم مبناها سبحان الله العظيم وفوق كل ذي علم عليم كر كر كر كر كر انها لإحدى الكبر

ارجو تقبيل أيدي حضرة والدكم ثم ان حسن لديكم فبلغوا سلامي الى حضرات أصحاب السعادة محمد باشا ومحي الدين باشا نجلي سعادة المرحوم الامير عبد القادر أكرم الله جواره وقدس اسراره ويهدي حضرتكم التحيات المدهشات والتسليمات المرعشات حضرات الاساتذة الافاضل الشيخ محمد والشيخ أحمد عبد الجواد وحضرة الحاج محي الدين أفندي حماده وابراهيم أفندي القاني والسيد محمود أفندي الخوجه ومحمد علي أفندي ومن ظني أني سأحضر الى دمشق يوم الخميس ١٦ شعبان لارفع الى الاستاذ ما استطيع من شكره على مبادأة (عبده) بالاحسان رفع الله قدركم وأعلى ذكركم والسلام

١٢

وكتب اليه أيضاً

سبحانك اللهم وبحمدك

يامجيد علمني ما أخاطب به عبدك المجيد جلبيته مجدك وأشعرته ودك وأغزرت عليه في البيان نعمتك وانبعث من جنانه حكمتك فبذّ القائلين بفصاحته وملك مشاعرنا ببلاغته ثم يصفني وصف الاصفياء ويومىء إليّ باشارة الأولياء ولست مما قال في رطب ولا عنب ولا كموب ولارُكب فاجزه اللهم عن حسن ظنه نورا يواصل السعي بين يديه وأثبه عن صدق ولائه صفاء يكشف من سبحات وجهك عليه

أخي : الحمد لله، ما أظن ان اثنين تواصلا على ماتواصلنا تواصلنا، على لحمة روحانية لم تخالطها أهواء حيوانية وحكم الارواح يتبعها في الدوام لاتؤثر (عليه) عوارض الاجسام اللهم الا أن الحواس الظاهرة يوحشها البعد عن طلعتكم الزاهره ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة فروحي من روحك في نعيم مقيم وسرور بلذة الصفو مستديم وحسي من حسك ما بين وحشة تكدره ودهشة ان شاء الله تغمره وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم عيد ولنا في كل سماع عن صحتكم سرور جديد

١٣

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي جوابا عن اعتذار

وصل كتابك يحمل من العذر مقبوله ويرتاد من الرضا مبذوله ولقد كنت تعلم أني ما أردتك الا لنفسك فالحمد لله اذا أرجعك اليها وله الشكر على ماعطفك عليها وما أنا بالمقصر بك عما سألت ولا الذاهب بك الى خلاف ما طلبت وغاية قولي لاتثريب عليك اليوم يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين حياتنا شبح روحها المحبة والمحبة شبح الاخلاص فما أسعد وقتا نرى فيه حياتك منتعشة بروحها زاهرة بسر الاخلاص فيها وليس بذاهب عنك انك كما تكون يكون الناس لك وأسأل الله ان ينفي عنك خواطر السوء ويزيح عن روحك الطيبة وساوس الغرور ويمنّ علي برؤيتك عند الغاية التي أحب لك وسلامي عليك وحدك من بين أهلك ولتكن مواصلتك دائمة والسلام

١٤

وكتب اليه في ١٥ صفر سنة ١٣٠٦ بعد رجوعه من الشام الى مصر

عزيزي صفوة البلغاء ونخبة الادباء حفظه الله

تماديت في التقصير حتى عجز العذر عن التعبير وخجل القلم من التحرير ولكن في علمكم بحال منتقل الى بلاد قد انكره هواؤها وتعرفت اليه ادواؤها مالا احتاج معه الى بسط عذر يشفع اليكم ويقبل لديكم ليت يوما بعدت فيه عنكم كان يوما قربت فيه منكم فلولا مثال من أدبكم يؤنسني اذا استوحشت ويشغلني اذا انفردت لكان سهمي اقصد مايصيب المحرومين

١٥

وكتب اليه في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

هامة الفضل وجبهة الادب حفظه الله

اكرمني الشيخ بايفاد كتابه يمثل لي ما لم انس من آدابه ويبشرني بتوفر النعمة على سلامته ويزيدني يقيناً باتصالها في مودته وسرّني استقرار الشيخ على رخاء البال وان كدرني ذكر ما هب لديه من عاصفة البلبال لا ترك الله لها مهباً ولا ادام لها مربّاً وأبلغ الله حضرة الاخ (يعني الشيخ خليلا اليازجي وكان مريضاً) غاية الشفاء ووقاكم الله وآلكم من الاسواء

لا أبرىء نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده واجالة الاقداح فيما عسى ان يكون سبباً في تأخر وفوده واستكانتي في ذلك لسلطان الوحشة وانهزامي لغارة جيش الدهشة حتى كان الكتاب فيصلاً لحربنا وناصراً بل منقذاً لحزبنا ولا يوفى حق شكره الاشغل بذكره

عجبت لمصير ذلك العقد وانحلاله قبل ان يشتد وتغيظ المفسدين عليه والتفاتهم بالسوء اليه وهو في مهده وعلى قرب عهده كأنما حتم على هذه البلاد ان تكون حطباً لنيران الفساد وان يذلّ فيها العلم ويضل في ابنائها الحلم ولا ينجح الفضل في مسعاه ولا يخيب الجهل في مبتغاه ولا حول ولا قوة الا بالله ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ويديل من هذا العسر يسرا

١٦

وكتب اليه من مصر

عزيزي الفاضل أيده الله

لمثل أدب الشيخ الفاضل تغني الاشارة عن طويل العبارة . وصلت مصر ومثال الشيخ آخذ بجناني وذكره مالك لساني ورجائي أن تدوم مواصلته وتحيي النفس مراسلته والسلام على من يحب من ذوي الحب

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠

١٧

وكتب وهو في بيروت الى من مدحه نثرا ونظما

أنت الذي سما بك استعدادك وزهابك اجتهادك فأعدت للنثر سناءه ورددت للشعر بهاءه فلنا المسرة بمكاتبتك ومنا الحمد لمبادئك . أتتني منك فوائد منثورة تتبعها لآلئ منظومة أعلاها حسن اختراعك وأغلاها جودة إبداعك وكنت جديرا بحليتها مبتهجا بزينتها لو أديت للحق فرض خدمته وطالت يدي في تأييد كلمته ولكني على ميلي الى الحق لم تساعدني القدرة على اسعاده ولم يسعفني الحول والقوة على انجاده فأين انا منه وهذه حالي من جليل ماوصفت بل من قليل ما أغزرت وأرجو الله ان يرشد العقول الصافية ويجمع القلوب الحازمة ويصرفها الى فضل ما أعدلها فتجود أعمال وتثبت آمال وتبدو آثار يحمدها الحامدون ويعرف قدرها العارفون فهنالك تحقيق ماظننت وتصديق ماحدثت ان شاء الله والسلام

١٨

وكتب وهو في مصر الى صديق جوابا على تنصل من هفوة بعد عتاب شديد

لو عرضت عليّ نعم الله وفيها عزة الامراء وبزة الاغنياء ووفاء الاولياء لما اخترت منها غير الوفاء ولعددت نفسي به اسعد السعداء هذه خلتي تقبلها الله وفيها لمهجتي احياء بهذا تعلم ما ادخلت من السرور عليّ فيما كتبت اليّ ولو جعل الله للمحبة شكرا اوفي بحقها منها لبذلته ولو قدرلها اجرا اجزل عائدة منها نفسها لالتمسته وقدمته ونعم كنت وجهت كتابي الى شيطانك فلاقى الكتاب أكرم نفس فيك فانصرف والحمد لله عنك الى حيث لااراه فاهنأ بكرم محتدك وزكاء منماك والسلام

١٩

وكتب الى بعض علماء الشام جوابا عن كتاب هنأه فيه بمنصب الافتاء وهو من ألطف كتبه وفيه من الشكوى والتحدث بالنعمة ما ليس في غيره

انصفني قومك اذ سروا بتناولي منصب الافتاء ولعل ذلك لشعورهم بانني أغير الناس على دين الله واضراهم بالدفاع عن حماه وادراهم بوجوه الفرص

عند سنوحها واحذقهم في انتهازها لا بلاغ الحق أمله أو يبلغ الكتاب أجله على أنهم مني بحيث لايفسد نفوسهم الحسد ولا يتقاذف باهوائهم اللدد وكل ذي دين يشتهي ان يرى لدينه مثل ما أحث اليه عزيمتي واخلص في العمل لتحقيقه نيتي خصوصا ان كفي فيه القتال ولم يكلف بشد رحال ولا بذل اموال

أما قومي فابعدهم عني أشدهم قربا مني وماأبعد الانصاف منهم يظنون بي الظنون بل يتربصون بي ريب المنون تسرعا منهم في الاحكام وذهابا مع الاوهام وولعا بكثرة الكلام وتلذذا بلوك الملام أقول فلايسمعون وأدعو فلايستجيبون واعمل فلا يهتدون واريهم مصالحهم فلايبصرون واضع ايديهم عليها فلايحسون بل يفرون الى حيث يهلكون شأنهم الصياح والعويل والصخب والتهويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا

واقول ولا من الخير

وانما مثلي فيهم مثل أخ جهله اخوته أواب عقته ذريته أوابن لم يحن عليه ابواه وعمومته مع حاجة الجميع اليه وقيام مجدهم عليه يهدمون منافعهم بايذائه ولو شاؤوا لاستبقوها باستبقائه وهو يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب على أني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الامر وقوة العزم وثبات الحلم وان كنت في خوف من حلول الاجل قبل بلوغ الامل خصوصا عند ما ارى ان العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطرا لماانبتت زرعا ولا اطلعت شجرا افزع لذكرى ذلك واجزع ويكاد قلبي يتقطع ثم ارجع الى الله فاعلم انه مع الصابرين وانه لايضيع اجر العاملين فيثلج صدري وامضي في جهادي الدائم ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

ممن اشتكي ؟ لو ان ما القى كان من لغط العامة ولقلقة الجاهلين لهان الامر وتيسر المخرج ولكن البلاء كل البلاء ان أشد الناس عداوة لانفسهم هم أولئك المعلمون الذين يبعدون عن الدين مدعين انهم دعاته و يمزقون احشاءه زاعمين انهم حماته ومامنهم الا أحد شخصين شخص ركب هواه فاعماه فهو يرى الحق

باطلا والصواب خطأ وآخر غرته دنياه وأضله جشعه فران على قلبه ما يكسب وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة مايكذب ولم يعد للحق الى قلبه سبيل

ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين وحمق المعلمين في مثل الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو احكامها وازالة أيامها تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيدا ولكن كان فهم القوم حديدا لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى ابصروه وعند ماقرع اسماعهم صوت الداعي اجابوه كان القرآن يصدع افئدتهم فيلين من شدتهم ويفل من شرتهم ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة وما كان اهل العناد فيهم الا قليلا عرفوا الحق فانكروه وطائفة كانوا يفرون منه خوف ان يعرفوه ولوسمعوا لفهموا ثم لم يجدوا بدا من ان ينصروه وان الجحود مع الفهم كاليقين في العلم كلاهما قليل في بني آدم اما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم وضعف العقل واختلال نظام الادراك وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة وغاية مايطلبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا وان يوصفوا بالعلم وان لم يعقلوا وان تقضى حاجاتهم اذا سألوا وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا وان استمداد السامع لفهم يستدر المقال ويسدد الفكر للنضال في الجدال اما عيشك فيمن لايفهم فانه ينضب منك ينبوع الكلام ويطمس عين الفكر ويزهق روح العقل

جعلني الشيخ عبد الرزاق البيطار ثالث الرجلين وما أنا في شيء من أمرهما الا نزر من الهمة وكثير من معرفة قدرهما

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه واشكره واشكر نعمة مرجعها اليه واذكر من نعمه أكبر نعمة أمدني بها وأكرمني باسبابها احسانه الي بعطف قلب الاستاذ علي وتقريبي من فؤاده واحلالي مكانا من وداده كرمت نفس الاستاذ فكرم فيها مثالي وكملت سجاياه فتخيل منها كمالي نسب الي الشيخ الجليل شؤونا كلها من سرائره وألبسني من الاوصاف ثوبا نسجته مظاهره جعل لي السيد من حسن ظنه معينا وأفادني بثقته ركنا ركينا وسندا أمينا فاسأل الله تحقيق ظنونه وان يعدني دائما بدقائق فنونه وان ينصرني بولائه وان يسلكني في عقد أوليائه والسلام

٢٠

وكتب من مصر الى مولاي عبد العزيز سلطان المغرب الاقصى ما يأتي

وصل الى اسماعنا ونحن في ديارنا أنباء ماوجه المولى اليه همه وشحذ لبلوغه عزمه من النهوض ببلاده الى الاصلاح والسير بها في منهج الفوز والفلاح وتلونا مانشر من أوامره الكريمة ووعينا ماتضمنته من القواعد القويمة فتجددت في سلامة تلك البلاد آمالنا واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا ولما كان الاصلاح الذي يقصده المولى انما يتم برعاية الدين والرجوع اليه في كتابه المبين وسنة صاحبه الامين ثم النظر في اقوال واعمال السلف الصالحين لتعرض على ذلك كله اعمال الخلف المحدثين تعلقت الآمال بأن يكون لمولانا لفتة الى العلوم الدينية واحياء مامات منها ونشر ماطوي من كتبها لتتأدب النفوس بأدبها وتحيي القلوب اذا اتصلت أسبابها بسببها فثقة بهذه المقاصد الجليلة ألهمني الله أن اعرض على حضرتكم العلية انه قد تألفت في مصر جمعية لاحياء العلوم العربية وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف وتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما اندرس من علوم الاولين واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب علي بن سيده الاندلسي فى اللغة المسمى بالمخصص وسيتم عن قريب وهي الآن تبحث عن نسخ مدونة الامام مالك حتى تحصل لها نسخة صحيحة ثم تطبع هذا الكتاب الجليل وقد وجدت من هذا الكتاب قطع في مصر وقطع أخرى في تونس وصارت هذه القطع في أيدي الجمعية ولكن لم توجد الى الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها وقد تأكد الفقير ان نسخة كاملة من الكتاب توجد في جامع القرويين ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به الدين أن يعدنا في عملنا ويعيننا على مانبتغي من الخير باصدار أمره الكريم ان ترسل الينا هذه النسخة اما بتمامها لنقابل عليها ماعندنا ونتم منها ماينقص نسخنا ونعيدها اليه ونهدي الجامع عشرة نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه ان شاء الله تعالى واما متفرقة جزءاً بعد جزء فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل الى مقره وفي كلا الحالين سنقوم لمقامكم السلطاني بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامي الذي

سنراه كأن الله حققه ونسأل الله أن يؤيد بكم ملته وينصر بعزمكم شريعته

(يقول جامع الكتاب) ليتأمل الناظر كيف ان الامام لم ينسب الى نفسه عملا مافي الجمية وهو رئيسها وأكبر مؤسسيها

٢١

وكتب بذلك أيضا الي مولاي ادريس بن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس

بسم الله والحمد لله وحده

حضرة الاستاذ الفاضل العلامة العالم العامل الكامل مولاي ادريس بن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة حفظه الله

بلغنا من كمالكم وكرم اخلاقكم وميلكم الى نفع العامة من المسلمين وايصال الفوائد الى خاصتهم ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة والتوسل بكم في الوصول الى ما يرجى ثواب السعي فيه ان شاء الله

نبشركم أن في مصر من أهل الفضل من وفقهم الله لنشر ما أماته الاهمال من آثار سلف الأمة ودواوين علومهم وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب المخصص في اللغة للامام الجليل عليّ بن سيده النحوي لشدة الحاجة اليه ولاشراف نسخه على العدم والانمحاء من الوجود وبعد أن بلغ الطبع معظم الكتاب رأى اولئك الفضلاء أن يبحثوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم فرأوا من أفضل الامهات واحقها بالعناية وأشدها تعرضا للضياع والاختفاء من الديار الاسلامية مدونة الامام مالك فاخذوا يبحثون عن نسخها فتحقق ظنهم في تعرضها للضياع لأنهم لم يجدوا نسخة كاملة في الديار المصرية ولافي الديار التونسية وحملهم ذلك على الجد في الطلب والبحث في زوايا المساجد لعلهم يعثرون على ما يتمم لهم نسخة صحيحة فهم كذلك اذ بلغهم ان في مسجد القرويين بمدينة فاس نسخة من الكتاب كاملة فحملني الحرص على الوصول الى تلك النسخة على ان رفعت عريضة رجاء الى مولانا السلطان المعظم مولاي عبد العزيز ليأمر بارسال النسخة اما جملة واما جزأ جزأ وعلينا بعد طبع الكتاب ان نرسل منه عشر نسخ الى

جامع القرويين

بعد ان ارسلت العريضة حضر عندي من تفضل عليّ بذكر صفاتكم الجميلة وسجاياكم الفاضلة وأكد لي ان حضرتكم تكون عونا لي على ما اطلب لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم اليكم راجيا من همتكم ان تساعدوني في الوصول الى تلك النسخة أو غيرها من نسخ المدونة ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة اما لجامع القرويين أولمن يتفضل بارسال نسخة الينا مع الشكر الخالص والدعاء الدائم ان شاء الله

٢٢

وكتب من مصر الى الفيلسوف تولستوي الرومي عندما حرم من الكنيسة الروسية

أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك الله الى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ووقفك على الغاية التي هدي البشر اليها فأدركت ان الانسان جاء الى هذا الوجود لينبت بالعلم و يثمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه وسعيا يبقى به ويرقى جنسه وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة و بما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها الا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ماهداك الله اليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء والفقراء وان أرفع مجد بلغته واكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والارشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد فليس ماحصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله

على ان فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم

هذا وان نفوسنا الشيقة الى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وانا نسأل الله ان يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس الى التأسي بك في عملك والسلام

٢٣

وكتب الى محمد بك صالح رئيس محكمة الزقازيق (الآن) لما رقي الى قاض من الدرجة الثالثة

ولدي النجيب

انت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك وليس عندي من عبارة تفي بما تعلم من ذلك وهذا ان شاء الله أول سلم ترقى به الى غاية ما يسري اليه استعدادك والسلام سنة ١٨٩٣

٢٤

وكتب من مصر الى بعض الاصدقاء الفضلاء

تناولت كتابك ولم يذكرني ناسياً ولم ينبه لذكرك لاهيا فأني من يوم عرفتك لم يغب عني مثالك ولا تزال تتمثل لي خلالك

ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لفتنت بها ولحق لك ان تتيه بها على الناس أجمعين ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها لتزينها بالتواضع وتجملها بالوداعة ولتسمى الى ما لم يبلغه ساع فتكون قدوة لاخوانك في علو الهمة وبذل ما يعز على النفس في نفع الأمة زادك الله من نعمه وأوسع لك من فضله وكرمه ومتعني بصدق ولائك وجعلك لي عونا على الحق الذي أدعو اليه ولا أحيا الا به وله والسلام

٢٥

وكتب اخيرا من مصر الى بعض علماء سوريا الاعلام جوابا

مولانا الاستاذ العلامة نفعنا الله بمحبته

وصل اليّ كتابك تسطع فيه آدابك ويفيض منه العقل ويضيء منه

الاخلاص والصدق وما أعظم فضل الله علي في توجه عنايتك الى تعين اظهار الحق بعد خفائه وهدم الباطل بعد شموخ بنائه ولقد أوسع مولانا في التفضل على العاجز عن شكره المقيم على نشر فضله وإعلاء ذكره وأسأل الله ان يتكفل بإثابة مولانا الاستاذ على ما يغمرنا به من نعمة الخطور بباله وجريان ذكرنا فيما يخط قلمه أو ينطق لسانه

٢٦

وكتب منها الى عالم آخر منهم

حضرة الاستاذ

كان القدر يريد ان يكون مابيني و بينك سرا مكتوما ومضمرا يأبى أن يكون مرقوما فقد حاولت مئين من المرات ان أكتب اليك وكانت تأتي العوائق تحول دون ذلك كانني كنت أحاول فتح قلعة أو محو بدعة وهاأنا اليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لا أقوم من مجلسي هذا حتى أكتب اليك أشكر لك صنيعك على ما تدخله علي من السرور بايفاد كتبك علي بما تكتب الي من وقت الى آخر واعتذر اليك في الابطاء عن الجواب بما تعلم من كثرة الشواغل وأرجوك ان لا تحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به وان لا تجعل لفضلك في ذلك نهاية والسلام

٢٧

وكتب منها الى الاستاذ السيد عبد الحميد الزهراوي بحمص جوابا

ولدنا الفاضل

تمنيت لو تمتعت بقربك كما قدر لي المتاع بأدبك ولكن أحمد الله الذي يرينا مانختار في غير مايقع عليه الاختيار فأنت حيث انت أنفع ماتكون لقومك تجعل لهم حظا من عمل يومك تزحزح عن أبصارهم حجب الغفلة وتعظهم بما أوتيت من الحكمة وتهيء نفوسهم لقبول الحق اذا أقبل وتعدها لمدافعة الباطل اذا أظل واسأل الله ان يشد ازرك ويخفف من ذلك وزرك ويرفع بعملك قدرك واما صلتنا بك فصلة آمال وأعمال وهي خير صلة وأوثقها عند الرجال بارك الله لك في أيامك

ورزقك الخير والسعادة في أعوامك والسلام

٢٨

وكتب من مصر الى فرح أفندى أنطون صاحب مجلة الجامعة جوابا عن كتاب منه يقول فيه انه احتقره

لواحتقرتك ماكتبت اليك كلمة وانك سيء الظن بنفسك اكثر مما يسيئه بك غيرك وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم ولكن اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا فذلك اللهم أنفس ماتعطي وأفضل ماتهب والسلام

١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣

٢٩

وكتب الى الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبدالرازق مايأتي ومنه يعلم سببه

ولدنا الاديب

خير الكلام ماوافق حالا وحوى من النفس مثالا تلك أبياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعا في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة وما بقي كأنه الشهب نور للاحباء رجوم للاشقياء مامررت بشيء سروري بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك فلله أنت ولله أبوك ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء مايملأ عليك الفضاء ولكنى اكتفى بالاخلاص فى الدعاء ان يمتعنى الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك وأن يخلص للحق سرك ويقدرك على الهداية اليه وينشط بنفسك لجمع قومك عليه والسلام

٣٠

وكتب من مصر الى محمد بك نجيب بكار جوابا

ولدنا الفاضل

أشكرك لما كتبت اليّ أولا ولما كتبت وأهديت ثانيا وأحمد الله على نعمته الجديدة في معرفتك وفضله لعظيم في إخلاص مودتك وأسأله ان يجعل ذلك كله في سبيله وان يجعل ثمرته خيرا للاسلام والمسلمين والسلام

نموذج من كتبه لواضعي الكتب النافعة ومترجيها

١

كتب الى من ألف كتابا نافعا لا اتذكر من هو ولا ماهو كتابه

حضرة الفاضل المحترم

ابطأت في اجابتك وقصرت في الاسراع بشكرك لما أتحفت به أهل لغتك من ذلك الكتاب الذي تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة لم تفتك فيه فضيلة الابداع ولم تحرم من حسن الاتباع اقتفيت أثر سلفك من تجويد الرأي واحترام مقام العقل فلم يهبط بك التقليد الى مايحط بالعمل ويسقط من قيمة الكد في الجد ثم ابدعت في ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم وأدنى الى التقريب من حقيقة العلم وكأني بك وقد وقفت على ذلك السر الذي خفي عن الجمهور الاعظم ممن سبقك وهو ان القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير ومهد لهم سبلا جديدة لصوغ الاساليب ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه ويبعد بك منهم عن تكلف كانوا رثموه ولهذا قوي عندك كل ما بني عليه وضعف لديك كل مالم يستند اليه جزاك الله عن نفسك خيرما يجزى به عامل عن عمله وجزاك عن أهل لغتك خير مايجزى به محسن عن احسانه والسلام

٢

وكتب الى سليمان أفندي البستاني مؤلف دائرة المعارف ومترجم الالياذة كتابا قرىء في الحفلة التى اقامها له فضلاء السوريين في القاهرة

عزيزي الفاضل سليمان افندي البستاني

دعاني أصدقاؤك وأصدقائي الى الانس بك ساعة نهنئك بالنجاح في ذلك العمل الادبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين دعوني الى الاشتراك معهم في شكرك لما دأبت في السعي وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء في اختبار مسالك النظم لتهدي الى ابناء لغتك العربية من احاسن الصناعة الادبية ما يعد زينة للناظرين

وكنت أكون أسرع الناس الى اجابة الدعوة لولا مانع ذنبه اليّ ذنب العاذل الى عاشق الحسان منعني الانس بهم وبك ولكنه لم يمنعني ان أشاركهم في شكرك

تمت لك ترجمة الالياذة لنابغة شعراء اليونان هميروس المشهور نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة فاذا هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية فسبت خرائدها وغنمت فرائدها وعادت الينا في حلل من آدابها تحمل الى الالباب قوتاً من لبابها وما أجمل ذلك الغلب في زمن ضعف فيه العرب حتى عن الرغب في نيل الادب ماينال منه عن كثب فضلا عما يكسب بالتعب فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ماوفقت لا كماله من العمل فقد سددت به ثلمة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون أغار قومنا على دفائن الفنون اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده فنثروا منها ما كان مخزوناً ونشروا بين الناس ما كان مدفوناً ولم يدعوا غامضاً الاجلوه ولا بعيدا الا قربوه ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك ما لم يكن في حسبانها فقد صارت لسان العلم والصنعة كما كانت لسان الدين والحكمة

لكن كان أولئك الاساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك ما يفرضه الحق عليهم في جانب العلم الذي لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ولا يتخالف على حقائقه الاعجم والمعرب وظنوا أن ماوراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم لبعد ما بين انساب أولئك وانسابهم فلم يعدوا نظرهم الى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء وما صاغته قرائح البلغاء فلم تنل اليونانية من عنايتهم مانالت الفارسية والهندية وكان مؤمل اللغة منهم أن لايحرموها نفائس ما اخترع اليونانيون كما زينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر حتى أتيت ترفع عنه الستر وجئت تقول للناس انني أتمم في دولة عباس مانقص في ملك بني العباس فما أقرعين العربية بنيل طلبتها وظهور ما كان منتظراً لشيعتها أرجو أن ينال كتابك من الاقبال عليه والانتفاع به مايكافىء تعبك ويبعث هم العاملين على ان تتبعك والسلام

٣

لما ترجم حافظ أفندي ابراهيم الجزء الاول من كتاب (البؤساء) بالعربية اهداه اليه بهذا الكتاب

الى الاستاذ الامام

انك موئل البائس ، ومرجع اليائس، وهذا الكتاب- أيدك الله- قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين-وضعه-صاحبه تذكرة لولاة الامور وسماه كتاب (البؤساء) وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة «الرحمة فوق العدل»

وقد عنيت بنعر بيه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه الى مقامك الاسنى ، ورأيك الاعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث — أولها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك — وثانيها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف مهر الكلام ومقدار كد الافهام — وثالثها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي الى فتاه بقبوله والله المسؤول أن يحفظه للدنيا والدين ،وأن يساعدني على اتمام تعريبه للقارئين .. اه

فأجابه الاستاذ الامام بهذا التقريظ وهو :

لو كان بي ان أشكرك لظن بالغت في تحسينه ، أو أحمدك لرأي لك فيما ابدعت في تزيينه، لكان لقلمي مطمع ان يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجري في الشكر الى الغاية مما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من ابناء لغتنا

زففت الى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملكت فيهم بولها ، ولا تزال تنبه منهم خامدا ، وتهز فيهم جامدا ، بل لاتنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيه الاسوة ، حكمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى الى التقاطها رجلا منا فجردها

من ثوبها الغريب، وكساها حلة من نسج الاديب، وجلاها للناظر، وحلاها للطالب، بعدما أصلح من خلقها، وزان من معارفها، حتى ظهرت محببة الى القلوب، شيقة الى مؤانسة البصائر، تهش للفهم، وتبش للطف الذوق، وتسابق الفكر الى مواطن العلم، فلا يكاد يلحظها الوهم، الا وهي من النفس في مكان الالهام.

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك، فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق، ووصل منهم فريق الى ما يحب من مقصده، ولكنه لم يعن بأن يعيد الى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ويرد اليها ما سلبه المعتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه. أما أنت فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده، ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت الى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الارواح فظهرت لك اليوم في صورة أبدع، ومعنى أنفع، ولعلك قد سننت بطريقتك في التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك، ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه، فتكون قد أحسنت الى الابناء، كما أجملت في الصنع مع الآباء، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمة سوى ما هو في الاسماء — أسماء الاماكن والاشخاص، لا أسماء المعاني والاجناس. ومثلي من يعرف قدر الاحسان اذا عم، ويعلي مكان المعروف اذا شمل، ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي:

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بارضي سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك وما أحقك بأن ترضى من الوفاء بالثناء

تقول أن الذي وصل سببك بسر صاحب الكتاب ووقف بك على دقائق من معانيه اشتراكك معه في البؤس، ونزولك منزلته من سوء الحال، وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة، فإن كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة، ثم كان سبباً في امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة، سألت الله ان يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ وان يجعلك في بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم والسلام

نموذج من كتبه في التعازي

١

كتب وهو في سوريا الى أحد أصدقائه الكبراء معزيا

ان كان للحادثات غالب من الهمة ودافع من العزيمة ففي همتكم مايعرك أذن الدهر ويضرب ناصية الزمان وانما أنتم بمكان من منعة النفس تمر الملمات دون أدناه تتهيب النظر اليه فضلا عن الوثبة عليه فلا يفزعكم جائشها ولا يستفزكم طائشها هذا الذي يعزيني بعض التعزية اذا طاف عليَّ طائف الكدر مما ألمَّ بكم من فقد صاحبة العصمة عقيلتكم . على ان يقينكم بالله وتسليمكم لقدره هو أعلى وأكمل من أن يخالطه جزع من الفراق وإن كان مرّ المذاق فان من سار عنكم أقبل على رحمة من الله ورضوان فهو في جوار ربه متمتع بلذة قربه وانه لفخرا بين السابقين ورفعة بين المقربين بما أسستم من مجد شامخ وشرف باذخ فضاعف له النعمة في حياته الأبدية جنة بالصالحات وبهجة بالباقيات ولقد اختار واختار الله له دارا لو خير بين ساعة فيها والتخليد في هذه الدار الفانية لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير نعم يأسف لما أسفتم ويألم بما ألمتم فعزوا أنفسكم تسروه وطيبوا بالقضاء نفسا تفرحوه واذكروا منزلته في الصديقين تغبطوه

هذا ماأقدمه اليكم وهو نزر مما تطوى به معارفكم غير أنه مما أناجي به نفسي تصبرا واحدثها به تجلدا والله أعلم بماشعر به وجداني عند ما بلغ اليَّ الخبر ولقد كان من الفرض أن أبادر بعرض إحساسي قبل هذا الوقت الا أن عقابيل العلة كانت تمنعني النظر في الاخبار حتى انقشع عني سحابها من مدة قريبة وما أنا بالناسي وان أنست الحوادث ذكري وما أنا بالقاطع وان زينت الأيام هجري فصبر جميل وما العفو عن تقصيري عليكم بعزيز ومأمولي عرض تحياتي على مقام دولة الباشا والله يحفظكم للمحبة ويبقيكم للشرف

٢

وكتب منها معزيا عن الأمير عبد القادر الجزائري

اعلام السيادة وأصحاب السعادة حضرة سعادتلو الامير محمد باشا وحضرة

سعادتلو الامير محيي الدين باشا

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون «الا الى الله تصير الأمور» «انما الصبر عند الصدمة الأولى» اليوم غشيتني غاشية الغم ودهمتني داهية الهم اليوم بلغنا ما أصابنا وأصاب المسلمين ولم يخص الاقربين حتى عم جميع الموحدين ولم يمس ذوي الارحام حتى زعزع مجد الأسلام اليوم شاع على الالسن وتحدث الكافة ان جناب الامير الشهير صرف نظره العالي عن مظاهر الحياة الدنيا واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء الى ما أعدله من منازل الكرامة في دار البقاء قد اختار لنفسه ما اختاره الله له من الاختصاص بجواره الكريم والاتصال بنور وجهه العظيم نظر الله الينا بعين الجبروت ليصعد بجناب الامير الى أعلا الملكوت سار الامير الى ربه وترك المؤمنين بلا قيم عليهم ولا وصي يعيد مجدهم اليهم ولولا اليقين بأنكم اشباله ولم تفتكم مزاياه وخلاله لما تعزت الأنفس في البقاء بعده ولحقنا به اختيارا لما عنده كل قول يقال فهو دون محيط الفكر والنظر ومقام الامير اجل من أن تصل الى سرادقاته أشعة البصائر والفكر وليس من كلمة أجمع لكمالاته ولا قول أوفى بفضائله سوى انه الأمير عبد القادر الجزائري فهي منتهى وصف الواصفين وغاية مدح المادحين وكفى في مصيبة أهل الايمان ان يقال أصبحوا بلا أمير وحسبهم تعزية عن مصابهم انكم بنوه وورثة فضله ومعززوه

٣

وكتب منها الى بعض أصدقائه الكرام معزيا عن كريمته

بسم الله المحمود في السراء والضراء

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون «كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون» لاحيلة في القضا ولا انجع في تلطيفه من الرضا وان في قوة ايمانك وسطوع يقينك وكمال عقلك لكفاية في الأنابة الى الله تعالى والرغبة فيما لديه من عظيم الأجر وجزيل الثواب والاطمئنان لاحكامه بقلب شاكر ولسان ذاكر وإن مصيبة الفقد وإن جل خطبها وعظم على النفس خطرها الا ان الله تعالى

اعد عنده للصابرين اكرم المنازل وارقى مراتب القرب لديه وكفى بالصبر فضلاً أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون يقول الله تعالى « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » والموت سبيل تزاحم عليه السابقون واللاحقون ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون

وما الدهر والأيام الا كما ترى رزية حر أو فراق حبيب

ولقد كان حضرتكم في غنى عن تعزية الأحباء وتسلية الأصدقاء بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الايام وثبات يهزم غوائل الزمان وكان يمنعنا الحياء ان نذكر سيادتكم بما أنتم به أعلم وان نقدم اليكم ماهو لديكم أعلى وارفع لكن هذه كلمات نسلي بها خواطرنا على ما ألم بها من الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم وابتلى به ايماننا وايمانكم « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ونسأل الله تعالى ان يجعل لكم من مثوبته عوضا على ما أخذ منكم وان يفرغ عليكم الصبر وان يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة وان يرفع مقامها في أعلى عليين وأن يطيل بقاكم ويديم عزكم ومجدكم وعليكم مني مزيد السلام والى جنابكم الرفيع فائق الاحترام

٤

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي معزيا عن أخيه الشيخ خليل

جناب الشيخ الاروع والبليغ الابرع ايده الله

لو كانت بالدهر ثقة لكانت لابنائه ولو حفظ لهجوار لصح لحلفائه ممن درجوا على سننه واخذوا باحكام سننه وله فيهم كل يوم غدرة ولجيشه عليهم كل آن كرة فكيف يرجى لمن نابذته طباعهم وخالفت اوضاعه اوضاعهم فهو يتقلب وارواحهم في الفضل ثابتة ويتغشمر ونفوسهم الحق مخبتة فالفضلاء - وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة والعرفاء - وأنت هامتهم - في مقارعات معه متفاقمة لكنهم يرون له انكى من نكاياته التدرع بالصبر في ملاقاته وردوثباته بسكون الجنان وثباته ولست اذكر الشيخ بمثل ماقال ارسطو « ماشد ظلم الناس يستقبلون القادم الى

الدنيا بالفرح والسرور ويتبعون الراحل عنها بدعاء الويل والثبور ولو انصفوا في أمرهم لعكسوا في حكمهم » وان مصيبة الراحل عنا عظيمة ورزيئة اليأس من لقائه جسيمة وحرماننا من آدابه يذهب بالنفس حسرات وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات ولكن مشئم العناء وداره وكره الباطل وجواره فاستقبل وجه البقاء وخلص الى ماليه التجاء فما الحيلة !! التصبر اجمل من التحسر والجلد اجدر بنا من الكمد واني وان وجهت الخطاب اليك لم اقصر الوصية عليك فلي نفس تشارك نفسك وحس يشاطر حسك وهذا حديث نفسي اليه وما يخالج صدري ابثه وان العناية بالراحل عنا في تربية ولده خير لديه واوفى بحقه من مطاوعة الاسف لفقده وأنتم موضع الرجاء لخلفه كما كنتم منتهى المجد لسلفه وأسأل الله لكم حسن العزاء وصرف البأساء واقبال النعماء

٥

وكتب منها أيضاً جواباً عن تعزية

لم يلاقنا الدهر الا بما ألفناه وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه وقد جبل الله هذه الحياة من الشوب وأقام حوباءها من الحوب فلا تخلص لها منفعة من مضرة ولا تخلو لها مبرة من معرة سيطت فيها الحسنات بالسيئات ومزجت الطيبات بالخبيثات واني والزمان عركني وعركته وضرسني وضرسته فلئن ضعفت عن كسر شوكته فلا والله مافلني بقوته ولئن صدعني فما صدعني وماذا يصنع بمن ينزل اوزاءه حيث ينزل الناس نعماءه لا يلاقي الرضاء لدي الا ما يرضيه ولا ينال الجزع مني الا ما يرديه أعطيت من اليقين مذبة أطرد بها ذباب الهموم ومن العزيمة جنة لا تخترقها الغمم هذا اذا لم أجد من المصيبة خلفاً ولم أملك لها من العوض طرفاً فكيف وقد وفر الله علي النعمة في بنوتك وأجزل لي الخلف في اخوتك وأسأل الله أن يطمس عين السوء ان تصل اليك

(يقول جامع الكتاب) ان للاستاذ الامام في عهده الأخير تعازي ابلغ من هذه وأحسن بياناً وأعلى منها عظة وعرفاناً ولكننا لم نظفر بشيء منها ورأينا أن لا يخلو الكتاب من شيء من هذا النوع من المنشآت فاكتفينا بما وجدنا

شذرات من كتبه الى جامع الكتاب

ان لديّ من شيخنا الاستاذ الإمام كتباً كثيرة لكن أكثرها في الشؤون الخاصة كما يكون عادة في كتب الوالد الى ولده ولأمين سره ولكن قلما كان يكتب شيئاً يخلو من الحكم العامة أو الطرف الادبية واني أختم هذا الجزء بشذرات من كتبه إلي

١

من ذلك قوله في كتاب أرسله الي من أوربا اذ كان عائدا من الاستانة بعد ذكر شيء عن الاستانة منه انه صادف أحد تلاميذه السوريين هناك يطلب عملا ولا يجده وانه أوصى به أحد انجال عزة بك العابد « لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو يصيب خيرا في الاستانة وعلى كل ذي دين ان يفر منها بدينه وبقية نفسه . تعلمت في الاستانة مالم يكن يعلم الا بالمشاهدة وستسمع منه ما يمكن التعبير عنه عند القاء ان شاء الله تعالى »

٢

وكتب في رقيم أرسله الي من رمل الاسكندرية في شأن إرجائه الرد على مجلة الجامعة « أخذت القلم الآن لأكتب واذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لا فائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي افرغ فيه لما أريد وهو يفر مني فرار الخبر من أيدي المسلمين »

٣

وكتب في رقيم أرسله الي من السنبلاوين ايام كان متنقلا يوزع الاعانات على المصابين بالحريق وكان وعدني بأن يتم مقالات الاسلام والنصرانية في تنقله « الى الآن لم أكتب شيئاً في الموضوع لاني في شغل شاغل من هؤلاء المرزوئين في عقولهم أولا وفي بيوتهم ثانيا »

٤

وكتب في رقيم من رأس البر « كنت انتظر ان يصل إليّ المنار هنا ليكون مما ألقي عليه نظري إذا أرجعته عن أمواج البحر الابيض ولم اطلقه الى بساط النيل

الاحمر فأنا جالس طول يومي بين البحرين »

٥

وكتب في رقيم آخر من رأس البر : « رأس البر لاعقل فيه ولاعمل وذلك لايمنع من ارسال ملازم التفسير فكلام الله يرد الفار من العقول ويعمر الخرب منها »

كلمة له رضي الله عنه في المنار

وكتب الي جوابا عن كتاب أرسلته اليه وكان في المنصورة جاء فيه كلمة تشعر بالشكوى من قلة الاقبال على المنار : « الناس في عماية عن النافع وفي انكباب على الضار فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا والفقراء لايستطيعون الى البدل سبيلا ولكن ذلك لايضعف الامل في نجاح العمل »

خاتمة للكتاب في بعض حكمه المنثورة

«١» العلم ما يعرفك من انت ممن معك «٢» العدل للاسعاد كالله للايجاد «٣» العفة ثوب تمزقه الفاقة «٤» أشد أعوانك الحاجة اليك «٥» انما تتم نكاية الاعداء بخيانة الاصدقاء «٦» هلاك العامة فيما ألفت «٧» جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس «٨» انما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه «٩» الرجوع عن الحق بعد العلم به محال «١٠» من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما «١١» لا يكون أحد صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا «١٢» الشاب يحمل ماحُمّل «١٣» ما وعظك مثل لائم ، ولا قومك مثل مقاوم «١٤» مادخلت السياسة في شيء الا أفسدته «١٥» الذل عبث الارادة «١٦» من لاصديق له فهو عدو نفسه وعدو الناس «١٧» حسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه

هذا وان له رضي الله عنه حكما اخرى كما أن له رسائل ومنشآت كثيرة منها ما جعلناه في سيرته وهي الجزء الاول من هذا الكتاب واذا اجتمع عندنا شيء كثير منها بعد فاننا نودعه في جزء رابع نجعله ذيلا لهذا التاريخ . ونسأل الله تعالى ان ينفع بهذه الآثار ويتغمد صاحبها بالرحمة والرضوان

(تم الجزء)

